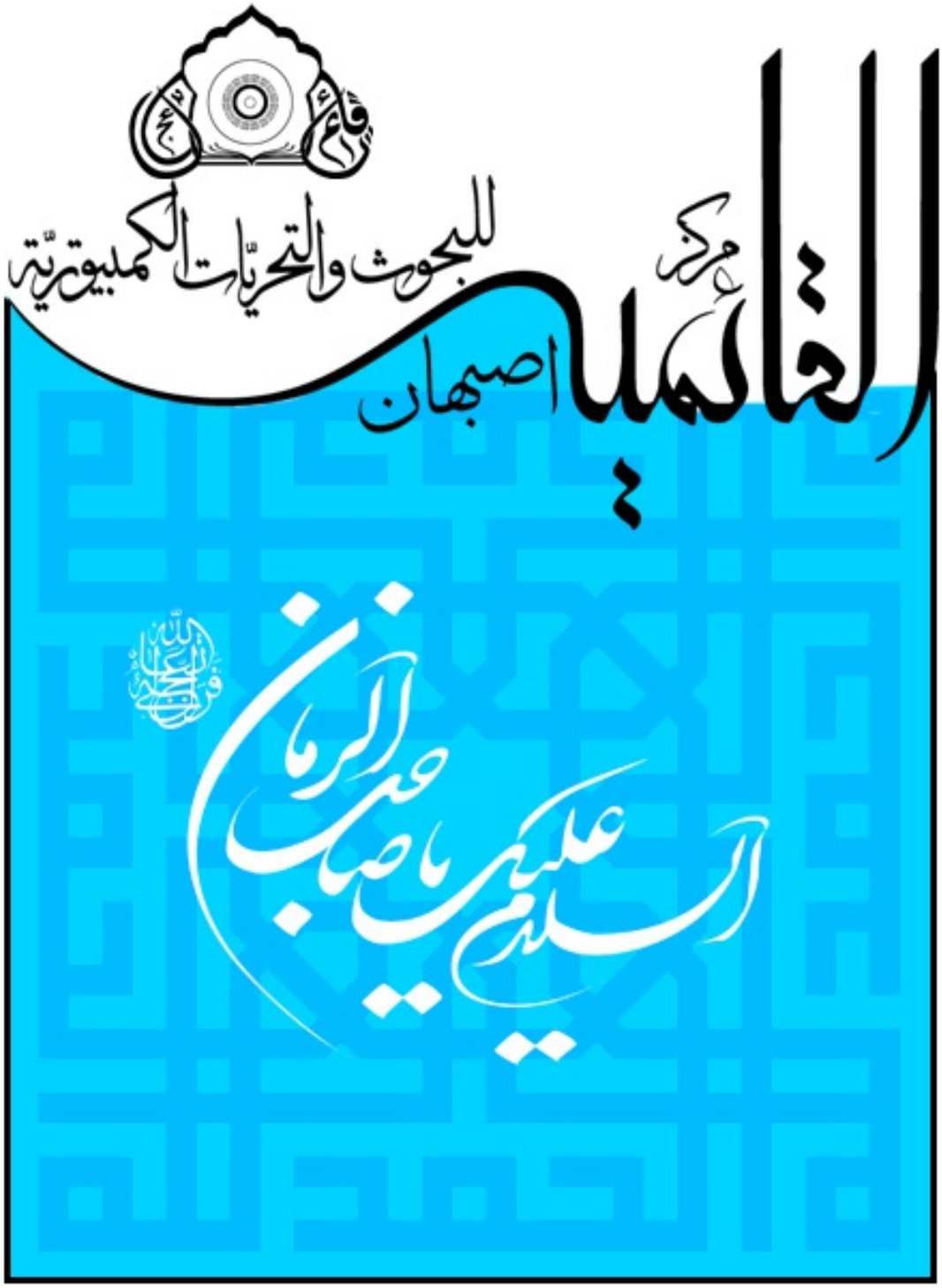

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

٢

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد على

نشرت فى الطباعة:

مكتبه النورى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
خطط الشام المجلد ۲ ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
الدولة النوریة «من سنة ۵۲۲ الی سنة ۵۶۹» ----- ۱۱
فتنة الإسماعیلیة و وقعة دمشق: ----- ۱۱
دخول آل زنکی الشام: ----- ۱۲
استنجاد بعض الصلیبیین بالمسلمین و استقرار حال دمشق: ----- ۱۳
خیانة صاحب دمشق و قتل أمه له: ----- ۱۴
توحید الحکم علی ید زنکی و قضاؤه علی إمارة صلیبیة: ----- ۱۵
الحال بعد نصف قرن من نزول الصلیبیین: ----- ۱۷
صفات عماد الدین زنکی و تولی ابنه نور الدین: ----- ۱۸
الحملة الصلیبیة الثانیة و غزوتها دمشق: ----- ۲۰
تقدم نور الدین فی فتوحه: ----- ۲۲
انحلال دولة مجیر الدین و توفیق نور الدین: ----- ۲۳
مقاصد نور الدین و فتحه دمشق: ----- ۲۴
الداعی لنور الدین علی فتح دمشق ----- ۲۶
مرض نور الدین و إبلاله و تتمة فتوحه و هزیمته فی البقیعة: ----- ۲۸
حملة نور الدین علی مصر: ----- ۲۹
بعض غزوات نور الدین: ----- ۳۰
قیام بنی شهاب من حوران و حربهم الصلیبیین: ----- ۳۱
الفتور بین نور الدین و صلاح الدین: ----- ۳۲
وفاة نور الدین و صفاته الطیبة: ----- ۳۳
الدولة الصلاحیة «من سنة ۵۶۹ الی سنة ۵۸۹» ----- ۳۴

أولیة صلاح الدین و الملک الصالح: ۳۵
اختلاف الآراء و استیلاء صلاح الدین علی الشام: ۳۶
تملک صلاح الدین و محاولة اغتیاله و سر نجاحه: ۳۷
فتوح صلاح الدین و وفاة الملک الصالح: ۳۸
وقعة حطین و فتح فلسطین: ۴۱
فتح القدس و الرملة: ۴۲
بقیة الفتوح الصلاحیة: ۴۴
الحملة الصلیبیة الثالثة: ۴۵
مزایا صلاح الدین و وفاته: ۴۶
الدولة الایوبیة «من سنة ۵۸۹ الی سنة ۶۳۷» ۴۹
أبناء صلاح الدین و اختلافهم و دهاء عمهم العادل: ۴۹
استئثار العادل بالملک الصلاحی: ۵۰
الأحداث فی عهد العادل و اهتمامه بحرب الصلیبیین: ۵۲
الحملة الصلیبیة الخامسة: ۵۴
وفاة العادل: ۵۵
فتح الصلیبیین دمیاط و ذلتهم بعد العزة: ۵۷
اختلاف بین أبناء العادل و تقدم الکامل علیهم: ۵۷
الحملة الصلیبیة السادسة: ۵۹
اختلافات جدیدة بین آل العادل: ۶۰
وفاة الملک الکامل و حال الشام بعده: ۶۲
انقراض الایوبیین «و ظهور دولة الممالیک البحریة و ظهور التتر»- من سنة ۶۳۷ الی سنة ۶۹۰- ۶۳
اشارة ۶۳
اختلاف بنی أیوب و اعتضاد بعضهم الفرنج و عودة الخوارزمیة: ۶۴
وفاة الملک الصالح و مبدأ دولة الممالیک: ۶۶

هولاکو التتری ----- ۶۸
مقتل المظفر قطز و سلطنة الظاهر بیبرس و أحداث: ----- ۷۱
حروب الظاهر و فتوحه: ----- ۷۲
وفاة الملک الظاهر و سلطنة ابنه الملک السعید ثم سلطنة المنصور قلاوون: ----- ۷۴
وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خلیل و إثخانه فی فرنج الساحل: ----- ۷۷
الحملة الصلیبیة السابعة و انتهاء الحروب الصلیبیة: ----- ۷۹
دولة الممالیک «من سنة ۶۹۰ الی ۷۹۰» ----- ۸۲
فتوح أرمینیة و عصیان الموارنة بعوامل صلیبیة: ----- ۸۲
وقائع التتر: ----- ۸۴
غزوة الأرمن و الکسروانیین و تزعزع السلطنة: ----- ۸۷
الغزوات فی الشمال و ظهور دعوة جدیدة: ----- ۸۹
سیاسة الممالیک مع أکبر عمالهم و وفاة الناصر و تولی المنصور: ----- ۹۰
خلع الملک المنصور و مقتل غیر واحد من إخوته الذین خلفوه: ----- ۹۱
أحداث و کوائن و عصیان و مخامرات: ----- ۹۲
مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده: ----- ۹۴
سلطنة برقوق و حالة الممالیک البحریة و الشراکسة: ----- ۹۵
وقائع تیمور لنک «من سنة ۷۹۰ الی ۸۰۳» ----- ۹۶
[بداءة تیمور لنک و مناوشة جیشه:] ----- ۹۶
القتال علی الملک ----- ۹۷
عوامل الخراب قیس و یمن: ----- ۹۷
الخوارج علی ملوک مصر: ----- ۹۹
وفاة برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج علی الملک: ----- ۱۰۰
الحرب الأولی مع تیمور لنک: ----- ۱۰۱
تیمور لنک علی أبواب حلب: ----- ۱۰۲

تیمور لنک علی حماة و سلمیة و حمص: ۱۰۳
تیمور لنک علی دمشق: ۱۰۳
وصف أفعال تیمور لنک فی دمشق: ۱۰۴
الخراب الأعظم و أخلاق تیمور و نجاة فلسطین منه: ۱۰۶
عهد المماليک الاخیر «من سنة ۸۰۳ الی ۹۲۲» ۱۰۸
البلاد بعد الفتنة التیموریة و مخامرة العمال: ۱۰۸
وقائع التركمان مع الناشزین علی السلطان: ۱۰۹
الملک السكیر و قتله: ۱۱۲
الخلیفة السلطان و سلطنة شیخ: ۱۱۳
هلاک المؤید شیخ و سلطنة ابنه فی القماط: ۱۱۳
وفاة ططر و سلطنة ابنه ثم تولی الأشرف برسبای: ۱۱۴
الملک العزیز یوسف و الملک الظاهر جقمق: ۱۱۵
المنصور و الأشرف و المؤید و الظاهر خشقدم و الظاهر بلبای و الأشرف قایتبای: ۱۱۵
مصائب القطر الطبیعیة ثم السیاسیة: ۱۱۶
وقعة مشؤومة و أحداث: ۱۱۸
أول مناوشة مع الأتراک العثمانیین: ۱۱۸
وفاة الأشرف قایتبای و تولی ابنه ناصر الدین محمد: ۱۲۰
الملوک المتأخرون و آخرهم الغوری: ۱۲۰
سلطنة طومان بای: ۱۲۱
القضاء علی مملكة ذی القدریة و طبیعة دولتی المماليک البحریة و البرجیة: ۱۲۲
الدولة العثمانیة «من سنة ۹۲۲ ه إلی ۱۰۰۰ ه» ۱۲۳
حالة الشام قبیل الفتح العثمانی: ۱۲۳
مقاتل الغوری و مقدمات الفتح: ۱۲۴
صلات العثمانیین مع المماليک و وقعة مرج دابق: ۱۲۵

قوة الغالب و المغلوب: ۱۲۶
دخول السلطان سليم حلب و دمشق: ۱۲۷
مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجديد و تغير الأحكام: ۱۲۸
السلطان فی دمشق و فی الطریق لفتح مصر: ۱۲۸
فتوق و غارات و تأذی السکان: ۱۳۰
محاسن السلطان سلیم و مساویه و مهلکه: ۱۳۱
خارجی خان أولا و ثانیا: ۱۳۲
طبیعة الدولة العثمانیة: ۱۳۴
کوائن داخلیة و أمراء المقاطعات: ۱۳۵
مهلک السلطان سلیمان و تولی سلیم السکّیر: ۱۳۶
عهد السلطان مراد الثالث و حملات علی أرباب الدعارة: ۱۳۷
بنو عساف و بنو سیفا و ابن فریخ و خراب البلاد: ۱۳۷
حالة البلاد فی الحکم العثمانی: ۱۳۸
العهد العثمانی «من سنة ۱۰۰۰ الی ۱۱۰۰» ۱۴۰
عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن: ۱۴۰
عهد أحمد الأول و فتنة ابن جانبولاذ و غیرها: ۱۴۱
الأمیر فخر الدین المعنی و آل شهاب و فتن: ۱۴۴
عهد مصطفی الأول و عثمان الثانی: ۱۴۵
عداء علی الفرنج و فتن داخلیة: ۱۴۶
حملات علی الأمیر فخر الدین المعنی و غیره: ۱۴۷
القضاء علی الأمیر فخر الدین المعنی: ۱۴۸
فتن فی الساحل: ۱۵۰
إبراهیم الأول و سفاهته: ۱۵۰
فتنة وال أخرق فی حلب: ۱۵۲

محمد الرابع و صدارة كوبرلى: ----- ۱۵۳
عهد سليمان الثانى و الحكم على الخوارج: ----- ۱۵۶
العهد العثمانى «من سنة ۱۱۰۰ الى ۱۲۰۰» ----- ۱۵۷
حال الشام أول القرن الثانى عشر: ----- ۱۵۷
دور أحمد الثانى و فتن: ----- ۱۵۹
دور مصطفى الثانى و انقراض دولة بنى معن: ----- ۱۶۰
*** عهد أحمد الثالث و سياسة الدولة مع من ينكر الظلم و وقعة عين دارة: ----- ۱۶۱
فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم: ----- ۱۶۲
عهد محمود الأول: ----- ۱۶۲
فتن و مشاغب: ----- ۱۶۴
عهد عثمان الثالث و مصطفى الثالث و بعض الأحداث فى أيامهما: ----- ۱۶۷
سيرة ظاهر العمر الزيدانى و سياسته: ----- ۱۶۸
حملة أبى الذهب على الشام: ----- ۱۷۰
عهد عبد الحميد الأول و تتمة أخبار أبى الذهب: ----- ۱۷۲
خاتمة ظاهر العمر و ولاة حلب: ----- ۱۷۳
أولية الجزار: ----- ۱۷۵
الحكم على القرن الثانى عشر: ----- ۱۷۷
فهرست الجزء الثانى من خطط الشام ----- ۱۷۸
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۸۲

خطط الشام المجلد ۲

اشارة

نام كتاب: خطط الشام

نويسنده: كرد على، محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۳۷۲ ه. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۶

ناشر: مكتبه النورى

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۰۳ ه. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تأليف: محمد سردعلى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۱۲ الناشر: مؤسسة النورى للطباعة والنشر والتوزيع

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۶۳۴ صفحة الطبعة: ۳ مجلدات: ۲

مدة التأمين: يتوفر عادة فى غضون أسبوعين

اللغة: عربى

الدولة النورية «من سنة ۵۲۲ الى سنة ۵۶۹»

فتنة الإسماعيلية و وقعة دمشق:

لم يكف الشام تفرق كلمة أمرائه و استصفاء الفرنج لسواحله فى الربع الأول من القرن السادس، حتى منى بعدو داخلى يقاتل أهله فى عقر دارهم و يستنجد بالفرنج على إرهاقه، و نعنى بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديما و يدعون فى هذا الدور بالباطنية أو الإسماعيلية. فقد انتشر مذهبهم فى كل بلد و كثر الدعاة إليه، و كانت دار الدعوة فى حلب و دمشق، موطن التنفيذ و العمل. فإن أبناء هذا المذهب و دوا لو يؤسسون دولة فى العراق أو الشام، و لكنهم أخفقوا غير مرة، و لما شعروا بضعف أمراء الشام و تشتتهم، و اشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين، أيفنوا أن الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام، و دعا بدمشق إلى مذهبه، فتبعه خلق كثير من العوام و سفهاء الجهال و الفلاحين، و واثقه الوزير المزدقانى فأظهر دعوته علنا، بعد أن كان يختفى و يطوف المعالم و المجاهل و لا يعلم به أحد، فعظمت به و بشيعته المصيبة. و سكت عن هؤلاء الباطنية العلماء و حملة الشريعة خوفا من بطشهم، و لما استفحل أمرهم فى حلب و دمشق اضطر صاحب دمشق طغتكين أن يسلمهم قلعة بانياس دفعا لشرهم، ليسلطهم على الفرنج و يقطع تسلطهم على المسلمين، فعدّ الناس ذلك من غلطاته.

عظم أمر بهرام بالشام و ملك عدة حصون بالجبال و قاتل أهل وادى التيم، و كان سكانه من النصيرية و الدروز و المجوس و غيرهم، و اسم أميرهم الضحاك بن جندل، ثم قتل بهرام و قام مقامه فى قلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل، و أقام الوزير

خطط الشام، ج۲، ص: ۴

المزدقانی عوض بهرام بدمشق رجلا اسمه أبو الوفا، و عظم أبو الوفا حتی صار الحکم له بدمشق، فکاتب الفرنج لیسلم إلیهم دمشق، و یعوضوه بصور، و جعلوا موعدهم یوم الجمعة لیجعل أصحابه علی باب الجامع، و علم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزیر المزدقانی و أمر الناس فثاروا بالإسماعیلیة فقتل بدمشق ستة آلاف إسماعیلی (۵۲۳) و قال سبط ابن الجوزی: و کان عدة من قتل من الإسماعیلیة عشرة آلاف علی ما قیل و لم یتعرضوا لحرمهم و لا لأموالهم، و وصل الفرنج فی فی المیعاد و حصروا دمشق فلم یظفروا بشیء، و اشتد الشتاء فرحلوا کالمنهزمین، و تبعهم صاحب دمشق بالعسکر فقتلوا عدة کثیرة منهم، و سلّم إسماعیل الباطنی قلعة بانیاس إلی الفرنج و صار معهم.

قال ابن الأثیر: و لما بلغ الفرنج قتل المزدقانی و الإسماعیلیة بدمشق عظم علیهم ذلک و تأسفوا علی دمشق إذ لم یتم لهم ملکها، فاجتمعوا کلهم صاحب القدس و صاحب أنطاکیة و صاحب طرابلس و غیرهم من الفرنج و قمامصتهم، و من وصل إلیهم من البحر للتجارة و الزیارة فی خلق عظیم نحو ألفی فارس، و أما الراجل فلا یحصی. و روی ابن القلانسی أنهم کانوا یزیدون علی ستین ألفا فارسا و راجلا، و ساروا إلی دمشق لیحصروها، و لما سمع تاج الملوک بذلک جمع العرب و الترکمان فاجتمع معهم ثمانیة آلاف فارس، و وصل الفرنج فنازلوا البلد و أرسلوا إلی أعمال دمشق لجمع المیرة و الغارة علی الکور، فلما سمع تاج الملوک أن جمعا کثیرا قد سار إلی حوران لنهبه و إحضار المیرة، کما نهب صاحب القدس (۵۲۱) وادی موسی و سبی أهله و شردهم، سیر إلیهم أمیرا من أمرائه یعرف بشمس الخواص فی جمع من المسلمین، فلقوا الفرنج فواقعوهم و اقتتلوا و صبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون و قتلوهم فلم یفلت منهم غیر مقدمهم و معه أربعون رجلا، و أخذوا ما معهم و عادوا إلی دمشق لم یمسسهم قرح، فلما علم من علیها من الفرنج ذلک داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه منهزمین، فتبعهم المسلمون یقتلون کل من تخلف منهم.

و لما استولی الفرنج علی قلعة بانیاس بنزول صاحبها الباطنی عنها و انضمامه إلیهم سقطت بأیدیهم أیضا قلعة القدموس و کانت للباطنیة. و بإحراز هاتین القلعتین قوی أمر الفرنج و إن عظمت خسائرهم المادیة، و عاد الناس فأمنوا و خرجوا بعد فشل

خطط الشام، ج۲، ص: ۵

الصلیبیین فی فتح دمشق و أیقنوا أن الفرنج لا یکاد یجتمع لهم بعد هذه الکائنة شمل لفناء أبطالهم و اجتیاح رجالهم و ذهاب أثقالهم.

دخول آل زنکی الشام:

کانت مملکة حلب للبرسقی و بها ولده مسعود فلما قتل البرسقی استخلف مسعود الأمیر قیماز بحلب و سار إلی الموصل ثم استخلف علی حلب قتلغ أبه السلطانی فأساء السیرة و مد یده إلی أموال الناس لا سیما التررکات، و تقرب إلیه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه. و کان سلیمان بن عبد الجبار ابن أرتق الذی کان صاحبها أولا مقیما بحلب، فاجتمع إلیه أحداثها و ملکوه المدینة و قتلغ فی القلعة، و سمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلین صاحب أنطاکیة فصافوه بمال، فرحل بعد أن خندق الحلبیون حول القلعة، فمنع الداخل و الخارج إلیها من ظاهر البلد، و أشرف الناس علی الخطر العظیم، و أرسل عماد الدین زنکی صاحب الموصل عسکرا مع القائد قراقوش إلی حلب، و معه توقیع السلطان محمود بالشام فأجاب أهل حلب إلیه، و تقدم عسکر زنکی إلی سلیمان و قتلغ بالمسیر إلی زنکی فأجابا، فلما وصلا الموصل أصلح زنکی بین سلیمان و قتلغ و لم یرد واحدا منهما إلی حلب، و سار زنکی إلی حلب و ملک فی طریقه منبج و بزاعه و تلقاه أهل حلب و دخل و رتب الأمور و ملکها و قلعتها (۵۲۲). قال ابن الأثیر: و لو لا أن اللّه تعالی قد منّ علی المسلمین بملک أتابک لبلاد الشام لملکها الفرنج لأنهم کانوا یحصرون بعض البلاد الشامیة.

ثم عزم عماد الدین زنکی علی الجهاد و أرسل صاحب دمشق یلتمس منه المعونة علی حرب الفرنج، و بادر إلی تجرید وجوه عسکره، و کتب إلی ولده بهاء الدین سونج بحماة یأمره بالخروج فی عسکره و الاختلاط بالعسکر الدمشقی، فخرج من حماة إلی

مخیم عماد الدین أتابک فأحسن لقاءه ثم غدر به و قبض عماد الدین علی سونج و علی جماعة المقدمین و اعتقلهم فی حلب، و زحف من یومه علی حماة و هی خالیة من حماتها فملکها، و رحل إلی حمص، و کان صاحبها قیرخان بن قراجه معه، و طلب منه تسلیم حمص فراسل نوابه و ولده فیها فلم یلتفتوا إلی مقاله،

خطط الشام، ج۲، ص: ۶

فأقام عماد الدین علیها مدة طویلة یبالغ فی محاربة أهلها فلم یتهیأ له ما أراد فرحل عنها إلی الموصل.

و طلب صاحب دمشق الی صاحب الموصل أن یطلق ولده و من اعتقلهم من الأمراء و المقدمین فطلب عنهم خمسین ألف دینار، فأجاب تاج الملوک إلی تحصیلها، و لم یطلق عماد الدین ابن تاج الملوک سونج و من معه من الأمراء إلّا فی سنة (۵۲۵). و مات الخصی صاحب صرخد فاستولت سرّیته علی قلعتها، و أرسلت إلی دبیس بن صدقة صاحب الحلة تستدعیه من العراق للتزوج به، و تسلیم صرخد بما فیها من مال و غیره إلیه، فسار دبیس إلی الشام فضلّ به الأدلاء بنواحی دمشق فنزل بناس من کلب کانوا شرقی الغوطة فحملوه إلی صاحب دمشق تاج الملوک، و لما سمع عماد الدین زنکی بأسر دبیس أرسل الی تاج الملوک یطلبه، و یبذل له إطلاق ولده سونج و من معه من الأمراء فأجابه تاج الملوک الی ذلک و أطلق عماد الدین سونج و من معه من الأمراء فأجابه تاج الملوک الی ذلک و أطلق عماد الدین سونج و رفاقه.

و فی سنة (۵۲۴) جمع عماد الدین عساکره و سار من الموصل إلی الشام، و قصد حصن الأثارب، و کان أهله علی اتصال بالفرنج یقاسمون الحلبیین علی جمیع أعمال حلب الغربیة، فالتقوا و عسکر عماد الدین و اشتد القتال و انتصر المسلمون و انهزم الفرنج و وقع کثیر من فرسانهم فی الأسر و کثر القتل فیهم، و أخذ المسلمون الأثارب عنوة و قتلوا و أسروا کل من فیها ثم خربها عماد الدین.

استنجاد بعض الصلیبیین بالمسلمین و استقرار حال دمشق:

بینا کانت دمشق مغتبطة بتاج الملوک بوری لشجاعته، و قد سد مسد أبیه فی کفایته و کفاحه، ناداه الأجل سنة (۵۲۶) عقیب جرح کان به من الباطنیّة، و وصی بالملک بعده لولده شمس الملوک إسماعیل، و وصی ببعلبک و أعمالها لولده شمس الدولة محمد. و لما استقر إسماعیل بن بوری فی ملک دمشق، و استقر أخوه فی بعلبک استولی محمد علی حصن الرأس و حصن اللبوة، فکاتب إسماعیل أخاه فی إعادتهما فلم یقبل، فسار صاحب دمشق و فتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس و قرر أمرهما، ثم حصر أخاه فی بعلبک فسأله الصلح فأجابه إلیه، و أعاد علیه بعلبک و أعمالها و استقرت أمورهما.

خطط الشام، ج۲، ص: ۷

و دخلت سنة (۵۲۷) فسار إسماعیل صاحب دمشق علی غفلة من الفرنج الی حصن بانیاس و فتحه، و ذلک لما بلغه من عزمهم علی نقض الموادعة المستقرة، و هال الفرنج ما وقع لقلعة بانیاس و أکثروا التعجب من تسهل الأمر فی فتحها مع حصانتها و کثرة الرجال فیها فی أقرب مدة. و فتح إسماعیل حماة و قلعتها و قتل من کان بها، و حصر قلعة شیزر فصانعه صاحبها بمال حمله إلیه. و فی هذه السنة اجتمعت التراکمین و قصدوا طرابلس، فخرج من بها من الفرنج الیهم و اقتتلوا فانهزم الفرنج، و سار القومص صاحب طرابلس و من فی صحبته فحصرهم التراکمان فی قلعة بعرین و هرب القومص منها. ثم جمع الفرنج جموعهم و قصدوا التراکمان لیرحلوهم عن بعرین فاقتتلوا و انحاز الفرنج الی نحو رفنیة و عاد التراکمان عنهم.

وقع الخلاف بین الفرنج من غیر عادة جاریة لهم بذلک، و نشبت الحرب بینهم و قتل منهم جماعة، و السبب فی ذلک اختلاف طفیف نشأ بین أمرائهم حدا بصاحب یافا علی أن یستنجد بالمسلمین فی عسقلان فساعدوه حتی خربت تلک الأرجاء إلی حدود مدینة أرسوف، و عقد صاحب یافا معاهدة مع المسلمین فجاء صاحب القدس و حاصره، و لکن المسلمین اهتبلوا الغرة فجاسوا خلال دیار الفرنج و أخذوا یناوشونهم القتال، فخاف صاحب بیت المقدس العاقبة و أراد مشاغلة المسلمین فأغار علی أطراف حلب، فنهض إلیه

الأمير سوار النائب فى عسكر حلب و من انضاف إليه من التركمان و تحاربوا أياما و تطاردوا إلى أن وصلوا إلى أرض قنسرين، فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة، فعاود سوار النهوض إليهم فى من بقى من عسكره و الأتراك، فلقوا فريقا من الفرنج فأوقعوا به و كسروه، فانكفأت الفرنج إلى أرضها مهزومة، و انتهى إلى سوار خبر خيل الرّها فنهض هو و حسان البعلبكى فأوقعوا بهم و قتلوهم عن آخرهم، و أغار سوار على الفرنج فى تل باشر فقتل منهم ألف فارس و راجل و قاتلهم أيضا فى موضع يعرف بنوار فى عسكر حلب و ما انضاف إليه من التركمان، و كانت الحرب بين الفريقين سجالا. و اشترى الإسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون صعدوا إليها و قاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين و الفرنج، و كانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

و فى سنة (۵۲۸) سار صاحب دمشق إلى شقيف تيرون و انتزعه من ابن ضحاك ابن جندل التيمى المتغلب عليه. و انتهى اليه أن الفرنج اعتزموا على نقض المستقر

خطط الشام، ج۲، ص: ۸

من الهدنة و قصد أعمال دمشق، و شرعوا بإخراب أمهات الضياع فى حوران، فوقع التطارد بين الفريقين عدة أيّام، ثم أغفلهم صاحب دمشق و قصد بلادهم عكا و الناصرة و طبرية و ما جاورها فظفر و غنم و سبى و رجع سالما فى نفسه و جملته فذل الفرنج و طلبوا تقرير الصلح بينهم.

خيانة صاحب دمشق و قتل أمه له:

و مما خدم عماد الدين زنكى أن شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق كان لأول جلوسه على عرش أبيه أقر الولاة على حالهم و سار بسيرته مدة، فنفس من خناق الأهلين و ساعده اختلاف الصليبيين ثم تغيرت نيته و كثرت قبائحه و مصادرة المتصرفين، و الأخيار المستورين، بفنون قبيحة فى العقوبات، و أضمر السوء لأصحاب أبيه و قبض على خواصهم و أركان دولته فنفرت القلوب منه. و كان (۵۲۷) وثب عليه أحد مماليك جده طغكتين و هو فى الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال فأخطأه، و قرره شمس الملوك فقال: ما أردت إلّا راحة المسلمين من شرك و ظلمك ثم أقرّ على جماعة من شدة الضرب فضرب شمس الملوك أعناقهم من غير تحقيق، و قتل أخاه الأكبر سونج صاحب حماة الذى كان فى أسر عماد الدين، قتله بالجوع فى بيت، فعظم ذلك على الناس، و نفر من ظلمه المساكين و الضعفاء و الصناع و المتعيشون و الفلاحون و امتهن العسكرية و الرعية.

و أهمّ ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتآمروا عليه و رأوا السبيل إلى النيل منه، خصوصا لما بعث الى عماد الدين زنكى حين عرف اعتزامه على قصد دمشق لمنازلتها يحثه على سرعة الوصول إليها و يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين و الأمراء و الأعيان بإهلاكهم و أخذ أموالهم و إخراجهم من منازلهم، و كتب إليه أنه إذا تأخر استدعى الفرنج و سلم إليهم دمشق بما فيها، و أسرّ ذلك فى نفسه و لم يبده لأحد من وجوه دولته و أهل بطانته، و شرع فى نقل المال و المتاع الى حصن صرخد. فاجتمع أعيان الدولة و أنهوا الحال إلى والدته الخاتون صفوة الملك، فدبرت عليه من قتله من غلمانها، غير راحمة له و لا متألمة لفقده، لما عرفت من قبيح فعله و فساد عقله و سوء سيرته. و نودى بشعار أخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك. و جاء عماد الدين زنكى وخيم بأرض عذراء، فلما طال الأمر

خطط الشام، ج۲، ص: ۹

راسل فى طلب الصلح على أن يخرج شهاب الدين محمود إليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه و يخلع عليه و يعيده إلى بلده، فلم يجب إلى ذلك، و تقررت الحال على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه.

قتل شمس الملوك باتفاق رأى والدته مع أرباب الدولة فى دمشق لما بدا من ظلمه و استصراخه الإفرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكى، و كان جده طغكتين مثلا سائرا فى غزوة لهم المرة بعد المرة، و مداراتهم أحيانا بالحيلة، و جمع أمراء الشام على

قصدهم أبدا، و مصانعة خلفاء بغداد و خلفاء مصر طلبا لنجدتهم، و لو بالقليل من قوتهم المادية و المعنوية، و لكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته أمه و رجال دولته. و كانت هذه الأعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون إلّا على مصلحتهم الخاصة، و إذا تأثرت أقل تأثر عمدوا إلى وضع أيديهم فى أيدى أعدائهم من موجبات بقاء الإفرنج فى ثغور الشام و أنطاكية و الرّها و طبرية و الناصرة و القدس و استيلائهم على كثير من المعاقل. و لو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج فى هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الأربع دمشق و حماة و حمص و حلب، بالنظر لخلل الدول المستولية عليها و اضطرارها إلى قتال أعدائها من المسلمين و أعدائها من الصليبيين، بل و أعدائها فى الداخل أمثال شمس الملوك.

و للناقد البصير بعد هذا أن يقول إن دولة أتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب فى أولها فأصبحت ذليلة و عبئا ثقيلا على الشام بعد بطنين من مؤسسها.

توحيد الحكم على يد زنكى و قضاؤه على إمارة صليبية:

بعد تقلقل أمر آل طغتكين أخذت روح آل زنكى تسرى فى القطر، فنهض سوار نائب زنكى فى حلب سنة (۵۳۰) فيمن انضم إليه من التركمان، و جرد جيشه على الأعمال الفرنجية فاستولى على أكثرها، و غزا اللاذقية و أعمالها بغتة، و عاد من هذه الغزاة إلى شيزر و معه زيادة عن سبعة آلاف أسير بين رجل و امرأة و صبى و صبية و مائة ألف دابة، و اجتاح أكثر من مائة قرية كبيرة و صغيرة فامتلأت الشام من الأسارى و رجعوا بهم إلى حلب و ديار بكر و الجزيرة.

هذا ما وقع من الأحداث فى العقد الثالث من القرن السادس، و أهم ما حدث ظهور دولة عماد الدين زنكى صاحب الموصل فى حلب و إيقانه أنه لا سبيل إلى دفع

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰

الصليبيين عن الشام إلا إذا رجع أمر المسلمين إلى ملك واحد، و أنه إذا تقدم بجيشه قليلا بعد أخذه حلب يستولى على دمشق، و ينقذ الأمة من فوضى آل أتابك طغتكين و ضعفهم، و كثر هجوم عماد الدين على حمص (۵۳۰) فتسلمها صاحب دمشق من أولاد قيرخان بن قراجه و عوضهم عنها تدمر، فتابع عسكر زنكى بحلب و حماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها إلى صاحب دمشق، فأرسل هذا إلى عماد الدين فى الصلح فاستقر بينهما. و كف عسكر عماد الدين عن حمص و حدثت فتنة بدمشق بين صاحبها و الجند و عاد عماد الدين فنازل حمص (۵۳۱) و بها صاحبها معين الدين أتسز فلم يظفر بها، فرحل عنها إلى بعرين و حصر قلعتها و هى للفرنج و ضيق عليها، فجمع الفرنج ملوكهم و رجالهم و ساروا إلى زنكى ليرحلوه عن بعرين، فلما وصلوا إليه جرى بينهم قتال شديد فانهزمت الفرنج، و عاود عماد الدين حصار الحصن فطلب الفرنج الأمان، فقرر عليهم تسليم الحصن و خمسين ألف دينار فأجابوا إلى ذلك، و كان زنكى مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح من الفرنج المعرة و كفرطاب، و منع زنكى فى هذه الوقعة عن الفرنج كل شىء حتى الأخبار، فكان من بحصن بعرين منهم لا يعلم شيئا من الأخبار لشدة ضبط الطرق و هيبته على جنوده. و ملك زنكى حصن المجدل (۵۳۲) و كان لصاحب دمشق، و دخل مستحفظ بانياس إبراهيم بن طرغت تحت طاعته، و سار إلى حمص و حصرها ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب، ثم عاد إلى حمص فسلمت إليه المدينة و قلعتها، و كان شرع أهل حلب فى تحصينها و حفر خنادقها و التحصن من الروم بها، و أغارت خيل الصليبيين على أطراف حلب، و تملكوا حصن بزاعه ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت إليهم فرقة وافرة من أحداث حلب فقاتلتهم و ظفرت بهم، و نهض سوار فى عسكر حلب و أدرك الصليبيين فى الأثارب، فأوقع بهم و قهرهم و نزل ملك الروم هذه السنة (۵۳۲) على بزاعة و حاصرها حتى ملكها بالأمان و أسر من فيها ثم غدر بهم، و نادى مناديه من تنصر فهو آمن و من أبى فهو مقتول أو مأسور، فتنصر منهم نحو أربعمائة إنسان منهم القاضى و الشهود ثم رحل عنها إلى شيزر و ترك فيها واليا يحفظها مع جماعة و أقام عشرة أيام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان و

كان سكان بزاعة خمسة آلاف و ثمانمائة نسمة، و عاد زنكى و حاصرها حتى ملكها و خرب الحصن و البلد عامر. و فى

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱

سنة (۵۳۳) سار من مصر عسكر إلى وادى موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام، و عاد بعد ما توجه إلى الشوبك و أغار عليها و ترك هناك أميرين على الحصار. و تزوج عماد الدين أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولى و هى التى قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل و ذلك طمعا من عماد الدين فى الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة فى الدولة. و كثيرا ما كانت الكلمة النافذة للنساء من آل بيت الدولة و الغيرة الصادقة فى وقايتها من السقوط.

و كان متملك الروم خرج فى السنة الفائتة و اشتغل بقتال الأرمن و صاحب أنطاكية و غيره من الفرنج و عمر ميناء الإسكندرونة ثم سار إلى بزاعة و ملكها و غدر بأهلها ثم رحل عنها إلى حلب، فجرى بينه و بين أهلها قتال كثير فعاد عنها إلى الأثارب و ملكها و سار نحو شيزر و حاصرها أربعة و عشرين يوما فأنجدها عماد الدين حتى اضطر متملك الروم إلى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم.

و كان يرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه، و يرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم و يقول لهم: إن ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها. و نهض هذه السنة الأمير بزواج فى فريق وافر من العسكر الدمشقى و التركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها و التقيا فكسره بزواج و قتل منهم جماعة وافرة و ملك حصن وادى ابن الأحمر و غيره. و نهض ابن صلاح والى حماة فى رجاله إلى حصن الخربة فملكه.

قويت دولة عماد الدين زنكى بعد استيلائه على حلب و حماة و حمص و المعرة و كفرطاب و بعلبك و غيرها، و إفحاشه القتل فى الفرنج و استيلائه على بعض معاقلهم، فلم يسع شهاب الدين محمودا صاحب دمشق إلا مهادنته على قاعدة أحكمت بينهما، و أصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين فى شؤون الشام. أما الفرنج فى أنطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم و صالحوه على ما اشترط، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة مع عماد الدين و قبضوا فى أنطاكية على خمسمائة رجل من تجار المسلمين و أهل حلب و السفار.

و بينا كان عماد الدين يدبر و يفكر و يهتم لأخذ دمشق نعى الناعى (۵۳۳) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بورى، قتله غلمانه فى فراشه فتولى بعده أخوه جمال

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲

الدين محمد صاحب بعلبك فبعثت والدته الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين إلى زوجها عماد الدين زنكى، و هو على الموصل، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر، فجاء و فتح الأثارب و بعلبك. و قال بعض المؤرخين: إن زنكى أمن قلعة بعلبك و تسلمها ثم غدر بأهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه.

و لما رأى صاحب دمشق أن دولة عماد الدين زنكى ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل إليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين، فسار هذا طالبا للقاء الفرنج إن قربوا منه ثم عاد إلى الغوطة و نزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج و الغوطة إلى حرستا التين و رحل متثاقلا. و كان الشرط بين الفرنج و صاحب دمشق أن يكون فى جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طرغت، فاتفق أن نهض هذا إلى ناحية صور للإغارة عليها، فصادفه ريمند صاحب أنطاكية واصلا فى الفرنج على إنجاد أهل دمشق، فالتقيا فكسره و قتل فى الوقعة و معه نفر يسير من أصحابه، و عاد من بقى منهم إلى بانياس فتحصنوا بها و جمعوا إليها رجال وادى التيم فنهض إليها معين الدين أتسز فى عسكر دمشق و حارب بانياس بالمنجنيقات، و معه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها و سلمها إليهم.

و جاء عماد الدين بعسكره هذه السنة أيضا إلى دمشق و قرب من السور، و كان قد فرق عسكره فى حوران و الغوطة و المرج و سائر

الأطراف للغارة، و نشبت الحرب بينه و بين عسكر دمشق، ثم سار عائدا على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة. و سار عماد الدين إلى أرض الفرنج فأغار عليها و اجتمع ملوك الفرنج و ساروا إليه. و في الروضتين أنه لقيهم بالقرب من حصن بارين و هو للفرنج، فصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله، فحاصره حصرا شديدا فراسلوه في طلب الأمان، و كان حصن بارين من أضر كور الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة و حلب من الأرضين و نهبوها و تقطعت السبل، كان عماد الدين استولى على هذا الحصن سنة (۵۳۱) و أعطى الأمان لمن فيه و قرر عليهم تسليمه، و من المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه. و ظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (۵۳۵) الفائزين عليها فعادوا مفلولين. و ملك الباطنية حصن مصياف، و كان واليه مملوكا لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتال عليه الإسماعيلية و مكروا به حتى صعدوا اليه و قتلوه

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳

و أغار الأمير لجه التركي (۵۳۶) النازح عن دمشق إلى خدمة عماد الدين على بلد الفرنج و ظفر بخيلهم و فتك بهم فقتل منهم سبعمائة رجل. و ظهر (۵۳۷) صاحب أنطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب في حفظ حلب و حال بينه و بينها.

و ظهر متملك الروم في الثغور دفعة ثانية و برز إليه صاحب أنطاكية و أصلح أمره معه. و في سنة (۵۳۷) خرجت فرقة وافرة من الفرنج إلى ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون أكثرهم و عادوا إلى بعلبك سالمين. و ظفر عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار و الأجناد خارجين من أنطاكية تريد أرض الفرنج فأوقعوا بها و قتلوا من كان معها من فرسانهم.

و في سنة (۵۳۹) فتح عماد الدين زنكي الرّها من الفرنج ثم تسلم مدينة سروج و سائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات. و كان لا يمر بعمل من أعمالها و لا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال، و هزم التركمان الفرنج الذين انتدبوا من أنطاكية لإنجاد أهل الرّها شر هزيمة، و تمكن السيف في أكثر الراجل و تفرقوا في أعمالهم و معاقلهم مفلولين. أي أن عماد الدين أتى ببأسه على إمارة الشمال الصليبية برمتها و هي إحدى الإمارات الأربع التي أقامها الصليبيون في الشام، فلم يبق لهم إلا إمارة أنطاكية و هي تمتد إلى قيليقية و إمارة طرابلس و إمارة القدس.

الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين:

نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام و هي إذا ما خلا فيها سيد قام سيد، يشتد في دفعهم أو يحافظ على الحالة الحاضرة، و كلما رأى من يعتد بعقلهم و غيرتهم من أمراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم و أمعنوا في تخريب حصونهم و أرضهم، و هذه الأراضي أي القرى و المزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين و المسيحيين، و الويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين و المدافعين فإن مزرعته و داره إلى بوار، و لا- سيما في أعمال حلب و طرابلس لقربهما من إمارتين إفرنجيتين قويتين و أعمال حوران و السواد و البلقاء و جبل عوف و جبل الشراة فإن المتكفل بغزوها صاحب القدس و هو أقوى ملوك الفرنج في الشام. و إليه يرجع في المهمات و القضايا العظيمة، و هو ينجد أصحاب الرّها و أنطاكية و طرابلس يوم الشدائد.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴

و كان آل تنوخ و آل معن حجازا في أعالي سواحل لبنان بين أملاك الصليبيين و أملاك صاحب دمشق و لهم الأثر المذكور في ذلك، و لذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق و المتولون للساحل و لكن خدمتهم للمسلمين أكثر بالطبع و هواهم مع أبناء دينهم و على نحو ذلك كان الدروز و قد قاتلوا في صفوف المسلمين فأظهروا من الشجاعة و النجدة ما تقرّ به العيون. و من الغريب أن شيعة جبل عاملة كانت مع الصليبيين على إخوانهم المسلمين إلا قليلا، و كأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارا لأن أرضهم في قبضة الصليبيين، كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين، و من الموارنة أدلاء لهؤلاء و عمال و تراجمة، و كان بطارکة أهل الصليب يتنقلون في قرى لبنان الساحلية و لهم السلطان الأكبر على أمراء الفرنج.

و کانت قوی فریق المسلمین و فریق الدخلاء متعادلة فی الغالب، ینال کل منهما من جاره و یغزوه فی عقر داره، و یعود و قد ملئت أیدی المتحاربین بالغنائم و الأسری. و الفرنج یأتیهم المدد کل سنة علی طریق البحر، و البحر لا یحمل الناس کالبر، و المسلمون تأتیهم النجدات من مصر فی الجنوب و من العراق فی الشرق و من دیار بکر و دیار مضر و آسیا الصغری. و الفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طلیان و فرنسیین و ألمان، و جیوش المسلمین مؤلفة من ترکمان و أکراد و عرب.

و ما غفل فریق عن فریق سنة واحدة خلال هذه المدة. و لم یکتب لأحد عظماء الأمراء من أهل الاسلام أن یطول عهده و ترسخ قدمه فی الملک و السلطان حتی یحمل حملة رجل واحد علی الفرنج، فإن دمشق و حلب و علیهما فی الجنوب و الشمال المعول فی الحرب لأنهما المعسکران العظیمان کثیرا ما شغلا بأنفسهما ورد دسائس الذین یتربصون الدوائر بملوکهما، و الفرقة الباطنیة التی کان المقصد من الإغضاء عنها أن تقف سدا فی وجه الأعداء لما عرف به أربابها من الشدة و المضاء، أصبحت آلة شر علی المسلمین لا لهم فی أکثر الأحیان، و لم یخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهبا و إن لم ینشقوا عنهم قومیة.

فاقتضت الحال أن یتولی أمر الأمة بعد تتش و آق سنقر و بزان و ابن عمار و ابن منقذ و مسعود و طغتکین و بوری و زنکی أمراء من عیار أرقی و بسلطة أعظم، تکون اجزاء حکومتهم أکثر تجانسا من ذی قبل، و لیس الزمن زمن ملک و إمارة، و لا عهد سکة مضروبة، و خطبة مخطوبة، بل العهد عهد عمل بالقرائح و العقول،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵

و عمل بالسلاح و الکراع، و عمل بالخطط العسکریة و الخدع الحربیة، وقت کله جد فی جد، و إلا فالعدو یتقدم، و الإسلام یهلک و یعدم، و عمل عظیم کهذا متوقف علی قیام زعیم کبیر یلتف الناس حوله عن رضی، و یجذب قلوبهم بصالح أعماله لا ببهرج مقامه و لطف مقاله، و یبهرهم بلامع إخلاصه، لا ببریق الذهب علی کرسیه و تاجه.

صفات عماد الدین زنکی و تولی ابنه نور الدین:

بدأ العقد الرابع من القرن السادس و فیه قتل عماد الدین زنکی علی قلعة جعبر بید جماعة من ممالیکه. و کانت صفاته صفات حربیة راقیة اشتهر بشجاعته و نجدته، اشتهاره ببطشه و شدته، و کان یحب التوسع فی الملک و الذّب عن حوزة الإسلام، و یدرک بثاقب نظره أن الأعداء محیطة بمملکته لا ینجیها منهم إلا القضاء علی إحدی إماراتهم فی الرّها و ما إلیها، و لا یتقی بأسهم بمناوشات و حروب تستصفی معها بعض القلاع و الحصون ثم یستعیدونها و بالعکس، و ما دامت دمشق لم تدخل فی سلطانه لا یقوی ملکه بالشام الإسلامیة مع ملکه الموصل علی ردّ عوادی الدهر و دفع غوائل العدو. توفرت فی شخصه شروط التوسع فی الملک، و عرف إدارة الممالک بالعمل ورثها من أبیه آق سنقر و بذّه فیها، فکان مربیا فاضلا شهما مشهودا له بذلک، دفع إلیه السلطان محمود لما تولی الموصل ولدیه آلب أرسلان و فروخ شاه المعروف بالخفاجی لیربیهما فلذا قیل له أتابک.

و من صفات عماد الدین أنه کان ینهی أصحابه عن شراء الملک و یقول: إن الأقطاع تغنی عنها، و متی کانت البلاد لنا فلا حاجة إلیها، و متی ذهبت البلاد منا ذهبت الأملاک معها، و متی کان لأصحاب السلطان ملک تعدوا علی الرعیة و ظلموهم، علی حین کانت الاقطاعات فی عهده للأمراء و القواد و أرباب الدولة شائعة غیر منکرة عند المسلمین و عند الصلیبیین فی هذه الدیار. قیل للشهید أتابک زنکی: إن هذا کمال الدین بن الشهرزوری یحصل له فی کل سنة منک ما یزید علی عشرة آلاف دینار أمیریة و غیره یقنع منک بخمسمائة دینار. فقال لهم: بهذا العقل و الرأی تدبرون دولتی؟! إن کمال الدین یقلّ له هذا القدر و غیره یکثر له خمسمائة دینار. فإن شغلا واحدا یقوم به کمال الدین خیر من مائة ألف دینار. و کان کما

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶

قال. و هذا أکبر دلیل علی حرصه علی رجاله و إیقانه أن الدولة لا تقوم إلا بأمثال الوزیر الشهرزوری.

و كانت لعماد الدين عناية بأخبار يتنشّدها و يغرّم عليها الأموال الطائلة، فيقف على أخبار الملوك ساعة بساعة، و إذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع أحد الرعية لئلا ينتشر الخبر فى البلد. و كان يفرق الأموال فى القلاع و البلدان فلا يجعلها فى مكان واحد و يقول: إذا كانت الأموال فى موضع واحد و حدث حادث و أنا فى موضع آخر و ذهبت لم انتفع بها، و إذا كانت متفرقة لم يحل شىء بينى و بينها رجعت الى بعضها. و كانت المملكة قبل أن يملكها خرابا من الظلم و تنقل الولاة و مجاورة الفرنج فعمرها و امتلأت أهلا و سكانا، و قبل أن يجىء زنكى إلى الشام اشتدت صولة الصليبيين و اتسعت مملكتهم من ناحية ماردين و شيحان إلى عريش مصر و انقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة و البر، و جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا و إتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم. و كان مهيبا شديد الوطأة على من يعبثون بحياة الامة. بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة و انزجروا، و كان شديد الغيرة و لا سيما على نساء الأجناد. و كان يقول: إن لم تحفظ نساء الأجناد و إلا فسدت لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار.

ترجمه العماد الكاتب بقوله: كان زنكى ابن آق سنقر جبارا عسوفا، بنكباء النكبات عصوفا، نمرى الخلق، أسدى الحنق، لا ينكر العنف، و لا يعرف العرف، قد استولى على الشام من سنة (۵۲۲) إلى ان قتل فى سنة (۵۴۱) و هو مرهوب لسطوه اه. و بعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود و هذا الرجل الذى كان ينتظر لإنقاذ الشام مما حل به من الويلات، فإنه جمع الصفات الحسنة فى أبيه و تجرد عن الصفات الرديئة فيه.

كان نور الدين فى قلعة جعبر يوم مقتل أبيه عماد الدين بيد المماليك فسمى الشهيد، فأخذ فى الحال خاتمه و هو ميت من اصبعه و سار إلى حلب فملكها، و أرسل كبراء دولة زنكى إلى ولده سيف الدين غازى بن زنكى يعلمونه الحال و هو بشهرزور، فسار إلى الموصل و استقر فى ملكها. قال ابن عساكر: و سير نور الدين الملك آلب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه و قال لهم: إن وصل أخى سيف الدين غازى إلى الموصل فهى له، و أنتم فى

خدمته، و إن تأخر فأنا أقرر أمور الشام و أتوجه إليكم. و لما انتهى نعىّ عماد الدين إلى صاحب دمشق خف فى الحال إلى حصن بعلبك و حصره و كان متوليه نجم الدين أيوب بن شادى والد صلاح الدين يوسف، فخاف أن لا يتمكن أولاد زنكى من إنجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق و سلم القلعة إليه، و أخذ منه إقطاعا و مالا و ملكه عدة قرى من عمالة دمشق.

و لم يكد نور الدين يتربع فى دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله، و صحة حكمه و عقله و حزمه، و باستيلائه على الأعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام فى حياة سياسة جديدة، بعد تقلقل أمر الدولة الأتابكية بدمشق، و دخول الوهن على فروعها بزوال أصلها الثابت ظهير الدين طغتكين. و سار نور الدين على قدم أبيه عماد الدين فى التقرب من ملوك الأطراف فخطب ابنة معين الدين أتسز الملك الحقيقى لدمشق، و الحاكم المتحكم فى سياستها ليتم له بالصهر و القرابة ما كان أبوه يرمى إليه بزواجه بأم شهاب الدين محمود فلم يتم له، و تزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية و اقصرا فأمن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام، و من تسرّب عسكر الصليبيين عن طريق الروم إلى مملكته.

بعد أن أصيب جوسلين صاحب الرّها بتمزيق شمل إمارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكى، جمع الفرنج من كل ناحية و قصد مدينة الرّها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها و قتل من بها من المسلمين. فنهض نور الدين (۵۴۱) فيمن انضاف إليه من التركمان فاستعاد البلد و قتل كثيرا من أرمنها، و محق السيف كل من ظفر به من نصاراها. و استنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والى صرخد الذى كان خرج إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، فجاء نور الدين فى عسكر حسن فاجتمع الجيشان على حلب، و بلغ صاحبى حلب و دمشق أن الفرنج احتشدوا قاصدين بصرى فحال عسكر المسلمين بينهم و بين الوصول إليها، و استظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الأدبار فتسلم صاحب دمشق حصنى بصرى و صرخد.

الحملة الصليبية الثانية و غزوتها دمشق:

و فتح نور الدين فى السنة التالية (۵۴۲) مدينة ارتاح بالسيف و حصر ثاموله (؟)

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸

و بسرفوث و كفرلاما من أعمال الفرنج. قال صاحب الكامل: كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا و ظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد و خاب ظنهم و أملهم و بينا كان نور الدين يجمع شمله لضرب الفرنج فى مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التى ظهر له ضعفها يوم استرد أبوه منهم الرّها، وردت الأخبار من قسطنطينية أن حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج و هى المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لويز السابع، و ألمان بزعامة كونراد الثالث، و فى الجيش إنكليز و فلامنديون و طليان، و من هؤلاء البنادقة و الجنوية و البياسنة (البيزيون) و ذلك لإنجاد الصليبيين فى الشام، إذ ساءت حالهم بعد سقوط الرّها و قلّ فارسهم و راجلهم لأن سيوف التركمان و الأكراد و العرب قد حصدتهم، و على كثرة تناسلهم مدة نصف قرن صبحوا فى قلة و أصبح أعداؤهم فى كثرة.

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس فى الغرب، و كان له كما لرؤساء الدين السلطان الأكبر على النفوس يصرفها كما يشاء. و ذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش كان ألف ألف عنان من الرجالة و الفرسان و قيل أكثر من ذلك. و فى التاريخ العام أن كلا من الجيش الألمانى و الجيش الفرنسى كان مؤلفا من سبعمائة ألف فارس ما عدا الرجالة الذين لا يحصى عددهم، و أن الروم قدروا مجموعه سبعمائة الف رجل. قال و هو تقدير ظاهر المبالغة. و اختار هذا الجيش طريق البر و عرض عليه روجر صاحب بوليه و صقلية أن يسافر بحرا لأنه كان ينوى الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن دياره، و كانوا احتلوا سركوزة، فلقى جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية و أمراء بنى سلجوق فى آسيا الصغرى ضروب القهر و المرت. قال مؤرخونا: و استمر القتل فيهم أى فى الصليبيين إلى أن هلك العدد الدثر منهم، و حل بهم من عدم القوت و العلوفات و المير و غلاء السعر ما أفنى الكثير منهم.

وصلت مراكب الفرنج (۵۴۳) إلى ساحل البحر كصور و عكا، و أجمع من كان بها من الفرنج بعدما فنى منهم أى من القادمين من طريق البر بالقتل و المرض و الجوع نحو مائة ألف إنسان أن يقصدوا بيت المقدس. و لما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك إلى أوطانهم فى البحر، و بقى ملك الألمان أكبر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹

ملوكهم و من هو دونه، و صلى الصليبيون فى القدس صلاة الموت، و عادوا إلى عكا و فرقوا المال فى العسكر و كان مقدار ما فرقوه سبعمائة ألف دينار و لم يعينوا لهم وجهة و ما كانت وجهتهم إلا فتح دمشق فورّوا بغيرها و هرّبوا المسلمين بين أيديهم. و لم يشعر أهل دمشق إلا و ملك الألمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم فى الميدان الأخضر. و كان الفرنج فى نحو خمسين ألفا من الخيل و الرجل و قيل أكثر من ذلك.

و يقول ابن منقذ: إن ملك الألمان لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من فى أرجاء الساحل من الفرنج، فقصدوا أولا المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعا عنه، فقصدوا ناحية المزة و وصلت طلائعهم إلى الميدان الأخضر فنشبت الحرب بين الفريقين، و اجتمع عليهم من الأجناد و الأتراك و التركمان و أحداث البلد و المطوعة و الغزاة الجمّ الغفير، و كانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ، و أخذت خيل التركمان تتواصل، فلما ضاق الأمر بالفرنج بعد اربعة أيام و رأوا شدة عزيمة المسلمين فى قتالهم رحلوا مفلولين.

و يرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج أن جيش الحملة الصليبية الثانية كان أكثر نظاما و قيادة من جيش الحملة الأولى، ليس فيه المتشردون و الأشقياء، و كان مؤلفا من فرسان و بارونات و غيرهم أخذوا بالحماسة الدينية و ساروا فى قيادة ملكين عظيمين. و فى

التاریخ العام أن هذه الحملة الصلیبیة الکبری لم تجد نفعا البتة حتی استغربت حالها أمم النصرانیة فبحث بعضهم عن الخطایا التی استحقت بارتکابها هذه الکارثة، و نسبت أخری هزیمة الحملة لخداع الروم أو لخیانة نصاری الشرق و ذکروا أن الصلیبیین فی القدس قد ارتشوا من أمیر دمشق بمبلغ مائتین و خمسین ألف دینار و أن الأمیر أرسل المال زیوفا أو نحاسا طلی بالذهب.

انکسر الجیش الذی قاتل دمشق بقیادة کونراد الألمانی و لویز السابع الفرنسوی و بودوین الثالث ملک القدس فی بساتین المزة و لحق فلّهم بالساحل، بعد أن قطعرا أشجار الحدائق للتحصن بها و أحرقوا الربوة و القبة المهدویة. و قد وصف أبو الحکم الأندلسی جیش الفرنجة علی دمشق فی مخیمه و معترکه و مجتلده و منهزمه وصفا جمیلا قال:

بشطی نهر داریاأمور ما تؤاتینا

و أقوام رأوا سفک الدما فی جلّق دینا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰ أتانا مائتا ألفعدیدا أو یزیدونا

فبعضهم من اندلسو بعض من فلسطینا

و من عکا و من صورو من صیدا و تبنینا

اذا أبصرتهم أبصرت أقواما مجانینا

و لکن حرقوا فی عاجل الحال البساتینا

و جازوا المرج و التعدیل أیضا و المیادینا

تخالهم و قد رکبواقطائرها حراذینا

و بین خیامهم ضموا الخنازر و القرابینا

و رایات و صلباناعلی مسجد خاتونا

و من توفیق صاحب دمشق یومئذ و هو مجیر الدین أبق أن تدبیر المملکة کان لمعین الدین أتسز مملوک جده طغتکین، و کان عاقلا دینا محسنا لعسکره فاستنجد بصاحب الموصل سیف الدین غازی و صاحب حلب نور الدین محمود، فجاء الشقیقان فی جیش لجب، و انضم جیشهما بل روحه و روح أبیهما إلی روح مملوک طغتکین مؤسس الدولة الأتابکیة، مع تحمس الأمة و معرفتها حق المعرفة أن الفرنج إذا أخذوا دمشق سقطت الشام کلها، و ربما تعدوها إلی الحجاز و هناک الطامة العظمی علی المسلمین، و کان اجتماع آل زنکی الأقویاء مع صاحب دمشق الضعیف فی سلطانه فاتحة لعمل عظیم یتوقع منهم فی الشام، و أن ملکها سیؤول إلیهم بحکم الطبیعة. و لم یرض سیف الدین و لا نور الدین أن یناقشا مجیر الدین و معین الدین الحساب عما قدماه و قالاه، بل مرا بالأحقاد مرّ الکرام، و جعلا الأقاویل دبر آذانهما و عند الشدائد تذهب الأحقاد.

ذکروا أن معین الدین أتسز کان قد کاتب سیف الدین غازی صاحب الموصل قبل نزول الصلیبیین علی دمشق، یستصرخ به و یخبره بشدة بأسهم و یقول له أدرکنا، فسار سیف الدین فی عشرین ألف فارس و نزل فی إقلیم حمص و بعث إلی معین الدین یقول: «قد حضرت بجند طمّ و لم أترک ببلادی من یحمل السلاح، فإن أنا جئت الفرنج و کانت علینا الهزیمة و لیست دمشق لی و لا لی بها نائب لم یسلم منا أحد و أخذت الفرنج دمشق و غیرها فإن أحببت أن أقاتلهم فسلم البلد إلی من أثق به، و أنا أحلف لک إن کانت النصرة لنا علیهم أننی لا أدخل إلی

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱

دمشق و أرجع إلی بلادی» فمطله معین الدین و بعث إلی السواحل یقول: «هذا ملک الشرق نازل علی حمص و لیس لکم به طاقة، فإن رحلتم و إلا سلمت دمشق إلیه و هو یبیدکم و أنا أعطیکم بانیاس» أی إن معین الدین أتسز آثر أن یتخلی عن بانیاس مفتاح دمشق الأکبر من جهة الفرنج، و لا یجعل لسیف الدین غازی إصبعا فی بلده، لعلمه أن دولة آل زنکی فی عنفوان أمرها غضة الإهاب و

دولتهم هرمة، و الفتى يغلب الهرم و يخلفه بحكم الطبيعة.

تقدم نور الدين فى فتوحه:

و لما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب طرابلس إلى معين الدين و إلى نور الدين يستنجدهما على ولد ألفنس صاحب صقلية الذى أخذ منه حصن العريمة، و يريدهما على أخذه خوفا منه على بلده، و كتبا إلى سيف الدين يطلبان منه المدد فأمدهما، فحصروا الحصن و نقبوا السور، فأذعن الفرنج و استسلموا و ألقوا بأيديهم، فملك المسلمون الحصن و أخربوه و أخذوا كل من فيه.

و عاد عسكر سيف الدين إلى الموصل و عسكر نور الدين إلى حلب و أخذ هذا بجمع أطرافه و توجه إلى ما دانى أرضه من أرض الفرنج و ظفر بعدة وافرة منهم، و جمع صاحب أنطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه، و نال من عسكره حتى اضطر نور الدين أن يهرب بنفسه و عسكره إلى حلب. و فى هذه السنة (۵۴۳) نادى منادى نور الدين فى حلب بإبطال الأذان بحى على خير العمل فى أواخر أذان الغداة، و أعاد أذان أهل السنة ففرح الناس و أبطل بذلك أثرا عظيما من آثار الدولة العلوية الفاطمية.

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم أنطاكية من عزيمته، و قصد الفرنج فكان بينه و بينهم مصاف بأرض يغرى من العمق فانهزم الفرنج إلى حصن حارم و كانوا هزموا المسلمين أولا بهذا الموضع، و قتل منهم و أسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع غنائم كثيرة إلى أخيه سيف الدين صاحب الموصل. و فى هذه السنة سار نور الدين إلى بصرى و قد اجتمع الفرنج قضهم و قضيضهم، فالتقى بهم هنالك و اقتتلوا أشد قتال فهزمهم نور الدين.

و كثر عيث الفرنج فى صور و عكا و الثغور (۵۴۴) بعد رحيلهم عن دمشق

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲

و فساد شروط الهدنة المستقرة بين صاحب دمشق و بينهم، و كانوا يعيثون فى عمل دمشق، و يفحشون فى التخريب و يمعنون فى الغارة، فأغار عليهم العسكر الشامى و التركمانى و الأعراب إلى أن اضطروا إلى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنتين.

و أغار صاحب أنطاكية على الأعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها، و كان عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الأتباع و السواد، و الفرنج فى زهاء أربعمائة فارس طعانة و ألف راجل مقاتلة سوى الأتباع، فلم ينج منهم إلا نفر يسير ثم نزل نور الدين فى العسكر على باب أنطاكية و قد خلت من حماتها فاستمال أهلها فى التسليم فأمهلوا، ثم نهض إلى أفامية فسلم الفرنج إليه البلد بعد حصارها و اجتمع من بالشام من الفرنج و ساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم، فلم يصلوا إلا و قد ملك حصن أفامية و ملأه ذخائر و سلاحا و رجالا، و اقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من فى أنطاكية و تقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية لنور الدين، و ما قرب من أنطاكية لهم. و قد عاون نور الدين فى هذه الوقعة الأمير بزان فى عسكر دمشق و عسكر أخيه سيف الدين غازى و الجزيرة، و قتل من الفرنج ألف و خمسمائة و أسر مثلهم، و قتل البرنس و حمل رأسه إلى نور الدين. قال العماد:

و كانت هذه الكسرة على إنب، و إنب حصن من أعمال عزاز.

و ظهرت الفرنج فى الأعمال الدمشقية للعيث فيها و اتصل بنور الدين إفسادهم فى الأعمال الحورانية بالنهب و السبى فعزم على التأهب لقصدهم فسار و كف أيدى أصحابه عن العيث و الفساد فى الضياع، و أمر بإحسان الرأى فى الفلاحين و التخفيف عنهم. و كتب إلى دمشق يستدعى منهم المعونة على ذلك بألف فارس، و قد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه و غولط، فلما عرف ذلك رحل و نزل بمرج بيوس و بعض العسكر ببعفور، ثم رحل من منزله بالأعوج و نزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر، و راسل مجير الدين و الرئيس بدمشق بأنه لم يقصد محاربتهم و إنما دعاه إلى ذلك كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران و العربان و عجز أمراء دمشق عن حفظ أعمالها و استصراخهم بالفرنج على محاربته، و بذلهم لهم أموال الضعفاء و المساكين من الرعية ظلما لهم، فكان الجواب عن هذه الرسالة «ليس بيننا و بينك إلا السيف و سيوافينا من

الفرنج ما يعيننا على دفعك إن

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳

قصدتنا و نزلت علينا» فلما عاد الرسول بهذا الجواب أكثر التعجب منه و الإنكار له، و عزم على الزحف إلى دمشق. و ما ندرى إذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين أتسز والى دمشق و صاحب أمرها نيابة عن أولاد طغتكين، و كان أتسز صالحا عادلا محسنا كافا عن الظلم متجنبا للمآثم، محبا للعلماء و الفقراء، بذل مجهوده فى حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين فى الانحلال.

انحلال دولة مجير الدين و توفيق نور الدين:

آذنت شمس دولة أبناء طغتكين بالمغيب، لهلاك الرجال الغيورين عليها، و لأن أربابها أخذوا يتقوون بالفرنج على أبناء نحلتهم حبا بأن يبقوا فى ملكهم و رفاهيتهم. و لكن دولة نور الدين التى أصبح لها المقام الأسنى فى الشام بعد أن حالف التوفيق أعلامها أكثر من مرة فى سنين قليلة أخذت النفوس تتطلع إليها، و تعلق الآمال الطيبة عليها. و قد كانت دمشق التى أجابت نور الدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنة بين الأجناد و المقدمين و الرعاع و الفلاحين و ذلك لاستيحاش الرئيس فى دمشق من مجير الدين صاحبها، و لم تزل الفتنة ثائرة إلى أن أبعد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين و سكنت الفتنة.

و لكن هذه الفوضى فى دمشق يصعب دوامها، و ليست المسألة مسألة تقريب رجل أو رجال من أركان الدولة او اصطلام ثائر و خارج على الجماعة، و قد سرت روح الغضب حتى إلى أقرب الناس من الآل الملوكى، و قوة نور الدين تشتد و شائجها، و دعوته تزداد انتشارا اليوم بعد اليوم، فلم يسع أولى الأمر فى دمشق سنة (۵۴۰) إلا تقرير الصلح بينهم و بينه، فأقيمت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة و السلطان، و ضربت السكة باسمه و خلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة و الطرق و السوارين و خلع على الرئيس ابن الصوفى خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة و أعادهما إلى عملهما و طيب قلوبهما «و رحل إلى حلب و القلوب معه لما غمر العالم من خيره». عمل مجير الدين و ابن الصوفى هذا العمل مكرهين أمام قوة قاهرة، عملاه و هما يسران حسرا؟؟؟ فى ارتغاء، على أمل أن ينتقما من نور الدين باعتصامهما بالصليبيين حتى اضطر فى السنة التالية (۵۴۶) أن يسوق عسكره إلى دمشق فنزل أوائل جنده على أرض عذراء، و قصد فريق وافر منهم ناحية السهم

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴

و النيرب فى سفح قاسيون، و كمنوا عند الجبل لعسكر دمشق، ثم وصل نور الدين فى جنده و نزل على عيون فاسريا بين عذراء و دومة، و امتد عسكره إلى ضمير و نزلوا فى أرض حجيرا و راوية فى خلق كثير، ثم نزل فى أرض مشهد القدم و ما والاه من الشرق و الغرب، و كان منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلى البلد أى أن العسكر النورى أحاط بدمشق من أطرافها الأربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلا ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، و أرسل نور الدين إلى مجير الدين يقول: «كنت اتفقت معكم و حلفت لكم، و الآن قد صح عندى أنكم ظاهرتم الفرنج فإن أعطيتمونى عساكركم لأجاهد فى سبيل اللّه رجعت عنكم» فلم يرد جوابا. و جرى بين أوائل العسكر و بين من ظهر إليه من البلد مناوشات و لم يزل نور الدين مهملا للزحف على البلد إشفاقا من قتل النفوس و إثخان الجراح فى مقاتلة الجهتين حتى انطلقت أيدى المفسدين من الفريقين فى العيث، و حصدت زراعات المرج و الغوطة و ضواحى البلد، و خربت مساكن القرى و نقلت أنقاضها إلى البلد، و زاد الإضرار بأربابها من التّناء و الفلاحين و تزايد طمع الرعاع و الأوباش فى التناهى و الفساد، ثم رحل العسكر النورى و نزل فى أراضى فذايا و حلفبلتا المصاقبة للبلد، و نشبت المطاردة و كثرت الجراح فى خيالة البلد و رجالته، ثم رحل نور الدين إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للإنجاد ليكون قريبا من معابرهم، و بعد ذلك رحل إلى ناحية الزبدانى استجرارا لهم، و جعل من عسكره أربعة آلاف فارس ليكونوا فى أعمال

حوران مع العرب لقصد الفرنج و لقائهم، و نزل الفرنج على نهر الأعوج، و خرج مجير الدين و مؤيده فى خواصهما و اجتمعا بملكهم و ما صادفوا عنده شيئا مما هجس فى النفوس من كثرة و لا قوة، و تقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه و استغلال أعماله. ثم رحل عسكر الفرنج إلى رأس الماء و لم يتهيأ خروج العسكر الدمشقى إليهم لعجزهم و اختلافهم، و قصد من كان بحوران من العسكر النورى و من انضاف إليهم من العرب ناحية الفرنج للإيقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج إلى اللجاة للاعتصام بها. ثم زحف نور الدين على دمشق و قد رأى خيانة صاحبها و مماشاته للفرنج حرصا على هذه العاصمة من السقوط فى يد العسكر النورى البالغ ثلاثين ألفا يزداد كل يوم قوة و عسكر دمشق ضعفا. و تحرج نور الدين من

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵

قتال المسلمين و ما زال يميل إلى حقن الدماء لعلمه بأن خيانة حكومتها لا تكون و لن تكون سببا للعبث بالغرض المقدس الذى يرمى إليه من إنقاذ الأمة و لطالما قال: «إنى أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة أعدائهم».

و لما تجلت لمجير الدين غلطته فى مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظا لملكه إلا قبول الشروط التى وضعها نور الدين عليه، و دخل مجير الدين على نور الدين فى حلب فبالغ هذا فى إكرامه و قرر معه تقريرات اقترحها

مقاصد نور الدين و فتحه دمشق:

كانت همة نور الدين منصرفة فى كل أطواره إلى توحيد الإمارات الإسلامية و هذه، كما فى التاريخ العام، كانت على عهد الحروب الصليبية تتألف و تتمزق على الدوام بحسب طوالع الحروب و الدسائس التى تقوم ثورتها بين الأمراء، و بحسب انتقال الملك و تقسيمه، و امتيازات الأسر. و كان فى جبال الشام خاصة من الأمراء من لم تكن أرضهم تتجاوز ربض قلاعهم و ضاحيتها كصاحب شيزر، و لذلك عامل نور الدين مجير الدين صاحب دمشق على ما بدر منه من الأغلاط النابية عن حد الوطنية و القواعد الشرعية معاملة رفق و إغضاء، لأن المقصد جمع الشمل و السؤدد مع السواد. و مما أفاد فى هذا العقد وصول الأسطول المصرى إلى الساحل فى سبعين مركبا حربيا مشحونا بالرجال و اقترابه من يافا فقتل و أسر و أحرق و استولى على عدة وافرة من مراكب الفرنج و الروم، ثم قصد ثغر عكا و صيدا و بيروت و طرابلس و فعل فيها مثل ذلك. قال ابن ميسر: و ظفر الأسطول المصرى بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم، و بلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكى ملك الشام فهمّ بقصد الفرنج فى البر ليكون هو فى البر و الأسطول المصرى فى البحر فعاقه عن ذلك الاشتغال بإصلاح دمشق، و لو اتفق مسيره مع الأسطول لحصل الغرض من الفرنج، و كان من جملة ما أنفقه العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار.

لم تقف همة نور الدين عند هذه الغاية بل اهتبل الغرة و شغل المحتلين فى الساحل بما نزل عليهم من بلاء الأسطول المصرى، فغزا الشمال و أسر جوسلين

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶

صاحب تل باشر و ملك قلاعه و هى تل باشر- و كان الأمير حسان المنبجى قد فتحها باسم نور الدين و هو على أبواب دمشق (۵۴۶)- و عينتاب و دلوك- و كان القتال على هذه شديدا جدا- و عزاز و تل خالد و قورس و الراوندان و برج الرصاص و حصن البارة و كفر سود و حصن بسر فوت بجبل بنى عليم و كفرلاثا و مرعش و نهر الجوز و ذلك فى أيام يسيرة. و هذا الفتح و الفتح الذى تم على يده فى السنة الفائتة (۵۴۵) من تسلم قلعة أفامية جعل نور الدين صاحب الشام. و كان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة و الرأى، سار فى عسكره نحو نور الدين فالتقوا و اقتتلوا و انهزم المسلمون و قتل منهم و أسر جمع كثير، و كان فى جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية و أقصرا و قال له: هذا سلاحدار زوج ابنتك و سيأتيك بعده ما هو أعظم منه.

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه و أعمل الحيلة على جوسلين و هجر الراحة ليأخذ ثأره. و أحضر جماعة من الأمراء التركمان و بذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين و سلموه إليه لأنه علم بعجزه عنه فى القتال فيما قيل، فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فظفر به طائفة منهم و حملوه إلى نور الدين أسيرا. و قال ابن الأثير: و عظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين، و خلت بلادهم من حاميها و ثغورهم من حافظها، و سهل أمرهم على المسلمين بعده، و كان جوسلين كثير الغدر و المكر، لا يقف على يمين و لا يفى بعهد، طالما صالحه نور الدين و هادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود و المواثيق نكث و غدر، فلقيه غدره، و حاق به مكره، و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. فلما أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج و قلاعهم. و عنى نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة و السلاح، و كان كلما فتح حصنا نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو. و كان نور الدين و أبوه إذا فتحا قلعة جعلا فيها من المؤنة و الذخائر ما يكفيها عشر سنين.

و أغار هذه السنة فريق وافر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج و أسروا و لم يفلت منهم غير الوالى و نفر يسير. و قصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال و نسوان و شيوخ و أطفال فلحقهم صاحب بعلبك و استرجع منهم بعض ما أخذوا و عادوا على أقبح صفة من الخذلان.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷

و افتتح نور الدين (۵۴۷) حصن انطرطوس و قتل من كان فيه من الفرنج و طلب الباقون الأمان، و ملك عدة من الحصون بالسيف و السبى و الإحراق و الخراب و الأمان و منها دلوك و يحمور، بعد أن اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس و صبر الفريقان ثم انهزم الفرنج، و توجه مجير الدين فى العسكر إلى ناحية حصن بصرى و نزل عليه محاصرا و اليه لمخالفته و جوره، و ما زال به حتى نزل على حكمه. و أراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين و اليه فى ذلك، إذ لا سبيل إلى استقرار حالة دمشق إذا كان المستولون على بصرى و صرخد يمتّون إلى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلهم فى أيديهم كما فعل سيف الدين الطنطاش نائب صاحب بصرى و صرخد و استعان بالفرنج على المسلمين فاضطر معين الدين أتسز إلى قتاله و نازل القلعتين فملكهما. و قوى عزم نور الدين (۵۴۸) على جمع العساكر و التركمان من البلدان للغزو و نصرة أهل عسقلان على الفرنج، و كان هؤلاء شغلوا بأمر عسقلان منذ السنة الغابرة لإمداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم، و وصل الأسطول المصرى إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال و الرجال و الغلال و ظفروا بقوة وافرة من مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان و داهموها من جوانب سورها فهدموه و قتل من الفريقين خلق كثير، و ألجأت الضرورة إلى طلب المال فأجيبوا إليه فخرج أهلها فى البر و البحر إلى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان، و كانت لخلفاء مصر و الوزراء يجهزون إليها المؤن و السلاح، و لو لم تختلف أهواء أهل الدولة المصرية و يقتل العادل ابن السلار لما جرأ الفرنج على حصر عسقلان و الظفر بمن فيها و التحكم فى ضرب غرامة عليها.

و ملك نور الدين (۵۴۸) حصن أفليس و قتل من كان فيه من الفرنج و الأرمن و نهض عسكره طالبا بانياس. و فى سنة (۵۴۹) وصل نور الدين فى عسكره لإمداد أسد الدين شير كوه و كان أرسله إلى دمشق فى كتيبة، وخيم بناحية القصب من المرج. و نزل نور الدين بعيون فاسريا و رحل فى الغد و نزل بأرض بيت الآبار من الغوطة و زحف إلى البلد من شرقيه، و خرج إليهم من عسكره و أحداثه الخلق الكثير، و وقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، و لم يبرح نور الين يزحف يوما بعد يوم حتى افتتح دمشق على أيسر وجه، و النفوس فيها متطلعة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸

إلى طلعته لما كان يبلغ القاصى و الدانى من عدله و حسن سيرته، و لما أحسن صاحب دمشق مجير الدين أبق بالغلبة انهزم فى خواصه إلى القلعة فأنفذ إليه و أمنه على نفسه و ماله فخرج إلى نور الدين فطيب نفسه، و نادى نور الدين بالأمان و خرجت دمشق من أيدى

أحفاد الأتابک طغتکین آخر الدهر بعد أن دانت لسلطانهم اثنتین و خمسین سنة.

الداعی لنور الدین علی فتح دمشق

و السبب فی فتح نور الدین دمشق تغلب الفرنج بناحیة دمشق بعد ملکهم عسقلان حتی استعرضوا کل مملوک و جاریة بدمشق من النصاری، و أطلقوا قهرا منهم کل من أراد الخلاص، فخشی نور الدین أن یملکوا دمشق، فاستمال أهلها فی الباطن ثم حاصرها و فتحها. و فی الکامل أن سبب حرصه علی ملکها أن الفرنج لما ملکوا فی العام الماضی مدینة عسقلان و لم یکن لنور الدین طریق إلی إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بینه و بین عسقلان، فلما ملک الفرنج عسقلان طمعوا فی دمشق. و علل هذا الفتح سبط ابن الجوزی بما ظهر من مجیر الدین من الظلم و مصادرة الدمشقیین و سفک دمائهم و أخذ أموالهم، و قبضه علی جماعة من الأعیان و استدعی سیف الدولة بن الصوفی الذی ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجیه الدولة منها فقتله فی القلعة و نهب داره و أحرق دور بنی الصوفی و نهب أموالهم.

و تکاثرت مکاتباته إلی الفرنج یستنجدهم و یطمعهم فی البلاد. و کان مراد نور الدین من أخذ دمشق إنقاذ القدس من الفرنج و الساحل و کانت دمشق فی طریقه.

و طمع الفرنج فی مجیر الدین و کان قد أعطاهم بانیاس، فکانوا یشنون الغارات إلی باب دمشق فیقتلون و یأسرون و یسبون، و کان مجیر الدین قد جعل للفرنج کل سنة قطیعة یأخذونها منه، و ذل الإسلام و أهله فی أیامه، و ساءت سیرته و کثر فساده، فکان الأمراء و الأعیان بدمشق أصحاب نور الدین یقولون: الغیاث الغیاث و قالوا: إن شئت حصرناه فی القلعة. فرأی نور الدین أخذ مجیر الدین باللطف و قال: إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج و أعطاهم البلاد فیکون وهنا عظیما علی الإسلام.

و کان من أشد الأمور علی الفرنج أن یأخذ نور الدین دمشق لأنه کان أحرق

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹

قلوبهم و حرق أرضهم، و کان فی کل وقعة یغنی غناء حسنا، هذا و دمشق لیست له فکیف إذا أصبحت فی حکمه، لا جرم أنه یتقوی بها و تقوی کلمته و لذا عدل إلی ملاطفة مجیر الدین و مکاتبته و بعث الیه بهدایا فأنس به و صار یکاتبه و یستشیره فکان نور الدین یکتب إلیه إن فلانا یکاتبنی فتارة یقبض مجیر الدین علیهم و تارة یبقیهم، فخلت دمشق من الأمراء و لم یبق عنده غیر عطاء بن حفاظ، و کان صاحب بعلبک قد رد إلیه مجیر الدین أمر دولته و کان ظالما، فکتب نور الدین إلی مجیر الدین یقول: قد نفر علیک عطاء بن حفاظ قلوب الرعیة فاقبض علیه لعلم نور الدین أنه لا یتم له أمر فی دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجیر الدین و أمر بقتله فقال له عطاء: لا تقتلنی فإن الحیلة قد تمت علیک و ذهب ملکک و سری، فلم یلتفت إلیه و قتله و حینئذ قوی طمع نور الدین فی دمشق، و أرسل إلی أحداثها و أعیانها فأجابوه، فسار إلیها و نزل علیها و کتب مجیر الدین إلی الفرنج یستنجد بهم و بذل لهم بعلبک و أموالا کثیرة، و بلغ نور الدین فأرسل إلی الأحداث ففتحوا له الباب الشرقی فدخلها و حصر مجیر الدین فی القلعة، و بلغ ذلک الفرنج فتوقفوا و لما دخل نور الدین صاح أصحابه «نور الدین یا منصور» و امتنع الأجناد و الرعیة من القتال لما هم علیه من بغض مجیر الدین و ظلمه و عسفه للرعیة و محبتهم لنور الدین لعدله و خیره.

سئمت النفوس فی دمشق من سوء إدارة المتغلبین علی أحکامها أمثال الوزیر حیدرة و مجاهد الدین بزان و عطاء و غیرهم، ممن لم یکونوا یهتمون بغیر إملاء بطونهم و جیوبهم من دماء الرعیة، و لو أصبحوا عبیدا أرقاء لأعدائهم. أما مجیر الدین آخر ملوک الأتابکیة فی دمشق فإن نور الدین لما غلبه بذل له إقطاعا من جملته مدینة حمص، فسلم مجیر الدین القلعة إلی نور الدین و سار إلی حمص فلم یعطه إیاها و أعطاه عوضها بالس فلم یرضها مجیر الدین و سار عنها الی العراق و أقام ببغداد حتی مات بها. و هذا من غریب ما یحکی فی باب العدل فإن الملوک جرت عادتهم فی تلک العصور اذا أخذوا ملکا أن یقتلوه فلم یفعل ذلک نور الدین تحرجا من إهراق

الدم الحرام و استحكام الطوائل و الثارات و الأحقاد فى أمة أشد ما تكون إلى التضافر. أعطى نور الدين حمص أقطاعا لمجير الدين حتى لا يقطع له أمله ثم عوضه عنها ببالس لأن حمص على مقربة من كور الصليبيين.

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰

و من خان أمته و هو فى عهد عزه أقرب إلى خيانتها فى دور شقائه و ذله، اما بالس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق و الغرب. و ماء الفرات أسوغ للعاصى مجير الدين من ماء بردى و العاصى. و المقصد فى الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام، و هذا قد تم لنور الدين بفتح أبواب دمشق لعدله العمرى، و خروج آخر الأتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام.

لم يتبدل شىء بفتح نور الدين دمشق إلا- إبطال المظالم و المغارم، و رفع الحيف عن الضعاف، و جمع القوة إلى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد و الدسائس، كانت معظم وقائع نور الدين يحالفها التوفيق و فى السنة التى صفت الديار له أخذ من الفرنج تل باشر. و فى سنة (۵۵۰) تقررت الموادعة بين نور الدين و بين ملك الفرنج مدة سنة، و قبض نور الدين على ضحاك والى بعلبك و تسلم القلعة و فى السنة التالية (۵۵۱) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا فى أعمال حلب تقررت الموادعة و المهادنة بينه و بينهم مدة سنة و ان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج فى البحر و قوة شوكتهم بهم، و نهضوا الى الشّعراء المجاورة لهم و وقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الأتراك تقصير، فانتهز الفرنج الفرصة و استاقوا جميع ما وجدوه و أفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان و غيرهم. و أغار الفرنج (۵۵۲) على أرجاء حمص و حماة و أطلقوا أيديهم بالنهب، و أغاروا على بانياس، فانتصر المسلمون، و محقت السيوف عامة رجالة الفرنج و مسلمى جبل عاملة المضافين إليهم، و ملك الفرنج جبلة و كانت فى أيدى المسلمين منذ سنة (۴۷۳) وثب عليها قاضيها ابن ضليعة التنوخى و استعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم، و كانت بيدهم منذ سنة (۳۵۷)، و ظفر أسد الدين فى جماعة من شجعان لتركمان بسرية وافرة من الفرنج فى ناحية الشمال فانهزمت. و افتتح نور الدين بانياس قهرا و ظفر عسكره فى ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمى الفرنج و أبطالهم فلم يفلت منهم إلّا اليسير، و عسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية و بانياس فنهض إليهم نور الدين فى عسكره من الأتراك و العرب فكتب له النصر عليهم، و شاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التى حدثت فى الشام و لكنهم شغلوا أيضا

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۱

بما أصابهم من أضرارها فى الساحل. و ملك نور الدين بعلبك و قلعتها، و كانت بيد الضحاك البقاعى فامتنع بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها. و فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج و ملك مصر فبعث بسرية الى غزة نهبت أطرافها و سارت إلى عسقلان فأسرت و غنمت و عادت بالغنائم الى مصر، ثم سيّر عسكر آخر فمضى الى الشريعة فأبلى بلاء حسنا، و ندب مراكب فى البحر فسارت الى بيروت و غيرها فأوقعت بمراكب الفرنج الفرنج فأسرت منهم و غنمت، و سيّر عسكر الى الشوبك و الطفيلة فعاثوا فى أرجائهما و رجعوا بجر الحقائب يحملون الأسرى، و سير الأسطول المصرى إلى عكا فأسر من أهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب، و ندب سرية أردفها بأخرى فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق فغنموا و عادوا.

و ملك الفرنج حصن حارم (۵۵۳) و شنوا الغارة على الأعمال الشامية و أطلقوا أيديهم بالنهب و الإخراب فى أعمال حوران و الإقليم، و قصدوا داريا و أحرقوا منازلها و جامعها و تناهوا فى إخرابها، فخرج إليهم من العسكرية و الأحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع. و أغار عسكر نور الدين على أعمال صيدا و ما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة و خرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج و رجالتها و قد كمنوا لهم فغنموهم و قتل أكثرهم و أسر الباقون. و تجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره و سار عسكر مصرى إلى بيت المقدس فعاث و خرب، و جرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج و أقلعت خمس شوان من مصر فدوخت ساحل الشام و ظفرت بمراكب الفرنج و عادت بالغنائم و الأسرى.

و فى سنة (۵۵۴) حشد ملك الروم و وصل الى الشام و جمع نور الدين عليه العساكر فعادوا من حيث أتوا و غنمهم المسلمون.

مرض نور الدين و إبلاله و تتمة فتوحه و هزيمته فى البقيعة:

من أعظم البلاء على ممالك الإسلام قديما مسألة وراثة الملك، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة لا تتصل فيها إلا القوة، و صاحبها قد يحرم غيره ممن هم أقرب نسبا من السلطان المتوفى، فلقد مرض نور الدين (۵۵۴) مرضا شديدا و أرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكى جمعا و حصر هذه القلعة و كان

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۲

شيركوه بحمص و هو من أكبر أمراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولى عليها.

و بها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك و قال: أهلكتنا و المصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حيا خدمته فى هذا الوقت، و إن كان قد مات، فإنا فى دمشق نفعل ما نريد من ملكها، فعاد شيركوه إلى حلب مجدّا، و جلس نور الدين فى شباك يراه الناس، فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير ميران.

و لما أبّل نور الدين من مرضه و استقامت الأحوال أخذ حران من أخيه لطمع هذا فى ملك نور الدين عند ما كاد الناس ييأسون من سلامته. و قصد صاحب صيدا (۵۵۶) من الفرنج نور الدين محمودا ملتجئا إليه فأمنه و سير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظهر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة و كان زهر الدولة بن بحتر التنوخى واليا على ثغر بيروت و مقيما بحصن سرحمور فولاه نور الدين القنيطرة و ثعلبايا بالبقاع و ظهر الأحمر من وادى التيم و برج صيدا و الدامور و المعاصر الفوقانية و شارون و مجدل بعنا و كفرعميه و رتب له علائف لمحاربة الفرنج، و كان أبوه شرف الدولة قاطنا فى عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج.

نازل نور الدين (۵۵۷) قلعة حارم و هى للفرنج مدة فاجتمع الفرنج و راسلوه و لاطفوه و كانوا خلقا عظيما فرحل عنها، و من أعظم الوقائع التى أصيب بها نور الدين بالفشل أكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (۵۵۸) يوم البقيعة بينا كان نازلا تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين و عسكره إلا و قد أطلت عليهم صلبان الفرنج و قصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة و فى يده السّبحة فنزل إنسان كردى فقطعها فنجا نور الدين و قتل الكردى و سار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها و تلاحق به من سلم من جيشه. و قد نقل سبط ابن الجوزى فى تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن للمسلمين برك (أثقال) و لا طليعة ظنا من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه قال: و كان ذلك من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو و لم يستظهروا بالبرك و الطلائع قال: و كان من عزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا: ما فعل هذا إلا عن قوة، و توقفوا ثم تفرقوا و خاطبوه بالصلح فلم يجبهم و تركوا عند حصن الأكراد من بحميه و عادوا إلى أرضهم.

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۳

و لما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل و ماردين و الحصن و ذكر لهم ما تم عليه فأنجدوه بجيوش ضخمة و كانت سنة (۵۵۹) كلها فتوحا نافعة كان فيها مبدأ سعادة نور الدين، فتح فيها حارم و قتل بالقرب منها عشرة آلاف و أسر ألوفا و من جملتهم صاحب أنطاكية و القومس صاحب طرابلس و الدوك مقدم الروم و كثر الأسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم فاداهم نور الدين. و كان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم: يقتل الجميع و قال آخرون: يفادى بهم.

فمال نور الدين إلى الفداء فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلا و خيلا و سلاحا و غير ذلك. فكان نور الدين يحلف باللّه أن جميع ما بناه من المدارس و الربط و المارستانات و غيرها من هذه المفاداة و جميع ما وقفه منها و ليس فيها من بيت المال درهم واحد.

قال المؤرخون: و كان الصليبيون جاءوا لنجدة حارم «فى حدهم و حديدهم و ملوكهم و فرسانهم و قسوسهم و رهبانهم» و كان الصليبيون استولوا على حارم سنة (۴۹۱) و زادوا فى تحصينها و جعلوها ملجأ لهم إذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة (۵۵۱) و

سنة (۵۵۷) ثم فتحها هذه السنة، و كانت قلعة حصينة فى نحور المسلمين.

و فى سنة (۵۵۹) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم و كان الفرنج و الأرمن على حارم ثلاثين ألفا و وقع بيمند فى أسره و باعه نفسه بمال عظيم أنفقه فى الجهاد.

حملة نور الدين على مصر:

فتح نور الدين تلك الفتوح و رايته منصورة و سطوته محذورة، استصفى من ضعاف أمراء المسلمين ما اتصل إليهم بالإرث من الأقاليم فنزلوا له عنها طوعا أو كرها، و اقتصد فى إهراق دماء المسلمين و أسرف فى إزهاق أرواح الصليبيين، و استرجع من الأعداء مدنا و حصونا مهمة جعلت إماراتهم الثلاث الباقية تهتز أعصابها، و تخاف بأس حملاته و غزواته، و لم يخامرهم شك و هم يستنشئون أخباره أنهم ابتلوا برجل و حدّ قوى الشام و جمع القلوب و وجّهها إلى قتالهم و استرجاع القطر منهم.

و لما تمّ له هذا وقع خلاف فى مصر بين شاور و ضرغام من وزرائها (۵۵۹)

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۴

و كانت غدت الوزارة فى دولة الفاطميين أشبه بالوزارة فى دولة العباسيين يتولاها من يستطيع أن يستجيش له أنصارا و أعوانا. و لما استلب ضرغام من شاور وزارته و عجز فى مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلا له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن هو أعاده الى الوزارة. فرأى نور الدين أن معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها أنها تفتح له سببا إلى التدخل فى شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها و ضمها إلى مملكته أو تقاضى ما وعد به شاور من الأموال ينفقها فى وجوه المصالح و المرافق فى الدولة. فإرسال حملة على مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للإسلام من عدة وجوه.

اقتضى رأى نور الدين بعد تدبّر أمر مصر أن يندب لها رجلا من أعظم رجاله دهاء و حنكة، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شاذى و أصحبه بابن أخيه صلاح الدين يوسف، و كانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة و استخصه نور الدين «و ألحقه (أى صاحب شرطتها) بخواصه فكان لا يفارقه فى سفر و لا حضر» و كان فى تلك السنة شحنة دمشق فأخاف اللصوص و قضى على نائره الفتن و فى تلك الفتن قال عرقلة الشاعر:

ذر الأتراك و العرباو كن فى حزب من غلبا

بجلّق أصبحت فتن‌تجر الويل و الحربا

لئن تمت فوا أسفاو إن تخرب فواعجبا

ذهبت الحملة الى مصر و أعاد أسد الدين شيركوه الوزير شاورا الى وزارة العاضد العلوى، و لما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشىء مما شرط على نفسه، فشق ذلك على أسد الدين، و سار فاستولى على بلبيس و الشرقية فأرسل شاور و استنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج و اجتمع معهم شاور بعسكر مصر و حصروا شيركوه ببلبيس ثلاثة أشهر. و بلغ الفرنج ما أصابه نور الدين فى الشام من التوفيق و أنه أخذ حارم فراسلوا شيركوه فى الصلح و فتحوا له طريقا فخرج من بلبيس يمن معه من العسكر و سار بهم و وصلوا إلى الشام سالمين.

هذا ما كان من مبدإ دخول الجند النورى إلى مصر و ما لقيه من الشدائد بيد أن قائدهم عرف أمراضها و خللها و اطلع على مداخلها و مخارجها، فكان إنجاد

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۵

نور الدين شاورا و استنجاد هذا بالفرنج درسا نافعا لدولة نور الدين أدركت به أنه لا سبيل إلى إنقاذ الشام إلا بالاستيلاء على مصر خصوصا و الفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفا شديدا و لا يطيقون مقاتلتهم. كان هذا أيام كان لهم شىء من السلطان على النفوس

و قوة على التناحر و التغاور فما بالك بهم و قد دب الضعف فى كيان دولتهم و عبث العابثون بعزتها و منعتها. و إلا كان نصيب خطته المرسومة فى قتال الصليبيين عقيما، لأن الروح الخبيث سرت لصغار الأمراء من المسلمين فى الاعتصام بأعدائهم إذا ضاقت بهم حالهم و أتاهم سلطان أعظم من سلطانهم، و لئن كانت الشام قد تطهرت من جراثيم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية بمصر إذا استهانت بمقدساتها أيضا يصبح البقاء فى الشام خطرا دائما.

و بينا كان نور الدين يحرّق الأرّم على شاور و فى نفسه منه حزازات لأنه لم يف له بما وعده، و استعان على قتال جيشه بالصليبيين، عاد شاور على عادته يظلم و يقتل و يصادر و لم يبق للعاضد معه أمر و لا نهى فبعث يستنجد بنور الدين على شاور، فما عتم نور الدين أن جهز أسد الدين شيركوه ثانية (۵۶۲) إلى مصر بعسكر جيد عدتهم ألفا فارس و أمر أيضا أن يخرج معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف إلى مصر فامتنع صلاح الدين و قال: يا مولانا يكفى ما لقينا من الشدائد.

فقال: لا بدّ من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين. و كان فى ذهاب صلاح الدين إلى مصر سعادته و سعادة أمته إذ فتح مصر و أصبح بعد ذلك ملك مصر و الشام على ما سنلم به فى الصفحات المقبلة. قال المؤرخون: أحب نور الدين مسير صلاح الدين إلى مصر و فيه ذهاب الملك من بيته، و كره صلاح الدين المسير و فيه سعادته و ملكه. و رب زارع لنفسه حاصد سواه. فاستولى أسد الدين على الجيزة و أرسل شاور إلى الفرنج و استنجدهم فساروا فى أثر شيركوه الى جهة الصعيد فهزمهم و استولى شيركوه على إقليم الجيزة و استغلها ثم سار إلى الإسكندرية و ملكها.

و جعل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى الإسكندرية و عاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر و الفرنج و حصروا صلاح الدين بالإسكندرية ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه و يسلم إليهم الإسكندرية و يعود إلى الشام، فتسلم المصريون الإسكندرية و عاد شيركوه إلى دمشق، و استقر الصلح بين الفرنج و المصريين على أن يكون للفرنج

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۶

بالقاهرة شحنة و تكون أبوابها بيد فرسانهم، و يكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

و لكن الحال فى مصر لم يسر سيرا حسنا لأن الفرنج لم يخلصوا، و من الخطإ الفاحش استنجاد شاور وزيرها بهم و استعانته بهم على إخراج أسد الدين شيركوه منها فأرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (۵۶۴) ثانية و كان الفرنج ملكوا بلبيس و حصروا القاهرة، فأحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج و أمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة و بقيت النار تحرقها أربعة و خمسين يوما، و صانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار.

و لما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج و خلع عليه العاضد و أجرى عليه الإقامات، و ماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال و إفراد ثلث خراج مصر، و عزم شاور أن يقبض على شيركوه فقبض العسكر النورى عليه و قتل، و دخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة و لقبه الملك المنصور أمير الجيوش و تولى شيركوه الأمر شهرين و خمسة أيام ثم هلك، فأحضر العاضد صلاح الدين و ولاه الوزارة و لقبه بالملك الناصر، و ثبتت قدم صلاح الدين بمصر أنه نائب لنور الدين، و تمكن منها و ضعف أمر العاضد فكان لا يجرى فى القصر صغيرة و لا كبيرة إلّا بأمر صلاح الدين، و أصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين.

بعض غزوات نور الدين:

و لم يغفل نور الدين فى غضون ذلك عن الإثخان فى الفرنج و إرهاف الحد فى قتالهم، و قويت عزيمته بعد أن أخذ حارم و بانياس (۵۵۹) على التقدم فى فتوحه و كان كلما طالت أيامه أيقن أن القوة القليلة المنظمة أفعل من القوة الكبيرة المبعثرة. و لم ينغصه فى

عمله سوى مقاومة أحد إخوته أمير ميران له حتى اضطره الى حربه فمضى أخوه أمير ميران إلى صاحب الروم و عفا عنه نور الدين. كأن السعادة التى أقبلت على هذا الفاتح من كل وجه أبت الطبيعة إلّا أن تكدرها عليه بمشاكسة أحد إخوته له، و كان بالأمس لما أرجف بموت نور الدين فى حلب قام يطالب بمملكة أخيه فحاربه، و اليوم يحمل أخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر؟؟؟ من سيئاته.

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۷

و فى سنة (۵۶۱) فتح نور الدين حصن المنيطرة و خرب قلعة اكاف فى البرية و فتح العريمة و صافيتا و حاصر حلبة و خربها و حاصر عرقة و عصا عليه غازى بن حسان صاحب منبج فأعطاه الرقة. و اجتمع بأخويه (۵۶۲) قطب الدين و زين الدين بحماة للغزاة و ساروا الى بلاد الفرنج فخربوا هونين. و فى سنة (۵۶۵) سارت الفرنج إلى دمياط و حصروها خمسين يوما و شحنها صلاح الدين بالرجال و السلاح و الذخائر و غرم على ذلك أموالا عظيمة، و خرج نور الدين فأغار على كورهم بالشام فرحلوا عائدين على أعقابهم و لم يظفروا بشىء منها. و فيها سار نور الدين إلى الكرك و حاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى البلقاء و قال بعضهم: إن الفرنج أغاروا على حوران و هم فى جمع غلبت كثرته الخبر و العيان، و نزلوا فى قرية شمسكين فركب نور الدين و هو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة و نزل نور الدين فى عشترا. و بينا هو فى البلقاء حدثت زلزلة هائلة فى الشام فخربت معظم أسوار الحصون ففرق عساكره فى القلاع خوفا عليها من العدو و كانت قلاعهم المجاورة لبعرين و لحصن الأكراد و صافيتا و عريمة و عرقة فى بحر من الزلازل غرقى و لا سيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور و أغارت سرية لنور الدين (۵۶۵) فى بعلبك فانهزم الفرنج و عمهم القتل و الأسر لم يفلت منهم إلا من لا يعتد به و قتل فيمن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد و كان من الشجاعة بمحل كبير و شجى فى حلوق المسلمين.

و غزا نور الدين (۵۶۶) الفرنج قرب عسقلان و عاد إلى مصر ثم حصر أيلة فى العقبة المصرية بحرا و برا و فتحها. و غزا عرقة (۵۶۷) و فتحها و غنم الناس غنيمة عظيمة. و استولى نور الدين على صافيتا و عريمة عنوة، و قارب طرابلس و هو ينهب و يخرب و يحرق و يقتل و فعل جيشه فى أرجاء أنطاكية مثل ذلك، فراجعه الفرنج و بذلوا له جميع ما أخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر إلى اللاذقية و أخذهما الفرنج و هما مملوءان من الأمتعة و التجارة، و كان بينهم و بين نور الدين هدنة فنكثوا و غدروا فلما خربت عمالتهم أذعنوا.

قيام بنى شهاب من حوران و حربهم الصليبيين:

و فى سنة (۵۶۸) كان قيام آل شهاب من حوران الى وادى التيم قال الشهابى:

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۸

و كان الكبير منهم فى ذلك الوقت الأمير منقذ، و لما عزموا على القيام جمع الأمير منقذ الأمراء من بيت شهاب و وجوه القبيلة و قال لهم: أنتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشامية و الحلبية و السلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية و لا بد أن السلطان نور الدين يتمم ما ينويه و قد دس العساكر فى حوران و تعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبة و المنزلة الرفيعة و أنا أرى أنه يلزم علينا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الأحوال، فلما سمع الحاضرون ما قاله الأمير منقذ قالوا له: هذا هو الصواب و ليس فينا أحد يخالف مقالك، ثم عزموا على القيام و شدوا ظعونهم و حملوا أحمالهم، و رحلوا من حوران بعشائرهم و قصدوا غربى الديار الشامية و نزلوا حذاء الجسر اليعقوبى.

و لما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران أرسل يسألهم عن السبب الداعى لقيامهم، و أرسل لهم الخلع و العطايا النفيسة، و طلب منهم أن يرجعوا إلى أوطانهم آمنين، فأبوا الرجوع بسبب خراب ديارهم، و طلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى مكان

آخر فسمح لهم بذلک، فنزلوا فی وادی التیم و کان نزولهم فی بیداء الظهر الأحمر من الکنیسة إلی الجدیدة و کانوا فی خمسة عشر ألفا و الأرض التی نزلوها تحت استیلاء الفرنج، فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جیشوا علیهم نحو خمسین ألفا بین فارس و راجل. و کان بطریقهم الکبیر یقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقیف فأمده بخمسة عشر ألفا فالتقوا مع عسکر الفرنج و دام القتال ثلاثة أیام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف و من آل شهاب ثلاثمائة، و نقب بنو شهاب حیطان قلعة حاصبیا مدة عشرة أیام و أخذوا قنطورا و جماعته، و کانوا ثلاثمائة و قتلوهم و أرسلوا رؤوسهم الی نور الدین فسر کل السرور و أعطی ذاک الإقلیم لآل شهاب ملکا لهم. و لما سمع صاحب قلعة الشقیف ما حل بالفرنج فی حاصبیا أرسل للأمیر منقذ یطلب منه الصلح.

و هکذا أدی بنو شهاب خدمة عظیمة للدولة، قاموا لما شعروا بجفاء بین السلطانین نور الدین و صلاح الدین، و الغالب أن صلاح الدین کان استمال قلوب رؤسائهم حتی لا یسهلوا لنور الدین طریق الحملة علی صلاح الدین فی مصر، فلما رأو أنهم لا قبل لهم بنور الدین عرجوا علی وادی التیم فکان فی ذلک خیرهم و خیر دمشق خاصة لأنهم وقفوا فی غربها وقفة محمودة و ردوا عنها عادیة الصلیبیین.

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۹

الفتور بین نور الدین و صلاح الدین:

قلنا إنه حدث جفاء بین السلطانین و السبب فیه أنه لما قویت سلطة صلاح الدین فی مصر و ولی ملکها بعد مهلک عمه أسد الدین شیرکوه و أصبح الآمر الناهی أرسل نور الدین إلیه یأمره بقطع الخطبة العلویة و إقامة الخطبة العباسیة، فراجعه صلاح الدین فی ذلک خوف الفتنة، فلم یلتفت نور الدین الی ذلک و أصر علیه فأمر صلاح الدین الخطباء أن یخطبوا للمستضیء العباسی فامتثلوا، و کان العاضد قد اشتد مرضه فلم یعلمه أحد من أهله بقطع خطبته و لما هلک جلس صلاح الدین للعزاء و استولی علی قصر الخلافة و علی جمیع ما فیه و کان شیئا کثیرا جدا فقویت بذلک شوکته و أصبح ملک مصر حقا و صدقا.

و ضیق علی آل الخلیفة الفاطمی حتی لا یتطال أحدهم لدعوی الخلافة بعد العاضد و استدعی من الشام أباه و إخوته، و کان نور الدین مع هذا لا یخاطبه توا بل یخاطب أمراءه بمصر و من جملتهم صلاح الدین، و لقد توطد ملک مصر لصلاح الدین و الخطبة له فیها بعد نور الدین یدعی لهذا بعد الخلیفة العباسی، و کلما مضی شهر یزداد نور الدین استیحاشا من صلاح الدین مع أن صلاح الدین سد أبواب الشک علی نور الدین، فقام بجمیع رسوم التعظیم له، و کان معه کقائد مع سلطانه، و کان صلاح الدین نازل الشوبک و هی للفرنج ثم رحل عنه خوفا أن یأخذه نور الدین، و اعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة فی تغیبه عن مصر و دعا دعاة العبیدیین إلی إرجاع دولتهم.

و لما جاء نور الدین الکرک من قابل و حصرها (۵۶۸) کان قد واعد نور الدین أن یجتمعا علی الکرک و سار نور الدین من دمشق حتی وصل الی الرقیم بالقرب من الکرک، فخاف صلاح الدین من الاجتماع بنور الدین و اعتذر بمرض أبیه و أنه یخشی أن یموت فتذهب مصر، فقبل نور الدین عذره فی الظاهر، و فی الواقع أن أیوبا والد صلاح الدین قضی نحبه فی تلک المدة. کان فی نفس کل من نور الدین و صلاح الدین شیء علی صاحبه، فلم یخرج صلاح الدین بعساکره الی الشام لحصار الکرک و الشوبک و نهب أعمالها إلا لما أیقن أن نور الدین ابتعد عن سمت الشمال و قصد بلاد قلیج أرسلان ملک الروم لفتح مرعش و بهسنا حتی لا

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۰

یجتمع به. و السبب الذی دعا صلاح الدین إلی حصار الکرک و الشوبک و قتل بعض العربان و نهب دیارهم هناک أن جماعة من الأعراب النازلین بأرض الکرک کانوا ینقلون الأخبار إلی الفرنج و إذا أغاروا علی البلد دلوهم علی مقاتل المسلمین.

و کان الکرک و الشوبک طریق الدیار المصریة و یغیر أهلها علی القوافل منها فقصد تسهیل الطریق لتتصل البلاد بعضها ببعض.

و كان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه فى مصر يخاف و آله من نور الدين، و كان استقدمهم إليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر و إذا قصدهم نور الدين فى مصر قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا الى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم ثم سيره بعسكر إلى اليمن ففتحها و استقرت اليمن فى ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسى ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على أن صلاح الدين لم يستطع إرسال العسكر من مصر لأول مرة إلا بعد استئذان نور الدين. فهذا و غيره من الأسباب التى أقلقت نور الدين على ملكه و حاذر أن تكون عاقبة هذا الأدب و الخضوع انتزاع ملكه منه أو إنشاء صلاح الدين مملكة جديدة أعظم و أغنى من مملكة نور الدين القديمة.

وفاة نور الدين و صفاته الطيبة:

بينا صلاح الدين يحاذر من نور الدين و هذا يتجهز للدخول الى مصر لأخذه أتى نور الدين اليقين، و مملكته الحقيقية لم تتعد الشام و الجزيرة و خطب له بمصر و اليمن و الحرمين، ففرق الموت شمل من كان يتخوف أحدهما من صاحبه، و بكت الأمة الملك العادل نور الدين أبا القاسم محمود بن عماد الدين أتابك لما ظهر من عدله و حسن سيرته بحيث قلّ فى الملوك الغابرين أمثاله. قال ابن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام و فيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين و عمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، و لا أكثر تحريا للعدل و الإنصاف منه، قد قصر ليله و نهاره على عدل ينشره، و جهاد يتجهز له، و مظلمة يزيلها، و عبادة يقوم بها، و إحسان يوليه، و إنعام يسديه، فلو كان فى أمة لافتخرت به فكيف ببيت واحد، أما زهده و عبادته و علمه فإنه كان مع سعة ملكه و كثرة ذخائر بلاده و أموالها، لا يأكل و لا يلبس و لا يتصرف فيما

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۱

يخصه إلّا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة و من الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. أحضر الفقهاء و استفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله و لم يتعده إلى غيره البتة. و أسقط كل ما يدخل فى شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية و الخراج و ما يحصل من قسمة الغلات و كتب أكثر من ألف منشور بذلك. و أطلق المظالم بحلب و دمشق و حمص و غيرها و أسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب و المكوس و حرمها على كل متطاول إليها، فكان مبلغ ما سامح به فى حلب و ما إليها فقط فى السنة ۱۵۶ ألف دينار و ما وقفه و تصدق به مائتى ألف دينار، و تقدير الحاصل من ارتفاعه فى كل سنة ثلاثون ألف دينار، و أقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج و جدد قنى السبل و وقف الكتب الكثيرة، و أجرى على العلماء و القراء. و لقد رأى أصحابه على ما روى ابن الأثير كثرة خرجه فقال له أحدهم: إن لك فى بلادك إدرارات و صدقات كثيرة على الفقهاء و الفقراء و الصوفية و القراء فلو استعنت بها فى هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك و قال: و اللّه إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما أنتم ترزقون و تنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى و أنا نائم على فراشى بسهام لا تخطىء و أصرفها الى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب و قد تخطىء. و هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم؟.

و كان يأخذ مال الفداء و يعمر به الجوامع و البيمارستانات و أخذ من أحد ملوك الفرنج ثلاثمائة ألف دينار و شرط عليه أن لا يغير على ديار الإسلام سبع سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام و أخذ منه رهائن على ذلك و بنى بالمال المستشفى النورى بدمشق، و لما بلغ الملك الفرنجى مأمنه هلك. و كان يبعث بما يصل إليه من هدايا و غيرها إلى القاضى يبيعه و يعمر به المساجد المهجورة و لا يتناول منه شيئا، و أمر بإحصاء مساجد دمشق فأحصيت مائة مسجد فوقف الأوقاف على جميعها، و كانت وقوفه فى الشام سنة وفاته ۱۰۸ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطنا و ظاهرا صحيح الشراء. و كان آية الرحمة على الفقراء و العدل فى الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه. حضر جماعة من التجار عنده و شكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار و تزيد و تنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۲

و لا يرى الدينار فى الوسط و إنما يعدون إلى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار و تارة سبعة و ستين بدينار، و أشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه و تكون المعاملة بالدنانير الملكية و تبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة و قال: إذا ضربت الدينار و أبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنى ضربت بيوت الرعية. فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف و عشرون ألف قرطاس، فى شيء يعمل به فيكون سببا لخراب بيته.

قالوا، و الحق ما قالوا، إن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل و الإنصاف، و ترك المحرمات و عاقب من يأتيها، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه و فرجه، لا يعرف معروفا و لا ينكر منكرا، حتى جاء اللّه بدولته فكانت مصباح الحق و منار العدل، وقف مع أوامر الشرع و نواهيه، و ألزم بذلك أتباعه و ذويه فاقتدى به غيره منهم، و كان يروى الحديث و يرويه، و قد ألف كتابا فى الجهاد، و كان يباشر الإشراف على خيل الجند و سلاحهم بنفسه، و لا يتكل على خواده، و لا يقطع أمرا قبل أن يستأذن الخليفة ببغداد. و كان فى السياسة و الدهاء على جانب عظيم، تجلى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق و لما أخذه أغضى عنه، و كان يكره إهراق الدماء و الحرب على غير طائل، مع شجاعة ليس بعدها مزيد و معرفة بالرماية تضرب بها الأمثال، و من جيد الرأى ما سلكه مع مليح بن قيون ملك الأرمن صاحب الدروب فإنه ما زال يخدعه و يستميله حتى جعله فى لدمته سفرا و حضرا؛ و كان يقاتل به الفرنج و يقول: إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة و عرة المسالك، و قلاعه منيعة و ليس لنا إليها طريق، و هو يخرج منها إذا أراد فينال من الإسلام، فإذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الأقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا و خدمتنا و ساعدنا على الفرنج. و كان متملك الروم خرج من القسطنطينية و توجه إلى الشام طامعا فى تسلم أنطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة إلى أن وصل أخوه قطب الدين فى جنده من المواصلة و جمع له الجيوش و العساكر، فأيس الرومى من بلوغ ما كان يرجو و تمنى منه الصلح فاستقر رجوعه إلى بلاده.

و قال مترجموه: إنه كان يكثر إعمال الحيل و المكر و الخداع مع الفرنج و أكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب، أما أعماله فى رد المظالم و تخفيف المغارم

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۳

فسيرته فيها سيرة عمرية، و أما إنشاؤه المدارس و الجوامع و عمارة الطرق و الجسور و دور المرضى و البائسين و الخانات فمما لم يسبق إليه، أقام الأبراج على الطرق بين المسلمين و الفرنج جعل فيها من يحفظها و معهم الطيور الهوادى أى الزاجل فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم و احتاطوا لأنفسهم، و بنى مكاتب للأيتام و أجرى عليها و عليهم و على معلميهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم و أهله مقر العلم و مباءة الفقه.

هذه حال ملك القرون الوسطى و حسن بلائه فى خدمة أمته و هو يقاتل الأعداء فى الغرب و الجنوب، و قد فتح نيفا و خمسين حصنا و أقام المعالم و هو مشتغل بحفظ الأوطان، لم يدخل اليأس على نفسه و لم يخامره الشك بأن العاقبة المحمودة تكون له و للمسلمين، و أنه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه. مع أن مدة ملكه فى الشام لم تتجاوز أربعا و عشرين سنة. لا جرم أن ظهور بنى زنكى نعمة أنعمت بها الأقدار على هذه الديار، فخرجت بها من انقسام الكلمة و تشتت الأهواء و الآراء، و من خيانة الملوك و الأمراء، و الاعتضاد بالمحاربين من الأعداء إلى تماسك و تعاضد، و من ظلمة الجهل و الغرور إلى ضياء العلم و النور، و من سلب أموال الأمة إلى إمتاعها بالعدل الشامل و الأمن الكامل. بسقت فروعها فى أيسر زمن و أحرج العصور، فخطب الناس ودّها فى كل مكان و ودوا لو كان لها الحكم عليهم، و رجا أولياؤها أن تطول أيامها لأنها لا تسوق الناس إلا إلى طرق فلاحهم و سعادتهم.

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۴

الدولة الصلاحية «من سنة ۵۶۹ الى سنة ۵۸۹»

أولية صلاح الدين و الملك الصالح:

توفى نور الدين محمود بن زنكى و كان له السلطان الأكبر على القلوب تحبه رعيته و يخافه أعداؤه و يحترمونه، و بعدله و سيرته و جميل سياسته و إداراته، وطد أساس ملكه، و وحد كلمة الشام و مصر و الجزيرة، و أنشأ عظماء فى دولته كانوا ساعده الأيمن و عضده الأقوى ففتحوا الفتوح باسمه و يمن نقيبته، و صدروا كلهم عن رأيه و مشورته، و من أعظمهم بل أعظمهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب. و أصل صلاح الدين من دوين بلدة فى آخر عمل أذربيجان من جهة إيران و بلاد الكرج و هم أكراد زوادية و هى قبيلة كبيرة تعد من أشراف الأكراد، و انتقل أهله من هناك إلى العراق ثم عين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين محافظا لقلعة تكريت و فيها ولد ابنه هذا، و كان نجم الدين أيوب بن شاذى حسن الخلق عادلا شجاعا كريما دينا محسنا ربى فى الموصل و نشأ شجاعا باسلا و خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى، فرأى منه أمانة و عقلا و سدادا و شهامة، فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام، حتى عمرت أرضها و أمنت سبلها ثم أضيفت إليه ولايتها، و كان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين و الخير و حسن السياسة، و اتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده و نوابه. و هذا الرجل العظيم هو الذى أولد رجلا أعظم و هو صلاح الدين.

و كأن الزمن العصيب الذى ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكا كفاة أثبتوا بالعمل مقدرتهم السياسية و الحربية، و أبرزوا

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۵

من آثار نجدتهم و جلادتهم ما تطأطىء أمامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زورا و رياء و لا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل و لا يسمع إن لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قلّ فى طبقة قواد الأمم مثلها. و لم يبق فى الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الأمر مثل صلاح الدين لأنه أنبغ رجاله و أكبرهم مقاما و شأنا و أقربهم إلى قلوب الأمة، و هو ملك مصر حقا، و من ملك مصر كان حريا بأن يملك الشام، خصوصا و الشام يحبه، لما بدا من غنائه و مضائه فى نصرة الملة و الدولة.

و لكن نور الدين قد خلف ولدا يقضى قانون الوراثة فى الملوك فى تلك الأعصر بأن يرث الابن ملك أبيه كما يرث قصره و مزرعته مهما كانت سنه، و يتولى رجال الدولة أمره و يكفله من يعطفون على دولته و من غذوا بنعمة أبيه و آله، بيد أن الحالة السياسية فى الشام و مصر و ما إليهما من الممالك كانت بحيث يقتضى الشذوذ عن هذه القاعدة و لو إلى حين، فيوسد الملك إلى من جمعت أشخاصهم الكفاءة قبل كل شىء لتخرج المملكة من مأزقها الحرج، و هذا لا يتيسر أن ينهض به ولد يافع بلغ من العمر إحدى عشرة سنة، و نعنى به ابن نور الدين الملك الصالح إسماعيل. فانظر كيف تصرفت الأقدار بما فيه الخير، و لم تترك مصالح الدولة للأصول السخيفة فى توسيد الملك للكبير و الصغير على السواء.

توفى فى دمشق نور الدين فى سنة (۵۶۹) و بالحال ملك ابنه الصالح إسماعيل و حلف له العسكر بدمشق و أطاعه صلاح الدين و خطب له بمصر و ضرب السكة باسمه، و دبر دولته شمس الدين بن المقدم من أعظم أمراء أبيه، و استولى سيف الدين غازى شقيق نور الدين محمود على الديار الجزرية و هى لنور الدين، و كان صلاح الدين فى مصر، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لأبيه من قبل. بيد أنه من المتعذر إدارة المملكة فى ذاك العصر إذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى شروط الحكم، فيصدر عن رأى واحد يمحضه أولا- بمشورة رجال دولته و يكون هو المرجع فيه و المسؤول عنه، يهتم لملكه اهتمامه بابنه و ابنته، و هل يتيسر ذلك إذا تشعبت الآراء. و كان صاحب الملك الرسمى قاصرا و أوصياؤه يدبرونه و ربما كان فيهم من تطمح نفسه إلى الاستئثار بالسلطة، و متى كان الوكيل كالأصيل، و المتنفل كالمكلف:

ممالك لم يدبرها مدبّرهاإلا برأى خصىّ أو بعقل صبى

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۶

اختلاف الآراء و استيلاء صلاح الدين على الشام:

و لما بدأت نواجذ الاختلاف تبدو بين الأمراء فى الشام شعر صلاح الدين و هو بمصر أن هذا الفراغ الذى حدث بموت نور الدين يستلزم أن يملأه رجل تجمع القلوب على حبه، و أن يصل السلسلة المقطوعة بمهلكه و إلّا انفرط العقد كله، و تصبح الديار فوضى و تفتح أبوابها على مصاريعها لدخول الدخلاء يستصفونها و تصبح بالشقاق الداخلى أبشع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الأتاكية أخلاف الأتابك ظهير الدين.

و اتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر و قصدهم بانياس فخرج إليهم شمس الدين بن المقدم و راسل الفرنج و خوفهم بقصد صلاح الدين لأرضهم و قال لهم: أنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، و الآن فقد زال ذلك الخوف و إذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع، فعلموا صدقه و صالحوه، و تكلموا فى الهدنة و حصلوا بقطيعة استعجلوها و استطلقوا عدة من أساراهم و تمت المصالحة. و فى تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته فى قلوب رجال الدولة و أن الصليبيين عرفوا أنهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره و شجاعته.

بلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم و الفرنج فأنكره و لم يعجبه، و كتب إلى جماعة الأعيان كتابا يقوعهم فيه و يلومهم، و يقول إنه تجهز و خرج و سار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الإسلام فعاد إلى مقره. و قد «استصغر أمر أهل الشام و علم ضعفهم» و قال: «إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، و ضاقت المناهج المتسعة، و انفردت مصر عن الشام». قال ابن شداد:

لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين و كون ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك، و لا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج الى الشام إذ هو أجلّ بلاد الإسلام. و قد كان صلاح الدين ينوى أن يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين و كتب: «إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة، و المحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة». و لكن الأمراء فى الشام أخذ كل منهم يعمل على شاكلته، و يريد أن يستأثر بالأمر دونه و هو أحق منهم و أولى.

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۷

ثم إن شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب و رضيع نور الدين و أكبر أمرائه أرسل سعد الدين كمشتكين الى دمشق يستدعى الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها، و لما استقر بحلب و تمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية و إخوته و على الرئيس ابن الخشاب و إخوته، و استبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم و غيره من الأمراء الذين بدمشق، و كاتبوا صلاح الدين فى مصر و استدعوه ليملكوه عليهم (۵۷۰) فسار صلاح الدين جريدة فى سبعمائة فارس فوصل إلى بصرى و كان صاحبها يستحثه على القدوم، و لما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر و التقوه و خدموه، و عصت عليه القلعة و كان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين و استماله فسلم القلعة إليه، فصعد اليها صلاح الدين و أخذ ما فيها من الأموال. ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتابا يتواضع له فيه و يخاطبه بمولانا و ابن مولانا و يقول: إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدى ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك و تختل أمورك، و ما قصدى إلّا جمع كلمة الإسلام على الفرنج. فعرض الملك الصالح ذلك على أمراء دولته فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة فكتب إليه منكرا عليه، و ينسبه إلى كفر النعمة و جحد إحسان والده و وعده و هدده فساء ذلك صلاح الدين و أغضى على القذى و كظم غيظه.

و لما قرر صلاح الدين أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب و سار إلى حمص و كانت حمص و حماة و بارين و سلمية و تل خالد و الرّها فى إقطاع فخر الدين مسعود بن الزغفرانى فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين المقام بحمص و

حماة لسوء سيرته مع الناس، و كانت هذه العمالة له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين و ليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم الإبارين، فملك صلاح الدين مدينة حمص و عصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها و دكوها و رحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالإسماعيلية و أعطاهم ضياعا و مالا ليستعين بهم على صلاح الدين، فلم يلبث أن ملك مدينة حماة و كان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع فى القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل و إنما هو نائبه، و قصده من جرديك المسير إلى حلب فى رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۸

و سار إلى حلب برسالة صلاح الدين و استخلف فى قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين و سجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، ثم سار هذا الى حلب و حصرها و بها الملك الصالح إسماعيل، فجمع أهل حلب و قاتلوا صلاح الدين و صدوه عن مدينتهم، و أرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوا دونه، و استمر صلاح الدين محاصرا لحلب و رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، فعاد إليهم فرجعوا أدراجهم، و وصل صلاح الدين إلى حمص فحصر قلعتها و ملكها ثم سار إلى بعلبك فملكها.

تملك صلاح الدين و محاولة اغتياله و سر نجاحه:

و لما استقر ملك صلاح الدين أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه، و طلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ليسير فى النجدة أيضا فامتنع مصانعة لصلاح الدين، و وصل عسكر الموصل و انضم إليه عسكر حلب و ساروا إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص و حماة و أن تقر بيده دمشق، و أن يكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك و ساروا إلى قتاله، و اقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل و حلب، و حينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين و أزال اسمه عن السكة و استبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، و للملك الصالح ما بقى بيده منه، فصالحهم على ذلك و رحل ثم ملك قلعة بارين كما صالح بنى رزيك على أن يكون له إلى حد المعرة و لهم ما يلى ذلك فنقض الحلبيون الصلح الذى كان بينهم و بين صلاح الدين و جاء سيف الدين غازى فى عساكر الموصل و ديار بكر و حلب و عدتهم عشرون ألفا بين فارس و راجل، و عسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر. و قال رسول سيف الدين لصلاح الدين إنه رأى صلاح الدين فى خيمة صغيرة على بساط لطيف و تحته سجادة و بين يديه مصحف و هو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته و سيفه و قوسه و تركاشه (جعبته) معلق فى عمود الخيمة،

خطط الشام، ج۲، ص: ۴۹

فلما رأيته وقع فى خاطرى أنه المنصور لأننى فارقت سيف الدين و الأمراء و هم على طنافس الحرير و الخمور تراق و الطبول تعمل، و ليس فى خيامهم خيمة إلا و فيها أنواع المحرمات، فأديت اليه الرسالة و جاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الآذان و فى كل خيمة إمام. قال سبط ابن الجوزى: إن صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشا بالرياحين، و المغنون جلوس فى انتظاره، و الخمور تراق و مطابخه بقدورها، و فيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القمارى و البلابل و الهزارات، فأرسل صلاح الدين بما كان فى السرادق من المغنين و الخمور و الطيور إليه و قال للرسول: قل له اشتغالك بهذا أليق من مباشرتك الحروب و لا تعد إلى مثلها. و كان هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين و سيف الدين غازى فى سنة (۵۷۱) فهرب سيف الدين و العساكر التى كانت معه و كان استنجد بعد هزيمته فى قرون حماة بصاحب حصن كيفا و صاحب ماردين و غيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها و تسلمها و قصد منبج فحصرها و افتتحها عنوة. و لما جلس يستعرض أموال صاحبها و ذخائره

كان فى جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار و من الفضة و الآنية الذهبية و الأسلحة ما يناهز ألفى ألف دينار، فحانت من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس و الآنية مكتوبا «يوسف» فسأل عن هذا الاسم فقيل له: ولد يحبه و يؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له فقال السلطان: أنا يوسف و قد أخذت خبيء فتعجب من ذلك (رواه ابن أبى طى).

ثم سار السلطان الى عزاز و نازلها و تسلمها فوثب إسماعيلى على صلاح الدين فى حصاره عزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين يدى الإسماعيلى و بقى يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلى على تلك الحال و وثب آخر عليه فقتله أيضا و جاء السلطان الى خيمته مذعورا و عرض جنده و أبعد من أنكره منهم. و هكذا فإن صاحب حلب أو نائبه أو جماعة دولته، و صاحب حماة أو نائبه أو حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بأيدى الخوارج حرصا على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمنا أولا يستمتعون، و لو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين فى دعة و مجد، و ما أكثر الأدعياء فى كل زمن فى حب دينهم و قوميتهم، فإذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ أنفسهم فقط.

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۰

و بعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها و بها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين فى الصلح فأجابهم اليه و سألوه قلعة عزاز فسلمها إليهم، و رفع على حلب علمه الأصفر، و رحل عنها فى المحرم (۵۷۲) و رجع من كورة الإسماعيلية و حصر قلعة مصياف، فسأله خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماة الصفح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم إلى مصر، و سنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية و مقدم الفرقة الباطنية بالشام و إليه تنسب الطائفة السنانية و هو الذى كتب إلى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان و افتتحه بقوله:

يا ذا الذى بقراع السيف هدّدنالا قام مصرع جنبى حين تصرعه

قام الحمام إلى البازى يهدّدهو استيقظت لأسود البرّ أضبعه

أضحى يسدّ فم الأفعى بإصبعهيكفيه ما قد تلاقى منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين و قد كتب إليه مرة أخرى:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلتبيوتك فيها و اشمخّر عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوىمغارسها منا و فينا حديدها

و فى ذلك بيان لقوة الإسماعيلية فى عصر صلاح الدين و كانوا يتهددونه كما يتهددهم و لذلك كان يغضى فى الغالب عنهم و إن حاولوا اغتياله غير مرة. و لما بلغ عسقلان (۵۷۳) و شن الغارات على الفرنج طلعوا عليه و هو فى بعض العسكر فقاتلهم أشد قتال، و قاربت حملات الفرنج السلطان فانهزم إلى مصر على البرية و معه من سلم، فلقوا مشقة و عطشا و أسر الفرنج العسكر المتفرق فى الإغارة، و أسر الفقيه عيسى من أكبر أصحاب صلاح الدين فافتداه بعد سنين بستين ألف دينار هذا مع أن جيش صلاح الدين كان نحو عشرين ألفا وقعت الكسرة عليهم لأنهم كانوا متفرقين فى الغارات و كسروا و معظمهم لم يعلم بالهزيمة. و فى هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعا بهزيمة صلاح الدين و بعده و كادوا يملكونها فجد المسلمون فى القتال ثم رحلوا عنها إلى حارم. و فيها قبض الملك الصالح على كمشتكين متغلبا على الأمر و كانت له حارم فعذب كمشتكين و أصحابه ليسلموا

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۱

قلعة حارم فأصروا على الامتناع حتى مات من العذاب، و وصل الفرنج من حصار حماة، و حصروا حارم أربعة أشهر فداراهم الصالح بمال فرحلوا عنها بعد بلوغ أهلها الجهد، ثم أرسل الملك الصالح عسكرا فحصروها و ملكوها.

فتوح صلاح الدين و وفاة الملك الصالح:

أرسل صلاح الدين (۵۷۴) إلى شمس الدين بن المقدم ليسلم بعلبك إلى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها و سلمها إلى توران شاه (۵۷۵) و بعث السرايا و الغارات إلى أرض الفرنج بعد موت ملكهم، و كان هذا يريد أن يغير على دمشق فأخذه رجال صلاح الدين و أسروه و غنموا ما مع جماعته، و فتح صلاح الدين حصنا كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس، و كان الفرنج انتهزوا فرصة مقام صلاح الدين على بعلبك و اشتغاله بأمرها فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان و بينه و بين دمشق مسافة يوم و بينه و بين صفد و طبرية نصف يوم، فراسل السلطان الفرنج فى هدمه فأجابوا أنه لا سبيل الى هدمه إلّا أن يعطينا ما غرمنا عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، و كان الداوية أصحاب الحصن لقطعون هناك الطرق على القوافل فخربه المسلمون، و كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين و مقدّمهم ابن أخيه تقى الدين عمر و بين عساكر قليج أرسلان بين مسعود صاحب الروم، و سببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان و أرسل إليه عسكرا كثيرا ليحصروه و كانوا قريب عشرين ألفا فسار إليهم تقى الدين فى ألف فارس فهزمهم و كان تقى الدين يفتخر و يقول هزمت بألف عشرين ألفا. و فى هذه السنة أحرق الإسماعيلية أسواق حلب و افتقر أهلها بذلك و كانت إحدى الجوائح التى أصابت الشهباء و سكانها. و سار صلاح الدين (۵۷۶) إلى مملكة قليج أرسلان صاحب الروم و وصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين ولاية ابن ليون الأرمنى و شن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله و أسرى أطلقهم.

و فى سنة (۵۷۷) عزم صاحب الكرك الفرنجى على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحى، و سمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه صلاح

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۲

الدين بدمشق فقصد الكرك و أقام عليها، ففرق صاحب الكرك جموعه و انقطع عزمه عن الحركة. و فى هذه السنة توفى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين و عمره نحو ۱۹ سنة و أوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح و معه مجاهد الدين قيماز و استقر فى ملكها فكاتبه أخوه زنكى بن مودود صاحب سنجار على أن يعطيه حلب و يأخذ سنجار و أشار قيماز بذلك فأجاب و عاد الى الموصل.

قال ابن الاثير: إن بعضهم قال للملك الصالح و هو يوصى بالملك بعده: إن عماد الدين ابن عمك أيضا و هو زوج أختك و كان والدك يحبه و يؤثره و هو تولى تربيته و ليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد (حلب) لكان أصلح و لعز الدين من الفرات إلى همذان و لا حاجة به إلى بلدك فقال له: إن هذا لم يغب عنى و لكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة الشام سوى ما بيدى، و متى سلمت حلب إلى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح الدين و لم يبق لأهلنا معه مقام، و إن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره و أرضه فاستحسنو قوله و عجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه و صغر سنه.

و فى سنة (۵۷۸) قصد صلاح الدين الشام من مصر و أغار فى طريقه على الفرنج و غنم، و اجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه لما سار، فانتهز فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة و فتح بعسكر الشام الشقيف و أغار على ما يجاوره و فتح دبورية و جاء إلى شقيف «حبس جلدك» بالسواد من أعمال طبرية و هو حصن يشرف على أرض المسلمين ففتحه. و نزل صلاح الدين قرب طبرية و شن الغارات على بيسان و جنين و اللجون و الغور من مملكة الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم و قتل و حصر بيروت و أغار على تلك الأرجاء و نهب بلدها و كان قد أمر الأسطول المصرى بالمجيء فى البحر إليها فساروا و نازلوها و أغاروا عليها و على بلدها، و كان عازما على ملازمتها إلى أن يفتحها فأتاه الخبر و هو عليها أن البحر قد ألقى إلى دمياط بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير، فكان عدة الأسرى ۱۶۷۶ أسيرا. ثم عبر السلطان الفرات إلى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بورى صاحب حران و استمال ملوك الأطراف فصار معه نور الدين محمد بن

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۳

قرا أرسلان صاحب حصن کیفا و حاصر الرّها و ملکها و سلمها إلی کوک بوری ثم أخذ الرقة و قرقیسیا و ماکسین و عربان و الخابور جمیعا ثم ملک نصیبین و قلعتها ثم حصر الموصل و بها صاحبها عز الدین مسعود و مجاهد الدین قیماز و قد شحنت رجالا و سلاحا و حاصر سنجار و ملکها و أتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق و نهبوا القری و وصلوا إلی داریا و أرادوا تخریب جامعها فأرسل النائب بدمشق إلیهم جماعة من النصاری یقول لهم: إن أخربتم الجامع جددنا عمارته و أخربنا کل بیعة لکم فی أرضنا و لا نمکن أحدا من عمارتها فترکوه.

قصد الفرنج المقیمون بالکرک و الشوبک المسیر لمدینة الرسول لینبشوا قبره الشریف و ینقلوا جسده الکریم إلی بلادهم و یدفنوه عندهم و لا یمکنوا المسلمین من زیارته إلا بجعل فأنشأ البرنس أرناط صاحب الکرک أسطولا فی بحر أیلة (العقبة) و جعله فرقتین فرقة حصرت حصن أیلة و فرقة سارت نحو عیذاب یفسدون فی السواحل بغتة، و لم یعهد بهذا البحر فرنج قط، فعمر الملک العادل أبو بکر بن أیوب نائب الناصر بمصر أسطولا فی بحر عیذاب و أرسل به مع حسام الدین لؤلؤ الحاجب متولی الأسطول بمصر، فأوقع لؤلؤ بمحاصری أیلة فقتل و أسر، ثم طلب الفرقة الثانیة و قد عزموا علی دخول المدینة و مکة فبلغ رابغ، فأدرکهم بساحل الحوراء و قاتلهم أشد قتال فقتل أکثرهم و أسر الباقین و أرسل بعضهم إلی منی لینحروا بها و عاد بالباقین فقتلوا عن آخرهم بمصر.

و ملک صلاح الدین آمد (۵۷۹) و کان وعد بها محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن کیفا و سقط فیها علی خزانة کتب فیها ألف ألف و أربعون ألف کتاب فوهبها لوزیره القاضی الفاضل فانتخب منها حمل سبعین جملا، و کان فیها من الذخائر ما یساوی ثلاثة آلاف ألف دینار، فوهبها لابن قرا أرسلان هذا، فلما قیل له فی ذلک قال: لا أضن علیه بما فیها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا و أصحابنا و نحن إنما نرید أن یسیر الناس معنا علی قتال الأعداء فقط، و لیس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد، هذا و بعد مدة قلّ المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدین من أخیه العادل ۱۵۰ ألف دینار لإطعامهم. و فتح صلاح الدین تل خالد من أعمال حلب ثم عینتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنکی بن مودود و أعطاه سنجار، و شرط علیه الحضور إلی خدمته بنفسه و عسکره إذا

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۴

استدعاه، و لا یحتج بحجة عن ذلک. و من الإتفاقات العجیبة أن محیی الدین بن الزکی قاضی دمشق مدح السلطان بقصیدة منها:

و فتحکم حلبا بالسیف فی صفرمبشر بفتوح القدس فی رجب

فوافق فتح القدس فی رجب سنة ثلاث و ثمانین و خمسمائة. ثم سار صلاح الدین من حلب بعد أن تسلم حارم و نظم أمر تلک الأرجاء و تجهز من دمشق فأحرق بیسان و شن الغارات علی تلک النواحی و أرسل إلی أخیه العادل بمصر أن یلاقیه إلی الکرک فاجتمعا علیها و حصراها ثم رحلا عنها. و سار فی السنة التالیة (۵۸۰) من دمشق فنازل الکرک و کتب إلی مصر فسار إلیه عساکرها فضیق علی من به و ملک ربض الکرک، و لم یتیسر له الإستیلاء علی قلعتها فرحل عنها لامتناعها علیه، فسار إلی نابلس و أحرقها و نهب ما بتلک النواحی و قتل و أسر و سبی فأکثر ثم سار إلی سبسطیة فاستنقذ من بها من أسری المسلمین. و فی سنة (۵۸۱) حصر الموصل مرة ثانیة فسیر أتابک عز الدین صاحبها والدته و معها ابنة عمه نور الدین محمود و غیرهما من النساء و جماعة من أعیان الدولة یطلبون المصالحة و کل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلی ذلک لا سیما و معهن ابنة مخدومه و ولی نعمته نور الدین فلما وصلن الیه اعتذر بأعذار غیر مقبولة و أعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء، و ندم صلاح الدین بعد ذلک علی ردهن، و جاءته کتب القاضی الفاضل و غیره یقبحون فعله و ینکرونه. و سار صلاح الدین عن الموصل إلی خلاط و ملک میافارقین. و غزا صاحب الکرک (۵۸۲) و أسر قافلة من المسلمین فطلبهم السلطان بحکم الهدنة فأبی فنذر صلاح الدین قتله بیده. و کان أرنلط من أغدر الفرنجة و أنقضهم للمواثیق المحکمة و الأیمان المبرمة. و کان کفیل القومص صاحب طرابلس قد حنق علی جماعته الفرنج لأن زوجة ریمند بن ریمند الصنجیلی هویت رجلا من الفرنج اسمه کی و أخرجت کفیل ابنها من ملک طرابلس و کان طمع فیه، فراسل صلاح الدین و انتمی إلیه و اعتضد به، و طلب منه المساعدة علی بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدین و المسلمون

بـذلك و وعـده النصـرة و السـعى له فى كل ما يريد، و ضـمن له أن يجعله ملكا مسـتقلا للفرنج قاطبة، و كان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم، فحل ذلك عنـده أعظم محل، و أظهر طاعة صـلاح الدين و وافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم.

قال صاحب الكامل:

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۵

و كان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم و استنقاذ البيت المقدس منهم.

وقعة حطين و فتح فلسطين:

كانت سنة (۵۸۳) سـنة مباركة جدا على صـلاح الدين و على المسـلمين، كما كانت عليه سـنة (۵۶۴) بفتح مصـر و إنقاذها من أيدى الفاطميين. ضـرب صـلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا أديم الشام سنة (۴۹۱) فبدأ بمضايقة الكرك (۵۸۳) خوفا على الحجاج من صاحبها فأخرب كما قال من رسالة إلى أخيه سيف الإسـلام عماراتها و أحرق غلاتها، و قطف ثمراتها، و أزعج ساكنيها، و أخاف آمنيها، و أجلى عنها فلاحيها، و أقام النوائح عليها فى نواحيها. و أغار بعض عسكره على عكا و غنموا ثم حصر مدينة طبرية و معه الجاندارية و الخراسانية و الحجارون و النقابون ففتحها بالسـيف و كانت للقومص صاحب طرابلس، و كان مهادن السلطان فاجتمع إلى الفرنـج للحرب- و كانت طبريـة تقاسم على نصف مغل الصـلت و البلقاء و جبل عوف و الحيانية و السواد و تناصف الجولان و ما يقربها إلى كورة حوران.

و اجتمعت ملوك الفرنـج فارسـا و راجلا و ساروا إلى صـلاح الـدين فركب إليهم من طبريـة، و التقى الجمعان و اشـتد القتال بينهم و أحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية و أبادوهم قتلا و أسرا على قرية حطين بالقرب من طبرية و أسر فى جملة من أسر ملك الفرنج الكبير و صاحب الكرك و صاحب جبيل و غيرهم من قمامصـتهم و أمرائهم. و كان الفرنـج فى حطين خمسـة و أربعين ألفا فلم يسـلم منهم سوى الفـلّ و قتـل الباقون و استأسـروهم فقتل منهم أربعون ألفا و قيل أقلّ من ذلك، و لما انقضـى المصاف جلس السـلطان فى خيمته و أحضـر ملك الفرنج و أجلسه إلى جانبه و كان الحر و العطش به شديدا فسـقاه السـلطان ماء مثلوجا و سـقى ملك الفرنج منه البرنس أرنلـط صـاحب الكرك فقـال له السـلطان: إن هـذا الملعون لم يشـرب الماء بإذنى فيكون أمانا له، ثم كلم السـلطان البرنس و وبخه على غـدره غير مرة و على قصـده الحرمين الشـريفين، و قام السـلطان بنفسه فضـرب عنقه فارتعـدت فرائص ملك الفرنج فسـكن جأشه.

قالوا: و قد عرض السـلطان الإسـلام على الداوية و الإسـبتار، فمن أسلم منهم استبقاه، و من لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم، و بعث بباقى الملوك و الأسارى إلى

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۶

دمشق. ثم عاد السـلطان إلى طبرية و فتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا و حاصـره و فتحها بالأمان و كان فيها ثلاثون ألف إفرنجى و أربعة آلاف أسير مسلم، و أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل بابا و فتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة و قيساريـة و حيفا و صـفوريـة و دبوريـة و الفولـة و جنين و زرعين و الطور و اللّجون و القيمون و الزيب و معليا و البعنة و إسـكندرونة و منواث و أرسوف و عقر بلا و أريحا سـنجيل و البيرة و قلونيـة و صـرفند و مجـدل الحباب و جبل الجليل و تل الصافية و التل الأحمر و قريتا و صوبا و هرمس و السلع عدا ما تخللها من القرى و الأبراج و القلاع.

فتح كل ذلك بالسـيف و فتح عسـكره سبسـطية و نابلس و قلعتها بالأمان، و فتح العادل يافا عنوة ثم فتح السـلطان تبنين، و تسلم صيدا خالية ثم بيروت بالأمان بعد حصارها. و كان من جملة الأسرى صاحب جبيل فبذل جبيلا فأطلق.

و حضـر المركيس فى سفينة إلى عكا و هى للمسلمين و أقلع إلى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها و ملك صورا. و ذكر المؤرخون

إن إطلاق أمراء الفرنج من الأسر و حملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر و قوة الفرنج و رواح عكا.

فتح القدس و الرملة:

حصر السلطان عسقلان و تسلمها ثم فتح الرملة و الداروم و غزة و بيت لحم؟؟؟ و بيت جبريل و تبنين و النطرون و مشهد الخليل ولدّ و غيرها ثم نازل القدس و به من الفرنج عدد لا يحصى و ضايقه بالنقابين و اشتد القتال، و طلب الفرنج الأمان فقال: آخذها مثل ما أخذت من المسلمين بالسيف فعاودوه فأجاب بشرط أن يؤدى كل رجل عشرة دنانير و كل امرأة خمسة و كل طفل دينارين و من عجز أسر و تسلم المدينة فى رجب و كان فيها بالضبط ستون ألف رجل ما بين فارس و راجل سوى من تبعهم من النساء و الولدان قال ميشو: إنه كان فيها مائة ألف صليبى و كان عددهم لما فتحوه (۶۱۰۰) فارس و (۴۸) ألف راجل و لم يكن فيها لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود و كان يدفع إتاوة كبيرة فى السنة للملك حتى يبقى فيها.

قال ابن الأثير فى معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج فى القدس:

إن الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين و تحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك، و تمكن

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۷

النقابين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان فأبى السلطان و قال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى و تسعين و أربعمائة من القتل و السبى فقال له باليان: أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير، و إنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فو اللّه لنقتلن أولادنا و نساءنا و نحرق أموالنا و لا نترككم تغنمون منا دينارا و لا درهما و لا تسبون و تأسرون رجلا أو إمرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة و المسجد الأقصى. ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين و هم خمسة آلاف أسير، و لا نترك لنا دابة و لا حيوانا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا و حينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله، و نموت أعزاء و نظفر كرماء، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان و أن لا يحرجوا و يحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج.

و كان رأى صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولا من إهراق دماء الفرنج كما أهرق أجدادهم دماء المسلمين، و هذا التهديد من سفير الصليبيين فى الصلح لا شأن له مع صلاح الدين، و هو فى تلك القوة و المنعة، و لكن صلاح الدين يرمى إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعته و جماعة الصليبيين، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درسا فى سماحة الإسلام، و أن لا- يثير الحفائظ و هو على يقين من أن أوربا ما جيشت إلا- قليلا لفتح القبر المقدس فإذا قتل من فيه و فيهم الأمراء و السادة و القادة و غيرهم يقيم فى كل دار فى الغرب مأتما و تزيد الطوائل بين الفريقين، و يهب الفرنج فى الغرب إلى جمع شملهم، أكثر مما جمعوا فى القرن الماضى و منتصف هذا القرن و تعود الشام إلى خرابها.

و ما الفائدة من القتل إذا كان يجلب الويلات على فاعله و على ذويه. على أن صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مألوف عادة تلك العصور و ما عدّ عمله شيئا فريا، إذ يكون قد كال لهم بالكيل الذى كالوا به لأمته.

بيد أن السماحة التى بدت منه أكسبته و قومه فى الغرب إسما عطرا لا- يزال يردد بالخير على كرور الأيام، و دب الفشل فى نفوس القابضين على زمام الأمر فلم

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۸

يعودوا كما كانوا فى الثمانين السنة الأخيرة يأتمرون فى الحال بأوامر الكنيسة البابوية، و يحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء إلى الأرض المقدسة. و بهذا العمل انحلت العقدة المهمة الأولى من حروب الصليبيين، و كان الخطب سهلا بعد ذلك فى عهد صلاح الدين و أخلافه فصدق فى وصفه شاعره عبد المنعم الجليانى حيث قال من قصيدة:

وفيت لهم حتى أحبوك ساطيابهم و وفاء العهد قيد المخاصم

فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموافقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم

و خص صلاح الدين بالنصر إذ أتىبقلب سليم راحما للمسالم

فخطوا بأرجاء الهياكل صورةلك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

يدين لها قسّ و يرقى بوصفهاو يكتبه يشفى به فى التمائم

مر الرحالة ابن جبير الأندلسى بالشام و صلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين و إفرنج و ربما يلتقى الجمعان و يقع المصاف بينهم، و أرفاق المسلمين و النصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.

و اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، و اختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، و تجار الصليبيين أيضا لا يمنع أحد منهم و لا يعترض، و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، و هى من الأمنة على غاية، و تجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم و الارتفاق بينهم و الاعتدال فى جميع الأحوال، و أهل الحرب مشتغلون بحربهم، و الناس فى عافية و الدنيا لمن غلب. قال: و هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم، و فى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين و ملوكهم كذلك و لا تعترض الرعايا و التجار، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما أو حربا. و قال بعد أن ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس و إطلاق أيدى جيشه فى جميع ما احتازته: و خرجنا نحن إلى بلاد الفرنج و سببهم يدخل بلاد المسلمين، و ناهيك من هذا الإعتدال فى السياسة.

و بعد أن قرر السلطان أمور القدس، و أمر بعمل الرّبط و المدارس الشافعية، رحل عنها و لم يبق معه مما أخذه من مال الفداء شىء و كان مائتى ألف دينار و عشرين ألفا ففرقها على الأمراء و العلماء و الفقراء، و أطلق كثيرا من الفقراء بدون فداء، و أدى أخو السلطان الملك العادل فدية عن ألفى صليبى، و اقتدى به

خطط الشام، ج۲، ص: ۵۹

السلطان نفسه، و عفوا عن كثيرين، فلم يبق سوى أربعة عشر ألفا يخرج منهم الصبيان و البنات الذين أدى الصليبيون فداءهم، و أغضى عن جواهر الصليبيين و ناضهم من الذهب و الفضة، فكان يخرج من القدس حرا بدون منازع، و عامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن أرقى رجل مهذب فى القرون الحديثة.

ذكروا أنه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعاذت بالسلطان فأعاذها، و منّ عليها و على من معها بالإفراج، و أبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة و نفائسها و كرائم خزائنها، و كذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى و هى ابنة الملك أمورى و كانت مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخدم و الخول و الجوارى فاستأذنت بالإلمام بزوجها و أقامت عنده، و كان مقيما فى برج بنابلس أسيرا يرسف فى قيده. و خرج البطرك الكبير الذى للفرنج، و معه من أموال البيع و المساجد منها الصخرة و الأقصى و القيامة و غيرها ما لا يعلمه إلا اللّه تعالى، و كان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال: لا أغدر به و لم يأخذ منه إلا عشرة دنانير إلى غير ذلك من مزاياه العالية التى علم بها أعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق.

رحل السلطان إلى عكا و منها إلى صور، و قد حصنت بالرجال و حفر خندقها من البر إلى البحر، و نزل على صور و حاصرها و ضايقها و طلب الأسطول فوصل إليه فى عشرة شوان فاتفق أن الفرنج كبسوهم فى الشوانى و أخذ خمسة شوان و لم يسلم من المسلمين إلا من سبح و نجا و أخذ الباقون، و طال الحصار عليها فرحل السلطان عنها فى الشتاء و أقام بعكا و أعطى العساكر الدستور فسار كل واحد إلى بلده و بقى السلطان بعكا و قد قنع الفرنج بصور، و أرسل إلى هونين ففتحها بالأمان كما فتح قلعة أبى الحسن من عمل صيدا و شقيف أرنون و أقام رجالا على صفد و كوكب يحاصرونهما و هما حصنان عظيمان للداوية و الاسبتارية و كان شديدا

على رجال هاتين الرهبنتين لما عرفوا به من الشجاعة و المكر و يقتلهم فى الغالب إذا وقعوا فى يده فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم فى فلسطين من المدائن و الثغور سوى صور استصفيت كلها. و لما انسلخ الشتاء (۵۸۴) سار السلطان من عكا بمن معه بعد أن ولى أعمال الخليل و عسقلان و غزة و الداروم و ما والاها، و أمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين و إعانة المقطعين و كذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۰

أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة و العمران. و من كتاب فاضلى يصف فيه بعض مدن فلسطين فى الفتح الصلاحى: و هذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنيا. و عمارات ما كان أمل إليها مفضيا. بل طال ما كان عنها مغضيا.

مثل بيسان و كفر بلا و زرعين و جينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة، و بساتين مظلة، و أنهار مقلة، و قلاع مطلة، و أسوار قد ضربت على جهاتها، و أحاطت بجناتها، و اتخذتها المدن سياجا على قصباتها.

بقية الفتوح الصلاحية:

اتجهت همة صلاح الدين العالية إلى فتح ما بقى فى أيدى الصليبيين من ثغور الساحل. و قصد إلى دمشق و لما اجتمعت العساكر من الأطراف سار منها فنزل على بحيرة قدس غربى حمص و أتته العساكر بها فرحل و نزل على أنطرطوس فوجد الفرنج قد أخلوها فأحرقها و أحرق البسية و هى بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطارهم. و سار إلى مرقبة فوجدهم قد أخلوها أيضا و سار إلى المرقب و هو للإسبتار فوجده لا يرام و تسلم جبلة و «بلدة» من غربى النهر على شاطئ البحر و سار إلى اللاذقية و لها قلعتان فحصر القلعتين و زحف إليهما فطلب أهلهما الأمان فأمنهم و تسلم القلعتين و عمر البلد و حصن قلعتها.

و لما كان على اللاذقية طلب مقدم أسطول صقلية من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه و حضر و قبل الأرض بين يديه و قال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم و قد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك و جندك تفتح بهم الممالك و ترد عليهم بلادهم، و إلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر و يشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة و الاستهانة بكل من يجىء من البحر و أنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل و الأسر و رحل السلطان إلى صهيون فتسلمها بالأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك و تسلم قلعة صهيون، ثم فرق عسكره فى تلك الجبال فملك حصن بلاطنس و كان الفرنج قد أخلوه، و ملك حصن العيذو و حصن الجماهيرية، و وصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها و تحصنوا بقلعة الشغر فحصرها و وجدها منيعة فضايقها فطلب أهلها الأمان، و حصر ابنه الملك الظاهر غازى قلعة سرمين و ضايقها و ملكها، و استنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم و هدم

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۱

القلعة و عفى أثرها. و كان فى هذه القلعة و فى الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير، فأطلقوا و أعطوا الكسوة و النفقة، ثم سار من الشغر إلى برزيه و ملكها بالسيف و سبى و أسر و قتل أهلها و أسر السلطان صاحب برزيه هو و أصحابه و امرأته و أولاده و منهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين فى الوقت و بحث عنهم و اشتراهم و جمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم و سيرهم إليها. و كانت امرأة صاحب برزيه أخت امرأة بيمند صاحب أنطاكية، و كانت تراسل صلاح الدين و تهاديه و تعلمه كثيرا من الأحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها.

ثم سار فنزل على جسر الحديد و منه إلى دربساك فتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط. و سار إلى بغراس و حصرها و تسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك. و أرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة و الصلح و بذل إطلاق كل أسير عنده فأجابه إلى ذلك و اصطلحوا ثمانية أشهر، ثم عاد إلى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا و يستريحوا

فقال السلطان: ان العمر قصير و الأجل غير مأمون. و كان صلاح الدين لما سار إلى الشمال قد جعل على الكرك و غيرها من يحصرها، و خلّى أخاه العادل فى تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك و ما إليها، ثم سار السلطان إلى صفد فحصرها و ضايقها و تسلمها بالأمان و شخص إلى كوكب فضايقها و تسلمها بالأمان و سير أهلها إلى صور.

و لما سقطت القدس و استولى صلاح الدين على جميع الأقاليم التى كانت بيد الفرنج و لم يبق لهم إلا يافا و صور و طرابلس تجمع أهل الأقاليم التى أخذها صلاح الدين فى ثغر صور فكثر جمعهم، و أرسلوا إلى الغرب يستصرخون و صوروا صورة المسيح و صورة عربى يضربه و قد أدماه و قالوا: هذا نبى العرب يضرب المسيح. فخرجت النساء من بيوتهن. و وصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصون كثرة، و ساروا إلى عكا من صور و نازلوها و أحاطوا بسورها من البحر إلى البحر و وقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف و من المسلمين ألوف أيضا، و عاد السلطان فى السنة التالية (۵۸۶) إلى قتال الفرنج على عكا.

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۲

الحملة الصليبية الثالثة:

بينا كان صلاح الدين على عكا يغادى الفرنج القتال و يراوحهم، جاءت الأخبار من الروم أن ملك الألمان قادم لنجدة الصليبيين فى الشام فى مائة ألف محارب، فدخل اليأس على الناس و هذه هى الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة، و لكن سلط على ملك الألمان الوباء و الغلاء و غرق فى نهر كان يغتسل فيه فى الروم، و لم يصل مع ابنه سوى ألف مقاتل فقط. يئس الناس لأنهم ذهبوا إلى أن الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين بل بعد استصفاء أكثر المدن و المعاقل التى كانت لهم و لا سيما القدس العلة الأولى فى هذه الغزوات التى ألبسوها لباس الدين، و كانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك: فريدريك باربروس ملك ألمانيا، و فيليب اوغست ملك فرنسا، و ريشاردس قلب الأسد ملك إنكلترا. فخف الأول إلى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من أمره ما كان أما الآخران فجاءا إلى عكا فى البحر، و بعد أن فتح ريشاردس جزيرة قبرس تمكن الصليبيون من أخذ عكا و قتل من المسلمين جمهور كبير.

قال ميشو: إن الوقعة التى حارب فيها ريشاردس فى بحر صور سفينة كبرى للعرب، كانت من أول الانتصارات و مقدمة الغنائم للبحرية الإنكليزية، و قال أمغلطاى: إن الفرنج حاصروا عكا من البر و من البحر، و كانت عدتهم مائتى ألف و أربعين ألفا، و نصبوا عليها المجانيق من كل جهة، و فتحوا فيها مواضع كثيرة حتى خربت و دثرت و صارت مثل الطريق، فغلب المسلمون و طلبوا الأمان.

و قال غيره: إن السلطان كان عمر فى بيروت بطسة و شحنها بالعدد و الآلات، و فيها نحو سبعمائة رجل مقاتل، فلما توسطت فى البحر صادفها ملك الإنكليز و أحاطت بها مراكبه و حصل القتال بين الفريقين، فلما رأى مقدمها اشتداد الأمر، نزل فخرقها حتى غرقت، و كانت هذه الحادثة أول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين.

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية، و المسلمون يسايرونهم و يتحفظون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسرف، و وقع بينهم و بين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، و وصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۳

سار الفرنج إلى يافا و قد أخلاها المسلمون فملكوها، و رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة فخربها و خرب الرملة و كنيسة لدّ و كان هدم سور طبرية و هدم يافا و أرسوف و قيسارية و هدم سور صيدا و جبيل و نقل أهلهما إلى بيروت، و كان معظم أهل صيدا و بيروت و جبيل مسلمين و كانوا فى ذلة من مساكنة الفرنج.

و سار إلى القدس و قرر أموره و عاد إلى مخيمه بالنطرون. ثم تراسل الفرنج و السلطان فى الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو

السلطان بأخت ملك انكلترا و يكون للملك العادل القدس و لامرأته عكا، فأنكر القسيسون عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال.

و ذكر بعض المؤرخين أن ملك أنكلترا هو الذى عرض على العادل أخته، و كانت أرملة ملك كبير من ملوكهم و هو صاحب صقلية توفى عنها، و رغب أن يتزوجها العادل و يجعل له الحكم على الساحل، و هو يقطع الداوية و الاسبتار من المدن و القرى دون الحصون، و تكون أخته مقيمة بالقدس و أن الإنكليز لما عنفوا المرأة و اتهموها فى دينها، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل فى دينها فعرف أنها خديعة كانت منه.

قال ابن شداد فى وصف ريشاردس ملك الإنكليز: و هذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوى الهمة، له وقعات عظيمة، و له جسارة على الحرب، و هو دون الفرنسيس عندهم فى الملك و المنزلة، لكنه أكثر مالا منه، و أشهر فى الحرب و الشجاعة. قال: و كان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنه أنهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد أى عكا حين قدومه، فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب، و أثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية و رهبة. و قال بعد أن ذكر كيف كان ملك الإنكليز يكرر الرسائل إلى الملك لتعرف قوة النفس و ضعفها، و كيف كان يوهن المسلمين على تعرّف ما عنده من ذلك أيضا: فانظر إلى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة و الخشونة أخرى، و كان مضطرا إلى الرواح و هذا عمله مع اضطراره، و اللّه الولى فى أن يقى المسلمين شره، فلما بلينا بأعظم حيلة و أشد إقداما منه.

بقى صلاح الدين فى كل يوم يقع بينه و بين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة و استولوا سنة (۵۸۸) على قلعة الداروم و خربوها و أسروا من فيها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۴

عرض لملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب أن يصالح صلاح الدين، فرضى السلطان بالصلح بعد الذى أصاب جيشه من الفشل على عكا، و فشل عكا هو الوحيد الذى أصابه، و ذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه، و قد ملّ الجند الحرب التى دامت أعواما، و خرج المسلمون من عكا و أخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم و أنفسهم على تسليم البلد و مائتى ألف دينار و ألف و خمسمائة أسير من المجهولين و مائة أسير من المعروفين و صليب الصلبوت، و عشرة آلاف دينار للمركيس و أربعة آلاف دينار لحجابه، و عقدت بين الصليبيين و المسلمين هدنة عامة فى البحر و البر و جعلت مدتها ثلاث سنين و ثلاثة أشهر على أن يستقر بيد الفرنج يافا و عملها و قيسارية و عملها و أرسوف و عملها و حيفا و عملها و عكا و عملها، و أن تكون عسقلان خرابا، و اشترط السلطان دخول عمالة الإسماعيلية فى أرض الهدنة، و اشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية و طرابلس فى عقد هدنتهم، و أن تكون لدّ و الرملة مناصفة بينهم و بين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك.

و اتفقت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير، فلو اتفق ذلك فى أثناء وفاته كان الإسلام على خطر.

و فى التاريخ العام أن صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون فى أوروبا فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس فى الغرب. و أن إمارات الصليبيين لم تقاتل مدة نصف قرن سوى صغار أمراء سورية و الموصل. و كان مسلمو مصر يعيشون بسلام معهم، و هذا كان عهد نجاح تلك الإمارات، و لما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية و قامت مقامها دولة حربية من المماليك، لم يستطع المسيحيون، و مصر تهاجمهم، أن يقاوموا زمنا طويلا، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين، و إذا احتفظوا ببقايا الإمارات قرنا آخر فذلك لأن ملوك الإسلام لم يرضوا أن يقضوا عليها. لا جرم أن هذه الحرب كانت حربا مقدسة فى نظر المسلمين و المسيحيين اه.

مزايا صلاح الدين و وفاته:

و لا عجب إذا انتثر سلك الإمارات الصليبية فى الجنوب و الغرب جملة فإن تنظيم الجيش الصلاحى كان آية الآيات، و النجدات

كانت تأتيه سراعا دراكا،

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۵

و الفكر متجه إلى مقصد واحد. استمات المسلمون فى تأييد سلطانهم، و حاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر و الفر و صنوف الدهاء و الخديعة، و ما الحرب إلا- خدعة- قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين، مرة بالأبراج، و أخرى بالمنجنيقات، و رادفة بالدبابات، و تابعة بالكباش، و آونة باللوالب، و يوما بالنقب، و ليلا بالسرابات، و طورا بطم الخنادق، و آنا بنصب السلالم، و دفعة بالزحوف فى الليل و النهار، و حالة فى البحر بالمراكب، و لكن الحرب سجال و الدهر دول، و ما كل يوم يكتب النصر للغزاة، و يحالف التوفيق أعلامهم، و ما كل خطة يقررها صاحب الأمر بادئ الرأى تكون سديدة من كل وجه، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين و ظفره الباهر بهم فى الأردن و الجليل و بيت المقدس كيف فتح لأعدائه السبل ليذهبوا إلى صور، و يجتمع هناك فلّ جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قويت بما جاءها من البحر من الإنكليز و الفرنجة، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا، و لو كان حيا لدافع عن نفسه دفاعا معقولا مقبولا فيما نحسب، و لعلّ ذلك يدخل فى باب مراحمه التى تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس، فلم يعامل أعداءه إلا بما اقتضته سياسته و سيرته.

كان صلاح الدين يعنى بجنده و يتعهده و يسأل عن صحة أمرائه و من دونهم فى راحتهم و منامهم و أكلهم و شربهم، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار أو الليل ثم يستريح أو يحارب مدة معينة ثم يذهب إلى ذويه، على أرقى الأصول المتعارفة فى الحروب الحديثة. و الغنائم تقسم بين الحاربين بحيث يغتنى أفرادهم و جماعاتهم دع مالهم من الأموال الدارة من أموال الجباية و الرسوم على التجار و ما خصوا به من الحرمة و رفعة الشأن، يأخذون إما رواتب أو إقطاعات، و لم تكن إقطاعاتهم كإقطاعات الغرب تورث على الأغلب بل تزول عن صاحبها بموته أو بعزله، و لذلك كان المحاربون متعلقين أبدا بسلطانهم و أميرهم، متفانين فى إحسان الخدمة كأنهم يدافعون عن بيوتهم و أطفالهم.

جاء صلاح الدين إلى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج فى فلسطين، و كان يحب دمشق و يؤثر الإقامة فيها. فلقى الأهل و الولد بعد تغيب أربع سنين و ذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوما فكان عمله كأنه وداع لأهله و أولاده و مرابع نزهه و أنسه. ثم مرض أياما و هلك حميد الأثر فضجت الأمة لفقده،

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۶

و بكت العيون، و انتحبت النفوس، لأنه لم يحى مصر و الشام، بل أحيا بعمله المسلمين و الإسلام، و كان كما ذكره ابن شداد: رؤوفا رحيما، ناصرا للضعيف على القوى، يجلس للعدل فى كل يوم اثنين و خميس، فى مجلس عام يحضره الفقهاء و القضاة و العلماء، و يفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير و صغير، و عجوز هرمة و شيخ كبير، و كان يفعل ذلك سفرا و حضرا، على أنه كان فى جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص فى كل يوم، و يفتح باب العدل و كان يجلس مع الكاتب ساعة إما فى الليل أو فى النهار، و يوقع على كل قصة بما يجريه اللّه على قلبه، و لم يرد قاصدا أبدا، و ما استغاث إليه أحد إلا وقف و سمع قضيته و كشف ظلامته و اعتنى بقصته.

مات صلاح الدين و قد ملك مصر أربعا و عشرين سنة و الشام تسع عشرة سنة، و ملك الجزيرة و اليمن، و لم يحفظ ما تجب عليه الزكاة، فإن صدقة النفل استنزفت جميع ما ملكه من الأموال، فملك ما ملك و لم يخلف فى خزانته من الذهب و الفضة إلا سبعة و أربعين درهما ناصريا و جرما واحدا ذهبا، و لم يخلف ملكا و لا دارا و لا عقارا و لا بستانا و لا قرية و لا مزرعة و لا شيئا من أنواع الأملاك، و كان رحمه اللّه يهب الأقاليم، و يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة، و كان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذرا أن يفاجئهم مهمّ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه. و كان كثيرا ما يقول: إن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها و شوكتها لا زهرتها و مناظرتها للعدو لا نضرتها. و قد ذكر القاضى ابن شداد و عماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين و مواظبته على القواعد

الدينيـة و ملاـحظته للأـمور الشـرعية، و عـدله و كرمه و شـجاعته، و اهتمامه بأمر الجهاد و صبره و احتسابه، و حلمه و عفوه و محافظته على أسباب المروءة، ما هو العجب العجاب، و بعضه إذا جمع فى شخص كان مفخرا من المفاخر على توالى الأحقاب.

ملأت خيرات صـلاح الدين جميع الأقطار التى خفق علمه عليها، و ملأت اوقافه مصر و الشام و هى غير منسوبة إليه. قال ابن خلكان: و لقـد أفكرت فى نفسـى فى أمور هـذا الرجل و قلت إنه سـعيد فى الـدنيا و الآخرة، فإنه فعل فى هـذه الـدنيا هذه الأفعال المشـهورة من الفتوحات الكثيرة و غيرها و رتب هذه الأوقاف العظيمة، و ليس فيها شىء منسوبا إليه فى الظاهر اه.

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۷

بل قـد تجد لمماليكه و خواصه أوقافا نسبت إليهم و لم ينسب إليه إلا قليل و كان مماليك صـلاح الدين و خواصه و أمراؤه و أجناده أعفّ من الزهاد و العباد، و الناس على دين ملوكهم. و من كرم صـلاح الدين أنه أخرج فى مدة مقامه على عكا ثمانية عشر عشر ألف دابـة من فرس و بغل سوى الجمال، و أما العين و الثياب و السـلاح فإنه لا يدخل تحت حصـر، و ما كان يركب فرسا إلا و قد وعد بأن يعطيه لطالب من جماعته، و قـد فرّق من ذخائر الفاطميين لما فتـح مصـر ما يفوق الإحصاء و لم يبق منه قليلا و لا كثيرا. و من رسالة له إلى الديوان العزيز ببغداد:

فقـد علم أن الخادم بيوت أمواله، فى بيوت رجاله، و أن مواطن نزوله، فى مواقف نزاله، و مضارب خيامه، أكنـة ظلاله، و أنه لا يـذخر من الـدنيا إلاـ شكّته، و لاـ ينـال من العيش إلاـ مسكته. كـان صـلاح الـدين يعيش عيش المتوسـطين، و ينفق بحيث تكـاد تعـده إلى الإسـراف، و يكتفى من اللبـاس بالكتـان و القطن و الصوف، و مجلسه منزه عن الهزء و محـافله حافلـة بأهـل الفضل، و كان لمـداومته الكلام مع الفقهاء و مشاركته القضاة فى القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية، و كان من جالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان، بل يعتقد أنه مجالس أخ من الإخوان. كان من عظماء الشـجعان، قوى النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر. وصل فى ليلة واحدة من الفرنج نيف و سـبعون مركبا إلى عكا و هو لا يزداد إلا قوة نفس، و كان يعطى دسـتورا أن يسـرح عسكره فى أوائل الشتاء و يبقى فى شرذمـة يسـيرة فى مقابلـة عدتهم الكثيرة، إذ كان عدد جيشـهم لا يقل عن خمسـمائة إلى سـتمائة ألف فيما قالوا، و مع هذا تراه صابرا هاجرا فى محبة الجهاد فى سبيل اللّه أهله و أولاده و وطنه و سـكنه و سائر ملاذه، قانعا من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تضربها الرياح يمنـة و يسـرة، و كـان لاـ بـد له من أن يطوف حول العـدو كـل يوم مرة أو مرتين إذا كـان قريبـا منهم، و إذا اشـتد الحرب يطوف بين الصـفين، و يخرق العساكر من الميمنة إلى الميسـرة، يرتب الأطلاب و يأمرهم بالتقدم و الوقوف فى مواضع يراها و كان يشارف العدو و يجاوره.

انهزم المسـلمون فى يوم المصـاف الأـكبر بمرج عكا حتى القلب و رجاله، و وقعت الكوسات و العلم و هو ثابت القـدم فى نفر يسـير، فانحاز إلى الجبل يجمع الناس و يردهم و يخجلهم حتى يرجعوا، و لم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۸

فى ذلك اليوم و قتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل و فارس، و لم يزل مصابرا لهم و هم فى العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسـلمين فصالـح و هو مسؤول من جـانبهم، فإن الضـعف و الهلاك كان فيهم أكثر، و لكنهم كانوا يتوقعون النجـدة، و المسـلمون لا يتوقعونها، و كانت المصلحة فى الصلح.

سئل ابن بيرزان يوم انعقاد الصـلح عن عـدة الفرنج الذين كانوا على عكا و هو جالس فقال للترجمان: قل له كانوا خمسـمائة ألف إلى ستمائـة ألف قتل منهم أكثر من مائـة ألف و غرق معظمهم. و كان صـلاح الدين يدور على الأطلاب اى الكتائب و يقول و هل أنا إلا واحد منكم.

و ذكروا من مراحم صـلاح الـدين أنه كان للمسـلمين لصوص يـدخلون خيام الفرنج فى الليل و يسـرقونهم، فسـرقوا ليلة صبيا رضـيعا، فباتت أمه تبكى طول الليلة فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب، فاذهبى إليه فجاءته و هو على تل الخروبة راكب فعفرت وجهها

و بكت فسأل عنها، فأخبروه بقصتها فرق لها، و دمعت عيناه، و تقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل، و لم يزل واقفا حتى أحضروه، فلما رأته بكت و أخذته فأرضعته ساعة و ضمته إليها، و أشارت إلى ناحية الفرنج فأمر أن تحمل على فرس و تلحق بالفرنج ففعلوا.

قال سبط ابن الجوزى: و يقال إن صلاح الدين فتح ستين حصنا و زاد على نور الدين بمصر و الحجاز و المغرب و اليمن و القدس و الساحل و بلاد الفرنج و ديار بكر و لو عاش لفتح الدنيا شرقا و غربا. قلنا: إن نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان فى أمته صلاحا لدينها و دنياها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۶۹

الدولة الايوبية «من سنة ۵۸۹ الى سنة ۶۳۷»

أبناء صلاح الدين و اختلافهم و دهاء عمهم العادل:

اهتزت أعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر و الشام و اليمن و البلاد الشرقية لأنه الفاتح الثانى لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الأول. و قد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكرا و ابنة واحدة، و ناب بعض أولاده عنه فى أكثر أقاليمه و خلف أخاه الملك العادل أبا بكر، و كان ينوب عنه فى مصر و الشام فى حياته فوقع الخلف بين بنيه و عمهم فى الباطن أولا، ثم أعلن كل واحد لصاحبه خصومته. و كان كثير ممن ربوا فى نعمة الدولة الصلاحية و رأوا من عدلها ما لم يكد يسبق له مثيل إلا فى دولة نور الدين، يتخوفون أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق و النزاع، و من الذين أوجسوا خيفة من ذلك القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأكبر فقد كتب إلى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب «إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، و إن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته و هو الهول العظيم».

و كان الملك الأفضل نور الدين على أكبر أولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عند ما اشتد مرض والده فاستقر فى ملك دمشق و ما إليها، و بالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، و بحلب الملك الظاهر غياث الدين غازى، و بالكرك و الشوبك و الأقاليم الشرقية الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و بحماة و سلمية و المعرة و منبج و قلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر و بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه، و بحمص و الرحبة و تدمر شيركوه بن

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۰

محمد، و ببصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين، و كان فى خدمة أخيه الملك الأفضل، و بيد جماعة من أمراء الدولة مدن و حصون، منهم سابق الدين عثمان بن الدايه و بيده حصن شيزر و حصن أبى قبيس، و ناصر الدين بن كورس و بيده صهيون و حصن برزية، و دلدرم بن بهاء الدين ياروق و بيده تل باشر، و أسامة الحلبى و بيده كوكب و عجلون، و إبراهيم بن شمس الدين ابن المقدم و بيده بعرين و كفر طاب و أفامية. و لما ألقى للملك الأفضل زمام السلطنة بعهد أبيه استوزر ضياء الدين بن الأثير الجزرى فحسن له طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز بمصر و الظاهر بحلب، و لما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، و وقعوا فى أخيه الأفضل فحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل و العزيز و استحكم الفتور (۵۹۰) بينهما فسار العزيز فى عسكر مصر و حصر أخاه الأفضل بدمشق عشرة أشهر و قطع الماء عنها. فأرسل الأفضل إلى عمه العادل و أخيه الظاهر و ابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم، فساروا إلى دمشق و أصلحوا بين الأخوين و عاد كل ملك إلى بلده. قال العماد الكاتب:

و لما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل فى اللهو و اللعب، و احتجب عن الرعية و انقطع إلى لذاته، فسمى الملك النوّام، و فوض الأمر إلى وزيره الجزرى، و حاجبه الجمال محاسن بن العجمى، فأفسدا عليه الأحوال و كانا سعيا لزوال دولته و استبدلا أراذل

الناس بكبراء الأمراء و الأجناد ففسدت أمور العباد. و فى هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل و أخذ الأفضل من الفرنج جبلة و اللاذقية.

و فى السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام و منازلة أخيه الملك الأفضل، فسار و نزل الفرار من أرض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه و هم طائفة من الأمراء الأسدية و فارقوه فعاد العزيز إلى مصر. و كان الأفضل استنجد بعمه العادل لما قصده أخوه، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل الملك الأفضل و عمه العادل و من انضم إليهما من الأسدية، و ساروا فى أثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بلبيس، و قصد الملك الأفضل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل و قال: مصر لك متى شئت. و كاتب العادل العزيز و أمره بإرسال القاضى الفاضل ليصلح بين الأخوين. و كان القاضى الفاضل قد اعتزل عن ملابسة أولاد صلاح الدين لما رأى من فساد أحوالهم على ما رواه

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۱

المؤرخون- و القاضى الفاضل هو الذى كان صلاح الدين يقول فى ملإ من الناس: لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل و كان يستشيره فى أموره- فدخل الملك العزيز على القاضى و سأله أن يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل و اجتمع به و اتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما و أقام العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته و عاد الأفضل إلى دمشق و أموره بيد الجزرى يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه و قل شاكروه. و كان الاعتماد على مشورة الوزير الجزرى الذى زين للملك الأفضل إقصاء أمراء أبيه ليخلو له الجو أول خطوة نحو خراب بيت بنى أيوب، و بعبارة أصح أبناء صلاح الدين يوسف. و قوة الدولة على نسبة عقل القائمين بها، الدافعين عن حوزتها، الغيورين على بقائها، و قد خالف الملك الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء و كان أبوه يفادى بكل مرتخص و غال لاستمالة قلوبهم و كان لسان حال العادل و قد رأى اختلاف أبناء أخيه المثل المأثور «لم آمر بها و لم تسؤنى». قال سبط ابن الجوزى لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره الجزرى من الأفعال القبيحة و آذى أكابر من الدولة، و الأفضل يسمع منه و لا يعدى أحدا و لا يخالفه، فكتب قيماز النجمى و أعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول: ارفع يد هذا الأحمق السيء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت، و اتفق مع العزيز على النزول إلى الشام فسار إلى الشام فاستشار الأفضل أصحابه فكل أشار عليه أن يلتقى عمه و أخاه و لا يخالفهما إلا الجزرى فإنه أشار عليه بالعصيان فاستعد للحصار و حلف الأمراء و المقدمين و فرقهم فى الأبراج و على الأسوار.

اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق و أن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة و السكة للعزيز فى جميع المملكة كما كانت لأبيه، فخرجا و سارا من مصر فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين و هو أحد أمرائه و هو أخو الملك العادل لأمه و نزل العادل و العزيز على دمشق و قد حصنها الأفضل، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد العادل و صاروا معه و أنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف العادل و العزيز فدخل الأول من باب توما و الثانى من باب الفرج، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة و انتقل منها بأهله و أصحابه، و أخذت بصرى من الملك الظافر خضر أخى الأفضل و كان معاضدا له، و أعطى الأفضل صرخد

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۲

فسار إليها بأهله، و استوطنها و أخرج وزيره الجزرى فى الليل فى جملة الصناديق خوفا عليه من القتل فأخذ أموالا عظيمة و هرب إلى بلده.

سلم الأفضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما، فتسلمها العادل على أن يكون ثلث البلاد للعادل و الثلثان للأفضل و هو السلطان، و رحل العزيز و أبقى له العادل السكة و الخطبة بدمشق.

استئثار العادل بالملك الصلاحى:

توفى الملك العزيز عثمان فى مصر (۵۹۵) و عمره سبع و عشرون سنة و أشهر و كان فى غاية السماحة و الكرم و العدل. و الرفق بالرعية و الإحسان إليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لأنه شبل من أسد، و كان الغالب على دولته فخر الدين جهاركس فأقام فى الملك ولد العزيز الملك المنصور محمد و اتفقت الآراء على إحضار أحد بنى أيوب ليقوم بالملك، و عملوا مشورة بحضور القاضى الفاضل فأشار بالملك الأفضل و هو حينئذ بصرخد فأرسلوا اليه فسار محثا، و وصل إلى مصر على أنه أتابك أى مربى الملك المنصور بن الملك العزيز، و كان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين و أشهرا. و لما وصل الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس و فارقه و تبعه عدة من العسكر و ساروا إلى الشام، و كاتبوا العادل و هو محاصر ماردين، و أرسل الظاهر إلى أخيه الأفضل يشير عليه بقصد دمشق و أخذها من عمه العادل، و أن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بماردين، فبرز الأفضل من مصر و سار إلى دمشق، فبلغ العادل مسيره، و نزل الأفضل على دمشق و جرى بين العم و ابن أخيه قتال، و هجم بعض عسكر الأفضل المدينة حتى وصل إلى باب البريد و لم يمدهم العسكر، فتكاثر أصحاب العادل و أخرجوهم من البلد، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل الى الأفضل أخوه الظاهر فعاد إلى مضايقة دمشق، و دام الحصار عليها و قلت الأقوات عند العادل و على أهل البلد، و أشرف الأفضل و الظاهر على ملك دمشق، و عزم العادل على تسليم البلد لو لا ما حصل بين الأخوين الأفضل و الظاهر من الخلف.

روى سبط ابن الجوزى أنه لما اشتد الحصار على دمشق و قطعت أشجارها

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۳

و مياهها الداخلة إليها و انقطعت عن أهلها الميرة و ضجوا، بعث العادل إلى الظاهر يقول له: أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان و تكون دمشق لك لا للأفضل، فطمع الظاهر و أرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فآثرنى بدمشق. فقال: دمشق لى من أبى و إنما أخذت منى غصبا فلا أعطيها أحدا، فوقع الخلف بينهما و وقع التقاعد. و كان إلقاء الخلف بين الأخوين من جملة دهاء عمهما،

و دخلت سنة (۵۹۶) و الأفضل و الظاهر يحاصران دمشق، و قد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق و الحوانيت، و أحرق النيرب و أبواب الطواحين، و قطعت الأنهار و أحرقت غلة حرستا فى بيادرها، و حفر على دمشق خندق من أرض اللّوان إلى أرض يلدا شرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهما، و لما تغير الظاهر على أخيه الأفضل ترك قتال العادل، فظهر الفشل فى العسكر، فتأخر الأفضل و الظاهر عن دمشق و أقاما بمرج الصّفّر، ثم سار الأفضل إلى مصر و الظاهر إلى حلب، و لما تفرقا خرج العادل من دمشق و سار فى أثر الأفضل الى مصر، و ضرب مع الأفضل مصافا فانكسر الأفضل و انهزم إلى القاهرة، و نازلها العادل ثمانية أيام، فأجاب الأفضل إلى تسليمها، على أن يعوض عنها ميافارقين و خانى و سميساط، فأجابه العادل إلى ذلك و لم يف له به، ثم سار الأفضل إلى صرخد و أقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال العادل الملك المنصور، و استقل العادل فى السلطنة، فقطع أولا خطبة ولد العزيز بعد أن جمع الفقهاء و قال هل يجوز ولاية الصغير على الكبير فقالوا: الصغير مولى عليه و قال: فهل يجوز لكبير أن يولى عليه و ينوب عنه قالوا: لا لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة. فقطع خطبة ابن العزيز و خطب لنفسه و لولده الكامل محمد من بعده، و كان ذلك على الحقيقة مبدأ سلطنة العادل الكبرى، فإن استئثاره بالخطبة و السكة فى مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام و ما إليها من ديار الشرق.

لما تم الأمر بمصر للعادل كاتب الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق أبيه و أبو امرأته) و صالحه و خطب له بحلب و أقاليمها و ضرب السكة باسمه، و اشترط العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۴

عسكر حلب فى خدمة العادل كلما خرج الى الحرب و التزم الظاهر بذلك إلا أنه أخذ بتحصين حلب خوفا من عمه العادل و أرسل

المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعرين من ابن المقدم، فقبل العادل عذره و أمره بردها إلى صاحبها الأول.

و سار (۵۹۷) الظاهر و ملك منبج و خرب قلعتها و ملك قلعة نجم و أفامية و كفرطاب من ابن المقدم، و أرسل إلى المنصور صاحب حماة يبذل له منبج و قلعة نجم على أن يصير معه على العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين فى عنقه العادل، فلما أيس الظاهر منه سار إلى المعرة و أقطع إقليمها و استولى على كفرطاب، ثم سار إلى أفامية و بها قراقوش نائب ابن المقدم، فلم يسلم هذا القلعة إلا بعد الحرب الشديدة، فرحل الظاهر و توجه إلى حماة و قاتلها أشد قتال، فلما لم يحصل على غرض صالح المنصور على مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الظاهر إلى دمشق و بها المعظم ابن العادل فنازلها الظاهر هو و أخوه الأفضل، و انضم إليهما ميمون القصرى صاحب نابلس، و من وافقه من الأمراء الصلاحية، و استقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل و الظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الأفضل ثم يسيران و يأخذان مصر من العادل و يتسلمها الأفضل، و تسلم دمشق حينئذ إلى الظاهر، بحيث تبقى مصر للأفضل، و يصير الشام جميعه للظاهر.

و فى سنة (۵۹۸) سار العادل من دمشق و وصل إلى حماة و نزل على تل صفرون و قام المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه و كلفه، و بلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده و محاصرته بحلب فاستعد للحصار، و راسل عمه و لاطفه و أهدى إليه، و وقعت بينهما مراسلات و وقع الصلح و انتزعت منه مفردة المعرة، و استقرت للمنصور صاحب حماة، و أخذت من الظاهر أيضا قلعة نجم، و سلمت إلى الأفضل، و كان له سروج و سميساط، و سلم العادل حران و ما معها لولده الأشرف موسى و سيره إلى الشرق.

و لما استقر الصلح بين العادل و ابن أخيه الظاهر، رجع العادل إلى دمشق و أقام بها و قد انتظمت الممالك الشامية و الشرقية و الديار المصرية كلها فى سلك ملكه و خطب له على منابرها و ضربت السكة فيها باسمه.

الأحداث فى عهد العادل و اهتمامه بحرب الصليبيين:

مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لأخيه العادل أبى بكر بن أيوب و تخلص من أبناء أخيه الأفضل

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۵

و الظاهر و غيرهما بل توفق إلى مقاصده باستفتاء العلماء بأن ملك مصر و أنقذها من حفيد أخيه صلاح الدين، و كان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك أخيه إلا قليلا، و مقدمة لتسلسل الملك فى أولاده، إذ ليس فى أبناء أخيه من يدانيه فى الحقيقة بحسن السياسة و بعد النظر و كثرة التجارب و الدهاء، و كان صلاح الدين يحبه و يحترمه و يستشيره فى معضلات الأمور فيبين عن رأى و حنكة و سار بعض الأمراء الصلاحية الذين غذوا بنعمة صلاح الدين سيرا لا يدل على غمط نعمة و نكران جميل، و لكن كان الأفضل و الظاهر و العزيز متخالفين متشاكسين، و كل منهم يطمع فى الملك و يسر لأخيه و عمه حسوا فى ارتغاء، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل و هو بتجاربه يشبه أخاه صلاح الدين من أكثر الوجوه. أما الأفضل فقد ركب هواه، و أخلد إلى اللذات و المنكرات لأول مرة و استسلم لوزيره ابن الأثير، و كان هذا صاحب دعوى عريضة، لا يراعى الحال و لا يعرف الزمان، فكتبت الغلبة للعادل، و لو ترك الأخوان الأفضل و الظاهر و شأنهما بدون أن يعدّل عمهما من جماحهما لاشتد غزو أحدهما لأخيه، و هلك الناس بسببهما، و كثرت الغوائل و الحصارات، هذا إن لم نقل إنه كان للعادل يد فى توسيع شقة الخلاف بين أولاد أخيه، فقد اتخذ العادل سياسة غريبة معهم يريد أن يوفق بينهم فى الظاهر و لكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على مصر و الشام و بلاد الشرق، و ذلك بأن أخذ بعض المشاكسين لحزبه و كان بعد ذلك يغتنم فرصة حمل الأخ على أخيه فيملك الولايات على نحو ما ملك مصر، و يخطب له فيها و تضرب السكة باسمه و يزال اسم أبناء صلاح الدين.

مثل أبناء صلاح الدين صورة من خلاف الإخوة بعد موت أبيهم، و السبب فى ذلك أن أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهدا يبين

لكل واحد حقه من هذا الملك الذى فتحه و وطد أساسه، بل ترك الأمر للأقدار. و إذا خلف العسكر فى دمشق لأكبر أولاده الأفضل فإن المملكة ليست عبارة عن دمشق، بل حلب و القاهرة تنازعانها فضل التقدم، و لو كانت أصول الوراثة فى الملك متبعة فى ذلك العصر لتوفر على الأمة و أبناء الدولة عناء كبير و شر مستطير، و لما تعب الفاتح بفتوحه و خلف لأبنائه ميراثا يورثه هما و غما، و يجنون بعملهم على الأمة الجناية بعد الأخرى.

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۶

هذا و بقايا الصليبيين لم تبرح نازلة فى عكا و صور و طرابلس، و من حسن الطالع أنهم لم يتحركوا للفتنة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (۵۹۳) و قد وصل جمع عظيم منهم إلى الساحل و استولوا على قلعة بيروت، فسار العادل و نزل بتل العجول، و أتته النجدة من مصر و وصل إليه سنقر الكبير من القدس و ميمون القصرى من نابلس، ثم سار العادل إلى يافا و هجمها و ملكها بالسيف و خربها و قتل المقاتلة، و كان هذا الفتح ثالث فتح لها. و خرب صيدا أيضا و نازلت الفرنج تبنين فأرسل العادل إلى العزيز صاحب مصر فسار العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر، و اجتمع بعمه العادل على تبنين فرحل الفرنج إلى صور ثم عاد العزيز إلى مصر و ترك غالب العسكر مع عمه العادل و جعل إليه أمر الحرب و الصلح، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة و استقرت بينهم ثلاث سنين و رجع إلى دمشق.

و من الأحداث على عهد العادل بعد أن صفا له ملك الشام و مصر و خضع أبناء أخيه صلاح الدين له ظاهرا و إن لم يخضعوا باطنا، حصار ابنه الأشرف ماردين و سعى الظاهر (۵۹۹) فى الصلح، فأجاب العادل إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة و خمسين ألف دينار و يخطب له ببلاده و يضرب السكة باسمه، و يكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك. و سار المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطا للفرنج، و كتب العادل إلى أميرى بعلبك و حمص بإنجاده فأنجداه، و اجتمعت الفرنج من حصن الأكراد و طرابلس و غيرهما و قصدوا المنصور ببعرين و اتقعوا معه، فانهزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الأكراد و المرقب، و انضم إليهم جموع من الساحل و التقوا مع المنصور و هو على بعرين فانتصر عليهم ثانيا، و أسر منهم عدة كثيرة و هادنهم (۶۰۰) و أرسل العادل و انتزع ما كان بيد الأفضل و هى رأس عين و سروج و قلعة نجم و لم يترك بيده غير سميساط و توسلوا إليه فى إبقاء ما كان بيده فلم يجب إلى ذلك.

و خرج الفرنج (۶۰۰) لقصد بيت المقدس فهرع العادل من دمشق و نزل على الطور و جرت الهدنة بينه و بينهم و سلم إلى الفرنج يافا و الناصرة و نزل عن مناصفات لدّ و الرملة. جاءت الفرنج (۶۰۱) إلى حماة بغتة و أخذوا النساء

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۷

الغسالات من باب البلد على العاصى و امتلأت أيديهم من الغنائم و خرج إليهم المنصور بن تقى الدين و أبلى بلاء حسنا، و كسر عسكره، و حاصر الحلبيون المرقب و كادوا يفتحونها لو لا قتل مقدمهم مبارز الدين، ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين و قتل خلق من المسلمين و صالح العادل الفرنج، و وقعت الهدنة بين صاحب حماة و بينهم. و أغارت الأرمن (۶۰۲) على أعمال حلب فتسارع إليهم العسكر فبيتوهم و هزموهم، و ذهب الأرمن بالغنائم، ثم تتابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون الأرمنى على الديار الحلبية و هابته العسكر. قال سبط ابن الجوزى: و بلغ الظاهر صاحب حلب إغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب و نزل مرج دابق، و جاء إلى حارم فهزم ابن لاون إلى بلاده و كان قد بنى قلعة فوق دربساك فأخربها الظاهر و عاد إلى حلب. و نازل العادل (۶۰۳) عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى حمص و استدعى العساكر فأتته من كل جهة و نازل حصن الأكراد و فتح برج اعناز و أخذ منه خمسمائة رجل، ثم نازل طرابلس و عاث العسكر فى ربعها و قطع قناتها و أخذ بالأمان القليعات و خربه، حتى وقعت الهدنة بينه و بين الفرنج (۶۰۴) و استولى الملك الأوحد أيوب بن العادل على خلاط، و وصل للعادل التشريف من الخليفة الإمام الناصر و تقليد بالبلاد التى تحت حكمه، و خوطب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، و كثر هذه السنة الفرنج الذين

بطرابلس و حصن الأـكراد و أكثروا الغارة على حمص و ولايتها فأنجد الظاهر غازى صاحب حلب صاحب حمص فمنعوا الفرنـج عن ولايته.

و قطع العـادل (۶۰۶) الفرات و جمع العسـاكر و الملوك من أولاـده و نزل حران و نـازل سـنجار ثم خـامرت العساكر التى صـحبته، و نقض الظاهر الصـلح معه، فرحل عن سنجار و استولى على نصيبين و الخابور و عادل العادل (۶۰۷) إلى دمشق و قصدت الكرج خلاط و حصـروا الملك الأوحـد بها و بعـد أن نال ملكهم منه حمل ملك الكرج إلى الملك الأوحـد فرد على الملك الأوحـد عـدة قلاع و بـذل إطلاق خمسـة آلاف أسـير و مائـة ألف دينار و عقد الهدنة مع المسـلمين ثلاثين سـنة و شـرط أن يزوج ابنته من الملك الأوحد فتسلم ذلك منه

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۸

و تحالفا، و توفى الملك الأوحد من قابل فسار أخوه الملك الأشـرف و ملك خلاط عاصـمة إرمينية الوسطى، و استقل بملكها مضافا إلى ما بيده من الأرجاء الشرقية.

و فى سنة (۶۰۷) أرسل نساء دمشق إلى سبط ابن الجوزى الواعظ المشـهور شعورهن لتستعمل فى الأدوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاـ للخيل و كرفسات و لما صـعد المنبر فى الجامع الأموى أمر بإحضارها فحملت على الأعناق و كانت ثلاثمائـة شـكال فلما رآها النـاس صـاحوا صـيحة عظيمـة و قطعوا مثلهـا ثم المجاهـدون و لحقوا بالملـك المعظم بنـابلس فخربوا فى الأقاليم الواقعـة تحت حكم الفرنج و قطعوا أشجارها و أسروا جماعة منهم و لم يجسر أحدهم أن يخرج من عكا و خاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل و صالحهم.

و قبض المعظم (۶۰۹) على عز الدين أسامة صاحب قلعتى كوكب و عجلون بأمر العادل متهما بمكاتبة الظاهر، فقال له المعظم بعد أن لاـطفه: أنت شـيخ كبير و بـك تقوس و مـا تصـلح لك قلعـة سـلم إلىّ كوكب و عجلون و أنا أخلفك على مالك و ملكك و جميع أسـبابك و تعيش معنـا مثـل الوالـد، فامتنع و شـتم المعظم و ذكر كلاما قبيحا فلما أيس المعظم منه اعتقله فى الكرك و اسـتولى على قلاـعه و أمواله و ذخـائره و خيله، فكـانت قيمـة مـا أخـذ منه ألف ألف دينـار. و حبس أسامـة فى الكرك إلى أن مـات، و أمر العادل بتخريب كوكب و تعفيـة أثرهـا فخربت، و أبقى عجلون و ملّـك المعظم عمالـة جهـاركس و هى بانيـاس و ما معها لأخيه العزيز عماد الـدين، و أعطى صـرخد مملوكه أيبك المعظمى، و أعطى العادل ولـده المظفر غازى الرّها و ميافارقين، و فيها اسـتولى البال القبرسـى على أنطاكيـة فرميت تلك الأعمال منه بداهية، و تابع الغارات على تركمانها فشـردهم فتجمعوا و أخذوا عليه المضايق و حصل فى واد فقتلوه و جميع رجاله و طافوا برأسه فى أعمالهم ثم حملوه فى البحر إلى العادل بمصر.

و استولى (۶۱۲) الملك المسـعود ابن الملك الكامل على اليمن و اسـتولى ابن لاون الأرمنى على أنطاكيـة من الفرنـج و توفى (۶۱۳) الظاهر غازى ابن السـلطان صـلاح الدين صاحب حلب و أوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لأنه من بنت عمه العادل و طلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل و أخواله و أولاده و بعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الصالح صلاح الدين

خطط الشام، ج۲، ص: ۷۹

أحمـد، و بعـدهما لابن عمهما المنصور محمـد بن العزيز بن عثمان، و حلف الأمراء و الأكابر على ذلك، و جعل الحكم فى الأموال و القلاع إلى شـهاب الدين طغريل الخادم، و كانت مدة ملك الظاهر لحلب إحدى و ثلاثين سـنة، و كان فيه بطش و إقدام على سـفك الدماء ثم أقصـر عنه، و هو الذى جمع شـمل البيت الناصرى الصلاحى و لكن اختلافه مع أخيه الأفضل كان من أهم الأسباب فى زوال الملـك من ذريـة صـلاح الـدين و كـان الظـاهر ذكيا فطنا. قال سـبط ابن الجوزى: كان مهيبا له سـياسة و فطنـة و كانت دولته معمورة بالعلماء و الفضلاء، مزينة بالملوك و الأمراء، و كان محسنا إلى الرعية ملجأ الفقراء و الغرباء و كهفا للملهوفين.

الحملة الصليبية الخامسة:

بینا کانت المملکة مشتغلة بالنصب و العزل و تقاتل أبناء البیت الواحد علی الملک و السلطان، اجتمعت الفرنج من داخل البحر و وصلوا إلی عکا فی جمع عظیم و هذه هی الحملة الصلیبیة الخامسة (۱۲۱۹- ۱۲۲۱ م) و کانت مؤلفة من ألمان و مجر أما الحملة الرابعة فکانت توقفت فی طریقها إلی الشام و استولت (۱۲۰۴- ۱۲۶۱ م) علی القسطنطینیة فانفسخت بذلک الهدنة بین المسلمین و الفرنج و خرج العادل بعساکر مصر و نزل علی نابلس فسارت الفرنج إلیه، و لم یکن معه من العساکر ما یقدر به علی مقاتلتهم، فاندفع قدامهم الی عقبة فیق فأغاروا علی أرض المسلمین و کانوا فی خمسة عشر ألفا و وصلت غارتهم إلی نوی و نهبوا ما بین بیسان و نابلس و بثوا سراياهم فقتلوا و غنموا من المسلمین شیئا کثیرا و بلغوا خربة اللصوص و الجولان ثم صعدوا إلی الطور ثم رجعوا إلی عکا و وصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صیدا إلی جزین فانهال علیهم المیادنة من الجبال فلم یفلت منهم سوی ثلاثة أشخاص.

قال المؤرخون: لما قتل کند من أکناد الفرنج المشهورین علی الطور تشاءموا بالمقام علیه، و رجعوا إلی عکا و اختلفوا هناک فقال ملک الهنکر:

الرأی أنّا نمضی إلی دمشق و نحاصرها فإذا أخذناها ملکنا الشام، فقال الملک النوّام، قالوا: إنما سمی بذلک لأنه کان إذ نازل حصنا نام علیه حتی یأخذه أی أنه کان صبورا علی حصار القلاع و اسمه دستریج و معناه المعلم بالریش لأن أعلامه کانت الریش فقال: نمضی إلی مصر فإن العساکر مجتمعة عند العادل

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۰

و مصر خالیة، فأدی هذا الاختلاف إلی انصراف ملک الهنکر مغاضبا إلی بلده فتوجهت باقی عساکرهم إلی دمیاط فوصلوها، و العادل نازل علی خربة اللصوص بالشام و قد وجه بعض عساکره إلی مصر. و أقام العادل بمرج الصّفّر و أرسل إلی ملوک الشرق مستحثا لعساکرهم. ثم سار الفرنج إلی الدیار المصریة و نزلوا علی دمیاط و سار الکامل من مصر و نزل قبالتهم، و أرسل العادل العساکر التی عنده لدفعهم.

و خرب المعظم قلعة الطور (۶۱۵) بعد أن غرم المسلمون علی بنائها أموالا کثیرة و اشتغلت فیها جیوش، و ذلک مخافة أن تکون سببا للاستیلاء علی دمشق.

و لما مات الظاهر صاحب حلب و أجلس ابنه العزیز و کان طفلا، طمع صاحب الروم کیکاوس فی الاستیلاء علی حلب، و کان موت الملک و نصب طفل من أبنائه سببا کبیرا لطمع أعداء المملکة بأخذها. فاستدعی الأفضل صاحب سمیساط و اتفق معه کیکاوس أن یفتح حلب و عمالتها و یسلمها إلی الأفضل، ثم یفتح الأصقاع الشرقیة التی بید الأشرف بن العادل و یتسلمها کیکاوس، و تحالفا علی ذلک فاستولی کیکاوس علی رعبان و سلمها إلی الأفضل، فمالت إلیه القلوب لذلک، ثم سار إلی تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الأفضل منه و تغیرت الخواطر علیه، و وصل الأشرف إلی و حلب لدفع کیکاوس عن المملکة، و وصل إلیه بها مانع بن حدیثة أمیر العرب فی جمع عظیم و کان کیکاوس سار إلی منبج و تسلمها لنفسه، و اتفق بعض عسکر الأشرف مع عسکر کیکاوس فانهزمت مقدمة هذا فولی کیکاوس منهزما، ثم حاصر الأشرف تل باشر و استرجعها مع رعبان و غیرها و توجه الأفضل إلی سمیساط. و فی هذه السنة ورد الأمر إلی المعتمد والی دمشق بالاهتمام و الاستعداد و استخدام الرجال و تخریب دروب قصر حجاج و الشاغور و طرف البساتین و نقل غلة داریا إلی القلعة و تغریق أراضیها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها. و التقی المعظم بالفرنج علی القیمون فانتصر علیهم و قتل منهم مقتلة عظیمة و أسر من الداویة.

وفاة العادل:

توفی الملک العادل فی عالقین فی الجیدور (۶۱۵) و کان نازلا بمرج الصفر و قد أرسل العساکر إلی مصر و ولده الکامل بالدیار المصریة و مدة ملکه نحو ۱۹ سنة. و کان حازما متیقظا غزیر العقل سدید الآراء ذا مکر و خدیعة، توصل بدهائه إلی أن یرشی نساء

قواد الصليبيين بالجواهر و المصنوعات الدمشقية

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۱

فيخدمنه مقابل ذلك بخدمات مهمة و يتجسس له على قومهن. و كان صبورا حليما يسمع ما يكره و يغضى عنه، و اتته السعادة و اتسع ملكه و كثرت ذريته و خلف ستة عشر ذكرا عدا البنات، و رأى فى أولاده ما يحب «و لم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم فى أولاده من الملك و الظفر ما رآه الملك العادل فى أولاده» و قد خلف آثارا مهمة فى الولايات التى تولاها، لا يزال بعضها ماثلا و طهر جميع ولاياته من الكرخ إلى همدان و الجزيرة و الشام و مصر و الحجاز و اليمن من النساء و الخمور و الخواطى و القمار و المخانيث و المكوس و المظالم، و كان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة ألف دينار. و استمتع العادل بالملك و خدم الدولة خدمة طيبة، و ساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد إيقاع أخيه بهم و تشتت كلمة أبناء صلاح الدين.

و لما هلك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا فحضر إليه ابنه المعظم عيسى و كان بنابلس و كتم موته، و أخذه ميتا فى محفة و عاد به إلى دمشق، و احتوى المعظم على جميع ما كان لأبيه من الجواهر و السلاح و الخيول و غير ذلك، و كان فى خزائنه سبعمائة ألف دينار، و حلف له الناس و كتب إلى الملوك من إخوته و غيرهم يخبرهم بموته، و لما بلغ الكامل موت أبيه و هو فى قتال الفرنج عظم عليه جدا و اختلفت العساكر عليه، فتأخر عن منزلته، و طمعت الفرنج و نهبت بعض أثقال المسلمين، و كان فى العسكر عماد الدين المشطوب و كان مقدما عظيما فى الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك من السلطنة، و حصل فى العسكر اختلاف كثير، حتى عزم الكامل على اللحوق باليمن.

و بلغ المعظم ذلك فرحل من الشام و وصل إلى أخيه الكامل و أخرج عماد الدين و نفاه من العسكر إلى الشام فانتظم أمر الكامل، و قويت مضايقة الفرنج لدمياط و ضعف أهلها بسبب الفتنة التى حصلت فى عسكر الكامل من ابن المشطوب.

و كان العادل قد قسم المملكة فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الكامل محمدا و بدمشق و القدس و طبرية و الأردن و الكرك و غيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى، و جعل بعض ديار الجزيرة و ميافارقين و خلاط و أعمالها

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۲

لابنه الأشرف موسى و أعطى الرها لولده شهاب الدين غازى، و أعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه. فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه إياها أبوه و اتفقوا اتفاقا حسنا، و لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره و لا يخافه. قال ابن الأثير: «فلا جرم زاد ملكهم و رأوا من نفاذ الأمر و الحكم ما لم يره أبوهم، و لعمرى إنهم نعم الملوك فيهم الحلم و الجهاد و الذب عن الإسلام».

و دخلت سنة (۶۱۶) و الأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها و إقطاعاتها، و الكامل بمصر فى مقابلة الفرنج و هم محاصرون لثغر دمياط، و كتب الكامل متواصلة إلى إخوته فى طلب النجدة، ثم سقطت دمياط فى أيدى الفرنج، فأرسل المعظم عيسى و خرب أسوار القدس مخافة أن يصيبها ما أصاب دمياط، و لما استولى الفرنج على دمياط، عظم الأمر على آل أيوب فكتب المعظم الى الواعظ سبط ابن الجوزى: أريد أن تحرض الناس على الجهاد و تعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط، و إنى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية منها ألف و ستمائة أملاك لأهلها و أربعمائة سلطانية، و أريد أن تخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم و الأكابر. فأجابوا بالسمع و الطاعة ثم تخلفوا، فأخذ الثمن و الخمس من أموالهم لتقاعسهم، ثم فتح المعظم قيسارية و سار إلى النهر ففتحه و هدمه و خرب فى بلاد الفرنج. و فى تاريخ العلويين أن النصيرية هدموا جبلة فى الحروب الصليبية و لم يبق سوى تل التوينى قرب جبلة و اتحد الإسماعليون مع الأكراد فى الحروب الصليبية على العلويين فاستنجدوا بالأمير حسن المكزون السنجارى فجاءهم سنة (۶۱۷) فى خمسة و عشرين ألفا من العلويين و نزل على عين الكلاب بقرب قلعة أبى قبيس و على سطح جبل الكلبية فتجمع

الإسماعيلية مع حلفائهم الأكراد و اجتمعوا فى مصياف و أغاروا ليلا على جناح الأمير و عساكره و غلبوه فرجع إلى سنجار خائبا.

فتح الصليبيين دمياط و ذلتهم بعد العزة:

و فى سنة (۶۱۸) قوى طمع الفرنج المتملكين دمياط فى مدينة المنصورة التى

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۳

بناها الكامل، و أشتد القتال بين الفريقين برا و بحرا و كتب الكامل إلى إخوته و أهل بيته يستحثهم على إنجاده فسار المعظم عيسى صاحب دمشق و الأشرف صاحب الولايات الشرقية و أصحاب حلب و حماة و بعلبك و حمص فوصلوا القطر المصرى و القتال مشتد بين المسلمين و الفرنج، و رسل الكامل و أخويه مترددة إلى الفرنج فى الصلح و قد بذل المسلمون لهم تسليم القدس و عسقلان و طبرية و اللاذقية و جبلة و جميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك و الشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح و يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك و طلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، و قالوا لا بد من تسليم الكرك و الشوبك.

و بينا الأمر متردد فى الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل، و كان ذلك فى قوة زيادته، فركب الماء تلك الأرض و صار حائلا بين الفرنج و بين دمياط، و انقطعت عنهم الميرة و المدد فبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم و يسلموا دمياط و يعقدوا الصلح.

فنجت الشام و مصر من الفرنج فى هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم و لم يكونوا من المعرفة بحيث يقدرون منازلهم، و منازلهم، فخابت آمالهم و خذلتهم قوتهم و تحكم فيهم من كانوا يستطيلون عليهم و يشتطون فى مطالبتهم و كانت مدة إقامتهم فى ديار الإسلام ما بين الشام و الديار المصرية أربعين شهرا و أربعة عشر يوما.

و لما انكسر الفرنج على دمياط دخل الناس كما قال ابن أبى شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة و سرور و معهم المغانى و المطربون فرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسة قال: و بلغنى أن النصارى ببعلبك سودوا و سخموا وجوه الصور فى كنيستهم حزنا على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالى و أمر اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم.

اختلاف بين أبناء العادل و تقدم الكامل عليهم:

و قصد المعظم عيسى حماة، لأن الناصر صاحبها كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة فلم يف، و نزل بعرين و غلقت أبواب حماة فجرى بينهما قتال قليل. ثم ارتحل المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۴

و ولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها. و بلغ الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك، و اتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على المعظم و ترحيله فأرسل إليه الكامل ناصح الدين الفارسى فوصل إلى المعظم و هو بسلمية و قال له: السلطان يأمرك بالرحيل فقال: السمع و الطاعة، و كانت أطماعه قد قويت فى الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضبا، و تسلم المظفر سلمية من أخيه الناصر، و استقر بيد هذا حماة و المعرة و بعرين، ثم سار الأشرف من مصر و استصحب معه خلعة و سناجق سلطانية من أخيه الكامل العزيز صاحب حلب و عمره عشر سنين، و وصل الأشرف بذلك إلى حلب و أركب العزيز فى دست السلطنة، و لما وصل الأشرف بالخلعة إلى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكرا و هدموها إلى الأرض.

كان الأشرف أنعم على أخيه المظفر غازى بخلاط الأرمنية و هى مملكة عظيمة، و كان قد حصل بين المعظم عيسى صاحب دمشق و بين أخويه الكامل و الأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، فأرسل المعظم و حسّن لأخيه المظفر غازى صاحب خلاط العصيان على

أخيه الأشرف، فأجاب المظفر إلى ذلك و خالف أخاه الأشرف، و كان قد اتفق مع المعظم و المظفر غازى صاحب إربل مظفر الدين كوكبورى فسار مظفر الدين و حصر الموصل عشرة أيام ليشغل الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها و سار الأشرف إلى خلاط و حصر أخاه شهاب الدين غازى فسلمت إليه مدينة خلاط، و انحصر أخوه غازى بقلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الأشرف و اعتذر إليه فقبل عذره و عفا عنه و أقره على ميافارقين و ارتجع باقى الإمارات منه.

و ذكر أبو شامة فى حوادث سنة (۶۲۰) أن الأشرف بن العادل عاد من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق، فالتقاه أخوه المعظم ملك الشام و عرض عليه النزول بالقلعة فامتنع. و بعد أن ذكر كيف عصا أخوه عليه فى خلاط قال:

إنه كتب إلى أخيه شهاب الدين غازى يطلبه فامتنع من المجىء إليه فكتب إليه:

يا أخى لا تفعل أنت ولى عهدى و البلاد و الخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك و تسمع كلام الأعداء فو اللّه ما ينفعوك، فأظهر العصيان فجمع الأشرف

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۵

عساكر الشرق و حلب و تجهز للمسير إلى خلاط، و كان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف فسار المعظم إلى حمص و وصل إلى حماة و نزل على بعرين و عاد إلى حمص و خرج إليه العسكر فظهروا عليه و نهبوا أصحابه فعاد إلى دمشق و لم يظفر بطائل.

و فى سنة (۶۲۲) توفى الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف و ليس بيده غير سميساط، و كان حسن السيرة و تجمعت فيه الفضائل و الأخلاق الحسنة و كان مع ذلك قليل الحظ و له شعر جيد.

و فى سنة (۶۲۲) كان بأيدى الإسماعيلية ثمان قلاع و هى قلعة الكهف و العليقة و القدموس و الخوابى و المينقة و المصياف و الرصافة و القليعة فإن ابن صباح لم يمت حتى ملك جبل عاملة و تلك الحصون. قال ابن ميسر: إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، و من كان بألموت يقال لهم الباطنية و الملاحدة، و من كان بخراسان يقال لهم التعليمية و كلهم إسماعيلية.

و فى سنة (۶۲۳) سار المعظم عيسى بن العادل و نازل حمص و كان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق، و ورد عليه أخوه الأشرف طلبا للصلح و قطعا للفتن، فبقى مكرما ظاهرا و هو فى الباطن كالأسير معه، و لما رأى الأشرف حاله مع أخيه المظفر و أنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد أجابه (۶۲۴) كالمكره إلى ما طلبه منه و حلف له أن يعاضده و يكون معه على أخيهما الكامل، و أن يكون معه على صاحبى حماة و حمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم.

قال ابن الأثير: إن اتفاق الملوك أولاد الملك العادل أبى بكر بن أيوب كان سببا لحفظ بلاد الإسلام و سر الناس أجمعون بذلك. و فى سنة (۶۲۴) قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم بدمشق بعد اجتماعه بالكامل، يطلب منه الإمارات التى كان فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندى إلا السيف.

و لما استقرّ الأشرف بأرضه رجع عن جميع ما تقرر بينه و بين أخيه المعظم، و تأول فى أيمانه التى حلفها أنه مكره، و لما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، و كاتب الأنبرور ملك الفرنج

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۶

فى أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه، و وعد الأنبرور أن يعطيه القدس، فسار الأنبرور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف و استعطفه.

قال ابن الأثير: إن الكامل لما سار من مصر إلى دمشق خاف المعظم أن يأخذ دمشق منه، فأرسل إلى أخيه الأشرف يستنجده فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد منيع و قد صار به من يمنعه و يحميه، و أرسل إليه الأشرف يستعطفه و يعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة و موافقة لأغراضه و الاتفاق معه على قتال الفرنج فأعاد الكامل الجواب يقول: إننى ما جئت إلى هذه البلاد إلا- بسبب الفرنج فإنهم لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه، و قد عمروا صيدا و بعض قيسارية و لم

يمنعوا، و أنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار و ممر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر و قبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ادخره عمنا، و أى وجه يبقى لنا عند الناس و عند اللّه تعالى، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه و يتعدون إلى غيره، و حيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر و احفظ أنت البلاد، و لست بالذى يقال عنى أنى قاتلت أخى أو حصرته حاشا للّه تعالى، و تأخر عن نابلس إلى الديار المصرية.

و انتزع هذه السنة الأتابك طغريل الشغر و بكاس من الصالح أحمد بن الملك الظاهر، و عوضه عنها بعينتاب و الراوندان و فيها توفى المعظم عيسى ابن العادل، و كان شجاعا عالما و عسكره فى غاية التجمل، يجامل أخاه الكامل و يخطب له و لا يذكر اسمه معه و لا يحب التكلف و العظمة. ذكر سبط ابن الجوزى أن المعظم كان فى أيام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا و على عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون و بينهم و بين الجواسيس علامات، و كان له فى عكا أصحاب أخبار و أكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم فى قبالة الكرمل، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة، و إن كانوا مائتين شمعتين، و إن كانوا يريدون قصد

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۷

حوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية، و كذا إلى نابلس، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق و كان يعطى النساء و الجواسيس فى كل فتح جملة كثيرة. و ترتب فى مملكة المعظم و أعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود، و قام بتدبير مملكته مملوك والده و أستاذ داره عز الدين أيبك و كان لأيبك صرخد. و لم يطل الأمر على الناصر داود فى دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك و لا أجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام و نزل على تل العجول بظاهر غزة و ولى على نابلس و القدس و غيرهما من أملاك ابن أخيه الناصر داود، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف فجاءه من الشرق فوقع الاتفاق أن يسير الناصر داود و المجاهد شيركوه مع الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس، و يتوجه الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة، شافعا فى ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك، و لما وصل الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما فى الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، و تعويضه عنها بحران و الرها و الرقة من أملاك الأشرف، و أن تستقر دمشق للأشرف و يكون له إلى عقبة فيق، و ما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل و أن ينتزع حماة من الناصر قليج أرسلان و أن ينتزع سلمية من المظفر محمود و كانت إقطاعه و يعطى لشيركوه حمص. و وقعت سنة (۶۲۵) وقعة بين المسلمين و الفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس و كانت وقعة عظيمة و ذلك لتحرك الفرنج فى الساحل بسبب انقضاء الهدنة.

الحملة الصليبية السادسة:

كانت الحملة الصليبية السادسة (۱۲۲۸- ۱۲۲۹ م) بزعامة الأنبرور فريدريك الثانى و كان سياسيا داهية فلم يدخل فى حرب مع المسلمين بل فاوض الكامل و تسلم القدس و بيت لحم و الناصرة لمدة عشر سنين و إليك ما قاله مؤرخونا فى هذا الشأن:

استولى الأنبرور فريدريك صاحب صقلية و بولية و انكبرديه على صيدا، و كانت مناصفة بين المسلمين و الفرنج و سورها خراب فعمر الفرنج سورها و استولوا

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۸

عليها، و تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين و هونين و غيرهما. و بينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل و بين الأنبرور رحل الناصر داود و هو بنابلس إلى دمشق و كان قد لحقه بالغور عمه الأشرف و عرفه ما أمر به عمه الكامل، و أنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر إلى ذلك فسار الأشرف فى أثره و حصره بدمشق، و كانت الفتنة بين الملكين الكامل و الناصر قبالة باب الجديد و فى الميدان و ما بين ذلك و النصر فيه لأهل دمشق، و وقع الحريق و النهب فى باب توما، و أحرقت بعض

الطواحين و نهبت الدور و وقع الجرح و القتل و خربوا بعد أيام قريات من قرى الغوطة و أخرجوا منها أهلها مثل جوبر و جدبا و زملكا و سقبا و غيرها. قال فى الذيل: و سمعت والدى و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة فى دولة أولاد صلاح الدين يحكمون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار. و فى هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليهما من الخانات و الدور و البساتين و الحمامات و الخانقاهات

طال الأمر و لم يجد الملك الكامل بدا من المهادنة فأجاب الأنبرور إلى تسليم القدس إليه، على أن تستمر أسواره خرابا و لا يعمرها الفرنج، و لا يتعرضوا الى قبة الصخرة و لا الى الجامع الأقصى، و يكون الحكم فى الرساتيق إلى والى المسلمين و يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، و وقع الاتفاق على ذلك و تحالفا عليه و تسلم الأنبرور القدس فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام و اشتدت العظائم، و أقيمت المآتم و قال الوعاظ و العلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. قال ابن أبى شامة: جاءنا الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج فصالحهم على ذلك و على تسليم جملة من القرى فتسلموه و دخلوه مع ملكهم الأنبرور، و كان هذا من الوصمات التى دخلت على المسلمين، و كانت سببا فى أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل و من معه و قد ذكر سبط ابن الجوزى نكتة فى تساهل الغالبين و المغلوبين إذ ذاك قال ما نصه: كان الكامل قد تقدم إلى شمس الدين قاضى نابلس أن يأمر المؤذنين مادام الأنبرور فى القدس أن لا يصعدوا المنائر و لا يؤذنوا فى الحرم، فأنسى القاضى أن يعلم المؤذنين و صعد عبد الكريم المؤذن فى تلك الليلة فى وقت السحر و الأنبرور نازل فى دار القاضى فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى مثل

خطط الشام، ج۲، ص: ۸۹

قوله تعالى: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» و نحو هذا. فلما طلع الفجر استدعى القاضى عبد الكريم و قال له: إيش عملت السلطان رسم كذا و كذا قال: فما عرفتنى النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضى، و كان قد دخل القدس فى خدمته و هو الذى سلم إليه القدس فقال له: يا قاضى أين ذاك الرجل الذى طلع البارحة المنارة و ذكر ذاك الكلام، فعرفه أن السلطان أوصاه، فقال الأنبرور:

أخطأتم يا قاضى تغيرون أنتم شعاركم و شرعكم و دينكم لأجلى، فلو كنتم عندى فى بلادى هل أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ اللّه اللّه لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون عندنا، ثم فرّق فى القوّام و المؤذنين و المجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير و لم يقم بالقدس سوى ليلتين و عاد إلى يافا و خاف من الداوية فإنهم طلبوا قتله.

اختلافات جديدة بين آل العادل:

بعد أن أحيط بدمشق من كل جانب و حلّ بها من الخراب و الفساد العجائب. و اشتد عليها الحصار عوّض الناصر داود عنها بالكرك و البلقاء و الصلت و الأغوار و الشوبك، و أخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التى كانت عينت للناصر و هى حران و الرّها و غيرهما التى كانت بيد الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك و سأل عمه الكامل فى قبولها فقبلها، و تسلم دمشق الأشرف، و تسلم الكامل من الأشرف الديار الشرقية المذكورة، و لما سلم الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف سار من دمشق و نزل على مجمع المروج ثم نزل على سلمية و أرسل عسكرا نازلوا حماة و بها صاحبها الناصر قليج أرسلان. و كان فى العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم إليه و أخذه الى الكامل و هو نازل على سلمية فشتمه و أمر باعتقاله و أن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر و مرشد المنصوريان، و كان بقلعة حماة أخ للناصر يلقب المعز بن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، و قالوا للكامل: لا نملك حماة لغير واحد من أولاد تقى الدين.

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۰

فأرسل الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة: اتفق مع غلمان أيبك و تسلم حماة و كان المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملى فراسل المظفر الحكام بحماة فحلفوا له و واعدوا المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له فدخل البلد و تسلم القلعة، و فوض تدبير حماة إلى الأمير سيف الدين على الهدبانى، و لما استقر المظفر فى ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه و سلمها إلى شيركوه صاحب حمص و رسم الكامل لأخيه المظفر أن يعطى أخاه الناصر قليج أرسلان بعرين بكمالها، و لم يبق بيد المظفر غير حماة و المعرة، ثم رحل الكامل عن سلمية الى الديار الشرقية التى أخذها من أخيه الأشرف عوضا عن دمشق، و أرسل الأشرف أخاه صاحب بصرى الصالح إسماعيل بن العادل بعسكر فنازل بعلبك و بها الأمجد بهرام شاه، و لما طال الحصار عليها سلمها الأمجد، و عوضه الأشرف عنها الزبدانى و قصير دمشق و مواضع أخر. و قصد الفرنج حصن بارين و نهبوا بلاده و أعماله و أسروا و سبوا و من جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين فى ولاية بارين فأخذوهم و لم يسلم منهم إلا النادر الشاذ.

و فى سنة (۶۲۷) شرع صاحب حمص شيركوه فى عمارة قلعة شميميس فأراد المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الكامل. و فيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد و قصدوا حماة فخرج إليهم صاحبها المظفر محمود و التقاهم عند قرية بين حماة و بعرين يقال لها أفيون و كسروهم كسرة عظيمة.

و فى سنة (۶۲۸) سار الكامل من مصر إلى دمشق فسلمية و اجتمع معه ملوك أهل بيته فى جمع عظيم ثم سار بهم إلى آمد و حصرها و تسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود، و كان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته و تعرضه لحريم الناس، و حاصر المظفر صاحب حماة أخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفا من أن يسلمها للفرنج لضعفه عنهم، و انتزعها منه و أكرمه و سأله الإقامة عنده بحماة فسار إلى أخيه الكامل فى مصر. و سار الكامل من مصر (۶۳۱) إلى قتال كيقباذ ملك الروم و قد استصحب معه ستة عشر ملكا من ملوك الشام و الجزيرة من أخوته و آل بيته فى عسكرهم و قطعوا الفرات و انهزم العسكر الكاملى على خرتبرت، و ذلك لأن الملوك الذين فى خدمته

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۱

خامروا عليه (خاتلوه) و تقاعدوا عن الحرب لأن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم و قال: إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام، و يأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام و مصر، فتقاعدوا عن القتال و فسدت نياتهم فرجع الكامل إلى مصر و عاد كل واحد من الملوك إلى بلده. و فى سنة (۶۳۳) سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئا إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل. و سار الكامل من مصر و استرجع حرّان و الرّها من كيقباذ صاحب الروم، و كان استولى عليهما فى السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن أرضه.

و بدت فى هذه السنة طلائع الشر قال سبط ابن الجوزى: و كانوا فى مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس.

و توفى العزيز صاحب حلب حفيد صلاح الدين يوسف بن أيوب، و كان حسن السيرة فى رعيته عن ثلاث و عشرين سنة و ستة أشهر، و تقرر فى الملك بعده ولده الناصر يوسف و عمره نحو سبع سنين و قام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمنى و عز الدين عمر بن مجلى و جمال الدين إقبال الخاتونى، و المرجع فى الأمور الى والدة العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل. و قويت الوحشة بين الكامل و بين أخيه الأشرف و كان ابتداؤها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الكامل و مع باقى الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الأشرف بقصد بلاده و انتزاعها منه فقدم خوفا من ذلك إلى دمشق، و حلف للملك الأشرف و وافقه على قتال الكامل و كاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم و اتفق معه على قتال أخيه الكامل إن خرج من مصر. و توجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس

و كان قد عمرها الداوية بعد ما فتحها صلاح الدين يوسف و خربها و أشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك و هى حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب و ولى الفرنج منهزمين و كثر فيهم القتل و الأسر و عاد عسكر حلب بالأسرى و رؤوس الفرنج و كانت هذه الوقعة من أجل الوقائع.

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۲

توفى الأشرف (۶۳۵) و تملك دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه.

قال أبو الفداء: و كان الأشرف مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة، و كان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، و كان سعيدا و يتفق له أشياء خارقه للعقل.

و علّل الأشرف سبب الوحشة بينه و بين أخيه الكامل ثم صاحب مصر أن الأشرف لم يبق بيده غير دمشق و عمالتها، و كانت لا تفى بما يحتاجه و ما يبذله وقت قدوم أخيه الكامل إلى دمشق، و لما فتح الكامل آمد و ما إليها لم يزده منها شيئا و بلغه أن الكامل يريد أن ينفرد بمصر و الشام و ينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك، و لما بلغ الكامل فى مصر وفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق و كان الصالح إسماعيل قد استعد للحصار و وصلت إليه نجدة الحلبيين و صاحب حمص، فنازل الكامل دمشق و أخرج الصالح النفاطين فأحرق العقيبة جميعها و ما بها من خانات و أسواق، و فى مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين رجلا- نجدة للصالح إسماعيل، فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، و حال نزول الكامل على دمشق أرسل توقيعا للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى الكامل و تعوض عنها بعلبك و البقاع مضافا إلى بصرى. قال ابن أبى شامة فى هذا الحصار: إنه كان أكثر خرابا فى ظاهر البلد و حريقا و مصادرة و أقل غلاء و لم تطل مدته فإن الصلح جرى، و وافق اليوم الذى كسرت فيه الفرنج على دمياط اليوم الذى فتحت فيه آمد.

وفاة الملك الكامل و حال الشام بعده:

توفى الكامل بدمشق هذه السنة (۶۳۵) بعد أن حكم فى مصر نائبا و ملكا نحو أربعين سنة، حكم نائبا نحو عشرين سنة و ملكا نحو عشرين. و كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق فى أيامه و كان يباشر تدبير المملكة بنفسه.

قال ابن خلكان: كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر، محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد، معاشرا لأرباب الفضائل، حازما فى أموره، لا يضع الشيء إلا فى موضعه من غير إسراف و لا إقتار. و كان يخطب له بمكة:

«مالك مكة و عبيدها، و اليمن و زبيدها، و مصر و صعيدها، و الشام و صناديدها الخ

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۳

و كان مع الكامل بدمشق الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر العادل أبى بكر بن الكامل، و هو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العسكر و أقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل نائبا عن العادل أبى بكر بن الكامل، و تقدمت الأمراء إلى الناصر داود بالرحيل عن دمشق و هددوه إن أقام، فرحل إلى الكرك و تفرقت العساكر.

و أرسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة، و قطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فيبست بساتينها، ثم عزم على قطع نهر العاصى عن حماة فسدّ مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة و الطواحين.

لما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الكامل على قصدهم، و وصل عسكر حلب إلى المعرة و انتزعوها من يد المظفر و حاصروا قلعتها، و خرجت المعرة عن ملك المظفر، ثم سار العسكر الحلبى و نازلوا حماة و نهبوا أرجاءها، و لما لم يبق بيد المظفر غير حماة و بعرين خاف أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض.

و جرى بين الناصر داود صاحب الكرك و بين الملك الجواد يونس المتولى على دمشق مصاف بين جينين و نابلس، انتصر فيه الجواد يونس و انهزم الناصر داود هزيمة قبيحة، و قوى الملك الجواد بسبب هذه الوقعة و كان فى عسكر مصر و الشام، و تمكن من دمشق و نهب عسكر الناصر و أثقاله. و استولى الصالح أيوب بن الكامل على دمشق و أعمالها بتسليم الجواد يونس و أخذ العوض عنها سنجار و الرقة و عانة، و لما استقر ملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، فذهب و جعل نائبه فى دمشق، ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، و كان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الأمراء و خلع عليهم، و فرغ الخزائن و كان فيها تسعمائة ألف دينار. و فى رواية أنه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف ألف دينار و خلع خمسة آلاف خلعة.

و فى سنة (۶۳۷) هاجم الصالح إسماعيل صاحب بعلبك و معه شيركوه

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۴

صاحب حمص مدينة دمشق و حصروا القلعة فخربت بذلك دور و مدارس تحت القلعة ثم تسلم الصالح إسماعيل القلعة و حاصر الصالح نجم الدين أيوب حمص. و لما بلغ استيلاء عمه إسماعيل على دمشق رحل من نابلس إلى الغور، و كان هناك قاصدا إلى مصر للاستيلاء عليها، ففسدت نيات عساكره عليه، و شرعت الأمراء و من معه من الملوك يحركون نقاراتهم و يرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه فأصبح لا يدرى ما يفعل و لا له موضع يقصده، فأمسكه الناصر داود صاحب الكرك و اعتقله عنده مبجلا. و قصد الناصر داود القدس و كان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها و فتحها و خرب القلعة و ضرب برج داود. و توفى الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص و كان عسوفا لرعيته و ملك حمص نحو ست و خمسين سنة ملكه أياها صلاح الدين يوسف.

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۵

انقراض الايوبيين «و ظهور دولة المماليک البحرية و ظهور التتر»- من سنة ۶۳۷ الى سنة ۶۹۰-

اشارة

ظهور الخوارزمية:

بينا كان أبناء أيوب يتقاتلون على الملك و الصليبيون قد أخلدوا إلى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم و اكتفوا بما ملكوه من مدن الساحل و القدس، جاء الخوارزمية يعيثون فى الديار الشامية و يروعون أهلها و يقتلون فيهم و يخربون العامر. الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتى أحد ملوكهم الذى استولى على إيران و العراق و أذربيجان و كرجستان، و كانت عاصمة ملكه تبريز. جاءوا سنة (۶۳۴) إلى البلاد الشرقية فاستخدمهم الصالح أيوب بن الكامل و كان فى آمد و حصن كيفا و حران و غيرها نائبا عن أبيه. جاءوا بعد أن قتلوا ملكهم و انضموا إلى كيقباذ ملك الروم و خدموا عنده و كان فيهم عدة مقدمين، فلما مات كيقباذ و تولى ابنه كيخسرو و قبض على بركت خان أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته و ساروا عن الروم و نهبوا ما كان على طريقهم، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل و استأذن أباه فى استخدامهم فأذن له و استخدمهم، فما زال هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر.

كثر عيث الخوارزمية و فسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية و ساروا إلى قرب حلب (۶۳۸) فخرج إليهم عسكرها مع المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين و وقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة و قتل منهم

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۶

خلق كثير، منهم الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، و أسر مقدم جيش المعظم، و استولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين و أسروا

منهم عدة كثيرة.

و كانوا يقتلون بعض الأسرى ليشترى غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئا كثيرا، ثم نزل الخوارزمية على حيلان و كثر عيثهم و فسادهم و نهبهم فى أرجاء حلب، و أحرقوا الأقوات فى القرى، و دخلوا مدينة حلب و استعد أهلها للحصار، و ارتكب الخوارزمية من الفواحش و القتل ما ارتكبه التتر، ثم سار الخوارزمية إلى منبج و فعلوا فيها من القتل و النهب مثل ما تقدم و رجعوا إلى حران و ما معها. ثم قصدوا إلى الجبول ثم إلى تل عزاز ثم إلى سرمين و دخلوا دار الدعوة الإسماعيلية و وافوا المعرة و هم ينهبون ما يجدونه، و قد جفل الناس من بين أيديهم.

و كان قد وصل المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص و معه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولى على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور و قصدوا الخوارزمية و استمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر و نزل عسكر حلب على تل السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة و لم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها المظفر إلى الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية فالرصافة طالبين الرقة، و سار عسكر حلب من تل السلطان إليهم و لحقتهم العرب فألقت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب و أطلقوا الأسرى.

و وصلت الخوارزمية إلى الفرات و لحقهم عسكر حلب و صاحب حمص قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر و وقع القتال بينهم إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات و ساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة و قطعوا الفرات منها، و قصدوا الخوارزمية و اتقعوا قريب الرها، فولى الخوارزميون و ركب صاحب حمص و عسكر حلب أقفيتهم يقتلون و يأسرون. ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، و هربت الخوارزمية إلى عانة و بادر صاحب الموصل إلى نصيبين و دارا و كانت للخوارزمية فاستولى عليهما، و خلّص من كان بهما من الأسرى، و كان منهم المعظم توران شاه أسيرا فى دارا من حين أسروه فى كسرة الحلبيين، و استولى عسكر حلب على الرقة

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۷

و الرها و سروج و رأس عين و ما مع ذلك. و استولى المنصور إبراهيم على الخابور ثم سار عسكر حلب و وصل إليهم نجدة من الروم و حاصروا المعظم ابن الصالح أيوب بآمد و تسلموها منه و تركوا له حصن كيفا و قلعة الهيثم.

اختلاف بنى أيوب و اعتضاد بعضهم الفرنج و عودة الخوارزمية:

كان الملك الجواد يونس بن مودود قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار و عانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه و سار لولو صاحب الموصل و حاصر سنجار و يونس غائب عنها فاستولى عليها و لم يبق بيد يونس من الملك شىء، فسار على البرية إلى غزة و أرسل إلى الصالح أيوب صاحب مصر يسأله فى المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ و دخل عكا، و أقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسماعيل صاحب دمشق حينئذ و بذل مالا للفرنج و تسلم الملك الجواد من الفرنج و اعتقله ثم خنقه (۶۳۸).

و كان قد قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر فسلم الصالح إسماعيل صفد و الشقيف إلى الفرنج ليعضدوه و يكونوا معه على ابن أخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثال فى تاريخ بنى أيوب اللهم إلا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة (۶۲۴) فى أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه و وعده له بإعطائه القدس، و كان ذلك خديعة من الكامل لأخيه المعظم حتى لا يستنجد بأحد من ملوك الأطراف عليه إذا لم يتم شىء من ذلك. و قد أنكر على الصالح إسماعيل كل من شيخ الشافعية و المالكية بدمشق فعزلا من وظائفهما و سجنا بقلعة دمشق.

و كان فى سنة (۶۴۰) مصاف بين الخوارزمية، و معهم المظفر غازى صاحب ميافارقين، و بين عسكر حلب و معهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، و ذلك بالقرب من الخابور، فانهزم الخوارزمية و صاحبهم أقبح هزيمة، و نهب منهم عسكر حلب شيئا كثيرا، و نهبت

و طاقات الخوارزمية و نساؤهم.

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۸

و توفيت هذه السنة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز و ابنة الملك العادل، و كانت تصرفت فى ملك حلب تصرف السلاطين و قامت بالملك أحسن قيام، و كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ و حكم و استقل بملكة حلب و ما هو مضاف إليها، و المرجع فى الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصى الخاتونى.

و فى السنة التالية قصدت التتر مملكة صاحب الروم السلجوقى فاستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسى فانهزم الروم و الحلبيون.

و سار الصالح و حاصر عجلون و لم يقدر على فتحها. و فيها كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر و الصالح إسماعيل صاحب دمشق فى الصلح، و اتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك و اعتضدا بالفرنج و سلما أيضا إلى الفرنج عسقلان و طبرية. فعمر الفرنج قلعتيهما و سلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

و وصلت الخوارزمية (۶۴۲) إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل، و كان مسيرهم على حارم و الرّوج إلى أطراف دمشق حتى وصلوا إلى غزة و دمروا بيت لحم، و وصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية، و أرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع صاحب حمص و دخل عكا، فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم و وعدهم بجزء من مصر و كان أعطاهم الشقيف فخرجت الفرنج بالفارس و الراجل، و اجتمعوا أيضا بصاحب حمص و عسكر دمشق و الكرك و لم يحضر الناصر داود ذلك، و التقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج و ولى عسكر دمشق و صاحب حمص و الكركيون، و تبعهم عسكر مصر و الخوارزمية فقتلوا منهم خلقا عظيما. قيل: إن القتلى زادوا على الثمانمائة و إنه أسر من الفرنج ثمانمائة. قال ابن أبى شامة: كسرت الفرنج و من انضم إليهم من منافقى المسلمين كسرة عظيمة فى عسقلان و غزة و غنم منهم أموال عظيمة و أسر من الفرنج خلق من ملوكهم و كبرائهم و قتل منهم مقتلة عظيمة.

و استولى الصالح أيوب صاحب مصر على غزة و السواحل و القدس ثم أرسل باقى عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ، و اجتمع إليه من بالشام من عسكر

خطط الشام، ج۲، ص: ۹۹

مصر و الخوارزمية، و ساروا إلى دمشق و حاصروها و بها صاحبها الصالح إسماعيل و إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص و لما ضاق صاحب دمشق ذرعا بحصار صاحب مصر له سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه و بين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك.

و تسلم عسكر الملك الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل بن الملك العادل على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك و بصرى و السواد و تستقر حمص و ما هو مضاف اليها بيد صاحبها. ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل و فتحوا دمشق يحصل لهم من الإقطاعات ما يرضى خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح أيوب و صاروا مع الصالح إسماعيل، و انضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك و ساروا إلى دمشق و حصروها فقاسى أهلها شدة عظيمة. قال الذهبى: و اشتد البلاء بدمشق و احترقت العقيبة و الخوانيق، و دام الحصار و الويل خمسة أشهر، و هلك العوام موتا وجوعا، و قل الشىء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح ألفا و ستمائة درهم و أبيع الخبز كل أوقيتين بدرهم، و أكلوا الميتة و أبيعت الأملاك و الأمتعة بالشىء اليسير، و أبيع رطل اللحم بتسعة دراهم، و أنتن البلد بالموتى على الطرق، و عظم الخطب و أولئك يقاتلون على الملك، و الخمور الفاحشة مضمنة بالبلد و المكوس شديدة.

و قال غيره: و قطعت الخوارزمية على الناس الطرق و زحفوا إلى البلد من كل ناحية و رموا النيران فى قصر حجاج و ضربوا بالمناجيق

و كان يوما عظيما، و بعث الصالح إسماعيل الزراقين فأحرقوا جوسق العادل و زقاق الرمان إلى العقيبة بأسرها، و نهبت أموال الناس و احترق بعضها. و زاد سبط ابن الجوزى:

أنه أحرق قصر حجاج و الشاغور و استولى الحريق على مساجد و خانات و دور عظيمة، ثم نصبت على دمشق المناجيق و رميت به من بابى الجابية و الصغير، و نصبت مناجيق أيضا من داخل البلد، و ترامى الفريقان و أمر بتخريب عمارة العقيبة خارج باب الفراديس و باب السلامة و باب الفرج و أحرق حكر السماق و خارج باب النصر. و أرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق والده العادل.

قال المؤرخون: و جرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جدا لم يتم عليها مثلها قط.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۰

و فى هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية و انتزعوها من صاحب حمص و فى سنة (۶۴۲) اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف و بلاد عامل و قصدوا وادى التيم فجمع الأمير عامر الشهابى عساكره و فرسان عشيرته و نهض لملتقاهم، و استنجد بالأمير عبد اللّه المعنى فجمع أهالى الشوف و سار لنجدة الأمير عامر، و التقى الجمعان فى مرج الخيام و صدمتهم الفرنج و دام القتال ثلاثة أيام، و هلك من الفريقين خلق كثير و فى اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن و آل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم و ولوا مدبرين، عظمت بعد ذلك إمارة الأمير عامر و اشتهرت صولته و أخذ قطائع فى البقاع و أنشأ فيها مغارات عديدة.

و فى سنة (۶۴۴) اتفق الحلبيون و المنصور صاحب حمص و صاروا مع الصالح أيوب و قصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق و ساروا نحو الحلبيين و صاحب حمص، و التقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتّت شملهم بعدها، و مضت طائفة من الخوارزمية إلى التتر و صاروا معهم و انقطع منهم جماعة و تفرقوا فى الشام و خدموا به. و رحل حسام الدين الهذبانى بمن عنده من العسكر بدمشق، و نازل بعلبك و بها أولاد الصالح إسماعيل و حاصرها و تسلمها بالأمان، و حمل أولاد الصالح إسماعيل الى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، و كذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فاعتقل، فلم يبق فى دمشق و عملها من يدفع عنها، فأرسل صاحب مصر عسكرا مع يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى فخر الدين على بلاده و حاصر الكرك و خرب ضياعها و ضعف الناصر و لم يبق بيده غير الكرك، و صادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا.

و فتح (۶۴۵) ابن الشيخ قلعتى عسقلان و طبرية بعد محاصرتهما مدة و كان عمّرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة (۶۴۱). و سلم الأشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح فى ملك باقى الشام. و فى سنة (۶۴۶) أرسل الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لولو الأرمنى فحاصروا الأشرف بحمص فسلمهم إياها،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۱

و تعوض عنها بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر و الرحبة. و لما بلغ ذلك الصالح أيوب شق عليه و سار من مصر إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين و نصب عسكره عليها منجنيقا مغربيا يرمى بحجر زنته مائة و أربعون رطلا بالشامى مع عدة منجنيقات أخر، ثم رحل عنها لمرض عرض له، و لوصول الفرنج إلى دمياط و لمجيء رسول الخليفة و السعى فى الصلح بين الصالح أيوب و الحلبيين و أن تستقر حمص بيد الحلبيين. ثم استولى الصالح أيوب على الكرك أعطاه مفاتيحها الأمجد فوهبه خمسين ألف دينار.

وفاة الملك الصالح و مبدأ دولة المماليك:

توفى الملك الصالح أيوب فى سنة (۶۴۷) و كان ملك مصر و القسم الأعظم من الشام. وصفه أبو الفداء بأنه كان مهيبا عالى الهمة عفيفا شديد الوقار و الصمت جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، و رتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه دعوا بالبحرية لأنهم كانوا ينزلون فى ثكنات لهم فى جزيرة الروضة على البحر بحر

النيل و كانوا أول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من الناس و ألفوا دولة المماليك البحرية. مات الملك الصالح و لم يوص بالملك إلى أحد فأحضرت شجرة الدر، و هى جارية الملك الصالح، فخر الدين بن الطواشى و جمال الدين محسنا و عرفتهما بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفا من الفرنج، و جمعت شجرة الدر الأمراء و قالت لهم: السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، فجاء و تسلم ملك مصر إلا أنه مدته لم تطل أكثر من شهرين و أياما، فقتله المماليك البحرية الذين أنشأهم والده، و كان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار سلطانا فيما بعد و لقب بالملك الظاهر، و السبب فى قتله أنه اطرح جانب أمراء أبيه و مماليكه و اعتمد على بطانته التى وصلت معه من حصن كيفا و كانوا أراذل. و أقام رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك فى المملكة و خطب لها على المنابر و ضربت السكة باسمها، و أرسل المصريون رسولا- إلى من بدمشق من الأمراء فى موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، و كاتب الأمراء القيمرية الناصر يوسف صاحب حلب فسار إليهم و ملك

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۲

دمشق و عصت عليه بعلبك و عجلون و شميميس مدة ثم سلمت جميعها إليه، و لما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية و على كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ثم اتفق كبراء الدولة على إقامة شخص من بنى أيوب فى السلطنة فسلطنوا الملك الأشرف موسى بن يوسف. و كان بغزة جماعة من عسكر مصر فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا الى الصالحية و اتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك و خطبوا له بالصالحية، و لما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر و نادوا أن المملكة للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة و لأيبك التركمانى بقيادة الجيش، و رحل فارس الدين أقطاى الصالحى مقدم البحرية متوجها من مصر إلى غزة و معه تقدير ألفى فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الناصر بين يديه.

و بعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة فى مصر و الشام، و كاد الإجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الأمر عنهم بالمرة، و هذا ما حدا ببعض بقايا الأيوبيين فى الشام إلى أن يجمعوا شملهم و يسيروا إلى مصر للمطالبة بسلطنتهم و سلطنة آبائهم. فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من عاصمته و صحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل و الأشرف موسى تورانشاه و أخوه نصرة الدين و الأمجد حسن و الظاهر شاذى أبناء الناصر داود بن المعظم و تقى الدين عباس بن العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم، و التقى العسكران المصرى و الشامى بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر، و لما انكسر المصريون تبعتهم العساكر الشامية و لم يشكوا فى النصر، بقى الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركمانى بمن معه عليه، فولى الناصر منهزما طالبا الشام و أسر معظم أهل بيته من الملوك و استقر الصلح (۶۵۱) بين الناصر يوسف صاحب الشام و بين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن و للناصر ما وراء ذلك، و كان نجم الدين الباذرائى رسول الخلافة هو الذى حضر من جهة الخليفة و أصلح بينهم على ذلك و رجع كل منهم إلى مقره.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۳

ثم اغتال المعز أيبك المستولى على مصر خوشداشه أقطاى الجمدار، فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، و كان الفارس أقطاى يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، و كان الاسم للأشرف موسى فلما قتل أقطاى استقل المعز بالسلطنة و أبطل الأشرف موسى منها بالكلية، و بعث به إلى عماته. و الأشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى مصر.

و لما وصلت البحرية إلى الناصر يوسف صاحب الشام أطمعوه فى ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر و نزل الغور و أرسل إلى غزة عسكرا فنزلوا بها و برز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، و مشى نجم الدين الباذرائى فى الصلح بين المصريين و الشاميين و اتفقت الحال أن يكون للناصر الشام جميعه الى العريش و يكون الحد بين الورادة و العريش، و قتلت شجرة الدر المعز أيبك التركمانى الصالحى، و كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ثم تزوج بها، و كان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك قد خطب

بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته فى الحمام، و نصبوا نور الدين على بن المعز أيبك و لقبوه الملك المنصور سلطانا على مصر و الشام.

و نقل إلى الناصر يوسف صاحب دمشق أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش منهم و تقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا إلى غزة، فأرسل عسكرا فى أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر و نالوا منه. ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء و إلى زعر ملتجئين إلى المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالا جليلة و أطمعوه فى ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه. و سارت البحرية إلى جهة مصر و خرجت عساكر مصر لقتالهم، و التقى المصريون مع البحرية و عسكر المغيث، فانهزم عسكر المغيث و البحرية، و فيهم بيبرس البندقدارى إلى جهة الكرك. و كان المغيث خيم بغزة و جمع الجموع و معه البحرية و خرجت عساكر مصر مع مماليك المعز أيبك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث و من معه فولى منهزما إلى الكرك فى أسوإ حال.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۴

هولاكو التترى

و بينا كان آخر ملوك الشام و مصر من بنى أيوب يتنازعون مع المماليك البحرية و قد خرجت مصر عن حكم الأيوبيين، و كانت دخلت فى حكمهم أولا فأسسوا هناك بنيانها و لما انهار البناء كانت البنية الأولى أول ما هدمت و بقيت بعدها الأطراف و هى الشام و ما إليها مدة قليلة جاء هولاكو التترى (۶۵۶) و استولى على بغداد و قتل الخليفة المستعصم باللّه و قرض الخلافة العباسية، ثم أخذ التتر يتقدمون إلى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد و صحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظى بتحف و تقادم (هدايا) إلى هولاكو ملك التتر، و صانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر، و كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين و بين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق و مقدمهم مجير الدين بن أبى زكرى مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف و أسر مجير الدين، و قوى أمر البحرية بعد هذه الكسرة و أكثروا العيث و الفساد، و سار الناصر يوسف، و قد عرف ما تم على جنده، و معه صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، و أقام على بركة زيزاء محاصرا للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته البحرية، فقبض المغيث على من عنده من البحرية، و علم ذلك فى الحال ركن الدين بيبرس البندقدارى فهرب فى جماعة من البحرية، و وصل بهم إلى الناصر يوسف فأحسن إليهم، و قبض المغيث على من بقى عنده من البحرية و أرسلهم إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، و استقر الصلح بين الناصر و بين المغيث صاحب الكرك.

و قدم هولاكو (۶۵۷) إلى شرقى الفرات و نازل حران و ملكها و استولى على الديار الجزرية و أرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب و كان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائبا عن ابن أخيه الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم و خرج المعظم و لم يكن من رأيه الخروج إليهم، و أكمن لهم التتر فى باب اللّه فتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد. ثم عادوا عليهم و هرب المسلمون طالبين المدينة و التتر يقتلون فيهم، اختنق فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى عزاز فتسلموها

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۵

بالأمان، و لما بلغ الناصر يوسف قصد التتر حلب برز من دمشق (۶۵۸) إلى برزة و جفل الناس بين أيدى التتر، و سار من حماة إلى دمشق المنصور صاحب حماة و نزل معه ببرزة و كان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقدارى فاجتمع عند الناصر ببرزة أمم عظيمة من العساكر و الجفال، و بلغ الناصر أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله و الفتك به فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق، و بلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا إلى جهة غزة، و كذلك سار بيبرس البندقدارى إلى غزة و أشاع المماليك الناصرية

أنهم لم يقصدوا قتل الناصر إنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه و يسلطنوا أخاه الظاهر غازى، و لما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفا من أخيه الناصر فوصل إلى غزة و اجتمع عليه من بها من العساكر و أقاموا سلطانا، و كاتب بيبرس البندقدارى المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان و وعده الوعود ففارق بيبرس الشاميين و سار إلى مصر فى جماعة من أصحابه.

و سبب استيلاء التتر على حلب أن هولاكو عبر الفرات بجموعه و نازل حلب و أرسل إلى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل و نحن قصدنا الناصر و العساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة و بالقلعة شحنة، و نتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على الإسلام كانت البلاد لنا، و تكونون قد حقنتم دماء المسلمين، و إن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين، إن شئتم طردتموهما و إن شئتم قتلتموهما، فلم يجب المعظم إلى ذلك و قال: ليس لكم عندنا إلا السيف. فتعجب هولاكو من هذا الجواب و تألم، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك.

و أحاط التتر بحلب و قتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون و دار نجم الدين أخى مردكين و دار البازيار و دار علم الدين قيصر و خانقاه زين الدين الصوفى و كنيسة اليهود و ذلك لفرمانات كانت بأيديهم. و قيل أنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس. و نازل التتر القلعة و حاصروها و بها المعظم و من التجأ إليها من العسكر و استمر الحصار عليها و مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان، و أمر هولاكو أن يمضى كل من سلم إلى داره و أن لا يعارض و جعل النائب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۶

بحلب عماد الدين القزوينى.

قال ابن العديم: و احترز نواب حلب و جمعوا أهل الأطراف و الحواضر و اجتمعوا كلهم داخل البلد، و كانت حلب فى غاية الحصانة و القوة لأسوارها المحكمة البناء و قلعتها العظيمة، و لم يكن فى ظن أحد أنها تؤخذ بسرعة قال:

و خرج العوام و السوقة و اجتمعوا كلهم بجبل بانقوسا و وصل جمع التتر إلى أسفل الجبل، و كمنوا على القرية المعروفة ببابلا ثم كر التتر منهزمين ثم رجعوا و قتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند و العوام. و قتل هولاكو فى حلب أكثر ممن قتل فى بغداد. و قال ابن تغرى بردى: إن هولاكو حاصر حلب ستة أيام ثم أوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد، و وصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم فأكرمه و أعاد عليه حمص، ثم رحل هولاكو إلى حارم و طلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والى قلعة حلب فأحضره هولاكو و سلموها إليه، فغضب هولاكو من ذلك و أمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم و سبى النساء، ثم رحل هولاكو إلى الشرق و جعل مكان عماد الدين القزوينى بحلب رجلا أعجميا و أمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب و أسوار المدينة فخربت عن آخرها و أمر الأشرف موسى صاحب حمص بإخراب سور قلعة حماة فخربت و أحرقت زردخانتها، و لم تخرب أسوار المدينة لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية بذل لخسرو شاه نائب هولاكو فى حلب جملة كثيرة من المال و قال: الفرنج قريب منا فى حصن الأكراد و متى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها، فأخذ منه المال و لم يتعرض لخراب الأسوار و كان قد أمر هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنها بلده، و أما دمشق فإن نائب هولاكو قدم إلى أهلها بالفرمان و الأمان فتلقاه كبراء المدينة و أنفذت مفاتيح دمشق إلى هولاكو. قال سبط ابن الجوزى: و كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتر فهرب كثير من الدمشقيين و باعوا أصلهم و خرجوا على وجوههم متفرقين فى البرارى و الجبال و الحصون، و صادف ذلك أيام الشتاء و قوة البرد فمات كثير منهم و نهب آخرون. و قال القلقشندى فى كلامه على البيت الهولاكوهى:

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۷

و لو تمكنوا من دمشق لمحوا آثارها و أنسوا أخبارها، و أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به.

و لم يتعرض عسكر هولاكو الى قتل و لا نهب و عصت قلعة دمشق عليه فحاصرها التتر، و جرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، ثم تسلموا القلعة بالأمان و نهبوا جميع ما فيها، وجدوا فى خراب أسوار القلعة و إعدام ما بها من الزردخانات و الآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك و نازلوا قلعتها و أخذوا نابلس بالسيف و تسلموا قلعة عجلون و استولوا على قلاع الصلت و عجلون و صرخد و بصرى و الصبيبة و هدموها و وقعوا على العرب عند زيزاء و حسبان فهزموهم، و غنموا أولادهم و نساءهم و أنعامهم و استاقوا الجميع، و هرب سلطان تلك الأرجاء الناصر يوسف بن محمد إلى البرارى فساقوا خلفه و أخذوه ثم قتلوه. و استولى التتر من أرض الفرنج على صيدا و نهبوها و أسروا منها ثلاثمائة أسير. و عاثوا فى حوران و نابلس و بلغت غاراتهم غزة و بيت جبريل و الخليل و الصلت و ما إليها و جاءوا بالأسرى إلى دمشق فمنهم من افتدى نفسه و منهم من هرب.

و ظل التتر يتنقلون فى الشام حتى فتحوه إلى غزة و استقرت شحائنهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من دمشق فى عسكره إلى الديار المصرية و فى صحبته المنصور صاحب حماة، فلما رأى كبراء حماة تخلى ملكهم عنهم توجهوا إلى حلب و معهم مفاتيح بلدهم و حملوها إلى هولاكو و طلبوا منه الأمان لأهل حماة و شحنة تكون عندهم فأمنهم هولاكو و أرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميا اسمه خسروشاه فقدم حماة و أمن الرعية.

و استولى التتر (۶۵۸) على ميافارقين بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم و فنى أهلها بالوباء و القتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر ابن العادل أبى بكر بن أيوب و حملوا رأسه على رمح و طافوا به فى الأرجاء فمروا بحلب و حماة و دمشق بالمغانى و الطبول و علقوه فى شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين.

قال الذهبى: إن نصارى دمشق شمخت أثناء مجيء هولاكو إلى البلاد و رفعوا الصليب فى البلد و ألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، و نقضوا العهد

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۸

و صاحوا: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. فلما انتصر المسلمون على هولاكو على عين جالوت بين بيسان و نابلس و قتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر إلى دمشق فى الليل فوقع النهب و القتل فى النصارى و أحرقت كنيستهم العظمى. و قال أبو الفداء: إن النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس و إدخال الخمر إلى الجامع. قال فى المذيل: إن النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتر و تردد ايل شبان و غيره من كبارهم إلى كنائسهم، و ذهب بعضهم إلى هولاكو و جاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم و توجه فى حقهم، و دخلوا به البلد من باب توما و صلبانهم مرتفعة و هم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الإسلام، و يرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك همّ عظيم، فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها و يخربون ما استطاعوا فيها و خربوا كنيسة اليعاقبة و أخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوما و الحيطان حولها تعمل النار فى أخشابها، و قتل منهم جماعة و اختفى الباقون و جرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين، ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى اه.

اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر هربا من التتر، فلما انتظمت أحوالهم و استجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، و سار معه صاحب حماة المنصور و أخوه الأفضل على حتى التقى مع التتر فى الغور، و كان كتبغا نائب هولاكو على الشام و معه صاحب الصبيبة الملك السعيد فانهزم التتر هزيمة قبيحة على عين الجالوت و قتل مقدمهم كتبغا و استؤسر ابنه و تفرقوا فى الأرجاء و منهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون، و جرد قطز ركن الدين بيبرس فى أثرهم فتبعهم إلى أطراف الأصقاع الشرقية، و كان فى صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم و طلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، و أقره على ما بيده و هو حمص و مضافاتها، و أسرا صاحب الصبيبة و ضربت عنقه، و أقر المنصور على حماة و بارين و المعرة و أخذ منه سلمية و أعطاها أمير العرب، و دخل دمشق فتضاعف شكر المسلمين على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة

على التتر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۰۹

لاستيلائهم على معظم ديار الإسلام، و لأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه، و ما تواقعوا مع عسكر إلا هزموه. قال ابن أبى شامة: و من العجائب أن التتر كسروا و أهلكوا بأبناء جنسهم من الترك و قيل فى ذلك:

غلب التتار على البلاد فجاءهممن مصر تركى يجود بنفسه

بالشام أهلكهم و بدد شملهمو لكل شىء آفة من جنسه

و قد رتب المظفر قطز شمس الدين أقوش البرلى أميرا بالسواحل و غزة و جهز عسكرا إلى حلب لحفظها، و فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبى و نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل و لما استقر هذا فى نيابة حلب سار سيرة رديئة و كان دأبه التحيل على أخذ مال الرعية.

مقتل المظفر قطز و سلطنة الظاهر بيبرس و أحداث:

سار الملك المظفر قطز إلى مصر بعد أن ظفر بالتتر ورد فلّهم إلى الشرق و كان اتفق بيبرس البندقدارى و بعض أعيان الدولة على قتله، فساروا معه و قتلوه فى القصير و تسلطن بيبرس البندقدارى و تلقب بالملك الظاهر، و دخل مصر ففتحت له و استقرت قدمه فى المملكة. و لما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتل قطز و سلطنة الظاهر جمع الناس و حلفهم لنفسه بالسلطنة، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه، و لم يتأخر عنه أحد و لقب نفسه الملك المجاهد و خطب له بالسلطنة و ضربت السكة باسمه و كاتب المنصور صاحب حماة فى ذلك فلم يجبه و قال صاحب حماة: أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان. أما السعيد نائب السلطنة بحلب فحمله أمراؤها إلى الشغر و بكاس معتقلا لما اندفع العسكر الحلبى من بين أيدى التتر على البيرة، و قدموا عليهم حسام الدين الجوكندار العزيزى. ثم سار التتر إلى حلب و ملكوها و أخرجوا أهلها إلى قرنبيا شرقى حلب، فأفنوا غالبهم بالسيف، و استولوا على اعزاز و خربوا قلعتها، و استولوا على حارم و قتلوا أهلها عن آخرهم و سبوا النساء، و ملكوا حلب و أعمالها نحو أربعة أشهر. و قارب التتر حماة فخرج منها صاحبها و باقى العسكر و اجتمعوا بحمص مع سائر الأجناد فوقع بين التتر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۰

و عساكر المسلمين مصاف فى حمص، و كان التتر أكثر من المسلمين فانهزم التتر و هاموا على وجوههم إلى أفامية و منها إلى الشرق، و منهم من دخل فى خدمة المسلمين. و جهز الملك الظاهر (۶۵۹) صاحب مصر عسكرا إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولى على دمشق، فخرج هذا لقتالهم فانهزم إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر و قبضوا عليه و حمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق و استقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس، و أقيمت له الخطبة بها و بحلب و حمص و غيرها، ثم استقر أيدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير أمورها. و فى سنة (۶۶۰) وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطى و قبض على علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بدمشق و قبض حواصله، و كان طيبرس قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم و الترسيم عليهم و إخراج عيالهم و إهانتهم، و ضيق على الناس و خوفهم من التتر.

و لما بلغ هولاكو و هو فى بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت و قتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك و أحضر الناصر ابن أيوب و أخاه الظاهر غازى و كانا فى أسره و قال للناصر: أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك فغدرت بى و قتلت المغول فقال الناصر: لو كنت فى الشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف و من يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام؟ فضربه هولاكو. فقال الناصر: يا خوند الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر و قال: قد حضرت ثم رماه فقتله. ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الناصر و الصالح ابن صاحب حمص و الجماعة الذين كانوا معهم و استبقوا العزيز بن الناصر لأنه كان صغيرا.

و كان الملك الناصر يوسف هو آخر من ملك دمشق من بنى أيوب. قبض عليه لما دخل دمشق جيش هولاكو فجهز و ولده و أخوه و معهم جماعة من أعيان أهل دمشق إلى مخيّم هولاكو فأمر بقتلهم.

و الملك الناصر هو صاحب حلب تملك حرّان و الرّها و الرقة و رأس عين

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۱

و حمص و دمشق و بعلبك و الأغوار و السواحل إلى غزة، و عظم شأنه و كسر عساكر مصر و خطب له بمصر و كان قد غلب على الديار المصرية لو لا هزيمته و قتل مدبره شمس الدين لولو الأرمنى و مخامرة مماليك أبيه العزيزية.

و كان الناصر حليما و تجاوز به الحلم إلى حد أضرّ بالمملكة فكان إذا حضر إليه القاتل عفا عنه و قال: الحىّ أفضل من الميت. فانتشرت اللصوصية و أصبح المسافر فى أيامه من دمشق إلى حماة و غيرها لا يقدر على السفر إلا برفقة من العسكر، و كثر طمع العرب و التركمان فى أيامه.

و بقتل الناصر و الظاهر قلّ الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب و ضعفت عصبيتهم و أنصارهم من الأكراد و غيرهم، و كان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بيض أياديهم و بيد السفاك هولاكو و جماعة من التتر. و كان شأن بنى أيوب فى هذا المعنى شأن بنى عباس مع الأتراك أدخلوهم فى خدمتهم و أحسنوا إليهم و رفعوا منزلتهم و ولوهم الأعمال، فما كان منهم إلا أن نقضوا بنيان تلك الدولة و فتحوا السبيل لعدوها يستبيح حماها و يستصفى أرضها.

و لم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء، و عادوا سنة (۶۵۹) إلى حلب فانهزم جميع أهل القرى و المدن فتقدم قائدهم أن يخرج أهل القرى و المدن إلى ظاهر البلد و يبقى أهل كل مدينة و قرية بمعزل بحيث يعدّونهم و يسيّرون كل قوم إلى مكانهم و موطنهم، و يسلمهم المغول كأنهم يسيرون إلى ضياعهم و عند ما يبعدون يقولون لهم: أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتم من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم و لم يفلت منهم غير أهل حلب لأنهم لم ينتقلوا عنها.

حروب الظاهر و فتوحه:

و كان الملك الظاهر صاحب مصر و الشام بين عاملين فى خلال هذه المدة.

عامل دفع المغول و عامل دفع الصليبيين، و الغالب أنه ترجح عنده معاناة الثانى فأفلح فيه. و قد جهز سنة (۶۵۹) من مصر بدر الدين الأيدمرى فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة إلى حلب (۶۶۰) و كان مقدمهم

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۲

شمس الدين سنقر الرومى فأمنت بلاد حلب و عادت إلى الصلاح بعد إفساد المغول فيها، ثم أوعز إلى صاحب حماة و صاحب حمص و سنقر الرومى أن يسيروا إلى أنطاكية للإغارة عليها، فساروا إليها و نهبوها و لم يتيسر لهم فتحها.

و قبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طيبرس الوزيرى و كان ردىء السيرة فى أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، و قتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بتهمة أنه كتب إلى التتر يطمعهم فى ملك مصر و الشام و قيل: لأنه أكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية و أرسلهم الى الناصر يوسف صاحب دمشق، و هرب الظاهر و بقيت امرأته فى الكرك، فانتقم الظاهر منه بأن أسلمه إلى زوجته فى قلعة الجبل بمصر و أمرت جواريها فقتلته بالقباقيب.

و فى سنة (۶۶۱) أرسل الظاهر و هو نازل على الطور عسكرا هدموا كنيسة الناصرة و أغاروا على عكا فغنموا و عادوا، ثم ركب الظاهر بنفسه و أغار ثانية على عكا و هدم برجا كان خارج البلد. و أغار صاحب سيس على العمق و المعرة و سرمين و الفوعة. و مات هذه السنة الملك الأشرف صاحب حمص و كان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم، و أولهم شيركوه بن شاذى. و كانت بقيت فى أيدى الإسماعيلية إلى آخر سنة (۶۶۲) ثمان قلاع بالشام و هى الكهف و العليقة و القدموس و الخوابى و المينقة و

مصياف و الرصافة و القليعة. و روى ابن ميسر أن التتر لما ملكوا الشام سلموا إليهم أربع قلاع، فلما كسرهم قطز عادت الأربع قلاع إليهم فتسلمها رئيسهم و قتل أصحابه الذين سلموها للتتر قال: و كان الضرر على المسلمين و ملوكهم منذ خرج ابن صباح و إلى سنة بضع و عشرين و ستمائة عظيما. و قد استخدمهم الظاهر فى قتل صاحب مرقبة و الأمير ادوارد من أمراء انكلترا.

و فى سنة (۶۶۳) سار الملك الظاهر من مصر و نازل قيسارية و ضايقها و فتحها من الفرنج و أمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف و نازلها و فتحها و فتح القليعات (۶۶۴) و حلبا و عرقة و نزل على صفد و ضايقها و فتحها ثم قتل أهلها عن آخرهم. و جهز عسكرا ضخما من دمشق و قدم عليهم المنصور صاحب حماة و أمرهم بالمسير إلى عمالة الأرمن فانهزموا و أسر ابنان لصاحبهم و امتلأت

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۳

أيدى العسكر الإسلامى من الغنائم. و عند ما توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة سيس أصدر أمره لما نزل على قارا بين دمشق و حمص بنهب أهلها و قتل كبارهم فنهبوا و قتل منهم جماعة، و كانوا نصارى يسرقون المسلمين و يبيعونهم خفية من الفرنج. و أخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين التركى فى الديار المصرية فصار منهم أجناد و أمراء.

و شنّ الظاهر الغارة على الفرنج (۶۶۵) من أطرافهم و استدعى بالمجانيق من دمشق. و فى سنة (۶۶۶) توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر إلى الشام ففتح يافا من الفرنج و هدمها و قلعتها و ملك الباشورة بالسيف و عوض أهل القلعة أربعين ألف درهم، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنزل تحتها فى وادى العوامید و حاصرها فلم يقدر على أخذها، ثم صعد إلى أعلاها و كشف ماءها و بعد هزيع من الليل ذبح فى قناتها عدة من الغنم و البقر و قطع كروشها و رماها فيها، فلما أصبحوا وجدوا ماءهم منتنا و هو دم عبيط فسلموها بعد حصار عشرة أيام، و وجد بها أربعمائة و ثمانين رجلا فأرسلهم إلى الفرنج فى صور، و رتب عليها قوما من جماعته و بنى برجا على باب القلعة.

ثم أغار الظاهر على طرابلس فقطع أشجارها و غور أنهارها و ضرب أربعا و عشرين من قراها، فانهالت عليه المردة من الجبال فذهب إلى حصن الأكراد، و من هناك زحف على أنطاكية فنازلها بغتة، و بعد حصار أربعة أيام ملكها بالسيف فقتل أهلها و أحرق كنائسها و غنم منها أموالا كثيرة، و أحصى من قتل بأنطاكية هذه المرة فكانوا نيفا و أربعين ألفا، ثم أطلق من كان بها من الأسرى، و فى رواية أنه قتل من حماتها بين ۱۶ و ۱۷ ألف صليبى و أخذ مئة ألف أسير و أحرقها و قلعتها، و نال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر، و خرج جماعة من أهلها يطلبون الأمان و شرطوا شروطا لم يجب الظاهر إليها و زحف عليها فملكها. و كانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند و له معها طرابلس، و لما فتحت أنطاكية هرب أهل بغراس منها و تركوا الحصن خاليا فأرسل الظاهر و استولى عليه.

و وقع الصلح بين الظاهر و هيتوم صاحب سيس الأرمنى على أنه إذا أحضر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۴

صاحب سيس سنقر الأشقر من التتر، و كانوا أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو، و سلم مع ذلك بهسنى و دربساك و مرزبان و رعبان و شيح الحديد يطلق له ابنه ليفون الذى كان فى أسر الملك الظاهر، فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى و دخل صاحب سيس على أبغا ملك التتر و طلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه، و تسلم الظاهر بلاطنوس من عز الدين عثمان صاحب صهيون، و أغار (۶۶۸) على عكا و تسلم حصن مصياف من الإسماعيلية و فتح من حصونهم الكهف و القدموس و المنيقة و العليقة و أمّر عليهم حسن بن المشغرانى، و فرض عليه أن يرفع إليه فى كل عام مئة ألف درهم. و نازل السلطان (۶۶۹) حصن الأكراد فملكه بالأمان و ملك حصن عكار بعد حصاره له بالأمان، فتذلل له صاحب طرابلس و بذل له ما أراد و هادنه عشر سنين و تسلم حصن القرين بالأمان و هدمه. و أغارت التتر على عينتاب و على الرّوج و قسطون إلى قرب أفامية ثم عادوا. فاستدعى الظاهر عسكرا من مصر و توجه بهم إلى حلب و نازل التتر على البيرة و أراد عبور الفرات إلى بر البيرة و نصبوا عليها المجانيق و ضايقوها فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات و هزم التتر فرحلوا عن البيرة. و شنّ الغارة (۶۶۹) بفرقة من العسكر و معه ولده الملك السعيد بفرقة أخرى على جبلة و اللاذقية

و المرقب و عرقة و القليعات و حلبا و صافيتا و المجدل و أنطرطوس. و فى سنة (۶۷۳) توجه السلطان إلى ديار الأرمن و دخلها بعساكره المتوافرة و غنموا ثم عادوا إلى دمشق. و عاد التتر (۶۷۴) و نازلوا البيرة فتوجه الظاهر إليهم و بلغه رحيلهم و هو بالقطيفة فأتم السير إلى حلب و عاد التتر (۶۷۵) فزحفوا على الشام و خرج إليهم الظاهر و قاتلهم فكسرهم و قتل منهم خلائق و تبعهم إلى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل إنه قتل فيها من الفريقين نحو مئة ألف إنسان.

ثم سار إلى قيسارية و استولى عليها و وصل إلى عمق حارم فدمشق.

وفاة الملك الظاهر و سلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون:

توفى الملك الظاهر (۶۷۶) بعد أن بطش البطشة الكبرى بالصليبيين فى الشام، و دفع عادية المغول عنه ما أمكن، و غزا الأرمن الذين أصبحوا يبدون

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۵

لدولته نواجذ الشر، فخرب ديارهم و أباد خضراءهم و غضراءهم. و كان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا وصل إلى الملك بقتل آخر ملوك بنى أيوب، و ما زال يتدرج فى مراتب القوة حتى ملك الديار المصرية و الشامية و فتح الفتوح الجليلة. أصله مملوك قبجاقى الجنس و قيل برجعلى و كان ذا همة شماء يتنقل فى ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا و هو بينهم، و لو لا أنه جد فى قتال الصليبيين لما كفّر عما أتاه من قتل ابن أيوب، و بنو أيوب أحبهم الناس على علاتهم لغناء أكثرهم فى خدمة الملة و الدولة.

ترجم سوبرنهايم فى المعلمة الإسلامية للظاهر بيبرس بقوله: إنه كان السبب بتوسيد ملك الشام إلى قطز لما أبلى البلاء الحسن فى وقعة عين جالوت فأقطع قطز الأمراء من بنى أيوب الإقطاعات التى كانت لهم قبل غارات المغول، و لكن بيبرس الذى كان يرجو أن توسد إليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئا فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم، فقتل السلطان فى الصيد و نادى به زعماء الجند و غيرهم سلطانا، و كانت المملكة المصرية و الشامية محاطة من كل جانب بالأعداء: فى الشمال ملك أرمينية المسيحى، و فى الغرب الصليبيون ينزلون على جميع شاطئ الشام، و فى الداخل الحشيشية « (الإسماعيلية) الأشداء، و من الشرق المغول الطامعون فى الغنائم و الانتقام، و فى جنوبى مصر أهل النوبة المجاربون، و فى الغرب البربر الصعب قيادهم، و كان يخشى أن ينجم له ناجم فى الداخل من بنى أيوب و يسمو إلى السلطنة، فيجد على دعوته أنصارا على أيسر وجه، فرأى أن يبايع لأحد ذرية بنى العباس بالخلافة بعد أن قرضها المغول من بغداد، فتوفق إلى ذلك و بايع له فى مصر، لأن من مصلحته أن يظهر أمام العالم الإسلامى بأنه حامى الخلافة، و بذلك أصبح له نفوذ على حكومات مكة و المدينة، و عرف كيف يدارى معظم أمراء الفرنج الشرقيين.

هادن الظاهر الاسبتار بحصن الأكراد و المرقب سنة خمس و ستين و ستمائة لمدة عشر سنين متوالية و عشرة أشهر و عشرة أيام و عشر ساعات على أن يكون النصف من غلات قرى جميع المملكة الحمصية و الشيزرية و الحموية و بلاد الدعوة للملك الظاهر، و النصف لبيت الاسبتار. و استقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس أيضا و بين ملكة بيروت فى سنة سبع و ستين و ستمائة

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۶

حين كانت بيدها لمدة عشر سنين متوالية على أن يكون جميع المترددين من بلاد الملكة إلى بلاد الظاهر و بالعكس آمنين مطمئنين على نفوسهم و أموالهم و بضائعهم برا و بحرا ليلا و نهارا، و على أن الملكة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من قصد مملكة السلطان من جهة بيروت و ما إليها، و تمنع من ذلك و تدفع كل متطرق بسوء و تكون الأقاليم من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين. و عقدت هدنة بين الظاهر و ولده الملك السعيد و بين الفرنج الاسبتارية على قلعة لدّ فى سنة تسع و ستين و ستمائة على أن تكون قلعة لدّ و الجهات المذكورة إلى آخر الزائد للملك الظاهر و لا يكون لبيت الاسبتار و لا لأحد من الفرنجة فيها تعلق و لا طلب بوجه و لا سبب.

و عقد محالفات مع الملك ما نفريد دى هوهانستوفن، ثم عقد محالفة مع شارل دانجو و جاك داراغون و الفونس دى كاستيل، و عقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومى الذى طرد الصليبيين، و كانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة فى آسيا الصغرى و مع صاحب اليمن. ثم إن الظاهر رأى فى الصليبيين أشد الأعداء خطرا على المملكة و استفاد من تفرق كلمتهم و كان المدد الذى يأتيهم من أوروبا قد ضعف، و كان فى موت شارل التاسع إنقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج، و هكذا فإن الظاهر ظلّ ظافرا بجميع أعدائه، و لم يتوقف عن شىء لبلوغ غايته، و كثيرا ما كان يعد و عودا كاذبة و يكتب كتبا مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له، و كان نجاحه مناط قريحته فى التنظيم و سرعته و شجاعته المتناهية، و كان البريد يدور و يروح فى المملكة بسرعة حتى ليصل الخبر من مصر للشام فى ثلاثة أيام و كان أسعد سلطانا من سلاطين المماليك و أقدرهم. و روى شمس الدين سامى أن السلطنة الإسلامية صارت ذات بهاء فى أيامه و أنه مات مسموما بدمشق.

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس و لقبه الملك السعيد و جعله ولى عهده إلا أنه خبط و خلط و أراد تقديم الأصاغر على الأمراء الأكابر ففسدت نيات الكبار عليه و قرروا خلعه من السلطنة، بعد أن دخل سيس (۶۷۷) و شن الغارة عليها و غنم، فحصره العسكر فى قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على أن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك فلحق بها و هلك بعد قليل.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۷

و اتفق الأمراء لما خلع الملك السعيد نفسه على إقامة بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس فى المملكة، و لقبوه العادل، و عمره إذ ذاك سبع سنين و شهور، ثم خلعوه و أجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحى.

و لما اضطرب أمر المملكة استأثر بالشام سنقر الأشقر الذى كان الظاهر اشترط على صاحب سيس أن يتوسط لدى ملك التتر لإطلاقه من الأسر ففعل، و نسى سنقر هذه اليد للظاهر، و جلس على سرير السلطنة بدمشق و حلف له الأمراء و العسكر و تلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر، فجهز المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر، فبرز سنقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، و التقى الفريقان فولى الشاميون و سنقر منهزمين، فجعل الأمير لاجين المنصورى نائب السلطنة بالشام، و هرب سنقر الأشقر إلى الرحبة و كاتب أبغا بن هولاكو ملك التتر و أطمعه فى هذه الديار، و كان عيسى بن مهنا ملك العرب فى الشام مع سنقر الأشقر و قاتل معه و كتب بذلك إلى أبغا أيضا، موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون و استولى عليها و على برزيه و بلاطنس و الشغر و بكاس و عكار و شيرز و أفامية و صارت هذه القلاع له.

و أحرق (۶۷۷) عسكر الشام عمالة الغرب و جبيل و بيروت و ذلك أن قطب الدين السعد بعد أن استقطع قرية كفر عمية من أمراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولا- فاتهم بقتله نجم الدين بن جحى و كان أبوه و ذو قرابته معتقلين فى مصر فتوجهت اليه العساكر و العشران من ولاية بعلبك و البقاع و صيدا و بيروت و أحرقت قراه، و تفرق التنوخيون أيدى سبا إلى أن أمنهم الملك فرجعوا إلى مساقط رؤوسهم.

و جاء التتر إلى حلب (۶۷۹) فعاثوا و قتلوا من كان بظاهرها و ملكوا ضياعها و نهبوا و سبوا و أحرقوا الجامع و المدارس المعتبرة و دور السلطنة و الأمراء و أقاموا بها يومين و عادوا من حيث أتوا، فهب الملك المنصور قلاوون إلى غزة لدفعهم فرحلوا قبل أن يوافيهم، قال ابن أبى الحديد: و كانت للتتر نهضات و سرايا كثيرة إلى الشام، قتلوا و نهبوا و سبوا فيها حتى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها و صانعهم عنها أهلها و سلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كى خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قضه و قضيضه و جيشه و لفيفه،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۸

و استكثر من الأكراد العتمرية من عساكر الشام و جند حلب فيقال إنه اجتمع مائة ألف فارس و راجل فلقيه التتر فى عشرين ألفا، فجرت بينه و بينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته، و كانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب و هم أنجاد أبطال فقتلوا عن آخرهم و انكسر العسكر الرومى، و هرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكية فاعتصم بها، و تمزقت

جموعه و قتل منهم عدد لا يحصى.

و استأذن نائب السلطنة بحصن الأكراد فى الإغارة على المرقب لما اعتمد أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب فأذن له السلطان فى ذلك، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين و نزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة. و ترددت الرسل بين السلطان و سنقر الأشقر، و احتاج السلطان لمصالحته لقوة التتر و تفاديا من الاشتغال بالعدو الداخلى و العدو الخارجى، و وقع بينهما الصلح على أن يسلم سنقر قلعة شيزر إلى السلطان و يتسلم سنقر الشغر و بكاس، و كانتا قد ارتجعتا منه و حلفا على ذلك و استقر الصلح بينهما، كما استقر الصلح بين المنصور قلاوون و بين خضر بن الظاهر بيبرس صاحب الكرك.

و بعد أن استقر الصلح بين الأميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف العظيم (۶۸۰) بين المسلمين و بين التتر بظاهر حمص، فجمع قلاوون العساكر من مصر و الشام و من جملتهم عسكر سنقر الأشقر، و جاء الأمراء كلهم فى جيوشهم، و كان التتر فى ثمانين ألف فارس و فى رواية مائة ألف منهم خمسون ألفا من المغول و الباقى حشود و جموع من أجناس مختلفة مثل الكرج و الأرمن و العجم و غيرهم، و المسلمون فى خمسين ألفا فانهزم التتر و تبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون. و عقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتر كليام ديباجون مقدم بيت الداوية بعكا و الساحل و بين جميع الإخوة الداوية بأنطرطوس لمدة عشر سنين، لا ينال بلاده و لا بلاد ولده و لا حصونهما و لا قلاعهما و لا ضياعهما و لا عساكرهما و لا عربهما و لا تركمانهما و لا أكرادهما و لا رعاياهما على اختلاف الأجناس ضرّ و لا سوء و لا غارة و لا تعرض و لا أذية.

و سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبهة بشرى (۶۸۱) و حاصروا إهدن

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۱۹

حصارا شديدا و بعد أربعين يوما ملكوها فنهبوا و قتلوا و سبوا و هدموا القلعة التى فى وسط القرية و الحصن الذى على رأس الجبل، و فتحوا بقوفا و قضوا على أكابرها و هدموها و ضربوا حصرون و كفر حارون و خربوا حدث البشرى و بنوا برجا قبالة المغارة و وضعوا فيه عسكرا يكمنون للعصاة و هدموا جميع الأماكن العاصية و ملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لأنها داخلة الشير. و توجهت العساكر أيضا إلى أرض الأرمن فخربت فيها و سبت عقوبة لهم عمّا أتوه من معاونة المغول على المسلمين.

و قصد المغول دمشق فى سنة (۶۸۳) ثم ذهبوا إلى وادى التيم فأحرقوها و سبوا أهلها و قتلوا منهم سبعمائة نفس و ملكوها و فتح السلطان حصن المرقب (۶۸۴) بعد أن نقب جنده حصنها بسرعة، و كان هذا الحصن للاسبتار فنزل أهله بالأمان. فى هذه السنة عقد الملك المنصور و ولى عهده الملك الصالح و ولده الأشرف صلاح الدين هدنة مع دام مرغريت بنت سير هنرى ابن الابرنسى مالكة صور جاء فى كتابها و ليس للفرنج أن يجددوا فى غير عكا، و عثليث و صيدا مما هو خارج عن الأسوار فى هذه الجهات الثلاث سورا لا قلعة و لا برجا و لا حصنا قديما و لا مستجدا، و على أن شوانى مولانا السلطان و شوانى ولده إذا عمرت و خرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التى انعقدت الهدنة عليها، و إذا قصدت الشوانى المذكورة جهة غير هذه الجهات و كان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة و لا تتزود منها، و إن لم يكن صاحب تلك الجهة التى تقصدها الشوانى معاهدا للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها و تتزود منها، و إن انكسر شىء من هذه الشوانى و العياذ باللّه فى مينا من الموانى التى انعقدت الهدنة عليها و سواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا أو مع من له عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا و مقدمى البيوت بحفظها و تمكين رجالها من الزوادة و إصلاح ما انكسر منها و العود إلى بلاد إسلامية و يبطل حركة ما انكسر منها إو يرميه فى البحر، فإن لم يكن للذى تقصده الشوانى معهم عهد و انكسرت فلها أن تتزود و تعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة و تتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها و يعتمد هذا الفصل من الجهتين. و فتح

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۰

حصن الكرك (۶۸۵) بالأمان و جهز عسكرا كثيفا من العساكر المصرية و الشامية إلى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الأشقر بالأمان.

ثم سار جيش السلطان إلى اللاذقية، و كان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته، فركب طريقا إليها فى البحر بالحجارة و حاصروا البرج و تسلموه بالأمان و هدموه و فتح طرابلس (۶۸۸)، و كان البحر يحيط بغالب أطراف هذه المدينة و لا تقاتل إلا من جهة الشرق، و لما نازلها نصب عدة منجنيقات كبيرة و صغيرة و ألح عليها بالحصار ففتحها بالسيف، و دخلها العسكر عنوة بعد حصار ۳۳ يوما، فهرب أهلها إلى المينا و ركبوا فى المراكب و قتل غالب رجالها و سبيت ذراريهم، و غنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة، و أمر السلطان فهدمت طرابلس و دكت إلى الأرض. و كان فى البحر قريبا من طرابلس جزيرة و فيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس و بينها و بين طرابلس المينا، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة و إلى الكنيسة التى فيها عالم عظيم من الفرنج و النساء، فاقتحم العسكر الإسلامى البحر و عبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال و غنموا من بها من النساء و الصغار- نقلت معظم هذا من تاريخ أبى الفداء، و يقول ميشو: إن المسلمين لما استعادوا طرابلس أهلكوا ساكنيها من الصليبيين إلا قليلا و أمر السلطان بإحراق المدينة و هدمها و كان فيها مصادر الثروة و الرخاء و كل ما يزهر به السلام و يستخدم فى الدفاع زمن الحرب فخرب كل ذلك تحت الفأس و المطرقة قال: لما أنزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة (۱۳۶۶ م) و استولوا على طرابلس أوقدوا النار فيها و كان حظ طرطوس و اللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك.

و لما فتحت طرابلس كتب محيى الدين بن عبد الظاهر كتابا يصف هذا الفتح قال فيه: إن الحصار استمر من مستهل ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر فزحف عليها فى بكرة ذلك النهار زحفا يقتحم كل هضبة و وهدة، و كل صلبة و صلدة، و طلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها. و كان أخذها من مائة سنة و ثمانين سنة فى يوم الثلاثاء و استردت فى يوم الثلاثاء (و فى رسالة أخرى أنها قامت بيد الإفرنج مئة سنة و ستا و ثمانين سنة)

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۱

و قال مؤرخو لبنان: إن الكسروانيين و الجرديين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج فى طرابلس و قتلوا من عسكر السلطان خلقا كثيرا فبرز الأمر من حسام الدين باستئصالهم. و من ذلك الوقت خربت كسروان و الذين سلموا من أهلها تشتتوا فى كل صقع. قالوا: و من جملة أوامر حسام الدين إلى أمراء غرب بيروت التنوخيين إذا توجهوا إلى كسروان و جرده بجموعهما، أن كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية، أو صبيا كان له مملوكا، و من أحضر منهم رأس رجل فله دينار. و ذكروا أن الخراب استولى على الأقطار الشمالية بسبب تقلقل أحوال ملوك مصر و الشام، و الحروب الثائرة مع التتر من جهة و مع الفرنج من أخرى، فكان الناس يرغبون فى سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك و قدم إلى جبل لبنان فى ذلك الحين خلق كثير و منهم أهل وادى التيم و خلا هذا الوادى من السكان خمسة أعوام و لم يكن فيه بلد عامرا سوى حاصبيا و كذلك البقاع. ثم عاد الناس و عمروا بعض القرى فى جبل حاصبيا فقط.

وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خليل و إثخانه فى فرنج الساحل:

توفى المنصور قلاوون (۶۸۹) و كان ملكا مهيبا حليما قليل سفك الدماء كثير العفو، شجاعا أقام منار العدل و أحسن سياسة الملك أحسن قيام و فتح الفتوح الجليلة التى لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين و غيره على مثلها و هو الذى وطد حكم المماليك على الشام و أصلح كما فى المعلمة الإسلامية بالتدريج ما أحدث المغول فيه من التخريب، و قام بأعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب و بعلبك و دمشق. و هو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك فى أعقابهم و ألفوا دولة فإن أعقابه حكموا إلى سنة (۷۸۳ ه ۱۳۸۲ م) خمسة بطون. و قد عقد معاهدات مع الدول التى يخشى بأسها و يمكن الانتفاع بحسن الصلات معها، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة و معاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتاله و جاك ملك صقلية. و عقدت هدنة بين الملك المنصور قلاوون الصالحى و ولده الملك الصالح على ولى عهده و بين حكام الفرنج بعكا و ما معها من بلاد سواحل الشام فى شهور سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة و هى يومئذ بأيديهم لمدة عشر سنين و عشرة أشهر و عشرة أيام و عشر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۲

ساعات على أن لا يكون للفرنج من البلاد و المناصفات إلا ما شرح فى هذه الهدنة و عين فيها من البلاد، و على أن الفرنج لا يجددون فى غير عكا و عثليث و صيدا مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة و لا برجا و لا حصنا و لا مستجدا. و مما جاء فيها أن شوانى السلطان و ولده إذا عمرت و خرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية و إن انكسر شىء من هذه الشوانى فى مينا من موانى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة و سواحلها فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا و مقدمى بيوتها عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا و مقدمى البيوت بحفظها و تمكين رجالها من الزوادة و إصلاح ما انكسر منها و العود إلى البلاد الإسلامية، و متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة و غيرهم من جوّا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان و ولده فى بلادهما المتفقة عليها هذه الهدنة فيلزم نائب المملكة و المقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان و ولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة فى هذه الهدنة لمدة شهرين و إذا قصد البلاد الشامية عدو من التتر و غيرهم فى البر و أغارت العساكر الإسلامية من قدام العدو و وصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة و قصدوها بمضرة فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا و المقدمين بها أن يدرأوا عن بيوتهم و رعيتهم و بلادهم بما تصل قدرتهم إليه. و إن حصل جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا و المقدمين بها حفظهم و الدفع عنهم و منع من يقصدهم بضرر و يكونون آمنين مطمئنين بما معهم.

و عقد الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية و دمشق و حلب مع الأشكرى صاحب القسطنطينية سنة (۶۸۰) هدنة على أن لا يحارب أحدهما الآخر و يرعيا التجار فى بلادهما. و كانت سفراؤه تغدو و تروح إلى أمبراطور بيزنطية و الأمبراطور رودولف دى هابسبورغ و ملك اليمن و أمير سيلان و غيرهم من أمراء الشرق. و لهذا السلطان آثار جليلة فى العمران فى القدس و دمشق و غيرهما من ربوع الشام تدل على بعد نظره و حبه للمصالح.

و جلس فى السلطنة بعد قلاوون ابنه الأشرف صلاح الدين خليل و سار على قدم أبيه فى جهاد الصليبيين. و كان أول عمل اتجهت إليه همته بعد أن قدم تجار الفرنج إلى عكا و قتلوا من كان بها من المسلمين (۶۸۹) أن نهض

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۳

من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية و الشامية فهرب جماعة من أهلها من الفرنج فى المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا فى طرابلس على عهد والده و استنزل الأشرف جميع من عصى بالأبرجة التى كانت داخل البلد، و هى بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج و تحصنوا بها فاستنزلهم السلطان و أمر بضرب أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بالمدينة فهدمت إلى الأرض و دكها دكا. و كانت كما قال الذهبى من أحسن المدائن بالعمارة و البناء الفاخر فلما فتحها الأشرف و هدم سورها هرب أهل المدينة منها و صارت خرابا، و صار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة. و مما وجد مكتوبا على باب كنيسة من كنائس عكا أبيات لابن ضامر الضبع:

أم الكنائس إن تكن عبثت بكم أيدى الحوادث أو تغير حال

فلطال ما سجدت على أبوابكم شمّ الأنوف جحاجح أبطال

صبرا على هذا المصاب فإنه يوم و الحروب سجال

و لما فتحت عكا رعب الفرنج فى الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان و جزيرتها و قلعتها الجنوبية و الشمالية. و استولى على بيروت فهدم سورها و دك قلعتها و كانت حصينة جدا و استولى على صور و كان أهلها مثل سائر الساحل.

و كذلك عثليث و كانوا أوقدوا فيها النار. و سلمت أنطرطوس بالأمان و طرد السلطان الفرنج من جبيل و هدمها و دك قلعتها. و هربوا من أنفة و البترون و صرفند و إسكندرونة بالقرب من عكا و ذلك فى مدة سبعة و أربعين يوما و كان فتحا مبينا.

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الأخيرة و لكن استقلت الشام و نجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة و

الأمـة، و لا يؤخـذ على الأشـرف استئصاله شأفـة أعـدائه و إهلاكه لهم عن آخرهم، فقـد كان على الصـليبيين بعـد وقعـة حطين و فتح القدس أن يغادروا القطر جملة واحدة و ظنوا تسامح صـلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفا و أدرك كل من تولى زعامة الشام بعده أنه يستحيل الخلاص من الفرنج إلا بإفنائهم، و آخر الدواء الكى.

الحملة الصليبية السابعة و انتهاء الحروب الصليبية:

دخلت الجيوش الصليبية الشام سنة (۴۹۱) و خرج منها آخر المنهزمين سنة

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۴

(۶۹۰) أى إنهم ظلوا مئتى سـنة يحاربون الشام و مصـر. تعاقبت فيهما عدة دول إسـلامية على البلاد، و كلها حاربت هؤلاء الدخلاء بما وسـعها أن تحـارب، و ربما قتل من الفريقين خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن بضـعة ملايين من الأنفس، و لو لم تنقطع الرغبات فى الغرب و تبطـل النجـدات بـل الحملات الكبرى التى أصـبح البابـاوات و الملوك يوجهونهـا فى وجهات أخرى لقتال المسـلمين لطال أمدها أكثر مما طال.

قلنا: إن الحملـة الصـليبية السادسة كانت بقيادة الأمير فريدريك الثانى، و هى الحملة التى عقدت معاهدة مع ملك مصـر و الشام تنازل فيها هـذا عن القدس و بيت لحم و الناصـرة عشـر سـنين، فلما انتهت المدة عادت القدس إلى المسـلمين و عندها عمد سان لوى ملك فرنسا أن يسترجعه منهم، و كان السـبب فى تأليف الحملة الصليبية السابعة و الثامنة. جاء فى الأولى إلى دمياط و انهزم مع جيشه هزيمة فاضـحة فى المنصورة بمصـر و أسر هو و جميع من معه من الرجال و عدتهم ثلاثون ألفا، فاضطر أن يدفع فدية عظيمة عن نفسه و عن جمـاعته ثم عـاد إلى فرنسـا فزين له أخوه أن يغزو تونس و منهـا يـذهب ليفتـح مصـر و الشام فهلك فى تونس بالطاعون (۱۲۷۰ م) و بذلك انتهت الحروب الصليبية.

نشأت فى فرنسا و انتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه.

و لقد عدّ الفرنج من الفوائد التى جنوها من الحروب الصليبية أنهم أوقفوا سير المسلمين عن التقدم، و تعلم ملايين منهم أمورا ما كانوا يحلمون بوجودها، و أخذوا عن الروم و العرب ما كان عندهم من أسـباب المدنية التى لم يكن للفرنج عهد بها. فإن كثيرا من أصـناف البقول نقلوها إلى أوروبا و شاعت هناك و لم تكن تعهد عندهم، و قد تعلم صـناعة الورق رجلان إفرنسيان كانا أسيرين فى دمشق، و أدخلا صـناعته إلى فرنسـا، فكـان للشـام على فرنسـا هـذا الفضـل، و منها شاع صـنعه فى سائر ممالك الغرب، و تعلموا صـنع الأقمشـة الدمشقية و السيوف و غيرها من الصنائع الجميلة.

قـال مكسـيم پتى فى تاريـخ الشـعوب العـام أثناء كلامه على إخفاق الحملـة الصـليبية الأولى ما تعريبه: لئن كان الصـليبيون متحمسـين تحمسا دينيا فقد كان ينقص هذه الستمائة ألف رجل وحدة القيادة و التجانس و الامتزاج،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۵

و مـا كان لنواب البابا أدنى سـلطة أدبيـة و لم تكن وحـدة الغايـة المراد بلوغها لتحول دون ظهور المطامع و المنافسات و الـدسائس. و يضاف إلى هذا السـبب فى الضعف أسباب أخرى مادية و هى صعوبة الطريق و قلة أسباب التموين و تدنى القوى الحربية بسبب تفوق الجيوش فى المـدن المفتوحـة أو رجوع بعض الصـليبيين إلى الغرب إلى مـا هنالـك من قحـط و أوبئـة و خسائر فى الحرب. و قال فى الحملـة الصـليبية الثانيـة: إن قلـة إيمان الكسـيس و صـعوبة التموين و قلة المؤنة جعلت الحملة شؤمى فقتل الثلاثمائة و الخمسون ألف رجل الذين كانت تتألف منهم قتلا ذريعا فى مريسوان و اركلى.

و مع كثرة ما بـذله أخلاف صـلاح الـدين من الجهد فى قتال الصـليبيين أمثال العادل و الكامل و بيبرس و قلاوون و ابنه صـلاح الدين خليل، فإن الصـليبيين كان يتعذر القضاء عليهم فى الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر و تنصرف وجهة الصليبيين إلى قتال العرب

فی الأنـدلس. و فی الحق أن تلک الحملات الصـلیبیة کانت شـعبة من شـعب الجنون فقدت فیها أوروبا أکثر مما ربحت من الأنفس و الأموال. و ما یدرینا أن تتقدم دولة السـلاجقة فی آسـیا الصـغری علی سـمت الشمال و تقضی علی مملکة الروم البیزنطیة ثم تتقدم فی فتوحها إلی أوروبا لو لم یشتغل ملوک المسلمین بهذه الحملة قرنین کاملین. و کانت الشام من جملة ممالک السلجوقیین و ربما تبعتها مصـر ففتحها صـلاح الدین أو غیره باسـمهم بدلا من أن یفتحها باسم نور الدین، و ما نور الدین إلا صنیعة السلاجقة، و ما جده و أبوه إلا عاملان من عمالهم.

شغلت أوروبا بمسألة إنقاذ القبر المقدس من أیدی المسلمین قرنین، و تطوعت شعوبها فی هذه السبیل، و من الأمم من لم ینلها إلا قتل رجالهـا و ذهـاب أموالهـا و کـان الرابـح علی الأـکثر أهل إیطالیا فإنهم حاربوا حربا تجاریـة ربحوا من سـفنهم و تجارتهم و خصوصـا البنادقة و الجنویون و البیسـیون. أما الألمان و البریطانیون و الفرنسـیون و الهولانـدیون و السویسریون و النروجیون فإنهم خسروا خسارة کبیرة.

ساق الفرنج إلی الحروب الصـلیبیة الدین و التجارة فلما فترت نغمة الدین بهلاک من کانوا یحسنون هناک الضرب علی أوتارها، و لم یر التجار فی هذا

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۶

الشـرق ما یکفی لسـد نهمتهم و أیقنوا أن الأمر یطول إذا أرادوا القضاء علی جمیع الممالک الإسـلامیة فی آسـیا فترت هممهم بالطبع، لکن الشام بعد ذلک و إن کانت الدول الأتابکیة و النوریة و الصلاحیة و دولة بیبرس و قلاوون و ابنه یعمدون حالا إلی ترمیم ما خربه الأعـداء لإیقـانهم أنهـا بلاـدهم و لا بـدلهم من دفع أعـدائهم عنها، و أنهم یسترجعونها لا محالـة و سـیدالون منهم، مهما طال مقام من استصفوا بعض السواحل و بیت المقدس فکان الأمر کما اعتقدوا.

و کلما طال احتلال الصـلیبیین کانت الأمة تستمرئ طعم الموت لطردهم، و کلما رأت من ملک أو أمیر تغاضیا عنهم أو اتقاء عادیتهم بالمعاهدات و المهادنات کانت تسـتهین به و تدعو أن لا تدوم أیامه. و علی ما بذل الصلیبیون من استمالة جیرانهم ما عدّهم هؤلاء قط إلا غاصبین أرضهم، دخلاء علی الملک الإسلامی.

و لو لم یؤسـس الدولـة فی الشام و مصـر ملک عاقل عادل مثل نور الـدین و یتم عمله عاقل عادل من طرازه أی صـلاح الـدین لما تمّ الفتح الأخیر علی ید الأشـرف خلیل، و لما تمم أخلافه بعده الخطة المرسومة. و لو کان الملک لا یوسد إلا للکفاة من أبناء الملک أو لأکبرهم سـنا، و لو لم یکن شـجر الخلاف بین آل أیوب، لضـرب الصلیبیون الضربة القاضیة الأخیرة بعد مهلک صلاح الدین بعشر أو بعشـرین سـنة علی الأـکثر، إذ کان یتأتی للمسـلمین أن یجمعوا قواهم بعـد فشل جیش صـلاح الـدین علی عکا بما جاء الصـلیبیین من النجدات العظیمة فی البحر. و لکن مات صـلاح الدین قبل أن یطبق خطته، و شـغل أخوه و أولاده بالتنازع علی الملک، و عدوا الهدنة الطبیعیة التی مضت بین أخذ عکا و اسـتلام القدس ثانیة من المسـلمین نعمة علیهم لتشـبع نفس کل طامع منهم بالملک و السـلطان، و غفلوا عن أعـدائهم الـذین لم یکد یغفل عنهم نور الدین و صـلاح الدین سـنة واحدة إلا ریثما یجمعان قواهما، و قد کانا لهذا الغرض یصانعان ملوک الأطراف لیسـیروا معهما علی قتال الأعـداء، أما أخلافهم فکانت سیاسـتهم فی الأکثر موجهـة إلی اختراع الطرق لقضاء بعضـهم علی بعض، أو لاستئثار قویهم بملک مصـر أو دمشق أو حلب أو الکرک و الشوبک أو ماردین أو خلاط، فشـغلوا بـداخلیتهم أکثر من اشـتغالهم بأمور الجهاد و هی أهمّ و أعظم، هـذا و أکثر أولئک الملوک کانوا قـد تشـبعت نفوسـهم بالتربیـة العالیـة و العلم و الأدب الغزیر،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۷

و کانوا علی معرفـة تامـة بفتـح المعاقل و الحصون، و معرفـة بعلل الحروب و قواعـد السـلم، و إعطاء العهـد و عقد الهدنة و الصـلح، و رثوها و اقتبسوها من أخلاق البانیین لمجدهم نور الدین و صنیعته صلاح الدین.

و مما أخر القضاء عشرات من السنين على بقايا الصليبيين فى الساحل ظهور التتر فى القطر بعد قضائهم فى منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية، فأصبحت الشام بين عدوين أتى الأول من الغرب فأقام و طال مقامه، و جاءها الثانى من الشرق، و الشر قد يأتى من الشرق، فكان يخرب فى أصقاعها و يغنم و يقتل ثم يذهب ثم يعاودها. و لكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم أخلاف هولاكو فى هذا القطر يعدّ مناوشات إذا قيس بالحروب و الخراب الذى حدث بعد ذلك فأهلك الأخضر و اليابس، و غدا القطر غرض النابل، و فريسة الصائل.

و فى التاريخ العام أنه كان من نتائج الحروب الصليبية إذا صرف النظر عمن هلك فيها من ملايين الخلق، إحداث إمارات كاثوليكية فى الشرق انتزعت من المسلمين و البيزنطيين و احتلها فرسان فرنسيون و تجار طليان.

و قد طرد هؤلاء الأوروبيون لقلتهم بدون أن يتركوا سوى آثار معاقلهم فى الموانى و على صخور يونان و الشام، و لكن هيأ الصليبيون لنصارى أوربا أن يكونوا على صلات متصلة مع الشرق مدة قرنين اه قلنا: و هذه النتيجة من ربط الصلات مع الشرق كان يتأتى لأوروبا الحصول عليها بدون إهراق هذه الدماء و إتلاف الأموال العظيمة و غرس البغضاء فى نفوس من نزلوا عليهم.

و فى تاريخ الشعوب العام أن من جملة فوائد الحروب الصليبية أنها أوقفت سير المسلمين نحو أوروبا، و قربت بين شعوب أوروبا و جمعتهم تحت لواء واحد و أشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية و ساعدت على إيجاد فكرة أوربية. و أخذ المسلمون و النصارى يعرف كل منهم الآخر و يعرفون كيف يحترم بعضهم بعضا، و عقدت بينهم المعاهدات و الصلات خلال المهادنات و الانقطاع عن استعمال السلاح. و قد جهز ريشاردوس فئة من العرب جعلهم فرسانا، و عقد أنكحة بين الطائفتين و دخل التسامح المتبادل فى الأخلاق. و ما خلت الصناعات و الهندسة و الفنون و الأزياء و اللباس و الفنون الحربية من تأثيرات الشرق و قد دخلت المدنية الشرقية فى مدنية الغرب دون أن تستغرقها أه.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۸

و فى تاريخ فلسطين أن من أضرار الحروب الصليبية فى الشام إيقاد جذوة التعصب الدينى بين المسلمين و المسيحيين، و رأى هؤلاء أن مسلمى العرب أحسنوا إليهم يوم الفتح أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم.

و منها تخريب البلدان و قطع الأشجار حتى زادت الأسعار ستة أضعاف ما كانت عليه و منها تلطيخ الدين المسيحى و الازدراء بتعاليمه، لأن مسيحيى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. و قد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية و راعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثى العهود و القاتلى الأسرى، و الذين أفحشوا فى سفك الدماء لما دخلوا القدس و حقروا الديانة المسيحية اه.

لا جرم أن الصليبيين افتضحوا فى هذا الشرق بأخلاقهم و قلة معرفتهم، و عرفوا بعد أن أخفقت الحملة الثامنة و اصطلموا من الساحل مبلغ قوة أعدائهم، و أنهم فى أرضهم، و هم يحتاجون إلى الرحيل أشهرا فى البر و فى البحر. و ذكر ميشو أن الفرنسيس و النورمانديين و سائر شعوب شمالى أوروبا المتوحشة فى القرن الثانى عشر للميلاد كانوا فى حالة البداوة و هذا ما ساعدهم على إعلان الحروب الصليبية فى الشرق، فلما نشأت المدنية الحديثة فى القرن السادس عشر و تسربت أولا إلى الملوك أصبحوا لا يرون الاغتراب عن أوطانهم و لا الشعوب أن تفارق مساقط رؤوسها، و عمت الصناعات و حسنت الزراعة و انتشر العلم، و غدا ذكرى كل مدينة و كل أسرة و تقاليد كل شعب و قطر و الألقاب و الامتيازات و الحقوق المستحصلة و الأمل فى تنميتها، كل ذلك قد غيّر من أخلاق الفرنج و بدل من ميلهم لحياة التنقل و الارتحال و جعلها صلات تربطهم بالوطن. و قد كتب التوفيق للملاحة فى القرن التالى و اكتشفت أميركا و اجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير فى التجارة، و أخذت الأفكار تتجه و جهة جديدة و أنشأت المضاربات الصناعية التى كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا و الهند الشرقية، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى و أقطار غنية تسد مطامعهم و تشبع نهمة التائقين إلى المجد و الثروة و الوقائع. فأنست حوادث العالم الجديد ما فى الشرق من

عجائب اه.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۲۹

هـذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم فى القرن الماضـى، و إليك ما قاله أديب كبير من أدبائهم المحدثين كلود فارير: «فى سـنة (۷۳۲) للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى القرون الوسـطى، فغمرت العالم الغربى مدة سـبعة أو ثمانيـة قرون إن لم نقل أكثر فى طبقـة عميقـة من التوحش، لم تبـدأ بالتبـدد إلا على عهـد النهضـة، و كاد عهـد الإصـلاح يعيدها إلى كثافتها الأولى، و هـذه الفاجعـة هى التى أريـد أن أمقت حتى ذكراها، و أعنى بها الغلبـة المكروهة التى ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابرة المحـاربين من الفرنـج بقيادة الكارولنجى شارل مارتل على كتائب العرب و البربر ممن لم يحسن الخليفـة عبـد الرحمن جمعهم على ما يقتضى من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم».

«فى ذلك اليوم المشـئوم تراجعت المدنيـة ثمانيـة قرون إلى الوراء، و يكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين العاديات التى لا تزال تأخـذ بالأبصار مما يبـدو من عواصم السـحر و الخيال إشبيليـة و غرناطـة و قرطبـة و طليطله ليشاهـد و الألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسـية لو أنقذها الإسـلام الصـناعى الفلسـفى السـلمى المتسامح- و الإسلام مجموعة كل هذا- من الأهاويل التى لا- أسـماء لهـا، و كـان منهـا أن أنتجت خراب غاليـا القديمـة التى استعبدها أولا- لصوص أوسترازيـا ثم اقتطع جزءا منهـا قرصان النورمانـديين ثـم تجزأت و تمزقـت و غرقت فى دمـاء و دمـوع، و فرغت من الرجـال بمـا انبعث فى أرجائهـا من الـدعوة للحروب، ثم انتفخت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية و الأهلية الكثيرة، حدث ذلك على حين كان العالم الإسـلامى من نهر الوادى الكبير إلى نهر السند يزهر كل الإزهار فى ظل السلام تحت أعلام أربع دولات سعيدة: الأموية و العباسية و السلجوقية و العثمانية»

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۰

دولة المماليک «من سنة ۱۶۹۰ الى ۷۹۰»

فتوح أرمينية و عصيان الموارنة بعوامل صليبية:

أصـبحت مصـر و الشام بعد انقضاض الصـليبيين من السواحل، و وضع السيف فى بقاياهم، و اعتصام جزء قليل منهم بالموارنة فى لبنان مملكة واحدة لا يتخللها أرض لغير مالكها، و لا ينازعها سلطان من غير المسلمين، و أصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار بالملك، و الـذهاب بفضل السـبق، و التفكر فيما يـدفع العوادى عن حدود القطر أو يوسـعها إلى المدى المقدّر لها، و بعد أن كانت الشام مصـدر الأعمال و السياسة نازعتها مصـر فى هـذا الشأن، فابتلع القطر المصرى الشام وعـده كما كان زمن الفاطميين جزءا متمما لمصـر لا قطرا مسـتقلا بنفسه و سياسـته. أى إن القوة أصـبحت بعد عهد العادل تسـتمد فى الشام من مصـر لأنها مقر السـلطان، و مصـر بين أقطـار تحيط بها الصـحارى من أطرافها، لا سبيل كل حين إلى غزوها كما تغزى الشام من أطرافها الأربعـة، و ليس فى أمراء برقـة و طرابلس و تونس و النوبـة و السودان و الحبشـان من يسـتطيع أن يغزو مصـر و يحلم بفتحهـا، و لـذلك كـانت الشـام بعـد عهد الأمويين أشبه بإمارة سلطانها الأكبر فى مصر و يتولاها نائبه أو نوابه.

و لم يكتب للشام أن تصـبح دار ملك بعـد عهد الدولتين النورية و الصـلاحية، و كان أهم عدو مجاور لها صاحب سـيس، فإن الأرمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد أن قضت على سلطانهم الدولة الأيوبية، و انتزعت منهم خلاط أوائل

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۱

القرن السابع، و كانت خلاط قاعـدة أرمينية الوسـطى أخذها بنو أيوب لمكانهم فيها من عصبية الأكراد، و هى قسم من أرمينية الكبرى و قاعدتها سيس، و قد ذهب الملك الأشرف سنة (۶۹۱) فى عساكره المصـرية و الشاميـة و قصد قلعة الروم و هى على جانب الفرات

يقيم بها خليفة الأرمن كيتاغيكوس فأخذه و من معه أسرى، و رمّ ما تخرب من تلك القلعة الحصينة.

تقدم أن فرنج الساحل لما أصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان و نزلوا عليهم، و عاد آخرون إلى بلادهم فى المراكب، و قد أثار هذا القسم اللاجئ إلى لبنان فى نفوس بعض أهله فكرة العصيان فعصوا، فتوجست دولة الأشرف منهم خيفة فأرسلت عليهم حملة من دمشق (۶۹۱) بقيادة بدر الدين بيدرا، فسار إلى جبل كسروان فى العسكر و عدة من الأمراء فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر فى تلك الجبال و نالوا منهم، و عاد العسكر شبه المكسور و حصل لأهل الجبل الطمع و القوة، فأطلق محابيس لهم بدمشق من أرباب الجرائم العظيمة، و حصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن فى حسابهم. قال مغلطاى: و كل ذلك من الطمع و سوء التدبير.

و فى كتاب الهدنة التى عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية و البلاد الشامية بين حاكم الريدارغون صاحب برشلونة من بلاد الأندلس و أخويه دون و فلدريك و دون بيدرو و بين صهريه دون شانجه ملك قشتالة و طليطلة و ليون و بلنسية و قرطبة و أشبيليه و مرسية و جيان و الغرب الكفيل بمملكته أرغون و برتقال دون ألفونس ملك برتغال فى تاريخ (۶۹۲) أمر الملك دون حاكم و أخويه و صهريه يفسح كل منهم لأهل بلاده و غيرهم من الفرنج أنهم يجلبون من الثغور الآسيوية الحديد و البياض و الخشب و غير ذلك. و أن سائر أصناف البضائع المتأخرة على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة فى الديوان المعمور. خطط الشام ؛ ج۲ ؛ ص۱۳۱

جاء الأشرف (۶۹۲) لتجهيز العسكر لقصد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح و رضا السلطان عليهم، فرضى على أن يسلموا لنواب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۲

السلطان ثلاث قلاع و هى: بهسنى و مرعش و تل حمدون. و كانت بهسنى قلعة حصينة فى فم الدربند و باب حلب، فلما انتقلت من أيدى المسلمين إلى أيدى الأرمن وقت مجيء التتر كان منها على المسلمين أذى، فلما فتح السلطان قلعة الروم و أخذ خليفة الأرمن حصل للأرمن خوف عظيم فصانعوا عن أنفسهم بهذه القلاع. قال مغلطاى: و رسم السلطان فى هذه السنة للأمير عز الدين الأفرم بأن يسافر إلى الشوبك و أن يخرب قلعتها فراجعه فى إبقائها فنهره فسافر و أخربها و كان هذا غاية الخطإ و سوء التدبير فإن هذا الملك كان طالعه يقتضى الخراب فإنه أخرب فى قلعة الجبل أكثر بنيانها، و كذلك فى قلعة دمشق أخرب قاعات كثيرة و بظاهر دمشق من حد الميدان إلى تحت القلعة، و كان على يده خراب جميع الساحل و تعطلت بلاده من جميع الأصناف التى تجلب من البحر و بقيت الشام معطلة. قلنا: و لكن هذا السلطان و أبوه دفعا الصليبيين عن القطر و اجتثا أصولهم و فروعهم و أدخلاه فى عهدهما فى دور عز و قوة و وحدة حقيقية.

و اتسعت مملكة قلاوون حتى خطب باسمه فى إفريقية (تونس) قال ابن إياس:

و كان من أجل الملوك قدرا و أعظمهم نهيا و أمرا و أكثرهم معروفا و برا، و قد جبلت القلوب على محبته سرا و جهرا اه. و قد خلف آثارا مهمة و مصانع خالدة فى مصر و بعض الشام تدل على ذوق و حسن هندسة، و تسلسل الملك فى أولاده و أحفاده لأن الرعية كانت تحبه فأحبت آل بيته، و خفت وطأة المماليك فى أيامه ثم عادت تدريجيا إلى القوة و العرامة.

اغتيل (۶۹۳) الأشرف صلاح الدين خليل بيد بعض أعيان الدولة بمصر و اتفق قاتلوه على سلطنة بيدرا و تلقب بالقاهر، ثم اتفق الحزب القوى منهم فبايعوا للناصر ولد المنصور ثم تغلب (۶۹۴) زين الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة، و استحلف الناس على ذلك و خطب له بمصر و الشام، و نقشت السكة باسمه و جعل الناصر فى قلعة الجبل و حجب الناس عنه فتزعزعت أعصاب المملكة لهذه الحوادث المشئومة التى تورث النفوس كآبة و أعمال الناس فتورا.

و لما عاد العادل كتبغا من دمشق إلى مصر بالعساكر (۶۹۶) و وصل إلى نهر العوجا تفرقت مماليكه و غيرهم فركب حسام الدين

لاجين المنصورى نائب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۳

الملك العادل كتبغا و معه فريق من الأمراء فهرب كتبغا إلى دمشق و دخل قلعتها و اهتم فى جمع العساكر و التأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق و رأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة و أرسل إلى لاجين يطلب منه الأمان و موضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد. و أما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا نزل بدهليزه على نهر العوجا و اجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك، و شرطوا عليه شروطا التزمها، منها أن لا ينفرد عنهم برأى و لا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا. فأجابهم لاجين إلى ذلك و حلف لهم فعند ذلك حلفوا له و بايعوه بالسلطنة و لقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى، و رحل بالعساكر إلى الديار المصرية، و أرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصورى و جعله نائب السلطنة بالشام.

و من أهم ما وقع من الحوادث فى عهد هذا الملك دخول غازان من أحفاد هولاكو (۶۹۶) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد أن بذل له أهلها مالا عظيما.

ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر و الشام (۶۹۷) لشن الغارات على سيس فضاقت على الأرمن الأرض بما رحبت و هلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم، و غنموا حتى اضطر ملكهم أن يبذل الطاعة لصاحب مصر و الشام، و الإجابة إلى ما يرسم به سلطان الإسلام، و إلى الاعتراف بأنه نائب السلطان فى بلاده فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان حدا بين المسلمين و الأرمن، و أن يسلم كل ما هو جنوبى نهر جيحان من الحصون و المدن، فأجاب عظيمهم إلى ذلك و أخذ حموص و تل حمدون و سرفندكار و مرعش و حجر شغلان و غيرها من الحصون و القلاع. و فى سنة ۶۹۷ أيضا وفد أحد مقدمى المغول إلى المنصور لاجين و طلب نجدة ليعود إلى الروم فجرد معهم من حلب عسكرا مقدمهم بكتمر الجلمى، و ساروا مع المقدم سلامش المغولى حتى تجاوزوا بلد سيس فخرجت عليهم التتر و اقتتلوا معهم، فقتل الجلمى و جماعة من العسكر الإسلامى و هرب الباقون.

و فى سنة (۶۹۸) وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتمر من إمساك الكبار و سقى بعضهم، و ذهب نائب دمشق قبجق بالعساكر فنزلوا بأرض حمص و هناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا فى مصلحتهم، و أن

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۴

منكوتمر لا يفتر عنهم فاتفقوا على المسير إلى غازان ملك التتر لعلمهم بإسلامه فسارا إلى حمص و نزلا بخواصهما، فأخذا على ناحية سلمية و عديا الفرات فلم يكن بعد عشرة أيام من مسيرهم إلا و قد جاء البريد بقتل المنصور حسام الدين لاجين المنصورى و قتل منكوتمر نائبه و علم الأمراء المخامرون بقتلهما، فاتفق رأى أرباب الدولة فى مصر على إعادة الناصر محمد إلى مملكته فجىء به من الكرك و جلس على سرير سلطنته للمرة الثانية. و وصلت هذه السنة إلى بيروت مراكب كثيرة و هى ثلاثون بطسة و فى كل واحدة سبعمائة مقاتل من الفرنج للطلوع إلى الساحل و الإغارة على ديار المسلمين فأصابتهم عاصفة أغرقت سفنهم و رجع الباقون خائبين.

وقائع التتر:

لم تكد نازلة الصليبيين تنحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين و التتر فى سنة (۶۹۹) فسار غازان بن أرغون خان بن هولاكو بن تولى بن جنكير خان، بجموع عظيمة من التتر و الكرج و المزندة و غيرهم و عبر الفرات و وصل بجموعه إلى حلب ثم إلى حماة و نزل على وادى مجمع المروج، و سارت العساكر صحبة الناصر إلى جهة المجمع، و كان سلار و الجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الأمراء الطمع و لم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيرا مع سوء التدبير و نحو ذلك من الأمور الفاسدة التى أوجبت هزيمة العسكر. و التقوا بالقرب من مجمع المروج شرقى حمص فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة و ثبت القلب و أحاطت به التتر و جرى بينهم قتال عظيم و تأخر السلطان إلى جهة حمص، فولت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق و تمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر و انهزم

السلطان إلى نحو بعلبك بعد أن تلاقى عسكر مصر و عسكر التتر على مرج راهط تحت جبل غباغب جنوبى دمشق و وقعت بينهما وقعة عظيمة. و كان مع العسكر المصرى من العسكر الشامى و عربان من جبل نابلس نحو مائتى ألف إنسان فى بعض الروايات و مع غازان مثل ذلك أو أكثر.

تتبع التتر المنهزمين من المسلمين فى وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق و استولوا عليها و نهبوا ضياعها و سبوا أهلها، و ساروا فى أثر الجفّال إلى غزة

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۵

و القدس و الكرك. و لما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الأمان لأهلها و لغيرهم منه. و كانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها و كان الأمير بها أرجواش المنصورى فقام فى حفظها أتم قيام و صبر على الحصار و لم يسلمها- هذا ما قاله أبو الفداء و ابن إياس. و وصف مغلطاى ما حلّ بدمشق و ضواحيها من التتر و ما جرى على العساكر المصرية و الشامية، و ما تمّ من تخريب الدور و المساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية و الحواضر البرانية من العقيبة و الشاغور و قصر حجاج و حكر السماق و قد خرّب منها و استبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن قال: إنهم أسروا من الصالحية نحو أربعة آلاف نسمة و قتلوا نحو ثلاثمائة أو أربعمائة أكثرهم فى التعذيب على المال. و دام التتر نحو أربعة أشهر. و كان عدد من دخلوا دمشق من التتر أربعة آلاف مقاتل. و قد احترقت أماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الأشرفية و ما قبالتها إلى العادلية الصغرى و العادلية الكبرى و أحرقت دار السعادة و كانت مقر نواب السلطنة و ما حولها، و احتاط التتر بهذه النواحى و الأماكن التى لم يصل إليها الحريق فنهبت و نقضت أخشابها، و قلع ما فيها من الرخام و أخذ ما فيها من الأثاث، و كذلك فعل بجميع الصالحية.

و عقيب أن تم كل هذا الحيف جاء رسول التتر إلى دمشق بالأمان و مما شرطه فى تقليده و كان مكتوبا بالعربية، أن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود و النصارى و الصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية. و قال صاحب التتر: إنه حارب حكام مصر و الشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء و لا ذمام، و شاع من شعارهم الحيف على الرعية، و مدّ الأيدى العادية إلى حريمهم و أموالهم، و التخطى عن جادة العدل و الإنصاف. قال مغلطاى: إنه حمل إلى خزانة غازان ثلاثة آلاف ألف دينار و ستمائة ألف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) و البراطيل و الاستخراج لغيره من الأمراء و الوزراء و غير ذلك.

و قال الصفدى: و إلى شيخ الشيوخ الذى نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة ألف درهم و إلى الأصيل بن نصير الدين الطوسى مائة ألف درهم.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۶

و لعلى الأوتارى الدمشقى فى هذه الموقعة من قصيدة:

أحسن اللّه يا دمشق عزاكفى مغانيك يا عماد البلاد

و برستاق نيربيك مع المزة مع رونق بذاك الوادى

و بأنس بقاسيون و ناسأصبحوا مغنما لأهل الفساد

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل و نهب الأموال و الأولاد

و بنات محجبات عن الشمس تناءت بهن أيدى الأعادى

و قصور مشيدات تقضتفى ذراها الأيام كالأعياد

و بيوت فيها التلاوة و الذكر و عالى الحديث بالإسناد

حرقوها و خربوها و بادتبقضاء الإله رب العباد

و کذا شارع العقیبة و القصر و شاغورها و ذاک النادی

أقام غازان بمرج الزنبقیة من ضواحی دمشق. ثم عاد إلی بلاده تبریز و قرر فی دمشق قبجق و لم یستفد إلا التخریب و قتل بعض جیشه و جیشی مصر و الشام، فلما بلغ العساکر مسیر غازان عن الشام خرجوا من مصر و خرج السلطان إلی الصالحیة، ثم اتفق الحال علی مقام السلطان بالدیار المصریة و مسیر سلار و بیبرس الجاشنکیر بالعساکر إلی الشام فسارا بالعساکر، و کان قبجق و بکتمر و الالبکی قد کاتبوا المسلمین فی الباطن و صاروا معهم، فلما خرجت العساکر من مصر هرب قبجق و من معه من دمشق و فارقوا التتر و ساروا إلی مصر، و بلغ التتر بدمشق ذلک فخافوا و ساروا من وقتهم إلی الشرق، و رتب جمال الدین أقوش الأفرم فی نیابة السلطنة بدمشق، و أقر سنقر فی نیابة السلطنة بحلب، و قطلوبک فی نیابة السلطنة بالساحل و الحصون، و الأمیر کتبغا زین الدین المنصوری بحماة. و سار جمال الدین أقوش من دمشق و صحبته من الرجالة و الفلاحین جمع کثیر إلی جبال کسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أیدیهم مما کانوا فعلوه مع المسلمین و أخذ عددهم، فدخل الکسروانیون تحت الطاعة و قرر علیهم جملة مستکثرة من المال فالتزموا به و حملوه و أقطعت دیارهم و أراضیهم.

و کان الأرمن لما وصل غازان بجموع المغول إلی الشام طمعوا فی الأرجاء التی افتتحها المسلمون منهم و عجز المسلمون عن حفظها، فترکها الذین بها من

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۷

العسکر و الرجالة فاستولی الأرمن علیها، و لم یبق مع المسلمین من تلک القلاع غیر قلعة حجر شغلان، و استولی الأرمن علی غیرها من الحصون و العمالات التی کانت جنوبی نهر جیحان، فجردت مصر و الشام عسکرا إلی سیس و نهبت و خربت. و عاد المغول فجرد صاحبهم غازان (۷۰۰) مرة ثانیة عسکرا علی الشام بدعوی أن عساکر صاحب مصر و الشام أغارت علی ماردین و بلادها فطرقت القطر علی حین غفلة من أهلها و هتکوا المحارم فأتاه أهل ماردین و ما إلیها مستصرخین ملهوفین فحرکته الحمیة الإسلامیة- و کان دان بالإسلام حدیثا- فلاقی العسکر و فرق شملهم، و سبب رحیله المرة الأولی عن الشام أن الرعیة تضررت بمقامه لکثرة جیوشه و مشارکتهم الرعیة فی الشراب و الطعام، فرحل و ترک عندهم من یحرسهم من تعدی بعضهم علی بعض و یحفظ الشام من أعدائه المتقدمین و أکراده المتمردین.

و لما عبر المغول الفرات فی المرة الثانیة جفل الناس منهم، و دخلوا حلب و عاثوا فی أرجائها، و سار نائب السلطنة بحلب إلی حماة و وصلت العساکر من دمشق و اجتمعوا بظاهر حماة و أقام المغول بأرجاء سرمین و المعرة و تیزین و العمق و جبال أنطاکیة و جبل السماق ینهبون و یقتلون، و سار السلطان من مصر بالعساکر المصریة و وصل إلی نهر العوجا فلم یمکنه اطراد السیر لکثرة الأمطار و الأوحال فرجع إلی مصر. و أقام المغول یتنقلون فی الدیار الحلبیة نحو ثلاثة أشهر ثم عادوا إلی مواطنهم. و المغول هم و التتر شیء واحد و التتر صنف من أمم المغول. فقول المؤرخین المغول أو التتر من الألفاظ المترادفة تقریبا.

و فی سنة (۷۰۲) فتحت جزیرة أرواد و هی لیعقوب الطرطوسی و کان اجتمع فیها جمع کثیر من الفرنج و بنوا فیها سورا و تحصنوا و کانوا یطلعون منها و یقطعون الطریق علی المسلمین المترددین فی ذلک الساحل، فأقلع أسطول من مصر فجری بین الفرنج و المسلمین قتال شدید انتصر فیه المسلمون و ملکوا الجزیرة و قتلوا و أسروا جمیع أهلها و خربوا أسوارها، و کان القتلی نحوا من ألفین و الأسری نحو خمسمائة. و فی هذه السنة نزلت الفرنج علی نهر الدامور بین صیدا و بیروت، و رفعت الشکایات إلی نائب دمشق الأفرم فی الجردیین

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۸

و الکسروانیین- و کانوا أعوانا للفرنج و الحکومة فی دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع بأهل کسروان- فحشدت جیوش الشام لمقاتلتهم، فحمل الکسروانیون علی الجیش الشامی فقتلوا أکثره و غنموا أمتعتهم و سلاحهم، و أخذوا أربعة آلاف رأس من

خیلهم و قدمت الأکراد لنجدتهم، فصدهم کمینان فی الفدار و المدفور فلم یخلص منهم إلا القلیل و خربوا بعض الغرب، و کان أمراء الغرب التنوخیون مع جیش دمشق فعاد الجردیون فغزوا عین صوفر و شلیخ و عین زیتونة و بحطوش و غیرها. و یقول صالح بن یحیی: إن السبب فی قتالهم أن الهاربین من وجه التتر من العسکر (۶۹۹) حصل لهم أذیة من المفسدین و خصوصا من أهل کسروان و جزّین و أکثرهم أذیة للهاربین أهل کسروان فإنهم بلغوا إلی أن أمسکوا بعضا منهم و باعوهم للفرنج، و أما السلب و القتل فکان کثیرا إلی أن عاملت الدولة الکسروانیین بما تقدم.

و فی هذه السنة عاودت التتر قصد الشام و ساروا إلی الفرات و أقاموا علیها مدة فی أزوارها و سار منهم عشرة آلاف فارس، و کانوا کلهم نحوا من خمسین ألفا علیهم خطلوشاه نائب غازان، و أغاروا علی أحد أرجاء القریتین و کانت العساکر قد تجمعت فی حماة بقیادة أسندمر الکرجی نائب السلطنة بالساحل و معاونة عسکر حلب و حماة فاقتتلوا مع التتر فی الکوم قریب من عرض بین تدمر و الرصافة فانهزم التتر و قتلوا عن آخرهم، و کان المسلمون ألفا و خمسمائة فارس و التتر ثلاثة أضعافهم.

ثم سار التتر بجموعهم العظیمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد کسرتهم علی الکوم و وصلوا إلی حماة فاندفعت العساکر الذین کانوا بها بین أیدیهم، و اجتمعت عساکر مصر و الشام بمرج الزنبقیة ثم ساروا إلی مرج الصفّر لما قاربهم التتر و بقی العسکر منتظرین وصول الناصر، و سارت التتر إلی دمشق طالبین العسکر و وصلوا إلیهم عند شقحب بطرف مرج الصفّر فالتقی الفریقان و اشتد القتال فانهزم التتر و لحق المسلمون أثر المنهزمین إلی القریتین یقتلون فیهم و یأسرون. و وصل التتر إلی الفرات و هو فی قوة زیادته فلم یقدروا علی العبور و الذی عبر فیها هلک، فساروا علی جانبها إلی بغداد فانقطع أکثرهم علی شاطئ الفرات، و أخذ العرب منهم جماعة کثیرة و رجع غازان من حلب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۳۹

فی ضیق صدر من کسرة أصحابه و تمزقهم لبعد المسافة و تخطف أهل الحصون لهم. قال شرف الدین الوحید فی انتصار التترمرة و کسرتهم تارة أخری.

و جاءت ملوک المغل کالرمل کثرةو قد ملکت سهل البسیطة و الوعرا

فأنصفت الأیام فی الحکم بینافکانت له الأولی و کانت لنا الأخری

و قال شمس الدین السیطی:

یا مرج صفر بیضت الوجوه کمافعلت من قبل و الإسلام یؤتنف

أزهر روضک أزهی عند نفحتهأم یانعات رؤوس فیک تقتطف

غدران أرضک قد أضحت لواردهاممزوجة بمیاه المغل تغترف

دارت علیهم من الشجعان دائرةفما نجا سالم منهم و قد زحفوا

و نکسوا منهم الأعلام فانهزمواو نکصوهم علی الأعلام فانقصفوا

ففی جماجمهم بیض الظبا زبرو فی کلاکلهم سمر القنا قصف

فروا من السیف ملعونین حیث سرواو قتلوا فی البراری حیثما ثقفوا

فما استقام لهم فی (أعوج) نهجو لا أجارهم من (مانع) کنف

غزوة الأرمن و الکسروانیین و تزعزع السلطنة:

و لما ارتاح ذهن صاحب مصر و الشام من التتر عاد فجرد عسکرا من مصر و حماة و حلب (۷۰۳) و دخلوا سیس و حاصروا تل حمدون و فتحوها بالأمان و ارتجعوها من الأرمن و هدموها إلی الأرض. و وقع الاتفاق مع صاحب سیس علی أن یکون للمسلمین من

نهر جيحان إلى حلب و للأرمن حد النهروان.

و كان من نتائج معاونة التنوخيين فى غرب لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى إذا كانت سنة (۷۰۴) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين و الكسروانيين الشريف زين الدين عدنان، يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية و يدخلوا فى طاعتهم، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية فى صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق، فأفتى العلماء حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان و إبائهم الدخول فى الطاعة، و فى الدر المنظوم أن أقوش فتح كسروان من جهتها الشمالية و لذلك دعيت فتوحا و قال آخر: إن الأفرم جمع رجال الدروز (۷۰۶)

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۰

و كانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل و التقت الجموع عند عين صوفر و جرى بينهم قتال عظيم و كانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحرمهم و أولادهم و أموالهم و نحو ثلاثمائة نفس من رجالهم و اجتمعوا فى الغار غربى كسروان المعروف بغار تيبية فوق أنطلياس فدافعوا عن أنفسهم، و لم يقدر الجيش أن ينال منهم. ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سدا من الحجر و الكلس و هالوا عليه تلا من التراب و جعلوا قطلوبك حارسا عليهم مدة أربعين يوما حتى هلكوا داخل الغار، ثم أحاط العسكر بتلك الجبال و وطئوا أرضا لم يكن أهلها يظنون أن أحدا من خلق اللّه يصل إليها، فخربوا القرى و قطعوا الكروم و هدموا البيع و قتلوا و أسروا جميع من صادفوا من الدروز و الكسروانيين و غيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها.

و يقول مؤرخو لبنان: إن الأفرم فى هذه الحملة كان فى خمسين ألف فارس و راجل. و يقول أبو الفداء و ابن الوردى: إن هذه الحملة (۷۰۵) كانت على بلاد الظنّينين و غيرهم من المارقين عن الطاعة و كانوا يتخطفون المسلمين و يبيعونهم من أعدائهم و يقطعون الطرق. و فى تاريخ بيروت أن سيف الدين أسندمر نائب طرابلس كان نسب إلى مباطنة الكسروانيين فأفحش فيهم القتل لينفى عنه هذه التهمة اللاحقة به و أن الكسروانيين بادوا و تشتتوا و أقطع هذا النائب بعضهم أملاكا من حلقة طرابلس و جازى بعضهم بالرواتب.

و فى سنة (۷۰۵) أرسل نائب السلطنة بحلب مع طشتمر مملوكه فى عسكر حلب للإغارة على سيس أيضا، و كان ضعيف العقل قليل التدبير، ففرّط فى حفظ العسكر و لم يكشف أخبار العدو و استهان بهم، فجمع صاحب سيس جموعا كثيرة من التتر و انضمت إليهم الأرمن و الفرنج و وصلوا على غرة إلى طشتمر فالتقوا بالقرب من أياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق. و تمكنت التتر و الأرمن منهم فقتلوا و أسروا غالبهم و اختفى من سلم فى تلك الجبال.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۱

و لم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شىء يستحق التدوين حتى سنة (۷۰۸) و قد خرج الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه إلى الحجاز، فلما وصل إلى الكرك أمر الأمراء الذين حضروا فى خدمته بالمسير إلى الديار المصرية و أعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة إلى المقام بالكرك. و كان سبب ذلك استيلاء سلار و بيبرس الجاشنكير على المملكة و استبدادهما بالأمور، و تجاوزا الحدّ فى الانفراد بالأموال و الأمر و النهى، و لم يتركا له غير الاسم فاشتور الأمراء فيما بينهم و اتفقوا على أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير، فجلس على سرير السلطنة على أن يكون سلار مستمرا على نيابتها.

و فى السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر، و وصلوا إلى السلطان بالكرك و أعلموه بما الناس عليه من طاعته و محبته، فأعاد السلطان خطبته بالكرك و وصلت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه و أنهم باقون على طاعته، و كذلك وصلت إليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك إلى حمان، و عاد فرجع إلى الكرك و استمرت العساكر على طاعته و انحلت دولة بيبرس الجاشنكير و جاهره الناس بالخلاف بعد أن ساعفته الأيام، و لم يهم أنه ستخونه الأقدار، و لا تظنى أن ما بناه على شفا جرف هار.

و لما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية و بقاءهم على طاعته و ولائه عاود المسير الى دمشق فسار إلى البرج الأبيض

من أعمال البلقاء، فأطاعه جند دمشق و جند حماة و الساحل، و طلب نائب السلطنة الأفرم الأمان فأمنه، و لما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار إلى مصر و بلغ بيبرس الجاشنكير و نائبه ذلك فجردا عسكرا ضخما أقاموا فى الصالحية بطريق مصر.

و لما وصل السلطان إلى غزة قدم إلى طاعته عسكر مصر أولا فأولا ثم تتابعت الأطلاب و الكتائب، و بويع له بالسلطنة للمرة الثالثة، و لما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة و طلب الأمان و أعطاه السلطان صهيون و مئة مملوك ثم قبض عليه و قتل، و كذلك فعل بسلار. و أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

و فى سنة (۷۰۹) وقعت فتنة فى حوران بين اليمنية و القيسية و حشدوا و بلغت

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۲

المقتلة ألف نفس و كانت بقرب السويداء. و فى سنة (۷۱۰) أقام السلطان ملكا على حماة إسماعيل بن على الملقب بأبى الفداء و هو آخر من بقى من سلالة الملوك الأقدمين فى الشام. و لو لا حسن سياسة أبى الفداء ما وصل إلى هذا المنصب لأن الدور أصبح دور المماليك و الدخلاء و جميع مواطن النيابة أصبح فيها مماليك السلطان أو مماليك والده أو مماليك مماليك والده، و جميعهم مرتبون من الأبواب الشريفة. و لم يكن كل ملك أو قيل من هؤلاء الملوك و الأقيال حرا بمملكته كما زعم بعضهم، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك فى بلدان صغيرة من الشام أشبه بأصحاب إقطاعات لا يزالون فى حربهم و سلمت تحت أمر السلطان. و إذا شذّ فى الأحايين بعضهم و عدوا على سلطانهم فإنهم لم يخرجوا عن كونهم ولاة أو عمالا خرجوا على السلطان ليس إلا.

الغزوات فى الشمال و ظهور دعوة جديدة:

و فى سنة (۷۱۱) قصد قراسنقر كبير الأمراء فى حلب أمير العرب مهنا بن عيسى و كان على مسيرة يومين من حلب يستنصره، و كان فى ثمانمائة مملوك على الملك و كان يريد أن يبطش به. فركب مهنا فيمن أطاعه من أهله، و استنفر من العرب نحو خمسة و عشرين ألفا، و قصدوا حلب و أحرقوا باب قلعتها و تغلبوا عليها، و استخلصوا منها مال قراسنقر و من بقى من أهله و لم يتعدوا إلى سوى ذلك و دخلت سنة (۷۱۵) فأرسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام و مصر إلى ملطية ففتحوها، و سبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدى على أبناء السبيل و من جاورها من سكان القلاع، و أن المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى إنهم زوجوا النصرانى بالمسلمة، و ثبت أنهم كانوا يطلعون التتر و الأرمن على أخبار المسلمين، ثم رجع الجيش إلى مرج دابق قرب حلب، و ترددت الرسل إلى صاحب سيس الأرمنى فى إعادة ما فى جنوبى جيحان من البلدان و زيادة القطيعة أى الإتاوة، فجعلها نحو ألف ألف درهم. و صدر أمر السلطان بأن لا تكون بحماة حماية لدعوة الإسماعيلية أهل مصياف، بل يتساوون مع رعية حماة فى أداء الحقوق و الضرائب الديوانية و غير ذلك.

و أغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتر و العرب على التراكمين

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۳

و العرب النازلين قريب تدمر و نهبهم و وصل فى إغارته إلى قرب البيضاء بين القريتين و تدمر و عاد بما غنمه إلى الشرق. و جهز نائب السلطنة (۷۱۷) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب و غيرهم من التركمان و العربان و الطماعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا إلى آمد و نهبوا أهلها المسلمين و النصارى و بالغوا فى النهب الحرام فخلت آمد من أهلها.

و ظهر فى جبال بلاطنس من عمل اللاذقية رجل من النصيرية و ادعى أنه محمد بن الحسن العسكرى ثانى عشر الأئمة عند الإمامية، و قيل: زعم تارة أنه المهدى المنتظر، و أخرى أنه على بن أبى طالب، و طورا أنه محمد المصطفى و أن الأمة كفرة. فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف، و هجم مدينة جبلة و الناس فى صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة، و جرد إليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه و هرب و اختفى فى تلك الجبال فتتبع و قتل و باد جمعه و لم يعد لهم ذكر، بعد أن قتل مائة و عشرون رجلا من

رجاله.

و فی سنهٔ (۷۲۰) تقدمت مراسیم السلطان بإغارهٔ العساکر علی سیس فسار الجند الشامی من الساحل و دمشق و حماهٔ و حلب فنازلوا قلعتها حتی بلغوا السور، و غنموا منها و أتلفوا الزراعات و ساقوا المواشی و نهبوا و خربوا.

و سار جمع عظیم من العساکر الشامیهٔ و العرب فی أثر آل عیسی، و کانت منازلهم فی سلمیهٔ، حتی وصلوا إلی الرحبهٔ فعانهٔ فهرب آل عیسی إلی ما وراء الکبیسات، و أقام السلطان موضع مهنا محمد بن أبی بکر، ثم رضی السلطان (۷۲۲) علی الأمیر فضل بن عیسی و أقره علی إمرهٔ العرب موضع محمد بن أبی بکر أمیر آل عیسی. و جردت بعض العساکر المصریهٔ و الشامیهٔ و الساحلیهٔ إلی سیس و نازلوا ایاس فهربت الأرمن منها و أخلوها و ألقوا النار فیها فملکها المسلمون، و خربوا ما قدروا علی هدمه و عاد کل عسکر إلی بلده.

و هدأت الأحوال فی هذه الحقبهٔ و لم یحدث سوی أمور طفیفهٔ مثل قدوم مراکب فرنج جنویهٔ (۷۳۴) إلی بیروت، قاتلوا أهلها یومین و دخلوا البرج و أخذوا الأعلام السلطانیهٔ و المراکب. و کان السلطان یعتقل بعض الخوارج علیه أو من یری فی سیرهم ما یدعو إلی الشبههٔ ثم یطلقهم و ینعم علیهم، و ربما أخر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۴

إهلاک من یخافهم علی السلطنهٔ مثل تنکز نائب الشام عشر سنین ثم قتله، و کان قتل خلقا فارتاحت الناس، و ما کانت أفکار السلطنهٔ موجههٔ إلا إلی قتال الأرمن، فکانوا یغزون کل مرهٔ و آخر ما نالهم من غزوهٔ المسلمین غزوهٔ عسکر حلب (۷۳۵)، و کان الأرمن ملکوا مدینهٔ سیس و طردوا من کان بها من المسلمین فخربوا فی أذنهٔ و طرسوس و أحرقوا الزروع و استاقوا المواشی و غنموا و أسروا و ما عدم سوی شخص واحد غرق فی النهر، و کان العسکر عشرهٔ آلاف سوی من تبعهم، فلما علم أهل ایاس بذلک أحاطوا بمن عندهم من المسلمین التجار و غیرهم و حبسوهم فی خان ثم أحرقوه و قلّ من نجا، فعلوا ذلک بنحو ألفی رجل من التجار و البغاددهٔ و غیرهم.

و بعد مدهٔ سار العسکر من مصر و الشام بقیادهٔ ملک الأمراء بحلب علاء الدین ألطنبغا إلی بلاد الأرمن (۷۳۷) و نزلوا علی مینا أیاس و حاصروها ثلاثهٔ أیام، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق و معه کتاب نائب الشام بالکف عنهم علی أن یسلموا المدن و القلاع التی شرقی نهر جیحان، فتسلموا ذلک منهم و هو ملک کبیر و مدن کثیرهٔ کالمصیصهٔ و کوبرا و الهارونیهٔ و سرفندکار و ایاس و باناس و نجیمهٔ و النقیر و غیر ذلک، فخرب المسلمون برج ایاس الذی فی البحر. قال ابن الوردی: و هذا فتح اشتمل علی فتوح، و ترک ملک الأرمن جسدا بلا روح.

و فی سنهٔ (۷۴۰) وقع حریق بقیساریهٔ القواسین و الکفتین و سوق الخیل من دمشق دام یومین بلیالیها فعدم فیها نحو خمسهٔ و ثلاثین ألف قوس و عدم الناس أموالا عظیمهٔ منها للتجارهٔ ما مبلغه ألف ألف و ستمائهٔ ألف دینار و خربت أماکن کثیرهٔ فوقعت التهمهٔ علی بعض کتاب النصاری و أقروا أن اثنین قدما من القسطنطینیهٔ لیجاهدا فی الملهٔ الإسلامیهٔ و معابدها و قدما نفسیهما علی ذلک و أنهما یعلمان صناعهٔ النفط فقتل أحد عشر رجلا- و أنکر صاحب مصر علی نائب دمشق تنکز قتل النصاری قائلا إن ذلک إغراء لأهل القسطنطینیهٔ.

سیاسهٔ المماليک مع أکبر عمالهم و وفاهٔ الناصر و تولی المنصور:

کانت حکومهٔ المماليک تکثر من نصب الولاهٔ و عزلهم و لا سیما فی دمشق فتولی فی کل وقت نائبا جدیدا و ربما فی کل شهر، و لم تطل مدهٔ واحد من

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۵

الولاهٔ کما طالت نیابهٔ تنکز فإن ولایته دامت من سنهٔ (۷۱۲) إلی (۷۴۰) قال الکتبی: وهابه الأمراء بدمشق و نواب الشام و أمن الرعایا، و لم یکن أحد من الأمراء و لا- أرباب الجاه یقدر أن یظلم أحدا آدمیا أو غیره خوفا من بطشه و شدهٔ إیقاعه. قال: و کان الناس فی

أيامه آمنين على أموالهم و وظائفهم.

و هو صاحب الأبنية العظيمة فى دمشق و غيرها من الشام و كان ممن ينشط الزراعة و لما أخذه ملك مصر و قتله فى الإسكندرية تأسف عليه أهل دمشق.

و توفى الناصر محمد بن قلاوون سنة (۷۴۱) بعد أن خطب له ببغداد و العراق و ديار بكر و الموصل و الروم، و ضرب الدينار و الدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام و مصر، و تألم الناس لفقده لأنه أبطل المكوس و أنشأ جوامع و مدارس و كانت أيامه أيام أمن و سكينة، فتولى الملك بعده ابنه المنصور أبو بكر و كان تسلطن قبل موت والده. و ملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث و أربعون سنة و تسعة أشهر و سبعة عشر يوما، تملك المرة الأولى بعد وفاة أخيه الأشرف سنة كاملة، و المرة الثانية بعد قتل لاجين، و مدة ملكه ثانية عشر سنين و ستة أشهر و اثنا عشر يوما، و الدولة الثالثة أقام بها ثنتين و ثلاثين سنة و ثلاثة شهور و خمسة أيام، و كان فى الثالثة حاكما متصرفا ليس له منازع يخالف أمره بخلاف المدتين الأوليين. و شأن ابن قلاوون قليل فى الملوك، لأنه ندر من يتخلى عن الملك أو يخلع من الملوك أن يعود إلى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات. و من غريب ما وقع له أيضا أنه تسلطن ثمانية من أولاده لصلبه، و هذا مما يعد فى باب سعادة آل قلاوون.

و فى سنة (۷۴۱) فتح علاء الدين أيدغدى الزراق و معه عسكر حلب قلعة خندروس من الروم، و كانت عاصية و بها أرمن و تتر يقطعون الطرقات، و فى السنة التالية (۷۴۲) بايع المنصور أبو بكر الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبا العباس أحمد بن المستكفى باللّه أبى الربيع سليمان و كان قد عهد إليه والده بالخلافة فلم يبايع فى حياة الناصر فلما ولى المنصور بايعه بمصر و جلس معه على كرسى الملك و بايعه القضاة و غيرهم، و كان الخليفة من أولاد العباس يقيم فى مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة و يبايع السلطان عند جلوسه

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۶

خلع الملك المنصور و مقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه:

خلع المنصور أبو بكر فاحتج عليه قوصون الناصرى ولى نعمة أبيه بحجج و نسب إليه أمورا، فأخرجه إلى قوص فقتله و اليها، و أقام الملك أخاه الأشرف كجك و هو ابن ثمان سنين. أى إن الخوارج على السلطنة بعد أن سكنوا بحسن سياسة الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلعه نفسه و مكثه فى الكرك حتى رجع إلى السلطنة و قد أطاعه عسكر الشام و مصر، ثم عادوا يبدون نواجذ الشر و يقتلون ملكهم، فقتل الملك الجديد و نصب أخوه الصبى ليكون الحكم لقوصون الناصرى كما وقع ذلك فى أدوار مختلفة، ثم أرسل قوصون مع قطلبغا الفخرى الناصرى عسكرا لحصار أحمد بن الملك الناصر بالكرك، و سار الطنبغا نائب دمشق و الحاج أرقطاى نائب طرابلس بإشارة قوصون إلى قتال طشتمر بحلب، لأن هذا أنكر على قوصون ما اعتمده فى حق أخيه المنصور أبى بكر، و نهب الطنبغا بحلب مال طشتمر و هرب هذا إلى الروم، و استمال الناصر فى الكرك قطلبغا الفخرى، و كان ذهب لقتاله و حاصره أياما فبايعه و بايع للناصر من بقى من عسكر دمشق المتأخرين عن المضى إلى حلب صحبة الطنبغا، ثم سار الفخرى إلى ثنية العقاب و أخذ من مخزن الأيتام بدمشق مالا و لما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل إليه الفخرى لما قرب من دمشق القضاة، و طلب الكف عن القتال، فقويت نفس الطنبغا و أبى ذلك، و طال الأمر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخرى ثم الميمنة، و بقى الطنبغا و جماعته فى قليل من العسكر، فهرب الطنبغا و من معه من القواد إلى جهة مصر، فجهز الفخرى و أعلم الناصر بالكرك و قد خطب له بدمشق و غزة و القدس، فلما وصل ألطنبغا إلى مصر و هو قوى النفس بقوصون تغير أمر قوصون. و كان قد غلب على الأمر لصغر الملك الأشرف، ثم قبض جماعة الأمراء على قوصون و أرسلوه إلى الإسكندرية و أهلك بها، و قبضوا على الطنبغا و حبسوه، و سافر الناصر أحمد من الكرك و عمل أعزية لوالده و أخيه، و أمر بتسمير والى قوص لقتله المنصور و خلع الأشرف

الصغير، و جلس الناصر على الكرسى هو و الخليفة ثم أعدم الطنبغا و غيره، و تواتر عزل الولاة و النواب بحلب، جرى كل هذا فى مدة يسيرة. و جرى

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۷

فى هذه السنة (۷۴۲) من تقلبات الملوك و النواب و اضطرابهم ما لم يجر فى مئات من السنين على رأى ابن الوردى.

و لم يصف جو السلطنة للناصر أحمد فى مصر، و سافر إلى الكرك و حصنها و اتخذها مقاما له، و لما حصل بها و قتل بها طشتمر و الفخرى قتلة شنيعة (۷۴۳) أنقلب عليه عسكر الشام و هو بالكرك و كاتبوا مصر فخلع الناصر، و أجلس اخوه الملك الصالح إسماعيل، و استناب آل ملك و حصر الملك الناصر بالكرك، و اجتمع عليه أخوه الصالح بما أخذه من أموال بيت المال، و خرج بيبرس الأحمدى من مصر بعسكر لحصار الكرك و كذلك من دمشق، فحاصروا الناصر بالكرك و وردت المراسيم إلى الأعمال الشامية بتجريد العشران و غيرهم إلى الكرك، فذهبوا إليها سنة (۷۴۳) و وجدوا فى القلعة مع السلطان أحمد خلقا كثيرا، و قد نصبوا على القلعة فى أعلاها خمسة مجانيق و مدافع كثيرة، و أغار التركمان مرات على سيس فقتلوا و نهبوا و أسروا و شفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان، و عاد العسكر (۷۴۴) المجهز إلى سيس و ما ظفروا بطائل، و كانوا قد أشرفوا على أخذ أذنة و فيها خلق عظيم و أموال عظيمة و جفال من الأرمن، فارتشى أقسنقر مقدم عسكر حلب من الأرمن، و ثبط الجيش عن فتحها و احتج بأن السلطان ما رسم بأخذها. و حاصر يلبغا النائب بحلب قراجا بن دلغادر التركمانى بجبل عسر إلى جانب جيحان فاعتصم منه بالجبل، و قتل فى العسكر و أسر و جرح، و ما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك و اشتهر اسمه و كانت هذه حركة رديئة من يلبغا ثم أوقع دلغادر بالأرمن و فتح قلعة كابان (۷۴۶) و بعد فتحها قصد النائب بحلب أن يستنيب فيها من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك، فجهزوا عسكرا لهدمها ثم أخذتها الأرمن.

و فى سنة (۷۴۵) حوصرت الكرك و نقبت، و أخذ الناصر أحمد و حمل إلى أخيه الصالح بمصر فكان آخر العهد به، و فى هذه السنة كانت الوقعة بين أهل البقاع و وادى التيم و قتل من الفريقين خلق كثير، و أحرق ابن صبح قرية من وادى التيم، و انقطعت السبل. و توفى الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ابن قلاوون (۷۴۶) و جلس مكانه أخوه الكامل شعبان. و فى سنة (۷۴۷) خرج نائب الشام يلبغا إلى ظاهر دمشق و شق عصا الطاعة و عاضد أمراء مصر حتى

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۸

خلع الكامل شعبان و أجلسوا مكانه أخاه المظفر أمير حاج، و سلموا إليه أخاه الكامل فكان آخر العهد به، و كان هذا الكامل شعبان سيئ التصرف يولى المناصب غير أهلها بالبذل، و يعزلهم عن قريب ببذل غيرهم، و كان يقول عن نفسه أنا ثعبان لا شعبان.

و فى سنة (۷۴۸) سافر ناصر الدين بن المحسنى بعسكر من حلب لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب و الأكراد قتل فيها من الأكراد نحو خمسمائة نفس.

و فيها عزمت الأرمن على نكبة اياس، فأوقع بهم أمير اياس محمد بن داود الشيبانى، و قتل من الأرمن خلقا و أسر خلقا، و أحضرت الرؤوس و الأسرى إلى حلب و اقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب و أتباعه مع أحمد فياض من الأمراء فى جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف الدين و نهبت أمواله، و جرى على المعرة و حماة و غيرهما من العرب أصحاب سيف و أحمد فياض من النهب و قطع الطرق ما لا يوصف، و كانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطفق البدو ينهبون القرى، و يغيرون على حماة و المعرة ففر الفلاحون و درست القرى. و فى هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر أمير حاج بمصر و أقيم مكانه أخوه الناصر حسن، و كان الملك المظفر قد أهلك أخاه الأشرف كجك و فتك بالأمراء و قتل من أعيانهم نحو أربعين أميرا.

أحداث و كوائن و عصيان و مخامرات:

و من الأحداث أن نائب الشام يلبغا اليحياوى هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم فقتل. و فى مصر سنة (۷۵۰) دخل جبغا نائب طرابلس مدينة دمشق فى جماعة كثيرة، و كان أرغون شاه نائب الشام مقيما بالقصر الأبلق فدخل عليه الأمير جبغا و هو نائم بين عياله و قبضه، فلما أصبح الصباح طلب جبغا القضاة و الأمراء بدمشق و أخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب، و ظنوا أن ذلك صحيح فسجنه و احتاط على موجوده، ثم وجدوا أرغون شاه مذبوحا فى السجن فشاع بأن ذلك من فعل جبغا فوثب عليه عسكر دمشق و حاربوه فهرب فلم يتبعه أحد من العسكر و خافوا عقبى ذلك، و كاتب أمراء دمشق

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۴۹

السلطان بما وقع من جبغا فأنكر ما وقع لأرغون شاه، و رسم لأمراء دمشق أن يحاربوا جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة، و حاربوه و هو فى طرابلس فانكسر و قبضوا عليه و شنقوه. و فى سنة (۷۵۴) قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج إلى صيدا فقتلوا طائفة من أهلها و أسروا جماعة و قتل منهم خلق كثير و كسر مركب من مراكبهم، فوصل الصريخ إلى دمشق، فاجتمعت العساكر من صفد و دمشق و أسرعوا إلى فك الأسرى، و أخذوا من ديوان الأسرى ثلاثين ألفا و أعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم.

و إن الخلل الذى طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من أولاد قلاوون و سرعة قتلهم و استخلاف غيرهم من المماليك، قد سرى من شرارته شيء كثير فى هذه الحقبة من الزمن، و مسألة اليحياوى مع أرغون شاه مثال منها. و من أمثلة الخلل فى تلك الدولة خروج بيبغا أروس نائب حلب عن الطاعة، و كذلك بكلمش نائب طرابلس، و أحمد نائب حماة، الطنبغا برقاق نائب صفد، و لم يبق على الطاعة إلا نائب دمشق أرغون الكاملى، فأرسل يخبر السلطان فى مصر بما جرى من النواب، ثم اضطر نائب الشام إلى الهرب تحت الليل هو و مماليكه و توجه إلى غزة، ليعلم السلطان و الأمراء بما جرى، و التف على بيبغا أروس العربان و العشائر مع العساكر الحلبية و الشامية و كان معه نحو ستين أميرا لما فتح دمشق و استعرض العساكر بها ثم أرسل إلى نائب قلعة دمشق يطلب منه إطلاق أمير كان مسجونا فيها فاعتذر عن ذلك إلا بمرسوم السلطان، و حصن القلعة تحصينا عظيما، و ركب عليها المكاحل بالمدافع، و أرسل يقول لأهل المدينة: لا تفتحوا دكانا و لا سوقا و لا تبيعوا عسكر حلب شيئا، فلما بلغ بيبغا ذلك اشتد به الغضب، و أمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق و البساتين و يقطعوا الأشجار، فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكنا من الأذى و الفساد، فنهبوا حتى النساء و البنات و القماش، و جرى على أهل دمشق من بيبغا ما لم يجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق.

ثم إن سلطان مصر جهز عسكرا عظيما و جعل عليهم من أمراء الطبلخانات

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۰

و العشراوات نحو ثمانين أميرا و كان صحبته القضاة الأربعة و الخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر اللّه فأمر بقتال جماعة بيبغا فانهزم هذا و لحق ببلاد التراكمة، و جيء بجماعته فى القيود يرسفون.

و هذا السلطان هو الصالح صلاح الدين صالح و هو العشرون من ملوك الترك و أولادهم، و الثامن من أولاد الناصر محمد بن قلاوون. ثم قتل نائب حلب بيبغا و نائب طرابلس بكلمش و نائب حماة أحمد و كانوا هربوا إلى التركمان.

و خلع السلطان على أرغون الكاملى و استقر به نائب حلب و جرد أرغون إلى قراجا بن ذى القدر أمير التركمان فى مرعش و حواليها، و ذنبه أنه وافق بيبغا أروس على العصيان، فلما وصل إليه أرغون هرب منه فتبعه إلى أطراف الروم فقبض عليه و أرسله إلى السلطان بمصر فسمره على جمل.

و فى سنة (۷۶۰) توجه بيدمر الخوارزمى نائب حلب إلى سيس و حاصر أهلها فطلبوا منه الأمان فتسلمها و كذلك المصيصة، و فتح فى تلك السنة عدة قلاع ثم رجع إلى حلب. و فى سنة (۷۶۲) أظهر بيدمر الخوارزمى نائب الشام العصيان و ملك قلعة دمشق و قتل نائب القلعة و قد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الأخبار و خرج قاصدا الشام، و لما بلغ دمشق أرسل له أمانا فقبض عليه و قيده.

و فی سنهٔ (۷۶۵) جاء الفرنج إلی قلعهٔ اياس و حاصروها فخرج إليهم نائب حلب فلما سمعوا به رحلوا عنها ثم قصدوا نحو طرابلس و كانوا ثلاثهٔ ملوک و هم صاحب قبرس و صاحب رودس و صاحب الاسبتار فجاءوا فی مائتی مركب حربی إلی طرابلس، و كان النائب غائبا عنها فطمعوا فی أخذها ثم خرج إليهم بعض عسكرها فانكسر عسكر طرابلس و دخل الفرنج المدينهٔ و نهبوا أسواقها و قتلوا بها من المسلمين نحو ألفی إنسان فقاتل الأهلون الفرنج و كسروهم فرحلوا عن طرابلس.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۱

و فی سنهٔ (۷۶۷) عصا علی السلطان نائب دمشق بيدمر و اجتمع إليه مقدمو البلدان فأرسل السلطان إليه جيشا و بعد حصار شهرين تسلم دمشق و قبض علی النائب و قتله. و فی سنهٔ (۷۷۱) تشاجر الأمير جبار من آل الفضل و نائب حلب طشتمر المنصوری فخرج هذا بالعساكر الحلبية و قاتل الأمير جبار فقويت العربان علی نائب حلب فقتل فی المعركهٔ.

مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده:

و فی سنهٔ (۷۷۸) قتل فی القاهرهٔ الأشرف شعبان، قال ابن إياس: و كان من محاسن الزمان فی العدل و الحلم و كان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعهٔ محسنا و كانت الدنيا فی أيامه هادئهٔ من الفتن و التجاريد إلی الديار الشامية فساد العرب و ساس الناس أحسن سياسهٔ. و تولی الملک بعده ابنه الصالح أمير حاج و له من العمر نحو إحدی عشرهٔ سنهٔ و هذا آخر من تولی السلطنهٔ من ذرية بنی قلاوون و به زال الملک عنهم و قد أقامت السلطنهٔ فی قلاوون و ذريته مائهٔ سنهٔ و ثلاث سنين و أشهرا.

و فی سنهٔ (۷۷۶) خرج نائب حلب إلی سيس و فتحها و كانت فی أيدی الأرمن.

و فی سنهٔ (۷۷۹) خامر جميع نواب الشام و خرجوا عن الطاعهٔ فساقت مصر تجريدهٔ عليهم. و فی سنهٔ ۷۸۰ خرج نائب الشام بيدمر الخوارزمی عن الطاعهٔ و قصد الهرب إلی التركمان ببركه و رجاله فقبضه عسكر دمشق و سجنوه فأرسل سلطان مصر و أخذه منها و سجنه ثم أطلقه بعد ثلاث سنين و أعيد إلی منصبه. و فی سنهٔ (۷۸۰) نازل الفرنج طرابلس فی عدهٔ مراكب فالتقاهم يلبغا الناصری فهزمهم، ثم أمر العسكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج و تبعوهم إلی أن أبعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزمهم و قتل منهم جمع كبير و قبض علی أكثرهم و أقلع من بقی فی المراكب. و ثار أقبغا عبد اللّه (۷۸۱) و جماعهٔ معه علی نائب دمشق و كان قد تجرد مع نائب حلب فی عسكر البلدين بسبب التركمان فوقعت بينهم و بين أقبغا و من معه وقعهٔ فكسرهم نائب الشام و هرب أقبغا إلی نعير أمير عرب الفضل و فی سنهٔ (۷۸۳) نهبت طائفهٔ من التركسان بعد ضياع حلب و عاثوا و أفسدوا و عين لهم الأتابک برقوق فی مصر تجريدهٔ

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۲

و خرج إليهم ثلاثهٔ من الأمراء المقدمين و خمسمائهٔ مملوک فالتقوا مع التركمان و كسروهم و قتلوا منهم جماعهٔ كثيرهٔ و نهبوا أموالهم و طردوهم إلی ملطية.

و فی سنهٔ (۷۸۴) حضر إلی القاهرهٔ رسول صاحب سيس و معه كتاب يخبر فيه أن الأرمن مات كبيرهم فأمروا عليهم زوجته فحكمت فيهم مدهٔ ثم عزلت نفسها، فاتفق رأيهم أن يفوضوا أمرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم، فانتقی لهم ملک مصر أحد الأساری الأرمن ممن يسكنون ظاهر القاهرهٔ و يبيعون الخمور فأخذوه معهم فملكوه عليهم، و فی السنهٔ التالية جاءت رسل أصحاب سنجار و قيسارية و تكريت يسألون صاحب مصر أن يكونوا تحت حكمه و يخطبوا باسمه فأجيب سؤلهم و كتب لهم بذلک تقاليد و خلع عليهم. و فی هاتين الواقعتين دليل علی أن صاحب مصر و الشام فی تلک الفترهٔ كان أقوی من جاوره من الملوک خطب وده الأتراک و الأكراد و الأرمن من مجاوريه.

و فی سنهٔ (۷۸۵) وقعت بين قبلای نائب الكرک و خاطر أمير العرب بها مقتلهٔ عظيمهٔ فانكسر قبلای. و فيها نازل الفرنج بيروت فی

عشرین مرکبا فراسلوا نائب الشام فتقاعد عنهم و اعتلّ باحتیاجه إلی مرسوم السلطان فقام إینال الیوسفی فنادی الغزاة فی سبیل اللّه فنفر معه جماعة فحال بین الفرنج و بین البحر و قتل بعضهم و نزل إلیه بقیة الفرنج فکسرهم و قبض من مراکبهم ستة عشر مرکبا. و کان الفرنج دخلوا صیدا فوجدوا المسلمین قد بدأوا بهم فخبأوا أموالهم و أولادهم بقریة خلف الجبل فوجد الفرنج بعض أمتعتهم فنهبوها و أخذوا ما وجدوا من زیت و صابون و أحرقوا السوق و قصدوا بیروت فتدارکهم المسلمون و انکسر الفرنج ثم عادوا إلی مباهلة بیروت فتیقظ لهم أهلها فحاربوهم.

و فی سنة (۷۸۵) وقعت فتنة بین نعیر بن مهنا أمیر العرب و ابن عمه عثمان ابن قارا، فساعد یلبغا الناصری عثمان فکسر نعیر و نهبت أمواله. و فیها سار یلبغا الناصری بالعساکر الحلبیة و بعض الشامیة إلی جهة الترکمان، فنازلوا أحمد بن رمضان الترکمانی عند الجسر علی الفرات فکسر الترکمان و أسر إبراهیم

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۳

ابن رمضان و ابنه و أبوه، فوسطهم یلبغا الناصری، ثم تجمع الترکمان و واقعوا الناصری عند أذنة فانکسر العسکر و قلعت عین الناصری و جرح ثم تراجع العسکر و لم یفقد منه إلا العدد الیسیر، فطردوا الترکمان إلی أن کسروهم فغدر الترکمان بنائب حماة و بیتوه فانهزم ثم رکب یلبغا الناصری فهزمهم.

و فی سنة (۷۸۷) توجه نواب الشام إلی قتال الترکمان فانکسر العسکر و فتک فیهم الترکمان و قتلوا سودون العلائی نائب حماة و غیره. و کان السلطان أمر نواب الشام بالتوجه إلی قتال سولی بن دلغادر و من معه من الترکمان فوصلوا إلی طیون بین مرعش و ابلستین فالتقی بهم سولی فقتل سودون نائب حماة فی المعرکة و کذا سودون نائب بهسنی فشق ذلک علی السلطان و لم یزل یعمل الحیلة حتی دس علی سولی من قتله و قتل أخاه.

سلطنة برقوق و حالة المماليک البحرية و الشراکسة:

دخل الهرم فی دولة الأتراک المصریة و زاد فساد العربان فی البلدان، و خامر غالب النواب فی الشام و خرجوا عن الطاعة، فاجتمع الأتابک برقوق متولی الأمر و القضاة مع الخلیفة و سائر الأمراء فی مصر فرأوا الحاجة ماسة إلی سلطان کبیر تجتمع علیه الکلمة و یسکن الاضطراب فتکلم القضاة الأربعة مع الخلیفة فی سلطنة الأتابکی برقوق فخلعوا الملک الصالح أمیر السلطنة و سلطنوا الأتابک برقوق (۷۸۴) و هو أول ملوک الشراکسة بمصر و الشام.

و کانت هذه الدولة الترکیة الشرکسیة عجبا فی ضعف الإدارة و قیام الخوارج لأن الملک علی الأکثر کان ضعیفا ینزله عن عرشه کل من عصا علیه، و استکثر من المماليک و قدر أن یتسلط علی عقول السذج من العربان و أرباب الدعارة و الطمع من الناس «و المماليک السلطانیة الذین جرت العادة علی أنهم یفعلون الأمور المشهورة عنهم من أخذ أموال الناس و هتک حریمها». و القاهرة لا شأن لها بعد أن یتقاتل المتقاتلون علی الملک أو یقاتل القواد العصاة و یظفر أحد المتنازعین علی السلطنة، أو الأمیر الذی و سد إلیه اجتثاث دابر العاصی، إلا أن تزین أسواقها سبعة أیام أو ثلاثة أیام علی الأقل. تفعل ذلک لأقل حادث یحدث حتی و لو قبض جماعة السلطان علی أحد صعالیک المماليک ممن خامر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۴

علیه و استتبع أناسا من الغاغة. و کانت دمشق فی أیام الأتراک ثم فی أیام الشراکسة أخلافهم تزین سبعة أیام لأقل ظفر یقع، فیفرح السلطان و تدق البشائر. و کان من سلاطین المماليک أهل خیر تغلب علیهم الرحمة و حسن السیاسة، و کان ضعفهم آتیا من جماعتهم المماليک لأن لکل أمیر منهم جوقة یتفانون فی حبه إذا تغلب علیه خصمه سجنهم أو أقصاهم أو نکبهم، فلا یزالون یعملون علی إثارة الخواطر حتی یطلق سراحهم ثم یعودون إلی ما نهوا عنه و هکذا دوالیک. و الأمة من أجل هذا تخرب دیارها، و تهلک أبناؤها و

تذهب أموالها و عروضها، حتى يسعد الطالع أحد المتخاصمين فيتغلب على من يريد التغلب عليه. و هناك خليفة فى مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد، و يبايعهم يوم تنصيبهم، و ربما سجنوه و أقصوه عن أنظار الأمة إذا شعروا بأن هواه مع غيرهم أو يمكن أن يكون كذلك: اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من سلاطين السلجوقيين و البويهيين و غيرهم فى بغداد.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۵

وقائع تيمور لنک «من سنة ۱۷۹۰ الى ۸۰۳»

[بداءة تيمور لنک و مناوشة جيشه:]

بينا كانت أمور الدولة فى الشام و مصر مختلة معتلة، لا تستقر على حال، و المتوثبون على السلطنة يكثرون و يقلون بضعف الملك و قوته، جاء تيمور لنک من الشرق، بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الأمر بدفعها فأصبح الشام بين عدوين داخلى و خارجى، كما أصبحت فى أواسط القرن السابع بين عدوين أحدهما من الشرق و هم التتر و الآخر من الغرب و هم الصليبيون. و تيمور هو ابن ترغاى بن أبغاى مؤسس مملكة المغول الثانية، و معنى تيمور الحديد و اللنک الأعرج أو الكسيح بلغتهم. سمى بذلك لأن راعيا ضربه فيما قيل بسهم فى فخذه أدخله به فى زمرة العرجان، و فى رواية أنه أصيب بسهم فى الحرب فى صباه. ولد تيمور لنک فى قرية خواجه أيلغار من أعمال كش من مدن ما وراء النهر سنة (۷۳۷ ه ۱۳۳۶ م) و مات فى اوترار سنة (۸۰۷- ۱۴۰۵) بينا كان ذاهبا لفتح بلاد الخطا فى الصين و جيء به إلى سمرقند فدفن فيها.

و كان تيمور لنک يمتّ بقرابة بعيدة إلى آل البيت الملوكى من المغول ذرية جنكيز خان، و ذلك من جهات الأمهات لا الآباء، و رأس أبوه قبيلة برلاس التركية و حكم ولاية كش و قد تيتم صغيرا و سلبه جيرانه إمارته، فتوسل تيمور إلى أمير كشغر ملك الجغتاى فأنعم عليه بولاية ما وراء نهر جيحون، ثم نزع يده من يد أمير كشغر و انضم إلى عمه حسين، و لما ماتت زوجته، و قيل إنه هو الذى قتلها بيده، أصبح تيمور فى حلّ من أمره و داهم حسينا و تغلب عليه و استولى على بلخ فاصبح ملكا على بلاد الجغتاى كلها،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۶

و لما استولى على ما وراء النهر وفاق الأقران تزوج بنات الملوك فزادوه فى ألقابه كوركان «و هو بلغة المغول الختن» و كان عهد تيمور كله عهد حروب و فظائع يقتل الناس بالألوف و عشرات الألوف، إذا لم يخضعوا لسلطانه فى الحال قال السخاوى: و كان يقرب العلماء و السمراء و الشجعان و الأشراف و ينزلهم منازلهم و لكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه، فكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب، و ما أخرب البلاد إلا بذلك، فإنه كان من أطاعه من أول وهلة أمن، و من خالفه أدنى مخالفة و هى، أنجد تيمور أحد الخانات على اوروس خان ملك قسم من روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان و هرات و طوريس و قارص و تفليس و شيراز و أصفهان و كشغر و مازندران و العراق بأسره، و خرّب حفيده محمد بولونيا و روسيا و دخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها و فتح أفغانستان و جلب من الهند إلى مملكته المهندسين و النقاشين. ثم حارب السلطان بايزيد العثمانى (۸۰۵) و غلبه. و باستيلائه على إزمير اضطر امبراطور القسطنطينية أن يؤدى إليه الجزية.

هذا الفاتح خرب عاصمتى الشام حلب و دمشق، و كم خرب من مدن عامرة فى آسيا، و كان ملوك أوربا يخافونه و كثيرا ما أرسلوا الوفود لتهنئته بانتصاراته.

هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشئومة إلا بأسباب أوجدها النواب و الأمراء و الملوك على الأرجح، فقد كان ذكر ابن حجر فى حوادث سنة (۷۹۸): أن اطلمش قريب تيمور لنک قبض عليه قرا يوسف التركمانى صاحب تبريز و أرسله إلى الظاهر فاعتقله، فكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب فى حركة تيمور لنک إلى الديار الشامية. و قال فى حوادث سنة (۷۹۹) وصلت كتب من

تیمور لنک فعوقت رسله بالشام و أرسلت الکتب التی معهم إلی القاهرة و مضمونها التحریض علی إرسال قریبه اطلمش الذی أسره قرا یوسف، فأمر السلطان اطلمش المذکور أن یکتب إلی قریبه کتابا یعرفه فیه ما هو علیه من الخیر و الإحسان بالدیار المصریة، و أرسل ذلک السلطان مع أجوبته و مضمونها إذا أطلقت من عندک من جهتی أطلقت من عندی من جهتک و السلام.

فالقائمون بالأمر هم الذین فتحوا لتیمور لنک السبل للغزو فیما بعد،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۷

غزوة أذلت العزیز و أفقرت الغنی و خربت العامر. قال ابن حجر أیضا:

لما رجع تیمور لنک إلی الشرق و کان هذا دأبه إذا بلغه عن مملکة کبیرة و ملک کبیر لا یزال یبالغ فی الاستیلاء علیها إلی أن یحصل مقصوده فیترکها بعد أن یخربها و یرجع، فعل ذلک بالمشرق کله و بالهند و بالشام و بالروم.

أرسلت مصر فی سنة (۷۹۰) عسکرا علی تیمور لنک فی سیواس فانکسر عسکر تیمور لنک و هذه الوقعة من الوقائع الأولی بین تیمور لنک و عسکر الشام.

القتال علی الملک

خامر یلبغا الناصری نائب حلب (۷۹۱) و خرج عن الطاعة و قتل سودون المظفری نائب حلب قبله، و أمسک حاجب الحجاب بحلب و جماعة من أمرائها، و أظهر یلبغا العصیان و التف علیه جماعة کثیرة من ممالیک الأشرف شعبان، و کان من جملة من التف علی یلبغا تمربغا الأفضلی المدعو منطاش مملوک الظاهر برقوق، و عهد سلطان مصر إلی إینال أتابک العساکر بدمشق لیکون نائب حلب و حلّف السلطان الأمراء من الأکابر و الأصاغر بأن یکونوا معه علی یلبغا الناصری فحلفوا علی ذلک جمیعهم، و أرسل إلی یلبغا تجریدة.

و انتشب القتال بین أمراء الغرب التنوخیة و بین عشران البر أهل کسروان و الأمراء أولاد الأعمی، و کان التنوخیة میالین إلی الملک الظاهر و الکساروة مع أرغون نائب منطاش فی بیروت، فاستظهر أهل کسروان علی أمراء الغرب و قتلوا منهم نحو ۹۰ نفرا و أمسکوا جماعة فسمروا بعضهم و وسطوا آخرین و أحرقوا عدة قری من الغرب و تلقبوا بعشران البر. ثم إن العساکر الظاهریة زحفت علی ترکمان کسروان و جرت بین الفریقین وقعة فی الساحل فقتلوا منهم جماعة کثیرة، و لما استولی کمشبغا علی قلعة حلب عمر أسواق هذه المدینة أحسن عمارة فی أسرع وقت و کانت من وقعة غازان خرابا، فلما انتصر کمشبغا علی أعدائه قتل غالب أهل محلة بانقوسا و کانوا زیادة علی أربعة آلاف نفس و قتل کبیرهم أحمد بن الحرامی و خربها إلی أن جعلها دکا.

عوامل الخراب قیس و یمن:

ذکر الأسدی أن السبب فی خراب الشام فی القرن الثامن انتشار الشرور

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۸

بین قیس و یمن و وقوع الحرب و القتال بینهم، و السبب فی ذلک تغییر العوائد و التدلیس علی الملوک و الحکام و ولاة الأمور، بالإغراء و التسلط علی الفلاحین بالظلم و طلب العاجل، و العسف فی الحکم و المیل مع القوی، و إنهاک الضعیف و عدم رد لهفة الملهوف، و مع تغییر العوائد وقع التحاسد بینهم فاضطر کثیر من أهل الزرع و الضرع إلی التمرد و التشرد و تسلطت العربان و العشران و تراکمت الأهواء و وقع التحاسد و الإغراء، فنهبت الأموال و قتلت الرجال و تخلت العشائر و عظمت الفتن بین القبائل، و جلا أهل الزرع و الضرع من الفلاحین عن أراضیهم فأوجب ذلک الخراب فی کثیر من أرجاء الشام، و صارت دمنا یشهد لذلک الدیوان من أسماء القری التی صارت مزارع و تسمی بالخراب الداثر، و الموجب لهذا جمیعه سوء التدبیر مع نقص القوة و نقض سنة العدل، إلی أن صار الحکم لمقدمی الفلاحین و رؤساء العشران، و صار الأعیان منهم یظهرون الطاعة للسلطان و یبطنون المخالفة و العصیان، و

يستخرجون الأموال بالظلم و الطغيان، و يرضون ببعضها من له فى الدولة سلطة، و بما يحملونه للأعوان من الهدايا و الأموال، فيسعى لهم و يلبسون التشاريف الملوكية بين يدى الملك و الأمير و السلطان، فيصير كل واحد منهم فى بلده و إقليمه إذا عاد إليه ذا قوة و سلطان، و سطوة و أعوان، و إقطاعات و نعم و ديوان.

قلنا: و هذا الاختلاف الدائم بين قيس و يمن كان يقوى و يضعف بحسب الوازع، فإذا وفقت الديار إلى حاكم يسوى بينهم و يعدل فيهم تسكن نغمة القيسى و اليمانى، و إلا فيتقاتلون و يخربون العمران و يقتلون الإنسان. و كانت هذه النغمة شديدة فى أرض دون أخرى من أرض الشام، فقد كانت فى القديم فى حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا: «أذلّ من قيسى بحمص» و ذلك أن حمص كلها لليمن ليس بها من قيس إلا بيت واحد.

ثم كانت ترى آثارها فى حوران و لبنان و ربما انتقلت نغمتها من حوران منذ جلاء كثير من الأسر المسيحية إلى جبل لبنان و بقيت فى هذا الجبل إلى القرن الماضى ثم اضمحلت.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۵۹

و فى هذه الأثناء ركب عسكر طرابلس على النائب و قتلوا من أمراء طرابلس جماعة، و ركب مماليك نائب حماة مع عسكر حماة و أرادوا قتله فهرب إلى دمشق، فوقعت الفتنة. و لما تحقق برقوق أن المملكة افتتنت خاف و أمر نائب القلعة بمصر بأن يضيق على الخليفة و يمنعه من الاجتماع بالناس، و كان مسجونا بالقيد فى برج القلعة، و أصدر أمره بالتضييق على السادة أولاد السلاطين فى دور الحرم، و وصلت التجريدة من مصر إلى دمشق و التقى عسكر مصر مع عسكر يلبغا الناصرى فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم و قتل من الفريقين كثيرون، فانكسر عسكر السلطان و انتصر عليهم يلبغا، ثم جيش يلبغا و ساق جيشه إلى مصر فالتف أكثر أمراء مصر عليه و قاتل قليلا حتى اضطر السلطان برقوق إلى ترك سرير السلطنة و أعيد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان سلطانا على مصر و الشام، و أخذ الظاهر برقوق إلى قلعة الكرك فسجن فيها ثم انتدبوا لقتله رجلا فقتل الرجل، و استولى برقوق على القلعة بعد أن قاسى من المحن أمرا عظيما، و أتاه مماليكه الذين كانوا بقوص و قتلوا و اليها و التحقوا به، و التف عليه العربان و قصد دمشق فجاءه نائب غزة فى خمسة آلاف مقاتل فأوقعوا مع الظاهر برقوق وقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزة، فنهب عسكر برقوق عسكر غزة فتقووا بتلك الغنيمة، و كان الظاهر كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها و يلاقونه و معهم العلف و الضيافة، و لما بلغ برقوق قرية شقحب خرج إليه عسكر دمشق فتقاتلوا فقتل من أمراء دمشق ستة عشر أميرا، و من المماليك نحو خمسين مملوكا، و قتل من عسكر برقوق نحو ذلك.

و صادف أن خرج عن الطاعة كمشبغا الحموى نائب حلب و استولى أبناء اليوسفى على قلعة صفد و هو من جماعة الظاهر فقويت شوكته و دخل الظاهر برقوق دمشق، و نزل فى الميدان فكبس عليه أهل دمشق و أخرجوه من المدينة إلى ظاهر البلد، لأن بعض مماليكه عبث ببعض السوقة و أخذ منه شيئا من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقى فحضر إليه جماعة و تعصبوا له فاستطال ذلك المملوك و ضربهم فرجمه أهل دمشق، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب، و تكاثرت على المماليك العوام بالحجارة و المقاليع،

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۰

فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق و من معه من الأمراء و خرجوا من دمشق إلى قبة يلبغا فدخل العوام إلى الميدان و نهبوا برك برقوق و أغلقت أبواب دمشق، و كان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق و راج أمره فتعطل بسبب ذلك.

ثم جرد المنصور أمير حاج عسكرا من مصر و جاء الشام لينزع الملك من برقوق، فلما وصل العسكر إلى غزة تسحب أكثر عسكر المنصور إلى برقوق لأن هواهم كان معه، و وقعت بين عسكر المنصور و عسكر الظاهر وقعة شقحب (۷۹۲) فانكسر برقوق كسرة قوية و هرب برقوق فى نفر قليل من العسكر و توارى خلف الجبل الذى تحته الملك المنصور و الخليفة و القضاة، فأتى إليه بعض العرب و

أخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل، و كان على يوم من دمشق فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر و كانوا نحو أربعين إنسانا فذعر عسكر المنصور و غلت أيديهم عن القتال، فنزل عليهم برقوق كالباز على الطائر و احتوى على كل ما معهم من البرك و الأثقال و القماش و السلاح و خزائن المال، و تسامع بذلك الناس فجاءوا إليه أفواجا من كل مكان، و بلغ ذلك منطاش و حضر و معه عساكر دمشق و غيرهم فوقعت بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى و قتل بها كثير فانكسر الأتابكى منطاش و عسكر دمشق فولوا هاربين و أقام برقوق بمنزلة شقحب، ثم إن شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفى مشى بين الظاهر برقوق و بين المنصور حاج فى أن يخلع هذا نفسه و يسلم الأمر إلى برقوق، فأجاب المنصور إلى ذلك، و أحضر الخليفة المتوكل و القضاة الأربعة و خلع نفسه من الملك و أشهدوا عليه بذلك. فبايع الخليفة و القضاة الظاهر برقوق بالسلطنة و ذلك بمنزلة شقحب ثم رحل إلى مصر فدخلها بلا منازع، و كان مماليكه قد وطدوا له الأمن قبل وصوله و خطبوا له على المنابر فعاد و استولى على مصر و الشام. و برقوق هو الذى قرض جيش المماليك البرجية.

الخوارج على ملوك مصر:

و ملك منطاش (۷۹۲) مدينة بعلبك و التف عليه جماعة من عسكر دمشق

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۱

و صفد و طرابلس و من عربان جبل نابلس و نهب عدة ضياع، و أرسل منطاش شخصا يسمى تمان تمر الأشرفى إلى مدينة حلب، و كان نائب حلب كمشبغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة و تعصبوا لمنطاش فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع، فصار كمشبغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج، و استمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر، فانتصر كمشبغا نائب حلب على تمان تمر الأشرفى الذى ولاه منطاش على حلب فانكسر تمان تمر و ولى هاربا ثم توجه منطاش إلى طرابلس فحاصرها حتى ملكها و هرب من كان بها من الأمراء و النائب و هرب أكثر أهلها إلى دمشق، ثم حاصر منطاش دمشق فاتفق عوامها على أن يسلموه المدينة ليلا و كانوا يحبونه أكثر من برقوق.

فلما بلغ ذلك أمراء برقوق خرجوا إلى ظاهر دمشق و أوقعوا مع منطاش و مع عوام دمشق واقعة قتل فيها من الفريقين نحو ألف إنسان. ثم رجع عسكر دمشق إلى المدينة و توجه منطاش إلى عينتاب فالتف عليه جماعة من التركمان، فحاصر المدينة حصرا شديدا فملكها و هرب نائبها، فلما دخل الليل جمع نائب عينتاب جماعة من التركمان و كبس منطاش فقتل من عسكره نحو مائتى إنسان و هرب منطاش نحو الفرات، ثم إن منطاش جمع قوته و خامر على السلطان أكثر التركمان و العربان و التفوا على منطاش (۷۹۳) فتوجه إلى دمشق و حاصرها فخرج إليه نائبها فهرب منطاش إلى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل و جاء إلى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء و لا النائب، ففتح له عوام دمشق بابا فدخل منه إلى المدينة و نهب الأسواق و أخذ أموال التجار و الخيول، و التف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته.

بلغ السلطان فى مصر ما وقع فى الشام فقوى عزمه على الخروج إلى منطاش فى دمشق، و نادى فيها الأمان لأن أهلها لما خرج الظاهر برقوق من الكرك و دخل مدينتهم رجموه و أخرجوه هائما على وجهه و نهبوا أثقاله و قماشه، فضج أهل دمشق له بالدعاء، و سكن ما كان عندهم من الاضطراب، و لما

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۲

توجه إلى حلب جاء نعير بن جبار أمير آل فضل و نهب ضياع دمشق، و كان نعير عاصيا على السلطان و هو من أنصار منطاش و أخرب غالب إقليم دمشق و نهب ضياعها، فلما بلغ نائب دمشق مجيء نعير خرج إليه و أوقع معه واقعة قوية فى قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق و قتل من عسكره جماعة. أما منطاش فلما بلغه مجيء السلطان من مصر هرب إلى التركمان.

و لما عاد سلطان مصر إلى عاصمته (۷۹۴) هجم نحو خمسة عشر مملوكا و قيل خمسة أنفس على نائب قلعة دمشق و توجهوا نحو السجن الذى بها و أخرجوا من كان به من المحابيس من عصبة منطاش و كانوا نحو مئة مملوك، فقويت شوكتهم بالسجناء و هجموا على نائب القلعة و قتلوه و ملكوا القلعة، فقاتلهم عسكر دمشق و حاصروا من بالقلعة فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم العسكر على باب القلعة و أحرقوه و دخلوا إليها و قبضوا على المماليك كلهم و وسطوهم (أى قطعوهم نصفين) تحت باب القلعة و أمسكوا الثائرين فلم يبق منهم إلا من هرب.

و عاد منطاش (۷۹۴) فحاصر حلب مع التركمان فخرج إليه عسكرها و أوقعوا معه واقعة فكسروه و رجع هاربا إلى الفرات، ثم اتفق منطاش و نعير بن جبار أمير العربان (۷۹۵) بمن معهما من العسكر و حاصروا حماة فخرج إليهم نائبها فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة و هرب، فدخل منطاش و نعير إلى المدينة و نهبوا أسواقها و أخذوا أموال التجار، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو فى عساكر حلب و كبس على بلاد نعير و نهب أمواله و أخذ أولاده و نساءه و أحرق بيوته و قتل من عربانه كثيرا، فأرسل نعير يطلب من نائب حلب أولاده و نساءه الذين أسرهم فأرسل نائب حلب يقول له:

ما أطلق لك أولادك و نساءك حتى تسلمنا منطاش. و كان منطاش قد تزوج من بنات نعير و استنسل منهم. فلما رأى نعير أن السلطان و نائب حلب عليه و قد نهبوا أمواله و مواشيه و أسروا أولاده و نساءه، قصد أن يرضى السلطان بإمساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه فى حق السلطان، فندب نعير إلى منطاش أربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع فى أيديهم أخرج من تكته خنجرا شق به بطنه فغشى عليه فحمله العبيد و أتوا به إلى نعير فقيده و أرسله إلى نائب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۳

حلب ثم حمل إلى القاهرة، و جعل الموكل بحمله يعاقبه و يعصره و يقرره على الأموال التى غصبها فلم يقر بشىء، و دخل عليه النزع فقطع رأسه و وضعه فى علبة و حمله إلى السلطان فى مصر ثم أرسل السلطان إلى نعير خلعة و أقره على عادته أمير آل فضل.

قال ابن إياس، و عنه أخذنا هذه الحوادث: فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى، فوردت الأخبار بأن تيمور لنك أخذ تبريز و شيراز، و ركب برقوق إلى الشام و جاءه فى حلب قاصد من عند ابن عثمان و معه مطالعات مضمونها أن يكون هو و الظاهر يدا واحدة على دفع تيمور لنك فأجابه الظاهر إلى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره، ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام و على يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان. فلما أقام الظاهر بحلب بلغه أن أعلام عسكر تيمور لنك قد وصلت إلى البيرة. ثم بلغه أن تيمور لنك رجع إلى مملكته، فلما تحقق ذلك عاد هو إلى مصر. و فى سنة (۷۹۹) أخذ عسكر تيمور لنك مدينة أرزنجان و قتل أهلها و نهب ما فيها، فلما بلغ سلطان مصر و الشام ذلك أرسل إلى نوابه فى الشام أن يتوجهوا إلى شاطئ الفرات فخرجوا كلهم و أقاموا هناك، و كانت أرزنجان من جملة الأصقاع التى خطب بها للملك الظاهر برقوق كما خطب له فى تبريز و الموصل و ماردين و سنجار و دوركى، و ضربت السكة باسمه فى هذه الأماكن.

و فى سنة (۸۰۱) تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان سكان مصر و الشام و وصلت طلائعه إلى الابلستين، و هو قاصد حلب فوقع الاتفاق فى مصر على محاربته و الخروج عليه، و أن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو، ثم ظهر أن ابن عثمان وصل إلى ملطية و ملكها و لم يشوش على أحد من أهلها و أمر عسكره بأن لا ينهبوا لأحد من الرعية شيئا، فأقام بملطية أياما ثم رجع إلى مملكته فبطل أمر التجريدة عليه.

وفاة برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج على الملك:

و فى سنة (۸۰۱) توفى الظاهر برقوق و تولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۴

و له من العمر نحو اثنتی عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام، كثر طمع القريب و البعيد فی اكتساحها. و كان من ذلك الحظ الأكبر لتيمور لنك حتی إنه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح و أعطی من بشره بذلك خمسة عشر ألف دينار، و تهيأ للمسير إلی الشام فجاء إلی بغداد و أخذها ثانية.

و فی سنة (۸۰۲) خامر نائب الشام و أظهر العصيان و أطلق من كان مسجونا من الأمراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب و كان اسمه تنم عسكرا عظيما من الشام و قصد نحو الديار المصرية و وصل أوائل عسكره غزة، فجيش الملك الناصر فرج و سار إلی الشام، فلما وصل كان أقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو و نائب حماة و نائب صفد إلی قتال الملك فدهش النواب، فكان أول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد. فلما رأی عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان- و كان مع تنم نائب الشام نواب طرابلس و حلب و حماة و صفد و كثير من العربان و ظن نفسه أنه أصبح سلطانا- خامر الجميع علی تنم نائب الشام و توجهوا إليه فی غزة فملك السلطان غزة و بلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو و بقية الأمراء و أتوا إلی الرملة فصار السلطان فی غزة و هم فی الرملة، فراسلهم السلطان فی الصلح فأبوا فتلاقی العسكران علی مكان يسمی الحبتين فكان بينهم وقعة عظيمة كسر بها تنم و أمسك و احتاطوا علی بركه و دوابه، و قبض الناصر فرج علی جملة من الأمراء الذين خامروا عليه وفيدهم و حبسهم فی قلعة دمشق. و دخلها فی موكب عظيم و قدامه تنم نائب دمشق. و هو مقيد راكب علی كديش أبلق و معه عشرة من أمراء دمشق و هم فی قيود فحبسهم فی القلعة، ثم قتل و خنق عدة أمراء منهم.

الحرب الأولی مع تيمور لنك:

و فی هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمور لنك فی وقعة صاحب بغداد القان أحمد بن أويس و قرا يوسف أمير التركمان، فلما انكسر التتر أتوا ملطية و كانوا نحو سبعة آلاف إنسان فأرسلوا إلی نائب حلب يقولون له عين لنا مكانا ننزله، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو و نائب حماة فتوجهوا إلی عسكر تيمور لنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة و قتل من عسكر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۵

حلب جماعة فأمر السلطان نواب دمشق و صفد و طرابلس بأن يجمعوا العساكر و يتوجهوا إلی حلب يقيمون بها، فأرسل تيمور لنك إلی دمرداش نائب حلب يعده بأن يبقيه علی نيابته بشرط أن يمسك سودون نائب الشام، فأطلع دمرداش علی ذلك سودون فوثب علی الرسول فضرب عنقه، فلما بلغ ذلك تيمور لنك نازل حلب، و لكن تيمور لنك إذا تظاهر الشراكسة بالقوة أمامه يعرف ما تندمج عليه نفوسهم و تصل إليه قرائحهم، و إذا انكسر له فيلق صغير لم يكن إلا علی أتم المعرفة بما عند من يريد فتح ديارهم، و كان له جواسيس فی جميع البلاد التی ملكها و التی لم يملكها، فكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة علی جليتها و يكاتبونه بجميع ما يروم، فلا يتوجه إلی جهة إلا و هو علی بصيرة من أمرها، و بلغ من دهائه أنه كان إذا أراد قصد جهة جمع أكابر الدولة و تشاوروا إلی أن يقع الرأی علی التوجه فی الوقت الفلانی إلی الجهة الفلانية، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرها و يأمن غيرها، فإذا ضربوا النفير و أصبحوا سائرين ذات الشمال عرّج بهم ذات اليمين، فإلی أن يصل الخبر الثانی يكون دهم هو الجهة التی يريد و أهلها غافلون.

و ذكر ابن حجر أنه كان ابتداء حركة تيمور لنك إلی البلاد الشامية فی سنة اثنتين و ثمانمائة. و أصل ذلك أن أحمد بن أويس صاحب بغداد ساءت سيرته و قتل جماعة من الأمراء و عسف علی الباقين، فوثبوا عليه فأخرجوه منها، و كاتبوا نائب تيمور لنك بشيراز أن يتسلمها فتسلمها، و هرب أحمد إلی قرا يوسف التركمانی بالموصل فسار معه إلی بغداد فالتقی به أهل بغداد فكسروه، و استمر هو و قرا يوسف منهزمين إلی قرب حلب، و قيل بل غلب علی بغداد و جلس علی تخت الملك، ثم صار صحبة قرا يوسف فوصلا جميعا

إلى أطراف حلب و سألا أن يطالع السلطان بأمرهما فكاتب أحمد بن أويس يستأذن فى زيارته مصر، فأجيب بتفويض الأمر إلى النائب فخشى دمرداش نائب حلب أن يقصد هو و قرا يوسف حلب فسار نائب حلب و معه طائفة قليلة منهم نائب حماة ليكبس أحمد بن أويس بزعمه، فكانت الغلبة لأحمد فانكسر دمرداش و قتل من عسكره جماعة، و رجع منهزما و أسر نائب حماة و فدى بستمائة ألف درهم، ثم جمع نعير و النائب ببهنسى جماعة و التقوا مع أحمد بن أويس

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۶

فكسروه و استلبوا منه سيفا يقال له سيف الخلافة و صحفا و أثاثا كثيرة.

فوصلت الأخبار الى القاهرة فسكن الحال بعد أن كان أمر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمرداش و أرسل بريديا إلى الشام بالتجهيز الى حلب.

تيمور لنک على أبواب حلب:

وصل تيمور لنک بعد فتح عينتاب إلى الباب و بزاعا بالقرب من حلب و أرسل إلى نائب حلب قاصدا و معه المكاتبات من تيمور لنک فيها عبارة خشنة لنائب حلب. و ذكر ابن حجر أن كتاب تيمور لنک إلى نائب حلب جاء فيه: إنا وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعنى الظاهر، و بلغنا أمر الهند و ما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم فأظفرنا اللّه تعالى بهم، ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا اللّه بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبى ابن عثمان فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسيواس و غيرها من بلاده ما بلغكم، و نحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا أطلمش و إن لم يفعلوا فدماء المسلمين فى أعناقهم و السلام.

حنق نائب حلب و أمر بضرب أعناق قصاد تيمور لنک، فاضطربت عند ذلک أحوال مدينة حلب و حصنوا سورها بالمدافع و المكاحل و المقاتلين، و قد ارتكب نائب حلب خطأ فاحشا بقتل الرسول، ظانا و جماعته من الحلبيين أن لهم قوة تقاوم قوة تيمور لنک. قال بعض المؤرخين: لما كان أهل حلب و صاحبها يتشاورون فى دفع عادية تيمور عنهم قال نائب طرابلس: إننا نطير إلى الآفاق أجنحة البطائق إلى الأعراب و الأكراد و التراكمة فيتسلطون عليه من الجوانب. و فى ذلک دليل آخر على جهل أمراء الشام بقوة تيمور لنک و عجزهم عن كشف أخبار جيوشه و تقدير مبلغ قوته. و ذكر بعض المؤرخين أن عسكر تيمور لنک كان لما أسر سلطان العثمانيين أربعمائة ألف فارس و ستمائة ألف راجل و قيل: إن ديوان تيمور اشتمل على ثمانى مائة ألف مقاتل.

لما بلغ تيمور لنک ما فعله الحلبيون بقصاده زحف إلى قرية حيلان و أحاط بمدينة حلب و نهب ما حولها من الضياع فخرج عساكر حلب و سائر النواب

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۷

بعساكرهم، و خرج لقتال تيمور حتى النساء و الصبيان من أهل حلب، و أوقعوا مع تيمور فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى، و قد دهمتهم عساكر تيمور كأمواج البحر المتلاطمة، فلم تثبت معهم عساكر حلب و ولوا على أعقابهم مدبرين إلى المدينة، و قد داست حوافر الخيل أجساد العامة، و كان احتمى بالمزارات و المساجد الجم الغفير من النساء و الأطفال، فدخل التتر إليهم و أسروهم و قرنوهم بالحبال و أسرفوا فى قتل النساء و الرجال، و صارت الأبكار تفتض فى المساجد و آباؤهن يشاهدونهن، و لم يرعوا حرمة الجوامع و أصبحت كالمجزرة من القتلى و استمر ذلک أربعة أيام.

و فى كنوز الذهب أن جيش تيمور لنک لما دخل إلى حلب نهب و أحرق و سبى و قتل و صاروا يأخذون المرأة و معها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها و يفعلون بها ما لا يليق ذكره، فلجأ النساء عند ذلک إلى جامعها ظنا منهن أن هذا يقيهن من أيدى الكفرة و صارت المرأة تطلى وجهها بطين أو بشىء حتى لا ترى بشرتها من حسنها، فيأتى عدو إللّه إليها و يغسل وجهها و يجامعها فى

الجامع. قال: و حكى بعض من حضر الوقائع بأن تيمور عرض الأسرى من ديار الشام و نواحيها فكانوا ثلاثمائة ألف أسير و ستين ألف أسير.

رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب فنزل من القلعة هو و بقية النواب، و أخذوا فى رقابهم مناديل و توجهوا إلى تيمور لنك يطلبون منه الأمان؛ فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر و ألبسهم تيجانا مذهبة، و قال لهم:

أنتم صرتم نوابى، ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة، و كان فيها من الأموال و الذخائر و الحلى و السلاح ما تعجب الفاتح من كثرته، حتى أخبر بعض أخصائه أنه قال: ما كنت أظن أن فى الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر، فاستنزلوا ما كان بها و هم فى قيود و غدر بهم بعد أن أمنهم، و أخذ جميع ما كان فيها من الأموال و المتاع ثم خرب القلعة و أحرق المدينة. و استمر مقيما على حلب نحو شهر، و عسكره ينهبون القرى التى حول المدينة و يقطعون الأشجار التى بها و يهدمون البيوت، و قد أسرفوا فى القتل و نهب الأموال، و صارت الأرجل لا تطأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتلى، حتى قيل: إنه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا، و صعودها

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۸

فى الهواء مثل ذلك، و جعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح، و تركوا أجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب و الوحوش. فكان عدة من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب من صغار و كبار و نساء و رجال نحوا من عشرين ألف إنسان، عدا من هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة و هلك من الجوع و العطش أكثر من ذلك- هذا ما قاله ابن تغرى بردى و ابن حجر و ابن إياس. و قال ابن حجر: إن أعظم الأسباب فى خذلان العسكر الإسلامى ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من إلقاء الفتنة بين التركمان و العرب حتى أعانه بعض التركمان على أموال نعير فنهبها فغضب نعير من ذلك و سار قبل حضور تيمور لنك فلم يحضر الوقعة أحد من العرب.

و قال بعضهم: إن دمرداش كان باطن تيمور لكثرة ما كان تيمور لنك خدعه و مناه.

تيمور لنك على حماة و سلمية و حمص:

و وصل تيمور لنك إلى حماة و سلمية فأرسل جماعة من عسكره إلى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا فى واد بين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب و الحجارة فولوا مدبرين. و ذكروا أن ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكره و جاء حلب بعد رحيل تيمور لنك و طرد من بها من عساكره بحلب. و فعل تيمور لنك بأهل حماة كما فعل بأهل حلب من القتل و النهب و أحرق معظمها، و لم تطل يده إلى حمص فوهبها كما قال لخالد بن الوليد. قال ابن حجر: و ذكر بعض من يوثق به أنه قرأ فى الحائط القبلى بالجامع الأموى النورى بحماة منقوشا على رخامة بالفارسى ما نصه: إن اللّه يسر لنا فتح البلاد و الممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد، فحاورنا سلطان مصر و الشام فراسلناه لتتم المودة فقتلوا رسلنا، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من أصلنا فسجنوهم، فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من أيدى مخالفينا و اتفق فى ذلك نزولنا بحماة فى العشرين من شهر ربيع الآخرة.

تيمور لنك على دمشق:

و جاء تيمور لنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ) فى قطنا و إقليم البلان

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۶۹

ميسنون و قوى عزمه على فتح دمشق لما بلغه أن الملك فرّ منها إلى مصر، فأرسل تيمور لنك إلى نائب دمشق رسولا من قبله فقتله قبل أن يسمع كلامه. جرى فى ذلك على ما جرى عليه نائب حلب فزاد تيمور لنك حنقا. و من الغريب أن نائبى حلب و دمشق لم

يقدرا قوة تيمور لنك حق قدرها و هى منهما على قيد غلوة و ظنا أنهما باعتصامهما فى قلعتى المدينة، و بالقليل ممن عندهما من العسكر و أحداث البلدين يستطيعان أن يتغلبا على جيوش تيمور لنك المؤلفة كما قال عربشاه: من رجال توران، و أبطال إيران، و نمور تركستان، و فهود بلخشان، و صقور الدشت و الخطا، و نسور المغول و كواسر الجتا، و أفاعى خجند، و ثعابين أبدكان، و هوام خوارزم، و جوارح جرجان، و عقبان صغانيان، و ضوارى حصار شادمان، و فوارس فارس، و أسود خراسان، و ضباع الجبل، و ليوث مازندران، و سباع الجبال و تماسيح رستمدار و طالقان، و أهل قبائل خوز و كرمان، و طلس أرباب طيالس أصبهان، و ذئاب الرى و غزنة و همدان، و أفيال الهند و السند و ملتان، و كباش ولايات اللور و تيران، و شواهق الغور، و عقارب شهرزور، و حشرات عسكر مكرم و جندى سابور.

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهمطاروا إليه زرافات و وحدانا

مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم، و فواعل التراكمة و الأوباش و الحشم، و كلاب النهاب من رعاع العرب و همج العجم، و حثالة عباد الإنسان، و أنجاس مجوس الأمم، ما لا يكتنفه ديوان، و لا يحيط به دفتر حسبان اه.

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه و من معه من المتعصبة و المتلصصة و أرباب الدعارة من الشطار و الأحداث الأغيار، قضت على أعظم مدينة فى الأرض كانت فى غابر الأيام. كان بين أهل دمشق و بين عسكر تيمور لنك فى أول يوم واقعة فقتل من عسكر تيمور لنك نحو ألفى إنسان، فأرسل يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم، يمشى بينه و بين أهل دمشق فى الصلح، فلما أتى قاصد تيمور لنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلونه فوقع الاختيار أن يرسلوا القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى، فإنه كان إنسانا طلق اللسان يعرف بالتركى و باللسان العجمى، فأرخوه من أعلى السور بسرياق ضخم، و معه خمسة أنفس من أعيان دمشق، فغاب عند

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۰

تيمور لنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تيمور لنك تلطف معه فى القول و قال له: هذه بلد فيها الأنبياء و قد أعتقها لهم. و شرح من محاسن تيمور لنك شيئا كثيرا و جعل يخذل أهل الشام عن قتاله و يرغبهم فى طاعته، فصار أهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح و فرقة ترى محاربته، و كان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ثم غلب رأيه و رأى أصحابه، فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق و قال لهم: إن فعلتم ذلك أحرقت البلدة جميعها، و لكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم إليهم القلعة بعد ستة و عشرين يوما قال: ثم قبض تيمور لنك على ابن مفلح و أصحابه و أودعهم فى الحديد.

وصف أفعال تيمور لنك فى دمشق:

ذكر ابن تغرى بردى أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة و الاستعداد لقتال العدو، فأخذوا فى ذلك فقدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها، و هموا بالجلاء فمنعوا من ذلك، و نودى من سافر نهب فعاد إليها من كل خرج منها، و حصنت دمشق و نصبت المجانيق على قلعتها و نصبت المكاحل على أسوارها و استعدوا للقتال، ثم نزل تيمور لنك بعساكره على قطنا، فملأت الأرض كثرة، و ركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان و الأمراء قد تهيأوا للقتال، و صفت العساكر السلطانية فبرز إليهم التمرية و صدموهم صدمة هائلة، و ثبت كل من العسكريين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان، و انهزم العسكر الغزاوى و غيرهم إلى ناحية حوران و جرح جماعة، و حمل تيمور لنك بنفسه حملة عظيمة شديدة ليأخذ دمشق، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه، و نزل كل من العسكرين بمعسكره و بعث تيمور لنك إلى السلطان فى طلب الصلح و إرسال أطلمش أحد أصحابه إليه و أنه هو أيضا يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم فى واقعة حلب. ثم هرب الملك لأنه بلغه أنهم يسلطنون غيره فى مصر فارا بجماعته.

و كان اجتمع فى دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين و الحمويين و الحمصيين و أهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور، ما عدا العساكر الدمشقيين الذين

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۱

تخلفوا فى دمشق و لما أصبحوا و قد فقدوا السلطان و الأمراء و النائب غلقوا أبواب المدينة، و ركبوا الأسوار و نادوا بالجهاد، فتهيأ أهل دمشق للقتال و زحف عليهم تيمور لنك بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال، وردوهم عن السور و الخندق، و أسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق، و أخذوا من خيولهم عدة كبيرة و قتلوا منهم نحو الألف و أدخلوا رؤوسهم إلى المدينة، و لما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح.

و طلب تيمور الطقزات أى التسعة الأصناف من المأكول و المشروب و الملبوس و غيره و هذه كانت عادته فى كل بلد يفتحه صلحا. فأجابه الدمشقيون إلى ما طلب بإقناع ابن مفلح لهم، و تقرر أن يجبى تيمور من دمشق ألف ألف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم، فلم يرض تيمور و قال: إن المطلوب بحساب له عشرة آلاف ألف دينار أو ألف تومان و التومان عشرة آلاف دينار من الذهب. قال ابن حجر: و استقر الصلح على ألف ألف دينار فتوزعت على أهل البلد ثم رجع تيمور فتسخطها و قال: إنه طلب ألف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم، و لما أخذه ابن مفلح و حمله إلى تيمور قال هذا لابن مفلح و أصحابه: هذا المال لحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف دينار و قد بقى عليكم سبعة آلاف دينار (؟) و ظهر لى أنكم عجزتم، ثم سلمت أموال المصريين و كراعهم و سلاحهم و أموال الذين هربوا من دمشق، و لما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما فى البلد من السلاح فأخرجوه، فلما فرغ من ذلك، قبض على ابن مفلح و رفقته و ألزمهم أن يكتبو له جميع خطط دمشق و حاراتها و سككها، فكتبوا ذلك و دفعوه إليه، ففرقه على أمرائه و قسم البلد بينهم فساروا إليها بمماليكهم و حواشيهم، و نزل كل أمير فى قسمه و طلب من فيه و طالبهم بالأموال فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، و جرى عليهم من أنواع العذاب و هتك الأعراض شىء تقشعر منه الجلود، و استمر هذا البلاء تسعة عشر يوما فهلك فى هذه المدة بدمشق بالعقوبة و الجوع خلق لا يعلم عددهم، ثم أمر أمراءه فدخلوا دمشق و معهم سيوف مسلولة مشهورة و هم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور و غيرها، و سبوا نساء دمشق بأجمعهن، و ساقوا الأولاد و الرجال

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۲

و تركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، و ساقوا الجميع مربوطين فى الحبال، ثم طرحوا النار فى المنازل و الدور و المساجد، و كان يوما عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى كاد لهيب النار أن يرتفع إلى السحاب، و عملت النار فى البلد ثلاثة أيام بلياليها، ثم رحل تيمور عنها بعد أن أقام ثمانين يوما و قد احترقت كلها و سقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق و زالت أبوابه و تقطر رخامه و لم يبق غير جدره قائمة، و ذهبت مساجد دمشق و دورها و قياسرها و حماماتها و صارت أطلالا بالية و رسوما خالية و لم يبق بها إلا أطفال. قال ابن تغرى بردى: و لقد ترك المصريون دمشق أكلة لتيمور، و كانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا و أعمرها.

قال بهاء الدين البهائى يرثى دمشق المظلومة و يصف ما حلّ بها من التتر فى سنة ثلاث و ثمانمائة و يذكر حلب و حماة:

لهفى على تلك البروج و حسنهاحفت بهن طوارق الحدثان

لهفى على وادى دمشق و لطفهو تبدل الغزلان بالثيران

و شكا الحريق فؤادها لما رأتنور المنازل أبدلت بدخان

جناتها فى الماء منها أضرمتفعجبت للجنات فى النيران

كانت معاصم نهرها فضيةو الآن صرن كذائب العقيان

ما ذاك إلا تركهم و لجت بهافتخضبت منها بأحمر قان

كرهت جداولها حوافر خيلهمفتسابقت هربا كخيل رهان

خافت خدود الأرض من أفعالهمفتلثمت بعوارض الريحان

لو عاينت عيناك جامع تنكزو البركتين بحسنها الفتان

و تعطش المرجين من أورادهاو تهدم المحراب و الإيوان

لأتت جفونك بالدموع ملونادمعا حكى اللولو على المرجان

قطرات جفن ترجمت عن حرقتىفكأنهن قلائد العقيان

أبنى أمية أين يمن وليدكمو المغل تفتل فى ذرى الأركان

شربوا الخمور بصحنه حتى انتشواألقوا عرابدهم على النسوان

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۳

و منها:

لهفى على كتب العلوم و درسهاصارت معانيها بغير بيان

أعروسنا لك أسوة بحماتنافى ذا المصاب فأنتما أختان

غابت بدور الحسن عن هالاتهافاستبدلت من عزها بهوان

ناحت نواعير الرياض لفقدهمفكأنها الأفلاك فى الدوران

حزنى على الشهباء قبل حماتناهو أول و هى المحل الثانى

لا تدّعى الأحزان يا شقراءناالسبق للشهباء فى الأحزان

رتعت كلاب المغل فى غزلانهاو تحكمت فى الحور و الولدان

لهفى عليك منازلا و منازهاو مقام فردوس و باب جنان

ثم رجع ورثى دمشق فقال:

لم أدر من أبكى و أندب حسرةللقصر للشرفين للميدان

للجبهة الغراء أم خلخالهاللمزّة الفيحا أم اللوّان

الخراب الأعظم و أخلاق تيمور و نجاة فلسطين منه:

و على ما منيت به دمشق من قتل سكانها و سبى نسائها و أولادها، و إحراق مصانعها و بيوتها، و استخراج أموالها و طرائفها، أصابتها من تيمور مصيبة لا- تقل عن تلك فى إرجاعها القهقرى و إضعافها إضعافا لا يجبر كسره فى قرون و إليك ما قاله ابن عربشاه فى تفصيل هذا الهول العظيم: و بينا كان رجال يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو يتطلب الأفاضل و أصحاب الحرف و الصنائع، و استمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام، و ارتحل و جماعته و قد أخذ من نفائس الأموال فوق طاقتهم، فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب و المنازل، و ذلك لكثرة الخمل و قلة الحوامل، و أصبحت القفار و البرارى، و الجبال و الصحارى، من الأمتعة و الأقمشة، كأنها سوق الدهشة، و كأن الأرض فتحت خزائنها، و أظهرت من المعادن و الفلزات كامنها، و أخذ تيمور كل ماهر فى فن من الفنون بارع من النساجين و الخياطين و الحجارين و النجارين و الاقباعية و البياطرة و الخيمية و النقاشين و القواسين و البازدارية و بالجملة أهل أى فن كان، و أخذ جملة من العلماء و الأعيان و النبلاء، و كذلك كل أمير من أمرائه

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۴

و زعيم من زعمائه، و أخذ من الفقهاء و العلماء، و حفاظ القرآن و الفضلاء، و أهل الحرف و الصناعات، و العبيد و النساء و الصبيان و

البنات، ما لا يسعه الضبط.

و لما رحل تيمور عن دمشق، و قد أصبحت أطلالا لا مال و لا رجال و لا مساكن و لا حيوان، صار من بقى فيها من عسكر السلطان و من أهلها يجتمعون و يترافقون، و يخرجون من دمشق إلى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان و العشير، و ينهبون ما معهم و يعرونهم و لم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم، فجرى عليهم من العربان و العشير ما لم يجر عليهم من عسكر تيمور، فذهبت حرمة المملكة و لم يبق للسلطان قيمة و لا للترك حرمة، فعزم السلطان الناصر على العود إلى دمشق، ثم بلغه أن تيمور رحل عن دمشق و هو مريض فعدل عن حملته، و أرسل تيمور إلى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى، و يطلب قريبه الذى كان أسر فى أيام الظاهر برقوق، و أنه إذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى، فأطلقه و كساه السلطان و أحسن إليه، فلما وصلوا إلى تيمور أكرمهم و قبل مراسيم السلطان و تفارش و بكى و اعتذر مما و قر منه و قال هذا كان مقدرا.

رحل تيمور عن دمشق و لم يتعدها إلى فلسطين، و كان علماء القدس انتدبوا رجلا و جهزوه بمفاتيح الصخرة إلى تيمور لما بلغهم أخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع.

و كانت أكثر المدن الصغرى فى أواسط الشام قد خضعت و صافت بحكم الطبيعة و منها طرابلس أحضر له منها مال و قد اجتاح بعلبك و نهبها، و لما وصل الجبول فى عودته لم يدخلها و أمر بتخريبها و إحراقها، و حرق حلب مرة ثانية و هدم أبراج القلعة و أسوار المدينة و المساجد و الجوامع و المدارس، و قتل و أسر كل من وجدهم فى طريقه، و أخذ من كان فى قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق موسى الأنصارى و عمر بن العديم و جماعة معهما، و أخذ بقيتهم فمنهم من هرب من الطريق، و منهم من وصل معه. قفل تيمور راجعا بعد أن أذاق الشام كأس الذل و الحمام، و ربما إذا جمعت جملة تخريباته لا يتأتى وقوع مثلها فى مئات من الأعوام عملها بجيشه الجرار فى عشرات من الأيام و قال: إن ما فعله كان مقدرا فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين، بيد أنه كان مغرى

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۵

بغزو المسلمين و التخلى عن غيرهم، صنع ذلك فى الروم و الهند و غيرهما، و لكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تفانى فى الوصول إلى غرض، و يستحيل بعد أن فتحت عليه الأقاليم و فتح ثلث آسيا تقريبا بالقهر و السيف و جعل جيشه مؤلفا كالجيش العثمانى من جميع العناصر التى كانت تحت حكمه أن لا يكون على شىء من العلم و بعد النظر. و كان يصحب معه فى رحلاته زمرة من العلماء المحققين.

و لو قدّر للدولة أن يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة، و يحالف ابن عثمان صاحب الروم و غيره من أمراء الشرق الذين فاوضوا ملك مصر و الشام فى أمر تيمور قبل انهيال جمهرة جيوشه على ديارهم و نظموا قواهم و استعملوا اللين تارة و الشدة أخرى، و لم يفتحوا للفاتح العظيم بابا من أبواب الحجج التى يحجهم بها فى عرف السياسة و الفتح، لأمنت هذه الديار عادية تيمور أو لكان اكتفى بمعاهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل بسلام، لأن تيمور يعرف بأن مملكته أوسع مجالا يتيسر بقاؤها لآله لقربها من مهد عصبيته و دار ملكه.

بيد أنه لم يكن فى مصر و لا الشام على ذاك العهد رجل سياسى بعيد النظر و الغور فى السياسة كالظاهر برقوق و الظاهر بيبرس مثلا فكان ما كان لأن الديار أصبحت بلا راع يرعاها، و غدا الحكم لمماليك الطبقة الثانية من عماله، و لمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون أمتهم بجهلهم إلى الخراب، و الغالب أن السبب فى رجوع تيمور انتشار الجراد حتى أكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم، و بهذا الرأى قال ابن حجر فذكر أن رحيل تيمور إنما كان لضيق العيش على من معه فخشى أن يهلكوا جوعا. و قيل: إن تيمور أراد أن يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق فلما عادوا قصوا عليه ما رأوه و هو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم: إن مصر لا تفتح من البر بل تحتاج إلى أسطول لتفتح من البحر و لذلك صرف النظر عن

فتحها، و هكذا نجت مدن الجنوب فی الشام من تخریبه و كذلك مصر و ما إلیها من بلاد إفریقیة و سلمت الدولة الشركسیة.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۶

عهد المماليك الاخير «من سنة ۸۰۳ الى ۹۲۲»

البلاد بعد الفتنة التيمورية و مخامرة العمال:

خرجت حلب و حماة و دمشق خصوصا من بین مدن الشام بعد فتنة تیمور كالهیكل من العظم لا لحم و لا دم، و أصیبت بنقص فی الأنفس و خراب فی العمران، یبكی لها كل من عرف ما كانت علیه من السعادة قبل تلك الحقبة المشؤومة، و لم یقیض للقطر سلطان عاقل قوی یداوی جراحاتها و ینهض بها نهضة تنسیها آلامها. و لما رحل تیمور عن دمشق نصب صاحب مصر المقر السیفی تغری بردی فی نیابة دمشق و رسم له أن یخرج إلی الشام من یومه لیعمر ما أفسده تیمور فی دمشق، و نصب نوابا آخرین علی نیابات الشام ممن كانوا فی أسر تیمور فأطلقهم، مثل نواب الكرك و طرابلس و حماة و بعلبك و صفد و غیرهم، و أمرهم أن یعمروا البلاد المخربة. و هیهات أن یعمر فی قرن ما خربه تیمور فی ثلاثة أشهر.

و بعد حین رجم أهل دمشق (۸۰۴) نائب. الشام تغری بردی و أرادوا قتله فهرب إلی نائب حلب، فلما بلغ سلطان مصر ذلك أرسل تقلیدا إلی أقبغا الجمالی بنیابة الشام. و خامر أمیر غزة و خرج عن الطاعة و اسمه صرق، فقتل فی المعركة، و خرج أیضا عن طاعة نائب طرابلس شیخ المحمودی. و خرج دمرداش نائب حلب إلی الأمیر دقماق المحمدی الذی خلفه فی نیابتها و أوقع معه واقعة قویة فانكسر دمرداش.

و فی سنة (۸۰۶) نازل الفرنج طرابلس فأقاموا علیها ثلاثة أیام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض إلیهم مسرعا فانهزموا فأوقع بهم و كان ذلك مبدأ سعادته.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۷

ثم توجه الفرنج إلی بیروت و كانوا فی نحو من أربعین مركبا فواقعهم دمرداش و من معه من الجند و المطوعة و قتل بعض الناس من الفریقین و جرح الكثیر، و كان نائب الشام ببعلبك فجاءه الخبر فتوجه من وقته و أرسل إلی العسكر یستنجد به و مضی علی طریق صعبة إلی أن وصل إلی طرابلس ثم توجه من فوره إلی بیروت فوجدهم قد نهبوا ما فیها و أحرقوها و كان أهلها قد هربوا إلی الجبال إلا المقاتلة منهم، فوقع بین الفریقین مقتلة عظیمة فأمر النائب بإحراق قتلی الفرنج، ثم توجه إلی صیدا و معه العساكر فوجدهم فی القتال مع أهلها و لم یتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس، فحمل علی الفرنج فكسرهم و فروا فی مراكبهم راجعین إلی ناحیة بیروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض أصحاب النائب فغلبوه علی الماء و أخذوا حاجتهم و توجهوا إلی جهة طرابلس.

و دامت الفوضی فی القطر حتی خامر النواب إلا قلیلا فی الشام (۸۰۶) و أصبح الناس فرقتین فرقة مع الملك الناصر و فرقة علیه إلی أن خلع سنة (۸۰۸) و فی سنة (۸۰۶) أوقع نائب الشام بعرب آل فضل و كان كبیرهم علی بن فضل قد قسم الشام سنة ثلاث و ثمانی مائة فطمع أن یفعل ذلك هذه السنة، فقبض علیه النائب و نهب بیوته، و وقع بین نعیر أمیر عرب آل فضل و بین حجا بن سالم الدوكاری وقعة عظیمة قتل فیها ابن سالم و انكسر عسكره و غلب نعیر و أرسل برأس ابن سالم إلی القاهرة. و كان عسكر ابن سالم طاف فی أعمال حلب كعزاز و غیرها و أفسد فیها الفساد الفاحش، و كان وقع بینه و بین نعیر قتال بین جعبر و ابلستین و استمرا أیاما إلی أن قتل ابن سالم. وقع بین دمرداش و التركمان وقعة عظیمة فانكسر دمرداش. و فی أیام الناصر فرج نصب نوروز الحافظی علی دمشق و جكم العوضی نائبا علی حلب، فلما توجها إلی عملهما أظهر كل منهما العصیان و المخامرة علی السلطان فتسلطن جكم العوضی بحلب و قبل الأمراء الأرض بین یدیه و تلقب بالملك العادل و وضع یده علی البلاد الحلبیة و كتب إلی نواب الشامات

فأطاعوه إلا القليل منهم، و أخرج أوقاف الناس و جعلها إقطاعات و فرقها مثالات على عسكر حلب و صار يحكم من الشام الى الفرات فانتزعت يد الناصر من الديار الشامية و الحلبية و صار حكمه لا يجاوز غزة.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۸

و فارق جكم حلب (۸۰۷) فثار بها عدة من أمرائها و رفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع إليهم العسكر و تحالفوا على طاعة السلطان، و قام بتدبير أمور حلب الأمير يونس الحافظى و امتدت أيدى عرب ابن نعير و التركمان إلى معاملة حلب فقسموها و لم يدعوا لأحد من الأمراء و الأجناد شيئا. و مدحه المؤرخون بأنه كان يتحرى العدل و يحب الإنصاف، و لا يتمكن أحد معه من الفساد.

و فى سنة (۸۰۷) حاصر دمرداش نائب حلب أنطاكية و بها فارس ابن صاحب الباز التركمانى فأقام مدة و لم يظفر بها بطائل و كان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده إلى طرابلس فغلب عليها ثم توجه إلى حلب فنازلها و بها دمرداش فالتقيا و جرى بينهما قتال فانكسر دمرداش و خرج من حلب فركب البحر إلى القاهرة، و ملكها جكم ثانية ثم خرج إلى جهة البيرة و غزا التركمان و أسر منهم جما كبيرا. و التف نوروز الحافظى على شيخ المحمودى نائب طرابلس و أظهرا العصيان و التف عليهما جماعة من النواب و صاروا يأكلون الأقاليم الشامية و الحلبية من غزة إلى الفرات و ليس بيد الملك الناصر سوى مصر. و خربت صفد و أعمالها خرابا شنيعا و ذلك لأن شيخا المحمودى و من معه من النواب و التركمان حاصروها مدة لأن واليها بكتمر جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر. و خرج نعير بن مهنا الحيارى البدوى (۸۰۸) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا العساكر و تواقعوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانهزمت عساكر الشام و أمراء غرب بيروت و استولت العرب على دمشق و زادوا فى الجور و الضرب. و استولى التركمان على كثير من العمالات بقيادة رأسهم اياس و وصلوا إلى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها.

وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان:

و فى سنة (۸۰۸) كانت الوقعة العظمى بين جكم نائب حلب و التركمان و رئيسهم فارس و يدعى إياس بن صاحب الباز صاحب أنطاكية و غيرها، و كان قد غلب على أكثر الأصقاع الشمالية و دخل حماة و ملكها، و عسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجالة فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة، و عظم قدر جكم بذلك و طار صيته، و وقع رعبه فى قلوب التركمان

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۷۹

و غيرهم، ثم إنه واقع نعيرا و من معه من العرب فكسره، ثم توجه جكم إلى أنطاكية و أوقع بالتركمان فسألوه الأمان و أن يمكنهم من الخروج إلى الجبال مواطنهم القديمة و يسلموا إليه جميع القلاع التى بأيديهم، فتقرر الحال على ذلك و أرسل إلى كل قلعة واحدا من جهته و دخل إلى حلب مؤيدا منصورا، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازى بن أوزر التركمانى و كان بينهما عداوة فقتله و قتل ولده و جملة من جماعته. و كان قد استولى على معظم معاملة حلب و معاملة طرابلس فصار فى حكمه أنطاكية و القصير و الشغر و بغراس و حارم و صهيون و اللاذقية و جبلة و غير ذلك، فلما أحيط به تسلم جكم الكور و رجعت معاملة كل بلد على ما كانت أولا.

و برز جكم إلى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز و جمعهم من التركمان فكسرهم كسرة ثانية و ضرب أعناق كثير منهم صبرا و قتل نعيرا و أرسل برأسه إلى القاهرة، و استعد نائب الشام لقتاله، و وصل دمرداش توقيع بنيابة حلب عوضا عن جكم من القاهرة، فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل إليهم المعجل بن نعير طالبا ثأر أبيه و كذلك ابن صاحب الباز طالبا ثأر أبيه و أخيه، و كان معهم من العرب و التركمان خلق كثير، و وصل توقيع المعجل بن نعير بإمرة أبيه و وصل نائب الشام و من معه إلى حمص و كاتبوا جكم فى الصلح و وقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر دمشق، و وصل إليها شيخ و دمرداش منهزمين، و كانت الواقعة فى الرستن ثم رحل نائب دمشق إلى مصر، و دخل جكم إلى عاصمة الشام و بالغ فى الزجر عن الظلم، و عاقب على شرب الخمر فأفحش، حتى لم يتظاهر بها أحد، و كانت قد فشت بين الناس.

ذكر هذا ابن حجر، و قال فى وفيات سنة (۸۰۸): إن فارسا صاحب الباز التركمانى كان أبوه من أمراء التركمان فلما وقعت الفتنة اللنكية جمع ولده هذا فاستولى على أنطاكية ثم قوى أمره فاستولى على القصير ثم وقع بينه و بين دمرداش فى سنة ست و ثمانى مائة فانكسر دمرداش، و كان جكم مع فارس ثم رجع عنه، فاستولى فارس على البلاد كلها و عظم شأنه، و استولى على صهيون و غيرها من عمل طرابلس، و صارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على أعمالهم، فلما ولى جكم ولاية حلب تجرد له و واقعة فهزمه و نهب ما معه

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۰

و استمر جكم وراءه إلى أن حاصره بأنطاكية سنة ثمان و ثمانى مائة، و لم تزل الحروب بينهما إلى أن طلب فارس الأمان فأمنه و نزل إليه و سلمه لغازى بن أوزر، و كان عدوه فقتله و قتل معه ابنه و جماعة منهم، و استنقذ جكم الأقاليم كلها من أيدى صاحب الباز و هى أنطاكية و القصير و الشغر و حارم و غيرها و انكسرت بقتل فارس شوكة التركمان.

و فى سنة (۸۰۹) بعث شيخ إلى نابلس جيشا قبضوا على عبد الرحمن ابن المهتار و أحضروه له إلى صفد فقتل بحضرته، و كان قد عصى بأخرة على الناصر، و اتفق شيخ و نوروز فأرسله إلى نابلس فصادر أهلها و بالغ فى ظلمهم فكانت تلك عاقبته. و وقعت وقعة بين شيخ و الحمزاوى عند حلبين فقتل فى المعركة أناس من الأمراء و قبض على الحمزاوى. و استولى تمربغا المشطوب على حلب و ذلك أنه لما هرب من الوقعة التى كانت بين جكم و بين قرابلك جاء مع طائفة من المغل إلى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان و حاصرها فأوقع بهم و كسرهم و دخل البلد و عصت عليه القلعة. و لما بلغهم قتل جكم سلموها فاستولى على ما بها من الحواصل و على ما بحلب أيضا من الخيول و المماليك المخلفة عن جكم. ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب و دخل السلطان دمشق و بنى ما كان هدم. و فى سنة (۸۰۹) ثارت طائفة من المماليك و معهم عامة حلب على شركس المصارع.

و هكذا كثرت الفتن فى الشام فى العقد الأول من القرن التاسع و كلما قوى أمير قتل رجال الأمير الذى كان قبله، و شأن الظلم فى الرعايا عجيب، و المصادرات قائمة على ساق و قدم، و بالجملة فقد كانت الدولة التى تولت أمر مصر و الشام على حالة سيئة و كثير من ملوكها لم يتم لهم فى الملك أشهر معدودة، و ناهيك بهذا التبدل قال ابن تغرى بردى: و كثرت المصادرات بدمشق و غيرها فى أيام هذه الفتن (۸۱۰) و أخرجت الأوقاف عن أربابها و خربت بلاد كثيرة بمصر و الشام، لكثرة التجاريد و سرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع. و قال ابن حجر: و فيها كملت عمارة قلعة دمشق و كان ابتداؤها فى العام الماضى و صرف على عمارتها مال كثير جدا، و ظلم بسببه أكثر الخلق من الشاميين و غيرهم. و بسط نوروز يده فى المصادرات بدمشق

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۱

فبالغ فى ذلك حتى إن بعض التجار كانوا يترحمون على تيمور و فرض على جميع الجهات مثليها، و تناول حتى الخانات و الحمامات و أرباب المعايش حتى انقطعت الأسباب و تعطلت الأرزاق.

و نازل التركمان حلب (۸۱۰) فحصرها على بك بن خليل بن قراجا بن دلغادر و معه عدة من أمراء التركمان و عدة من أمراء العرب و نازلوها أياما و قاتلهم العوام و من بها، و كان بها يومئذ تمربغا المشطوب فدخلوا و لم يظفروا بطائل، و كان لعلى بك ولد محبوس بقلعة حلب فصانع أهل حلب أباه بإرساله مكرما فما أفاد ذلك وجد فى الحصار و نازل المعجل بن نعير حماة و حاصرها و نهب على بك و من معه القرى التى حول حلب وجدوا فى الحصار، و بالغ أهلها بالذب عن أنفسهم و اشتدوا للقتال و هان عليهم الأمر خشية على أموالهم و حريمهم بحيث أنهم كانوا كل يوم لا يرجعون إلا و قد أنكوا فى التركمان نكاية كبيرة، و أوقع نوروز بالمعجل و من معه من العرب على حماة و كسرهم.

و جرت فى هذه السنة وقعة فى وادى عقيبة من كروم بعلبك بين أنصار السلطان و بعض أمراء المماليك الفارين من القاهرة فكاثرهم نوروز و قتل منهم و حملت رؤوسهم إلى مصر. و تصافى شيخ و نوروز بعد الخلاف و توجها بعسكرهما إلى إقليم ابن بشارة و نهبوه و

هرب ابن بشارة. و قصد تمربغا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فبيتوه و كسروه و رجع منهزما، و نهب نوروز للعرب إبلا كثيرة فكبسوا عليها و استنقذوها و حاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق.

و جاء الأمير شيخ و الأمير نوروز من غزة فى عساكر كثيفة (۸۱۱) فلما سمع الناصر بذلك خرج هو و الأمراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية و كان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الناصر و رجع إلى القاهرة و هو مهزوم، فتبعه شيخ و نوروز و دخلا إلى القاهرة، ثم قوى حال الناصر على شيخ و نوروز فكسرهما فرجعا إلى الشام مهزومين، و قتل فى هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء و المماليك. و فيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم تنحى عنها، و أرسل السلطان تقليدا إلى شيخ بنيابة الشام و تقليدا إلى دمرداش بنيابة حلب، ثم عين نوروز إلى القدس بطالا، ثم كتب إلى دمرداش نائب حلب بالحضور إلى مصر و رسم

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۲

لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب و خامر شيخ بعد ذلك على السلطان فجرد إليه و رجع على غير طائل.

ثم إن نوروز قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ إلى دمشق و كان قد جمع من التركمان و العرب جمعا و سار من حلب فرجع نوروز فسبقه إلى دمشق، فتراسل شيخ و نوروز فى الكف عن القتال و لم ينتظم لهما أمر، و صمم شيخ على أخذ دمشق و باتا على أن يباكرا القتال فأمر شيخ بإيقاد النيران فى معسكره و استكثر من ذلك، و رحل جريدة إلى سعسع فنزلها، و أصبح نوروز فعرف برحيله و سار نوروز إلى سعسع فلقى بها شيخا و هو فى نفر قليل نحو الألف فالتقيا فانكسر نوروز و يقال: إنه كان معه أربعة آلاف نفس و لم يكن مع شيخ سوى ثلاثمائة نفس، و ركب شيخ أقفيتهم و دخل دمشق ثم رحل إلى ملطية و أرسل شيخ عسكرا و رحل نوروز إلى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكر شيخ بالتركمان بأنطاكية و أوقعوا بهم و استنقذوها منهم.

و ألزم النائب أهل دمشق بعمارة مساكنهم و الأوقاف التى داخل البلد و ضرب فلوسا جددا ثم نودى عليها كل مائة و أربعين بدرهم. و كتب الناصر إلى الشام بإسقاط ما على الناس من البواقى من سنة ثمان و تسعين إلى سنة ثنتى عشرة و فى السنة التالية ألزم الناس فى دمشق بعمارة ما خرب من المدارس.

و فيها توجه الدويدار إلى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام، فوصلت كشافة برديك إلى عقبة سحورا ثم نزل هو شقحب، فتأهب من بالقلعة بدمشق و خرج العسكر مع سودون و حمل هو على عسكر برديك فكسرهم ثم انهزم برديك على خان ذى النون و رجع إلى صفد. و اشتد الحصار على نوروز و دمرداش بحماة فقتل بينهما أكثر من كان معهما من التركمان و انضم أكثر التركمان إلى شيخ و وصل إليه المعجل بن نعير نجدة له بمن معه من العرب فخيم بظاهر حماة، فوقع القتال بين الطائفتين و اشتد الخطب على النوروزية فمالوا إلى الخداع و الحيلة و لم يكن لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشيخية مطمئنين هجم النوروزية عليهم وقت صلاة الجمعة فاقتتلوا إلى قبيل العصر فكانت الكسرة على النوروزية و تفرق أكثر العساكر عن نوروز و لحق كثير منهم بشيخ، و كتب إلى دمشق فدقت بشائره و زينوا البلد و كبس أصحاب نوروز

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۳

المعجل بن نعير ليلا فأنجده شيخ و كتب دمرداش إلى الناصر يستنجده و يحثه على المجيء إلى الشام و إلا خرجت عنه كلها فإنه لم يبق بيده منها إلا غزة و صفد و حماة و كل من بها من جهته فى أسوإ حال.

قال ابن حجر فى حوادث سنة (۸۱۳): إنه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر فى العام الماضى لما دخل القدس أن يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا إلى يافا و معهم عجل و صناع و أخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالأجرة فأتاهم عدة و شرعوا فى إزاحة ما بطرقهم من الأدغال و وسعوا الطريق بحيث تسع عشرة أفراس و لم تكن تسع غير فارس و أحضروا معهم دهنا إذا وضعوه على الصخر سهل قطعها، فلما رجع الناصر إلى دمشق عرفه نصحاؤه بسوء القالة فى ذلك فكتب إلى أرغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك و القبض عليهم و على من معهم من الصناع و الآلات و السلاح و الجمال و الدهن فختم على مخازنهم و حملهم و معهم ما

رسم به الناصر.

و فى سنة (۸۱۴) ارتفع الطاعون عن دمشق و ما حولها و أحصى من مات من أهل دمشق خاصة فكانوا نحوا من خمسين ألفا و خلت عدة من القرى و بقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها.

الملك السكير و قتله:

و بقى أمر الشام متقلقلا لأن ملك مصر على هذه الصورة من السخافة و الضعف و هو شارب الليل و النهار تصدر الأعمال عنه مختلة كلها، فقطع شيخ المحمودى و نوروز الحافظى اسم الناصر من الخطبة بدمشق و أعمالها، و نفرت قلوب المماليك من الناصر و صار منهم جماعة (۸۱۴) يتسحبون تحت الليل و يتوجهون إلى نوروز الحافظى و شيخ المحمودى، يأتون الشام من العقبة إلى غزة فتسحب من العسكر نحو الثلث، فقويت شوكة الحافظى و المحمودى و التف عليهما سائر النواب فى الشام و غالب عسكر مصر و كثير من العشير و عربان نابلس، و اجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة و عشرين أميرا. و لما تحقق الناصر ذلك جرد عليهم جيشا فكانوا يتوجهون فى كل يوم من بلد إلى بلد و الناصر خلفهم ليلا و نهارا فأتعب العسكر و انقطع

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۴

منهم جماعة من شدة السوق و التعب. و وصل الناصر إلى اللجون (۸۱۵) فتلاقى و النواب بعد العصر و كان الناصر قد اصطبح و هو لا يعى من شدة السكر فأراد الكبس على النواب فى تلك الساعة فمنعه الأمراء فأبى، فلما رأوا ذلك تسحبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه إلا القليل من العسكر فكبس على النواب فانكسر الناصر و هرب بمن بقى معه من العسكر إلى نحو دمشق، و استولى شيخ و نوروز على أثقاله و خزائن المال و انتصرا عليه.

فلما دخل شيخ و نوروز إلى دمشق طلعا إلى دار السعادة و اجتمع هناك الأمراء و أحضروا القضاة الأربعة و رسموا بأن يكتبوا محضرا بأفعال الناصر بأنه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا محضرا بذلك و شهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس، ثم خلعوا الناصر من السلطنة و اشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ: لا أنا و لا أنت نتسلطن. و لكن اجعلوا الخليفة العباسى هذا هو السلطان، و يكون الأمير شيخ أتابك العساكر و مدبر المملكة فى مصر، و يكون الأمير نوروز نائب الشام و يحكم فى الديار الشامية من غزة إلى الفرات، يولى من يختار و يعزل من يختار، فتراضوا على هذا و حلف جميع الأمراء و تعاهد شيخ و نوروز ثم سلطنوا الخليفة و استمر نوروز الحافظى نائب الشام.

و أما ما كان من أمر الناصر فرج بعد الكسرة التى وقعت له على اللجون فإنه ولى منهزما إلى نحو دمشق، و أرسل إلى شيخ يطلب منه الأمان، و كان نوروز صهر الناصر زوج أخته، فلو طلب منه الأمان أولا- لما أصابه شىء و لكن قصد شيخا فأرسل إليه من قيده و أحضره إلى السجن بقلعة دمشق، ثم إنهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل و دخل عليه بعد أيام جماعة من الفداوية و قتلوه بالخناجر و هو بالبرج بقلعة دمشق، و ألقوه على مزبلة خارج البلد و هو عريان مكشوف الرأس، ليس عليه غير اللباس فى وسطه، و صار الناس يأتون إليه أفواجا ينظرون إليه، و لو أمكن مماليك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة أيام ثم دفنوه «و كانت الدنيا على أيامه حائلة و حقوق الناس ضائعة، و قد خرب غالب البلاد الشامية فى أيامه من تيمور لنك و من عصيان النواب و خربت أوقاف الناس فى الشام، و كم قتل من أبطال و يتم من أطفال، و جرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها» قال المقريزى:

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۵

لم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن و الشرور و الغلاء و الوباء. طرق الشام تيمور فخربها كلها و حرقها و عمل بالقتل و النهب و الأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات و تمزق أهلها فى أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتد الغلاء على من تراجع إليها من أهلها و شنع موتهم و استمرت بها مع ذلك الفتن.

الخليفة السلطان و سلطنة شيخ:

عهد الأمراء الذين قضوا على سلطان الناصر بالسلطنة إلى الخليفة العباسى و كان المسكين أشبه بعامل مخترم من عمال الشراكسة لا عصبية له و لا جيش، و الغالب أن العهد بالسلطنة إليه كان دسيسة سياسية من الأميرين نوروز و شيخ يوم قال الأول للثانى و هما يتفاوضان فيمن يوسدان إليه السلطنة: «لا أنا و لا أنت نتسلطن» فاستولى شيخ على ملك مصر بالفعل و إليه قيادة الجند، و استولى نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك، و بقى الأمر على ذلك إلى سنة (۸۱۶) و قد بلغ نوروز الحافظى أمير الشام أن المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسى فى مصر و تسلطن عوضه، فعزّ عليه ذلك و لم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ و أظهر العصيان و استمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسى على منابر دمشق و أعمالها و لم يخطب باسم المؤيد شيخ و لا ضرب باسمه سكة، و استمر مستأثرا بملك الشام من غزة إلى الفرات.

و فى سنة ست عشرة و ثمانمائة ظهر الخارجى الذى ادعى أنه السفيانى قال ابن العماد: و هو رجل عجلونى يسمى عثمان بن ثقالة اشتغل بالفقه قليلا فى دمشق، ثم رجع إلى الجيدور و دعا إلى نفسه فأجابه بعض الناس فأقطع الإقطاعات و نادى أن مغلّ هذه السنة مسامحة و لا يؤخذ من أهل الزراعة بعد هذه السنة التى سومح بها سوى العشر، فاجتمع عليه خلق كثير من عرب و عشير و ترك، و عمل له ألوية خضراء و سار إلى وادى الياس و بث كتبه فى النواحى بحث الناس على الانضمام إليه فارسهم و راجلهم مهاجرين إلى اللّه و رسوله ليقاتلوا فى سبيل اللّه لتكون كلمة اللّه هى العليا، فثار عليه غانم الغزاوى و جهز إليه طائفة و طرقوه بجامع عجلون فقاتلهم فقبضوا عليه و على ثلاثة من أصحابه

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۶

فاعتقل الأربعة و كتب إلى المؤيد بخبره فأرسلهم إلى قلعة صرخد.

و فى سنة (۸۱۷) خرج المؤيد شيخ من مصر فى العساكر قاصدا إلى دمشق للقضاء على نوروز. و كان قد حصن دمشق و ركب على سورها المدافع من كل جانب، فحاصره المؤيد شيخ حصارا طويلا و نصب حول دمشق عدة مجانيق حتى غلب نوروز و سلم نفسه إلى شيخ فقطع رأسه، و كان نوروز مهابا شديد البأس سفاكا للدماء، ما كان فى عسكر إلا انهزم و لا ضبط أنه ظفر فى وقعة قط، و هو الذى عمر قلعة دمشق بعد تيمور لنك. و مهد المؤيد شيخ الديار الشامية و عزل من عزل و ولى من ولى، و خلع على قانباى المحمدى و استقر به نائب الشام و خلع على إينال الصصلانى و استقر به نائب حلب، و خلع على سودون بن عبد الرحمن و استقر به نائب طرابلس، و خلع على جانى بك البجاسى و استقر به نائب حماة، و لم يلبث هؤلاء النواب (۸۱۸) أن خامروا على الملك المؤيد شيخ و خرجوا عن الطاعة، فجرد إليهم المؤيد ثانيا، و خرج إليهم بنفسه و أوقع معهم فانتصر عليهم، و قبض على قانباى المحمدى نائب الشام و قطع رأسه، ثم قبض على إينال الصصلانى و قتله على صدر أبيه ثم قتل الأب بعد ذلك، ثم ولى جماعة من الأمراء نوابا غير هؤلاء و رجع إلى الديار المصرية، فلم يقم سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب أيضا فجرد إليهم ثالث مرة و خرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه و توجهوا إلى قرا يوسف أمير التركمان فنصب الملك المؤيد نوابا غيرهم ممن يثق بهم، و مهد الأقاليم الدمشقية و الحلبية و قطع شأفة النواب الذين عصوا سلطانه، و من الأحداث فى هذا الدور دخول قرا يوسف التركمانى من العراق إلى حلب (۸۲۱) فى نحو ألف فارس فجفل من كان خارج مدينة حلب بأجمعهم، و اضطرب من بداخل سور حلب و ألقوا بأنفسهم من السور و لم تسكن الحالة إلا بعد رحيله.

هلاك المؤيد شيخ و سلطنة ابنه فى القماط:

هلك الملك المؤيد شيخ سنة (۸۲۴) و كان ملكا جليلا كفؤا للسلطنة وافر العقل مقداما فى الحرب عارفا بمكايدها و حيلها وقت

التقاء الجيوش

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۷

حتى ضرب به المثل فكان يقال: نعوذ باللّه من ثبات شيخ و من حطمة نوروز الحافظى. هذه رواية ابن إياس بيد أن المقريزى يقول: إنه حدث فى أيام هذا الملك أكبر خراب مصر و الشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور و الفتن أيام نيابته بطرابلس و دمشق، ثم ما أفسده فى أيام ملكه من كثرة المظالم و نهب البلاد و تسليط أتباعه على الناس، يسومونهم الذلة و يأخذون ما قدروا عليه من غير وازع و لا عقل و لا ناه من دين. و تولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه المظفر أبو السعادات أحمد و هو فى القماط فخامر نائب دمشق جقمق الأرغونى و نائب حلب يشبك المؤيدى و كذلك بقية النواب فى الشام، و كان الأتابكى ألطنبغا القرشى لما توجه فى العسكر المصرى أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا إلى نحو صرخد، ثم إن الأتابكى ألطنبغا جمع العربان و العشير و رجع إلى دمشق و أوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق، فملك الأتابكى دمشق و قلعتها، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد و سلطنة ابنه أظهر العصيان و أقام بدمشق و حصنها و نصب على سورها المكاحل بالمدافع، و التف عليه العربان و العشير، و بلغ الأمراء بمصر ذلك فخلعوا على ططر و استقروا به أتابك العسكر عوضا عن ألطنبغا القرشى. ثم اتفق الحال على أن الأتابكى ططر يأخذ السلطان معه فى محفة و يتوجه هو و العسكر إلى دمشق بسبب ألطنبغا القرشى و النواب، فخرج ططر من القاهرة و صحبته المظفر أحمد فى محفة و المرضعة معه، و كانت أمه خوند سعادات صحبة ابنها فى المحفة لما خرج إلى الشام لتأمن عليه من القتل، فدخل المظفر إلى دمشق و ألقى الرعب فى قلب ألطنبغا و جقمق فحضر ألطنبغا و فى رقبته منديل فقبل الأرض قدام الملك المظفر و هو فى المحفة، فلما وقعت عليه عين الأتابكى ططر قبض عليه و سجنه بقلعة دمشق، ثم قبض على جقمق و أمر بخنق جقمق و ألطنبغا، ثم قبض على جماعة من النواب و قتل منهم البجاسى نائب دمشق، و قبض على أربعين أميرا من الأمراء المؤيدية و على جماعة من المماليك المؤيدية. ثم خلع المظفر أحمد من السلطنة و تسلطن عوضه بدمشق و خطب باسمه على المنابر و كان معه الخليفة المعتضد باللّه داود، فكان مثل ططر فى هذه الحيلة مثل أكثر عمال هذه السلطنة الشركسية متى اشتد ساعدهم استأثروا بالملك و السلطان.

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۸

وفاة ططر و سلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباى:

هلك ططر بعد أن ملك ثلاثة أشهر و أياما و خلفه فى السلطنة ابنه الصالح محمد و له من العمر نحو من إحدى عشرة سنة و جعل جانى بك الصوفى أتابكه و مدير مملكته، فعز ذلك على بقية الأمراء فوثب برسباى و قيده و سجنه فاجتمعت الكلمة على برسباى و صار صاحب الحل و العقد فتعصب له جماعة من الأمراء و خلعوا الصالح و سلطنوا برسباى (۸۲۵) فكانت مدة سلطنة الصالح ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما. و خلع برسباى على المقر السيفى جانى بك البجاسى و استقر به نائب الشام و استقامت أحواله فى السلطنة.

و فى سنة (۸۳۶) سار الأشرف برسباى فى حملة من مصر قيل أنه غرّم عليها خمسمائة ألف دينار و قصد الشام و سار منها إلى آمد فحاصرها و كانت لابن قرابلك فلم ينل منها طائلا، فمشى بعض الأمراء بالصلح على أن لا يتعدى على بلاد السلطان فحلف صاحب آمد على ذلك. و لما عاد الجيش المصرى عاد صاحبها إلى العصيان قال ابن إياس: و الملك الأشرف هو آخر من جرد من الملوك و خرج بنفسه إلى البلاد الشامية.

توفى الأشرف برسباى سنة (۸۴۱) و قد ساس الملك و نالته السعادة و دانت له البلاد و أهلها و خدمته السعود حتى مات، و فتحت فى أيامه أقاليم كثيرة استرجعت من أيدى الباغين من غير قتال، و فتحت قبرس و أسر ملكها. قال المقريزى:

و كانت أيامه أيام هدوء و سكون إلا أنه كان له فى الشح و البخل و الطمع مع الجبن و الحذر و سوء الظن و مقت الرعية و كثرة التلون و سرعة التقلب فى الأمور و قلة الثبات أخبار لم نسمع بمثلها، و شمل مصر و الشام فى أيامه الخراب و قلت الأموال بها و افتقر

الناس، و ساءت سيرة الحكام و الولاة مع بلوغ آماله و قهر أعاديه و قتلهم بيد غيره. و قد عقد برسباى معاهدة مع فرسان رودس و قهر صاحب مملكة ذى القدرية و كان الذى يثير عليه الفتن فى الشام شاه رخ بن تيمور لنك لأن سفراءه أهينوا فى مصر كما أهين تجاره فى جدة، و أبى عليه صاحب مصر أن يكسو الكعبة المشرفة. و قال ابن إياس: إن الملك الأشرف كان منقادا إلى الشريعة، و كانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب و الفضة و لا سيما

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۸۹

الأشرفية البرسبيهية فإنها من خالص الذهب، و كان عنده معرفة بأحوال السلطنة كفؤا للملك، كثير البر و الصدقات، و له معروف و آثار، لكنه كان عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال محبا لجمعها من المباشرين و غيرهم قال: و كان من خيار ملوك الشراكسة.

و كان تولى رجل عظيم مثل برسباى زمام السلطنة بعد سخافة فرج و ابنه الطفل و سخافة طط و ابنه من أجمل الموافقات. أعاد إلى السلطنة عزها الذى أولاها إياه مؤسسها برقوق. و برسباى لا يقلّ عنه تدبيرا و حنكة و ربما امتاز عنه بأمور.

الملك العزيز يوسف و الملك الظاهر جقمق:

تولى الملك بعد الأشرف برسباى ابنه يوسف و سمى الملك العزيز و له من العمر أربع عشرة سنة و جعل الأتابكى جمقمق العلائى نظام المملكة ثم خلع (۸۴۲) و جعل جقمق سلطانا و لم يملك العزيز سوى ثلاثة أشهر و خمسة أيام. و فى سنة (۸۳۷) ندب السلطان العساكر إلى قتال الأرمن فملكوا مدينة أياس.

و فى سنة (۸۴۳) خرج إينال الجكمى نائب دمشق عن الطاعة و أظهر العصيان على السلطان و كذلك تغرى برمش نائب حلب فعين السلطان لهما تجريدة من مصر، و خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى و استقر به نائب دمشق عوضا عن إينال الجكمى، و خلع على المقر السيفى يشبك السودونى و استقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى فأوقعا مع النائبين العاصيين و أسراهما و قطعا رأسيهما و أرسلاهما إلى القاهرة.

و فى سنة (۸۵۵) طرق صور زهاء عشرين مركبا للفرنج و نهبوا من بها فأدركهم ابن بشارة مقدم العشير و قاتلهم قتالا شديدا حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قتل من الفريقين جماعة و أمسك من الفرنج جماعة و قطع رؤوسهم. و فى سنة (۸۵۶) ركب طوغان نائب الكرك بمماليكه فكبس بعض عرب الطاعة و قاتلهم حتى ظفر بجماعة منهم فأسرف فى قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثر عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانيا فكسروه و قتلوه أسوأ قتلة. و هدأ القطر من الفتن و التجاريد على عهد الظاهر جقمق المتوفى سنة (۸۵۷) و كانت مدة سلطنته

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۰

بالديار المصرية و البلاد الشامية و ما مع ذلك أربع عشرة سنة و عشرة أشهر و كان ملكا جليلا دينا خيرا متواضعا كريما و فعل الخير و قد كانت علائقه حسنة مع سلطان العثمانيين و ملوك آسيا الصغرى.

المنصور و الأشرف و المؤيد و الظاهر خشقدم و الظاهر بلباى و الأشرف قايتباى:

و خلف الظاهر جقمق المنصور فخر الدين عثمان فخلع بعد ثلاثة و أربعين يوما و تسلطن بعده الأشرف إينال العلائى و كانت أيامه أيام لهو و انشراح و قيل:

إنه لم يسفك دما بغير وجه شرعى فعد ذاك من النوادر و توفى سنة (۸۶۵) و خلفه المؤيد أحمد و كان حسن السياسة بصيرا بمصالح الرعية قمع مماليك أبيه عما كانوا يفعلونه من الأفعال الشنيعة إلا أن مدته لم تطل سوى أربعة أشهر و ثلاثة أيام، و خلفه الظاهر خشقدم و كان أهل الدولة يريدون سلطنة جانم نائب الشام، فلما أبطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (۸۶۵) يقول ابن إياس: إن الملك

الناصر أبى سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى هو الثامن و الثلاثون من ملوك الترك و أول ملوك الروم بمصر إن لم يكن أيبك التركمانى من الروم و لا لاجين من الروم فخشقدم أول ملوك الروم بمصر و أصله رومى الجنس.

و سار جانم إلى مصر فأرجعه الملك الجديد إلى الشام، و لما بلغها أرسل السلطان إلى نائب قلعة الشام مراسيم بأن يقبض على جانم نائب الشام فرمى عليه بالمدافع و هو جالس فى دار السعادة فهرب إلى الرها، و استمر فى هياج و عصيان و أرسل عليه سلطان مصر تجريدة بقيادة جانى بك و عين المقر السيفى تنم المؤيدى نائب الشام.

و فى سنة (۸۷۲) تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذى القدرية على حلب فرسم خشقدم للأمير برديك الجمقدار نائب حلب أن يخرج إليه فخرج، ثم التف عليه و أظهر العصيان على السلطان و قصدا التوجه إلى الشام، فأرسل سلطان مصر عليهما تجريدة و انهزم الجند الذين أرسلتهم مصر لقتال شاه سوار و دخلوا حلب و هم فى أسوإ حال، ثم أرسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار أيضا، فاحتال عليهم حتى أدخلهم فى مواضع ضيقة بين أشجار فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسى و النشاب و السيوف و الأطبار فقتلوا من العسكر عددا كبيرا

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۱

و قتل من مشايخ جبل نابلس و عربانه و العشير و التركمان و الغلمان عدد كبير و أشرف سوار أن يأخذ حلب ثم خمدت نائرته. توفى الظاهر خشقدم، و ملكه نحو ست سنين و نصف، و خلفه الظاهر بلباى و خلع بعد سلطنة ستة و خمسين يوما و به زالت الدولة المؤيدية، و خلفه الأتابكى تمربغا و دامت سلطنته ثمانية و خمسين يوما و خلفه الملك الأشرف قايتباى.

مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية:

بعد أن نجت الشام من فتن التتر و تيمور خاصة، و وقائع الصليبيين و ويلاتها عاودتها الأوبئة و المجاعات و الزلازل فزلزلت حلب مرات سنة (۸۰۶) فخرب كثير من معابدها و مساجدها و كانت كثيرة جدا، و فى سنة (۸۲۰) كان بحلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون ألفا و خلا البلد من السكان، و فى سنة (۸۶۳) وقع الطاعون بحلب فأربى من هلك فيها و فى ضواحيها على مائتى ألف إنسان، و فى سنة (۸۷۴) اشتد الغلاء و الفناء بحلب و كانت الحال فى القطر كله على ذلك فجارت عليه الطبيعة و كانت من قبل يجور عليها أمراؤها. و قال الدويهى فى حوادث سنة (۸۷۵): و من أخبار هذا العصر يستدل على أنه فى دولة المقدمين و أحكامهم العادلة توفرت الراحة لأهل لبنان و كثرت عندهم المدارس و الكنائس.

و بينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك أو تشترك معهم أحيانا و قد غضب عليها جبار الأرض و جبار السماء، ظهر لها بل لدولة المماليك الشركسية فى مصر و الشام عدوان لدودان أو حكومتان مسلمتان نجت من شر الأولى و وقعت فى شر الثانية و نعنى بهما دولة حسن الطويل و دولة ابن عثمان.

و دولة حسن الطويل هى المعروفة بدولة الحمل الأبيض (آق قيونلى).

استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة (۸۷۱) و قتل جهانشاه و مرزا حاكم دولة الحمل الأسود (قره قيونلى) و أبا سعيد حفيد تيمور فأصبح ملك العراقيين العربى و العجمى و فارس و كرمان، و أنشأ دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها. أما دولة ابن عثمان فى الروم أى الأناضول فقد قويت على ذاك العهد و لا سيما بعد أن غلب السلطان محمد الثانى حسنا الطويل (أوزون حسن) سنة (۸۷۷).

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۲

فى سنة (۸۷۲) أرسل سلطان مصر و الشام عسكرا على شاه سوار فانكسر كسرة شنيعة و قتل و جرح كثير من أمراء المماليك و نهب أثقال الأمراء و العسكر قاطبة و عاد الذى سلم إلى حلب فى أسوإ حال، و قد قوى أمر سوار و توجه إلى عينتاب و حاصر قلعتها ثم قوى عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام و مصر و كان جيشا جرارا فقوى عزمه على مداهمة حلب، فجرد سلطان مصر تجريدة ثانية

فكسرها عسكر سوار و فى هذه السنين كثر تبديل نواب حلب و فى شبه هذا قال ابن الوردى:

هذى أمور عظام‌من بعضها القلب ذائب

ما حال قطر يليه‌فى كل شهرين نائب

و فى سنة (۸۷۵) تحرك حسن الطويل لأخذ الديار الحلبية و أظهر العداوة لسلطان الشام و مصر و قد طمع فى عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم و هزيمة الشاميين مرتين أمام شاه سوار، و استظهر عليهم فثار السلطان لهذا الخبر و قصد أن يخرج إلى حلب بنفسه خصوصا لما بلغه أن سوارا استولى على سيس و قلعتها، و أرسل السلطان إلى شاه سوار الأمير يشبك الدوادار الكبير و فوض إليه أمور البلاد الشامية و الحلبية و غيرها و جعل له التصرف فى جميع النواب و الأمراء ما خلا نائب حلب و نائب دمشق، ففلّ يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيحان، و قتل منهم جمهور كبير، و أرسل سوار يطلب الصلح من الأمير يشبك و أن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درنده و أنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان إلا- أن يحضر سوار بنفسه و يقابل السلطان، ثم قبض عليه فى قلعة زمنوطو و حمل إلى مصر فقتله سلطان مصر هو و إخوته و أقاربه.

و خمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت فيها أموال و أرواح و قتل جماعة كثيرة من الأمراء و كسر الأمراء ثلاث مرات و نهب بركهم، و انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق و غيرهم، حتى إن الفلاحين طمعوا فى الترك و «تبهدلوا» عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار، و كادت تخرج المملكة عن الشراكسة، و قد أشرف سوار على أخذ حلب و خطب له و فى سنة (۸۷۷) جمع حسن الطويل ملك العراقيين جندا جرارا و زحف

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۳

على الشام و استولى فى طريقه على كخيا و كركر فانتدب ملك مصر لأمير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انتدب لقتال سوار فى السنة الفائتة. و قبض نائب حلب (۸۷۷) على بعض رجال حسن الطويل فى حلب و جماعة آخرين نسبوا إلى المواطأة معه و كانوا يكاتبونه بأخبار المملكة، فأمر نائب حلب بصلبهم، و أرسل الأمير يشبك نائب حلب جيشا إلى البيرة لقتال الطويل فخذل عسكره بعدما عدوا الفرات و طرقوا الأصقاع الحلبية من أطرافها، و تلاشى أمر حسن الطويل فأرسل يكاتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر، و أرسل ابن عثمان ملك الترك قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عونا على قتال حسن الطويل و كان هذا استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر و الشام و صاحب الروم ابن عثمان بحرا و هو يقاتلهم برا و لكنه عاد فى سنة (۸۷۹) يرسل إلى سلطان مصر معتذرا عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه. و فى سنة (۸۸۰) صدرت من برهان الدين النابلسى وكيل السلطان قايتباى قبائح عظيمة بأهل دمشق فرجموه و رموا عليه السهام و أحرقوا داره و أرادوا قتله، فركب نائب قلعة دمشق و تلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا، و قد كادت أن تخرب دمشق فى هذه الحركة بسبب ظلم النابلسى و كان قد طغى على الناس و تجبر.

و كان النابلسى يخرب البلاد الشامية بنفسه و بولده أحمد و قد قال ابن عربشاه فى كتابه إيضاح الظلم و العدوان، فى تاريخ النابلسى الخارجى الخوان؛ و وصف مظالم ابنه بما تقشعر منه الأبدان: و كان طالع النابلسى أحمد الخراب، صادر أهل طرابلس و هتك ستر نائبها و صادر كثيرين فى دمشق، و أراد أن يعرج على حلب فمنعه صاحبها من إتيان ما عمل فى دمشق. أما ابنه فاحتكر الأقوات و طفف الكيل و غش الحبوب و أدار باسمه الطواحين و الأفران و تسبب فى الجزية على المدارس و أنقص معاليم الطلبة و جمع من الأموال ما لا يحصيه العد، و كثر تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصدا حاسبه على الأموال فظهر اختلاسه فنكل به، و أقام الناس عليه الشكاوى كما نكل بأبيه فى مصر لما أتى من المساوئ هناك، و قبض عليهما فى وقت واحد.

و ذهب نائب حلب تمربای فى العسكر إلى التركمان و انكسر عسكر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۴

حلب كسرة عظيمة، و فيها بعث ابن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب على أبيه فجهز نائب حلب معه جندا فقاتلوا عسكر الطويل

فانكسر عسكر حلب و قتل منهم جماعة.

و فى سنة (۸۸۳) خرج سيف بن نعير الغاوى و قرابته عن الطاعة فقاتله نائب حماة فكسر النائب و قتل من عسكره كثير، ثم خرج إليه نائب حلب و أوقع معه ففر منه فتبعه، و قد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك.

مات حسن الطويل ملك العراقين (۸۸۳) و كان انقراض دولة بنى أيوب على يده، و تحرش بابن عثمان ملك الروم يأخذ من ملكه شيئا فما قدر عليه، ثم تحرش بسلطان مصر و جرى له مع الأشرف قايتباى أمور و كان الأشرف يخشى من سطوته لأنه كان ملكا جليلا عاقلا سائسا كثير الحيل و الخداع.

و فى سنة (۸۸۵) كبس عمرو بن غانم فى جماعة من العرب محمد بن أيوب نائب القدس بأريحاء الغور و حصلت فتنة قتل فيها جماعة.

وقعة مشؤومة و أحداث:

كانت سنة (۸۸۵) من أشأم السنين على دولة الأشرف قايتباى فإن يشبك الدوادار كان قد ندب أيضا من مصر لقتال سيف أمير آل فضل، فسار و معه جيش من مصر فى صحبته نواب دمشق و حلب و طرابلس و حماة مع العسكر الشامى و المصرى و غيرهم من العساكر فتوجه إلى الرها و اجتمع معه نحو عشرة آلاف رجل، و كان المتولى أمر الرها شخص يقال له بابندر أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل، فحصر يشبك مدينة الرها و كان يريد بعد أخذها أن يسير لفتح العراق فعاد عليه بابندر و كسر جيشه و أسره مع النواب الذين فى جملته و شتت شمل جيشه و أخذ يشبك و قتله و قتل من أمراء الشام عددا كبيرا و كذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تطأ إلا على جثث القتلى. قال ابن إياس:

و كانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة و كانت مصيبة عظيمة هائلة. و كان يشبك باغيا على بابندر فإنه قصد محاربته من غير سبب و لا موجب لذلك فكان كما قيل:

من لاعب الثعبان فى وكره‌يوما فلا يأمن من لسعته

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۵

اضطربت الشام و مصر من غزوة عسكر يعقوب بن حسن الطويل حلب و دمشق، فإن النواب قاطبة كانوا فى أسره و سحق جيش سلطان مصر و الشام، فأعد السلطان له جيشا آخر قال ابن إياس: و لو لا فعله ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب. و ثار عامة حلب بمحمد بن الصوا نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها فقتلوه و قتلوا حاجب الحجاب بحلب. و فى سنة (۸۷۸) وقعت فتنة بين طائفة الدارية و طائفة الأكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ناس و استنفر كل من الطائفتين من ينتصر لها من العشير، فدخلوا المدينة و نهبوا ما فيها إلا القليل و خربت أماكن و كان الأمر عظيما.

أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين:

و فى سنة (۸۸۹) قتل كثير من أمراء حلب و الشام فى الوقعة التى جرت بين المصريين و التركمان، و فيها خرج نائب حلب و تقاتل مع على دولات أخى سوار و أمده ابن عثمان بجمع كثير من عساكره و وقعت بينهما وقعة انهزم فيها العسكر الحلبى و قتل نائب حلب و جماعة من العسكر الحلبى و المصرى. و كانت هذه الوقعة أول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام و مصر. و لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ركب تمراز هو و أزدمر و العسكر المصرى و توجهوا إلى على دولات فقاتلوه فانكسر هو و عسكره و عسكر ابن عثمان و نهبوا جميع بركهم و أخذوا سناجق ابن عثمان و دخلوا بها إلى حلب و هى منكسة و استمرت الفتن يومئذ بين السلطان و ابن عثمان.

و فی سنهٔ (٨٩٠) استولی جند ابن عثمان علی قلعهٔ کولک من حلب و فی السنین التالیهٔ استولی علی سیس و طرسوس و غیرهما و طمع فی الاستیلاء علی عمالات من الشام فأخذت حکومهٔ مصر ترسل بالتجریدهٔ إثر التجریدهٔ فساءت حال الشام و خربت الأصقاع الشمالیهٔ منها. و لکن الجند المصری أو جیش الممالیک الشرکسی وقع له مصاف سنهٔ (٨٩١) فی أرض حلب مع عسکر ابن عثمان و انتصر علیه و قتل منهم جماعهٔ کثیرهٔ قدروهم بأربعین ألفا و أسر أحمد بک هرسک قائد جند ابن عثمان و من أجل أمرائه و صفدوا عدهٔ من أمرائه فی الحدید. قال ابن طولون: إنه شاع

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩۶

أن بایزید بن عثمان أرسل إلی أهل دمشق نحو ثلاثین اتفاقیهٔ من النصاری و وضع عنهم جزیهٔ ثلاث سنین لقتال أهلها، و کل إشاعهٔ من هذا القبیل کانت تفتح السبیل لنائب دمشق فیجمع من أهلها مالا فإذا صحت استعان بها و الغالب أنها لا تصح. و فی هذه الأثناء (٨٩٢) فحش أمر خضر بک نائب القدس و تزاید ظلمه و سفکه الدماء و أخذ أموال الناس. و فی سنهٔ (٨٩٣) استقر الأمیر دقماق فی نظر الحرمین و نیابهٔ القدس و الخلیل ببدل عشرهٔ آلاف دینار للخزائن الشریفهٔ غیر ما تکلفه لأرکان الدولهٔ قال ابن أبی عذیبهٔ: و کان ذلک من أقبح الأمور و أبشعها فإن ناظر الحرمین ناصر الدین بن النشاشیبی کان من أهل الخیر و الصلاح فأبدل بظالم فاجر.

و فی سنهٔ (٨٩٣) استولی عسکر ابن عثمان علی قلعهٔ ایاس من غیر قتال و بعث ستین مرکبا من البحر مشحونهٔ بالسلاح و العسکر إلی جههٔ باب الملک لیقاطع بها علی العسکر المصری فما تم له ما أراد. و استخلص جیش السلطان باب الملک من ابن عثمان فجاءت العاصفهٔ و غرقت غالب المراکب و من طلع إلی البر من العسکر العثمانی قتله العسکر المصری. قال ابن إیاس: و کانت لهم النصرهٔ علی الجنود العثمانیهٔ و کانت علی غیر القیاس.

و وقعت (٨٩٣) معرکهٔ بین عسکر مصر و عسکر ابن عثمان فی أطراف الولایهٔ الحلبیهٔ قتل فیها من الفریقین ألف و انهزم العثمانیون، و شرع العسکر المصری فی حصار الجند العثمانی فی أذنهٔ، و دام حصارها ثلاثهٔ أشهر قتل فیها من الفریقین خلق حتی استولی علیها عسکر الممالیک، ثم رجع فی السنهٔ التالیهٔ فطمع عسکر ابن عثمان فی أخذ الدیار الحلبیهٔ فأرسل سلطان مصر تجریدهٔ لحفظ مدینهٔ حلب ثم جرد تجارید أخری علی ابن عثمان. قال ابن إیاس: و طال الأمر بین السلطان و بین ابن عثمان فی أمر هذه الفتن فزحف العسکر المصری و العسکر الشامی علی أطراف مملکهٔ ابن عثمان و وصلوا إلی قیساریهٔ و أحرقوها و فتکوا بأهلها و کذلک فعلوا فی کثیر من عمالاته.

و فی سنهٔ (٨٩۴) کان الفناء العظیم و الغلاء الشدید فی الدیار المصریهٔ و الشامیهٔ و مات خلق لا یحصی، و اشتد ظلم نائب القدس علی من اتهم بالتقصیر فی المهم الشریف ببلاد الروم، و قبض علی بنی إسماعیل مشایخ جبل نابلس، و من الناس

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٧

من تسحب و قبض علی من یکون منسوبا إلیه من أقاربه و أصحابه و جیرانه و باع بعض بناتهم بیع الرقیق و تفاحش الأمر. و فی سنهٔ (٨٩۶) حدثت فی حلب فتنهٔ کبیرهٔ بین نائبها و جماعهٔ من أهلها فقتل سبعهٔ عشر من ممالیک النائب و خمسون من أهل حلب ثم أحرق جماعهٔ من حاشیهٔ النائب بالنار، و کادت حلب أن تخرب عن آخرها فأخمد هذه الفتنهٔ قانصوه الغوری حاجب الحجاب بحلب، و ضاق الأمر بالناس لأن الممالیک أو سلاطینهم کانوا کلما أرادوا إرسال تجریدهٔ علی عدو لهم یضربون الضرائب الفاحشهٔ علی الناس و یسلبون أموال التجار و المساتیر.

و فی سنهٔ (٨٩٧) اشتد الوباء بالقدس و دمشق و حلب و بلغ عدد الهالکین بدمشق کل یوم ثلاثهٔ آلاف و بحلب فی کل یوم ألفا و خمسمائهٔ و بغزهٔ فی کل یوم أربعمائهٔ. و بالرملهٔ مئهٔ. و فی سنهٔ (٨٩٨) ثارت فتنهٔ کبیرهٔ بدمشق و رجم أهلها قانصوه الیحیاوی. و فی سنهٔ (٨٩٩) تغلب العربان علی الکرک و الشوبک و حدثت فتن هائلهٔ. و کان فی سنهٔ (٩٠٠) وقعهٔ بین أهل داریا و غوطهٔ دمشق فخرج العسکر و قتل ما یربو علی مئهٔ قتیل، و توفی نائب دمشق و خلت من الحکام و کثر النهب و الفسق و وقع الاختلاف بین القیسیهٔ و

اليمنية، و لما بلغ السلطان قانصوه خرج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين.

وفاة الأشرف قايتباى و تولى ابنه ناصر الدين محمد:

توفى الأشرف قايتباى المحمودى سنة (۹۰۱) و خليفة الوقت بمصر الإمام المتوكل على اللّه أبو العز عبد العزيز العباسى. و كانت مدة سلطنة الأشرف بالديار المصرية و البلاد الشامية تسعا و عشرين سنة و أربعة أشهر و أحد عشر يوما و هو الحادى و الأربعون من ملوك الترك و أولادهم فى العد، و الخامس عشر من ملوك الشراكسة و أولادهم بالديار المصرية، و كان كفؤا للسلطنة وافر العقل سديد الرأى، عارفا بأحوال المملكة يضع الأشياء فى محلها، و لم يكن عجولا فى الأمور، بطىء العزل لأرباب الوظائف يتروى فى الأمور قبل وقوعها، و كان لا يخرج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته، و لا من أبناء الناس المقطعين إلا

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۸

بحكم وفاته. قال ابن إياس بعد إيراد ما تقدم: و لكنه كان محبا لجمع الأموال ناظرا لما فى أيدى الناس، و لو لا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الشراكسة على الإطلاق، و لكنه. كان معذورا فى ذلك، تحرك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار و حسن الطويل و ابن عثمان و غيرهم من ملوك الشرق و جرد عليهم تجاريد و هو ثابت على سرير ملكه و لم يتزحزح، حتى قيل ضبط ما صرفه على نفقات التجاريد التى جردها فى أيام سلطنته إلى أن مات فكانت نحوا من سبعة آلاف ألف دينار و خمسة و ستين ألف دينار خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد. و هذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها. و كان قايتباى أعظم ملك فى المماليك البرجية و كان فى الخارج أعظم ملك فى الإسلام، قال فيه سوبرنهايم فى معلمة الإسلام بأنه كان محتاجا لعمارته و حملاته إلى مواد كثيرة و تحلل فى المالية لم يستطع جباية الخراج إلا بالقوة، و قد انتقده المؤرخون انتقادا شديدا و نرى أن ما عمله من الواجب عليه و أنه أمر مفهوم بذاته فى مملكته ليهيء الأسباب اللازمة للدفاع عنها، و قد أدى قلة النظام فى الجباية إلى خراب مملكة المماليك من أجل هذا كان السلطان مضطرا إلى استعمال الشدة فى جباية الأموال.

و كان مغرما بشراء المماليك حتى قيل لو لا الطواعين التى وقعت فى أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك. و كان مولعا بالبنيان الفاخر خلف آثارا كثيرة فى أرجاء مملكته، و صادر اليهود و النصارى مرتين فى أيامه، و خلفه ابنه ناصر الدين محمد، و بدأت أمارات الضعف فى أعصاب المملكة لصغر سنه و كان أبوه لا يريد سلطنته بعده، و لكن عاجله النزع فعمل الأمراء من عند أنفسهم، و كان الفساد مستشريا فى مصر منذ تولى، و كثيرا ما كان السلطان يتخوف على نفسه من الأمراء فيحضر لهم المصحف العثمانى و يحلفهم و قد حلفهم أربع مرات و كانت أيمانهم كاذبة فاجرة.

و كان هذا الضعف ينال الشام منه قسط عظيم حتى خرب و لا سيما شماله لكثرة غارة الأعداء. قال ابن طولون فى حوادث سنة (۹۰۶) وقفت حال الناس و قطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة و بنى رام خارج دمشق و أطرافها و كثر الظلم و الاختلاف و الناس مرتقبون الفتن. و فى هذه السنة وقع قتال بين الأمير على الشهابى فى جماعة من وادى التيم و رجال الشوف و بين الأمير بكر

خطط الشام، ج۲، ص: ۱۹۹

الشهابى عمه فى مرج الشميسة فنال ابن الأخ من عمه و قتله بيده مع ثلاثين من أصحابه و سار إلى حاصبيا فالتقاه بقية الأهلين و الأمراء و ساس الرعية أحسن سياسة.

الملوك المتأخرون و آخرهم الغورى:

توفى الناصر محمد و كانت مدة سلطنته نحوا من سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة عشر يوما و كانت أيامه كلها فتنا و شرورا و كان فى ذاته سيء التدبير.

و تسلطن بعده الملك الظاهر قانصوه و لم تطل مدته أكثر من سنة و ثمانية أشهر و ثلاثة عشر يوما، و كان ملكا مسلوب الإرادة مع الأمراء و تسلطن بعده الأشرف جان بلاط بن يشبك و كانت مدة سلطنته ستة أشهر و سمى بالملك العادل طومان باى من قانصوه أبى النصر الأشرفى قايتباى و فى سنة (۹۰۶) تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغورى.

و فى سنة (۹۰۳) عصا اقبردى الدوادار و ذهب إلى الشام فاستولى على غزة، ثم جاء دمشق و حاصرها فلم يقدر عليها فنهب الضياع التى حولها و خرب غالبها و حاصر حماة و أخذ منها أموالا لها صورة و حاصر حلب شهرين و أحرق من قراها، و كان إينال السلحدار يومئذ نائب حلب و كان من عصبة أقبردى، فقصد أن يسلمه المدينة فرجمه الحلبيون و طردوه من بلدهم و حصنوها بالمدافع على الأسوار، ثم هرب أقبردى إلى على دولات بعد أن جرد السلطان حملة عليه. و فى هذه السنة زحف ابن عثمان على الشام و أرسل إلى نائب حلب يقول له: اعزل ابن طرغل فأجابه إلى ما طلب، و كثر تبديل النواب و ساءت الحال و بطلت التجارة بين مصر و الشام. و لما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصرى طمع فى أخذ الديار الحلبية فأرسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب، ثم تفاوض صاحب الروم و صاحب مصر و الشام فى الصلح و حمل ابن عثمان إلى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استولى عليها، فسلمها إلى السلطان فى القاهرة. و فى سنة (۹۰۴) أغار كرتباى الشركسى نائب دمشق على عرب هتيم بأرض الزرقاء و كان كرتباى على رواية الغزى حسن السيرة بالنسبة إلى غيره من الأمراء. و جرى الصلح بين الأمراء المصريين

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۰

و بين أقبردى الدوادار، و كانوا انتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد أن ساءت الحال بفتنته.

و فى سنة (۹۰۵) خرج قصروه نائب الشام عن الطاعة و أظهر العصيان و استولى على قلعة دمشق و أموالها و طرابلس و قلعتها، و كان السلطان حاول أن يولى قصروه الشام فاختفى السلطان فى الفتنة و خلفه فى الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط، فلما تسلطن السلطان أرسل إلى قصروه فى الشام بالبشارة فلم يزدد إلا عصيانا. و فى هذه السنة ولى نيابة الشام قانصوه المحمدى فأتى إلى البقاع فهرب منه مقدمها ابن حنش، و جرت بينهما أمور. ثم وقعت الفتنة بين أهل دمشق و نائبها فأحرق حى الشاغور و جرت بينهم غوائل ثم وقع الصلح عن يد ابن الكسيح شيخ الإسلام بدمشق.

و فى سنة (۹۰۷) هجم العربان على أطراف دمشق و نهبوا مغلا كثيرا و خربت بلدان، ذكر هذا ابن طولون.

سلطنة طومان باى:

و انتدب السلطان أحد المقدمين إلى الكرك لقتال بنى لام و اجتمع السلطان بالأمراء و تشاوروا فى أمر قاصروه نائب الشام فأشاروا عليه بأن يرسل قاصدا، و كان قصروه قد استولى على غزة و أعمالها و القدس و غير ذلك من النواحى، فعزم السلطان على إرسال تجريدة لنائب الشام، و كان دولات باى نائب حلب معه فى شق عصا الطاعة، و لكن لم تنفع التجريدة و أعلن طومان باى سلطنته بالشام و تلقب بالملك العادل، و كان العسكر المصرى نزل بسعسع بالقرب من دمشق فركب قصروه نائب الشام فى نفر قليل من عسكره و أظهر أنه طائع فاطمأن له العساكر، و كان غالب الأمراء من ندمائه، و لما حضر إليهم دخل معهم إلى دمشق و اجتمعوا فى القصر الأبلق، ثم ثارت فتنة بالقلعة، و أمر قصروه و طومان باى بالقبض على جماعة من الأمراء و سجنهم.

و حضر إلى دمشق دولات باى بن أركماس نائب حلب الشهير بآخى العادل و تعصب لطومان باى و تكلم فى سلطنته فأحضر قضاة الشام و كتب

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۱

صورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة و بايعوا طومان باى من غير خليفة و تلقب بالملك العادل أبى النصر و أحضر له شعار الملك فأفيض عليه.

فلما تم أمره عين لأتابكية مصر قصروه نائب الشام و عين لنيابة الشام دولات باى نائب حلب و عين لنيابة حلب أركماس بن ولى الدين و هكذا عين سائر نواب الشام و خطب باسمه على منابر دمشق. ثم ذهب إلى مصر مع من أطمعهم بالمناصب من الأمراء و كان تقدم إلى من فى مصر من الأمراء فخلع عليهم و نصبهم قبل حضوره و تسلطن فيها.

و فى سنة (۹۰۸) حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة و قتل أناس و ضرب النائب على أهل دمشق مالا لأجل مشاة تخرج معه إلى حلب تجريدة لقتال الخارجى حيدر الصوفى و ذلك مع وقوف حال الناس من الظلم و كثرته- قاله ابن طولون و زاد أن ورد المرسوم الشريف من مصر بأن يرمى على كل سكرة دراهم ليستفاد بها على إزالة ضرر العرب بالحجاز قال: و هذه رمية أخرى غير الرمية التى أخذت بحجة حيدر الصوفى.

و فى سنة (۹۰۹) جهز ابن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر ابن بشارة فى قرية شيحين فقتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين.

و من الأحداث فى هذه الأيام تجهيز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجى الدوادار سنة (۹۱۰) إلى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز و قتل معه نحو ثلاثمائة شخص و كانت الوقعة بينهم و بين فخر الدين بن معن أمير الشوف. قال ابن طولون: فى حوادث هذه السنة: اتفق رأى المباشرين أن تعرض المشاة من كل حارة بدمشق و كذلك الجند إرهابا للعدو فعرض عليهم غوغاء ميدان الحصا و القبيبات بالميدان الأخضر و ازداد طغيان زعرهم (أحداثهم) و علموا عجز أرباب الدولة ثم قام بالشاغور أزعرهم أبو طاقية و جمع زعر الغوغاء و ما حولها من القرى و زعربقية حارات دمشق و أخذوا من أموال الناس شيئا كثيرا و أعاره الأمير أركماس شيئا كثيرا من آلة الحرب ثم خرجوا أطلابا أطلابا بترتيب يعجز عنه أرباب الدولة حتى عرضوا بالميدان الأخضر فاستقل الترك بأنفسهم و لم يعد لهم حرمة ثم ركب متسلم دمشق و دار بهم حول

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۲

المدينة و بين يديه مناد و ينادى بالأمان و ترك حمل السلاح. و كثرت بعد سنة (۹۱۱) الرميات و الغرامات على حارات دمشق فهاج الناس و صعد أهل القبيبات إلى مأذنة الجامع الأموى و كبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين.

و اشتد الجور سنة (۹۱۶) فى لبنان فهجر أكثر الناس مواطنهم إلى البلدان البعيدة و من اللبنانيين من هاجر إلى قبرس، ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضيق العظيم الذى حصل فيها بسبب الجراد و كثرة الضرائب التى فرضها الحكام على الرعية.

القضاء على مملكة ذى القدرية و طبيعة دولتى المماليك البحرية و البرجية:

و أهم ما وقع من الحوادث التى عجلت فى سقوط الشام بعد ذلك فى أيدى العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة (۹۲۱) على مملكة ذى القدرية التركمانية و كانت عاصمتها مرعش تارة و (البستان) تارة أخرى، و استولت على بهسنى و ملاطية و خربوت، قامت هذه الدولة سنة (۷۸۰) و تولاها عشرة أمراء أولهم زين الدين قرهجه و آخرهم علاء الدولة بن سليمان الذى قتله سنان باشا و أخاه و بعض أولاده فى المعركة و استولى على ديارهم باسم سلطان العثمانيين، فبذلك سقطت الأنحاء الشمالية من الشام فى يد عدوة الدولة الشركسية، و كان أمراء ذى القدرية يغزون الشام حتى استولوا على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق. و منها ذهب سلطان مصر إلى دمشق سنة (۹۲۲) فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهبا و فضة، و فرش برسباى تحت حافر فرسه الشقق الحرير و خرج إلى المصطبة التى يقال لها مصطبة القابون و رسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها و أقام بها تسعة أيام. و كان ذلك الذهب المنثور شؤما على السلطان و مملكته انتثر بعدها سلك ملكه.

هذه أهم الأحداث التى حدثت قبيل دخول العثمانيين إلى الشام و خروجها من ملوك الشراكسة بعد أن ملكوها بسلطنة الأتابك برقوق (۱۳۹) سنة و كان المماليك البحرية ملكوها منذ سنة (۶۵۱) ه و الاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية و

دولة الشراكسة فكلتاهما أعجميتان، و لكن القائمين بهما لا يخرجون فى التخاطب و التكاتب و الأصول عن اللغة العربية

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۳

و الشريعة الإسلامية، و قد كان من تينك الدولتين المماليك و الأتراك و الشراكسة رجال عظام مثل بيبرس و قلاوون و ابنه و بيبرس الجاشنكير و قايتباى و برسباى و لكن جاء بعدهم ملوك ممخرقون و صبيان آل إليهم الأمر فأفسدوه أو من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة. و قد وفقت هذه الدولة أى المماليك البحرية و البرجية لإخراج بقايا الصليبيين من الساحل فنجحت فى التنكيل بهم حتى دثرت بقاياهم، و لكنها لم تقو على إنقاذ الشام من غارات التتر و المغول فقاست منهما ألوان العذاب و الخراب.

و كان سلطان مصر و الشام متى دهم الشام مداهم يعتصم بمصر و ينعم و يلذّ فى قصوره، و يكتفى بإرسال تجريدة قد تكون ضعيفة، أو يصدر أمره لنائب حلب أن ينجد دمشق و لنائب دمشق أن ينجد حلب مثلا، و لا يخرج الأعداء من هذه الديار إلا إذا أرادوا، و أتوا على الناطق و الصامت و ألحقوا العامر منها بالغامر، و باتت أمور السلطنة ألعوبة فى كثير من الأدوار بأيدى ضعاف الأحلام من أسرة ذاك المملوك فتهيأت السبل لقيام دولة أخرى و هى الدولة العثمانية.

أما قانصوه الغورى آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام، و من حكمه انتقلت إلى العثمانيين، فلم يكن بالذى ترجح حسناته على سيئاته، بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح و طال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت أيامه فتنا و غوائل و مخاوف، حتى قضى اللّه فى دولته بأمره، و استطال عليها سلطان أقوى.

و لقد رأينا فى دولة المماليك البحرية و البرجية أو التركية أو الشركسية عجائب القوة و عجائب الضعف، رأينا منهم أغلب الذى طالت أيامه يعمل كل نافع للقطرين، و رأينا الملك المأمون منهم يتولى الملك أشهرا و لا يسجل له الفوضى و سوء الإدارة، و قليل ممن لم تطل أيامهم من هؤلاء الملوك الصعاليك من جمع فى نفسه أدوات السياسية و الإدارة، و كان النواب فى هذه الحقبة كما يفهم من ابن طولون إذا ظفر نائب دمشق أو أحد قواده ببعض الناشزين عن الطاعة من العربان تزين دمشق سبعة أيام على غلاء النفط و سوء حالة البلاد و كانت نفقة أحد النواب بدمشق أى واليها كل يوم ألف دينار. و قال فى

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۴

حوادث سنة (۹۰۹) أمر النائب بإنهاء النائب و النداء بصيام ثلاثة أيام و التوبة و الخروج الى الصحراء و زيارة المزارات لينقطع الوباء قال الشافعى المولوى ابن الفرفور: قد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسنا. فلم يسهل على النائب ذلك و أسمعه ما يكره.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۵

الدولة العثمانية «من سنة ۹۲۲ ه إلى ۱۰۰۰ ه»

حالة الشام قبيل الفتح العثمانى:

كانت الشام أخت مصر فى آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأبلمة، فيستبد المتغلبة من المماليك بالأحكام بحسب ضعف صاحب مصر و قوته، و الصالح فى نوابها و ملوكها قليل. و لم يسعد القطران بعد فتنة تيمور لنك بسلطان عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسد خللها، و يزيح بحسن الإدارة عللها. و شغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل و شاه سوار و ابن عثمان من الملوك فى شمالى المملكة و شرقها يجردونها فيجردون بها الرجال و الأموال، و قد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين و المغول و ما أعقبها من الأوبئة و الزلازل و المجاعات أعرى من مغزل، و أزمنت الفوضى فى أرجائها فساءت حالتها الاقتصادية و الاجتماعية.

أحسّ أكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون إلى الدولة العثمانية، و كانت إلى الشام و مصر أقرب الدول

الإسلامیة الکبری، هذا و الدولة العثمانیة إذ ذاک فی إبان شبابها، و قد وقرت فی النفوس منذ أسس بنیانها السلطان عثمان الترکمانی سنة (۶۹۹) علی أنقاض دولة السلجوقیین، و لا سیما بما قام به محمد الثانی فاتح القسطنطینیة من الغزوات و الفتوحات، و توفق له من فتح عاصمة الروم البیزنطیین بعد أن حاول کثیر من ملوک العرب و غیرهم ذلک فلم یفلحوا لبعدها عن مواطن قواتهم، و لقوة سلطان القسطنطینیة فی تلک العصور، و الأمور مرهونة بأوقاتها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۶

هذا و الناس لا فرق عندهم إذا استولی علیهم الترک الأعاجم، و قد حکمهم أجناس من المماليک زمنا طویلا ما داموا کلهم غرباء یستعبدونهم و ینالهم من ضعفهم ضعف، و من قوتهم بعض راحة و سعادة، و لا فرق فی الإسلام بین عربی و أعجمی فی الحقوق و الواجبات، و أقصی ما یتطلبه الناس سلطان عادل عاقل فی الجملة، و کانت الأمة تفنی بأسرها فی سلطانها خلال القرون الوسطی.

مقاتل الغوری و مقدمات الفتح:

کان السلطان قانصوه الغوری آخر من ملکوا الشام من الشراکسة علی شیء من الدهاء، أعدّ للأیام عدتها و أدرک ما یحیق بمملکته من خطر ابن عثمان، و لکن ما ینفع التدبیر إذا کانت المعنویات فی حکومته مریضة ضئیلة، و القوی فی جیشه غیر موحدة، و داء الهرم قد استحکم منه و من دولته. کان فی الثمانین من عمره یوم صحت نیة السلطان سلیم العثمانی، رجل الإرادة القویة و الجیش الجرار، علی أخذ الشام و مصر، و القضاء علی دولة المماليک. و کان الغوری علی روایة کامل باشا لا یعرف علی من یعتمد علیه من رجاله و أمرائه غریب الأطوار فی ذاته، فکان ذلک من دواعی خروج الأمر عنه و وقوع الخلل فی جیشه، و کان یعتقد بعلم الجفر، و قد ذکر أحد أدعیاء هذا العلم أن الشر یأتیه من رجل یبدأ اسمه بحرف السین، فصار یتطیر من کل من یبدأ اسمه بذلک الحرف، و منهم سیبای کافل الشام.

ترجم للغوری أحد من عاصروه من الفرنج بقوله: «إنه من مماليک الغور فی أفغانستان، کان حاجب الحجاب فی حلب سنة (۸۹۳ ه ۱۴۹۰ م) و رأس محکمة عسکریة و وفق إلی قمع ثورة فأبان فیها عن کفاءة، و کان وزیرا لما حنق المماليک علی طومان بای و اختاره للملک، فتردد کثیرا فی قبوله لأنه کان تجاوز الستین من عمره و أخذ مکوسا و ضرائب من کل إنسان حتی من البوابین و ضرب نقودا زائفة أضرب بالتجارة الداخلیة و الخارجیة، فاستلزم عمله حنق الناس و انتقاد من عاصروه فعجل بخراب المالیة و ذلک لوضعه رسوما فاحشة علی البضائع، و علی البضائع التی تمر بأرضه و استعمل جزءا من هذه الضرائب

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۷

فی إقامة القلاع و لا سیما فی حلب و أنشأ طرقا و آبارا فی الحجاز. و کانت المکوس التی تجبی فی الموانی و رسوم البضائع الصادرة من الهند إلی أوروبا من طریق مصر آتیة من عدن و جدة و السویس و إسکندریة، أو من طریق الشام ذاهبة من البصرة و حلب من أهم واردات المملکة. و تفادیا من أداء هذه الرسوم الفادحة حرص البرتقالیون علی أن یکشفوا طریقا فی البحر إلی الهند علی ید ملاحهم فاسکو دی غاما و کتب لهم النزول إلی شاطئ الهند و بعثوا إلی أوروبا توا بسفنهم النقالة الکبری عن طریق رأس الرجاء الصالح، فتحاموا أداء المکوس الفاحشة التی کانت تؤخذ فی الموانی المصریة عن البضائع التی ینقلونها و عن نفقات النقل فی البر فاستفاد البرتقالیون من ذلک، و لم یسع الغوری أن یسکت عما یلحق المسلمین من مظالم البرتقالیین فحارب الأسطول البرتقالی غیر مرة فی بحری الهند و الأحمر و نال منهم و نالوا منه قلیلا. قال: و ساءت حالة الغوری حتی لم یستطع أن یدفع رواتب المماليک فی أوقاتها بحیث فقدت حکومته کل معاونة قویة، و کانت سیاسته الخارجیة تعسة لأنه اضطر أن یحالف عدوه اللدود إسماعیل شاه خوفا من السلطان سلیم العثمانی و لم یخف ذلک عن السلطان سلیم عرفه بواسطة جواسیسه اه.

و بینا کان قانصوه الغوری یغوص فی أحلامه و أوهامه، کان سلیم الأول و هو التاسع من آل عثمان الملقب بیاوز أی الشدید الجبار

يجيش الجيوش و يعدّ الزحوف و يستجد السلاح، فبدأ بقتل الشيعة فى تخوم الأناضول و كانوا أربعين ألفا، ثم زحف سنة (۹۲۰) على الشاه إسماعيل الصفوى صاحب شروان و أذربايجان و تبريز و العراق العجمى و فارس و كرمان و ديار بكر و بغداد و باكو و دربند و خراسان و انتصر فى وقعة جالديران المشهورة، و انهزم عسكر الشاه إسماعيل شر هزيمة و جرح الشاه فى المعركة و فتح السلطان سليم ديار بكر و الأقاليم الكردية، فهب قانصوه الغورى من مصر لإنجاده فيما قيل و الأرجح أنه هبّ للدفاع عن مملكته. و كان نائب سلطان مصر على البيرة رجلا اسمه علاء الدولة بن سليمان (و هو صاحب مرعش و البستان) فلما اجتاز السلطان سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوى أمر علاء الدولة أهل مرعش أن لا يبيعوا شيئا لعسكر سليم، فهلك كثير من رجالهم و دوابهم جوعا، فشق ذلك على

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۸

السلطان و شكا ما وقع له إلى الغورى فقال: إن علاء الدولة لم يصدر عن أمره و أنه عاص عليه و أنه إذا قتله يكون له شاكرا، و كتب الغورى إلى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله، فأحس سليم بأن الغورى يكيد له و زاد علاء الدولة بأن سرق بعض أحمال من ذخائر عسكر سليم، فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة و أولاده و أرسل رؤوسهم إلى الغورى. بمعنى أن سنان باشا استولى سنة (۹۲۱) باسم السلطان سليم على مملكة ذى القدرية التى كانت فى مرعش و البستان و ملطية و بهسنى و خربوت و ما إليها، و كانت الدولة العثمانية جعلت حكومة أبناء رمضان التركمانية التى نشأت سنة (۷۸۰) فى جهات أذنة و طرسوس و سيس تحت ظلها، و كانت علائق أمرائها الثلاثة الأول مع دولة المماليك الشركسية أصحاب الشام و مصر مسترخية، ففتحت السبل و المنافذ إلى الشام و صارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها و على خط رجعتها.

و لما أضعف السلطان سليم مملكة كبرى و هى مملكة الصفوى، و قضى على مملكة صغرى و هى مملكة ذى القدرية، طمحت نفسه إلى فتح الشام و مصر و نزعهما من دولة المماليك ليضمهما إلى مملكته فتدخل فى طور العظمة و تكون ممالك فى مملكة، و كان أبوه و جده من قبله يقاتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك، و يدفعان أمراء الأطراف أمثال أمراء ذى القدرية و غيرهم إلى مجاذبة ملوك الشراكسة حبل السلطة على التخوم. و كان أولئك الأمراء كثيرا ما يسيرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير، لعلمهم بأن إثارة العثمانيين لهم على المماليك لا لخيرهم بل لينتقموا بهم ثم ينتقموا منهم و يضعفوهم و يضعفوا بهم.

صلات العثمانيين مع المماليك و وقعة مرج دابق:

و ذكر مؤرخو الترك أن الصلات السياسية بين ملوك الشراكسة أصحاب مصر و الشام و بين سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح، و لما سمت همة السلطان سليم إلى فتح الشام و مصر (۹۲۲) أرسل جيشا إلى ديار بكر يورّى بأنه يريد قصد إيران، و لأدنى سبب أخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب، فبعث قانصوه الغورى بعض رجاله يتوسطه فى الصلح فقتل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۰۹

السلطان سليم رجال السفير و أراد أن يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه و شفع فيه، و قال له: إن ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون، فاكتفى السلطان بحلق شعر السفير و لحيته، و أركبه على حمار أعرج أجرب إلى صاحبه الغورى جزاء ما قدمت يداه فيما يقال من امتهان الغورى رسل السلطان العثمانى.

و ترددت الرسل بين السلطانين فى مرج دابق أولا، و كان ابن عثمان فوض إلى رسله أن يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثنى بذلك عزم الغورى عن القتال، و قد أحضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء مملكته يجيزون له قتل الشاه إسماعيل الصفوى، و أرسل يقول للغورى: أنت والدى و أسألك الدعاء لكن لا- تدخل بينى و بين الصفوى- بينا الأمر على ذلك و قد خلع الغورى على قصاد ابن عثمان الخلع السنية، و أرسل إليه ابن عثمان يطلب منه سكرا و حلوى و أرسل له منها مائة قنطار فى علب كبار عدا الهدايا و التحف، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة و كسره شر كسرة فى وقعة دامت من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر، فقتل من عسكر

ابن عثمان و من عسكر الغورى خلق كثير، فلما تحقق الغورى أنه غلب أصابه للحال فالج أبطل شقه و أرخى حنكه، و استعد للركوب فمشى خطوتين و انقلب عن الفرس إلى الأرض و فاضت روحه من شدة قهره، و أكثر المؤرخين على أنه لم تظهر جثته فى المعركة. و يقول بعض مؤرخى الترك: إن جاويشا من الجيش العثمانى أمر بأن يبحث عن جثة قانصوه الغورى فقطع رأسه و قدمه إلى السلطان سليم، فامتعض منه السلطان و أمر أن يضرب عنقه لتزلفه إلى مولاه بقطع رأس الملك المقتول، و لو لا أن الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاويش مكتفيا بعزله.

و ذكروا أن الغورى قد خانه لأول الأمر ثلاثة عشر ألفا من جيشه، و امتنعوا عن الحرب عند الصدمة الأولى و أبوا قتال الأتراك، و من الأمراء الذين كانوا موالسين على الغورى و ضلعهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب و جان بردى الغزالى نائب حماة، فإن السلطان سليما كان فاوضهما

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۰

سرا ليولهما الشام و مصر على ما قيل إذا ساعداه على فتح هذا القطر، فلما انهزمت ميمنة الغورى و قتل الأتابكى سودون العجمى و ملك الأمراء سيباى نائب الشام، انهزم جانب كبير من العسكر و انهزم خير بك و هرب فانكسرت الميسرة و كان ابن معن و أمراء الساحل صحبة خير بك و الغزالى فقال الأمير ابن معن لمن معه من رجاله و قومه: دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه. و لما اضطرمت نار الحرب فرّ الغزالى و خير بك إلى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من أمراء الديار الشامية و بقى الغورى بعسكر المصريين أى عسكر الشام و المغول عليهم من أمرائها من الشراكسة و الوطنيين قد استمالهم السلطان فقاتلوا فى صفوفه بدلا من أن يقاتلوه، و نائب الشام سيباى الذى كان يتطير منه الغورى لأن اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه فى المعركة يدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم.

قوة الغالب و المغلوب:

اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين و المماليك فأغلبهم على أن ابن عثمان كان فى أربعين ألف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة، و روى نامق كمال أن العثمانيين كانوا فى ثمانين ألفا و ثمانمائة مدفع، و أن الغورى كان فى خمسين ألفا لا مدافع لهم. و ذكر الغزى أن الغورى أتى من حلب إلى دابق فى ثلاثين ألفا و قال ابن طولون: إن السلطان سليما وصل إلى دمشق فى عساكر عظيمة لم تر العين مثلها يقال: إن عدتها مائة ألف و ثلاثون ألفا. و ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليما أمر أن تعد القتلى من الفريقين فى مرج دابق فكان قتلى الشراكسة ألف نفس و قتلى الروم أى الترك أربعة آلاف. و كان فقدان المدافع من جيش الغورى و خيانة ربع جيشه و عدم ثقته بأحد من دواعى القضاء عليه و على سلطانه، و أهم ذلك خيانة بعض قواده و امتناع الأمراء عن الدفاع فى صفوفه أو يظهر لهم الغالب!

قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر، و ما قتل من رجال الغورى، ثم تحول من مرج دابق و دخل حلب من غير ممانع، و نزل فى الميدان الذى كان السلطان الغورى نزله، و انتشر خبر الهزيمة و قتل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۱

الغورى فى أنحاء الشام، فوثب الناس بعضهم على بعض و نهبوا الزروع و أخذوا الأموال، و اضطربت العمّال أيما اضطراب، و نهبت حارة السمرة بدمشق و قتلوا جماعة و أخذوا أموالهم، و كذلك فعلوا بتجار الفرنج و نهبوا أموالهم، و كانت فتنة هائلة و نهبوا بيوت أعيان دمشق من القضاة و التجار، فخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك و بسبب فتنة ابن عثمان و فساد الأحوال بمصر و الشام و توجه أمراء الغورى و عسكره المهزوم إلى حلب، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة، و قتلوا جماعة من العسكر و نهبوا سلاحهم و خيولهم و أثقالهم، و وضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب، و جرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما

قال ابن إياس. و كان بين أهل حلب و المماليك السلطانية إحن منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة إلى حلب فنزلوا فى بيوت أهلها و اغتصبوا نساءهم و أولادهم، و آذوا الحلبيين كل الإيذاء، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم.

و على الجملة فإن ما نال السكان أواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المالكة و فتح القلوب للسلطان سليم الأول، و خدمه كثير من أهل الشأن قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالأخبار تترى عن مقاتل الغورى و مواطن الضعف من دولته، و قد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ أواخر القرن الماضى فكان ذلك من العوامل القوية فى الفتّ فى عضد الجيش الشركسى و إمالة القوة إلى الجيش التركى ففتحت الشام فى وقعة واحدة و لم يبك على دولة المماليك إلا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات و ينالون مظاهرها و يسلبون نعمة الأمة.

دخول السلطان سليم حلب و دمشق:

وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله أهلها بالمصاحف و الأعلام يجهرون بالتسبيح و التكبير و يقرأون «و ما رميت إذ رميت و لكن اللّه رمى» و طلبوا منه الأمان فأمنهم و أنعم عليهم ثم أخذ يجمع مالا- من التجار سماه «مال الأمان» و رأى خلفاء أرباب الطرق الصوفية فسأل عنهم و هم يحملون أعلامهم و يرحلون إلى دمشق و أشار عليه خير بك بأن يقتلهم و كانوا نحو ألف نفس، و استسلم

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۲

نائب قلعة حلب فأرسل السلطان إليه شخصا من جماعته أعور أعرج و فى يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال إنه أخذ حلب بأضعف جنده. و طلع السلطان سليم إلى القلعة فرأى فيها ما أدهشه من مال و سلاح و تحف و كان بها على رواية ابن إياس نحو مائة ألف ألف دينار و ثمانمائة ألف دينار. و قال مؤرخو الترك: إنه كان فيها مليون دوكا. و رأى السلطان سليم من أنواع الأسلحة و الزينة ما جمعه الغورى من وجوه الظلم و الجور و التحف التى أخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر و الشام الأيوبيين و ذلك عدا ما كان فى بيوت الأمراء و غيرهم من رجال الدولة. و وجه ابن عثمان الجيش إلى مرعش ففتحها و ملك معها ثلاث عشرة قلعة من مملكة الغورى و أحرز ما فيها من مال و سلاح. و ذكروا أن العثمانيين عثروا فى خيمة الغورى فى مرج دابق على مئتى قنطار من الفضة و مئة قنطار من الذهب و فى رواية أن هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة و قيل: إنه وجد فى قلعة حلب ثلاثمائة ألف ثوب كامل.

و أقام السلطان العثمانى فى حلب ثمانية عشر يوما و بايعه أهلها بحضور و اليها خير بك، و توجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على اللّه العباسى، و كان جاء مع الغورى من مصر و معه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة و جلس بين يديه و خلع عليه و أنعم عليه بمال ورده إلى حلب، و وكل به أن لا يهرب أى إنه أسره بأسلوب لطيف، و صلى الجمعة فى الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثمانى لقب خادم الحرمين الشريفين فكان ذلك كما قال راسم فأل خير بأن السلطان سليما سيكون صاحب دولة إسلامية كبرى. قال: و كان خيره باى (خير بك) أحد أمراء الغورى استأمن السلطان العثمانى لما تقهقر جيش مصر فأنقذ نفسه. و ولى السلطان على حلب قراجا باشا. و سار فى جيشه إلى حماة و حمص ففتحت له أبوابهما، و بايعه أهلهما على الطاعة كما بايعه أهل طرابلس و القدس. و جاء السلطان دمشق فاستقبله أهلها و رضوا به ملكا عليهم، فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة. قال ابن طولون: «و فى يوم الخميس الثامن و العشرين شعبان (۹۲۲) وصل متسلم ملك الروم (الأتراك) إلى القابون الفوقانى و اسمه مصلح ميزان، ثم وجه من يكشفون له هل يسلم أهل دمشق أم يقاتلون،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۳

و قد كانت اتفقت أكابرها و مشايخ الحارات على تسليمها فسلموها. و فى يوم الجمعة التاسع و العشرين منه دخل نائب دمشق الجديد

من قبل ملك الروم و اسمه يونس باشا، و خطب فى هذا اليوم فى الجامع الأموى المولوى ابن فرفور باسم ملك الروم و كذلك فى سائر الجوامع، ثم تتابع دخول العسكر، و فى يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم إلى المصطبة السلطانية بأرض برزة فى عساكر عظيمة يقال: إن عددها مائة ألف و ثلاثون ألفا و عزل عن نيابة دمشق يونس باشا و ولى مكانه أحمد بن يخشى. و فى يوم الإثنين العشرين من ذى القعدة و هو خامس شهر كانون الأول و رابع الأربعينيات الشتوية سافر ملك الروم من دمشق إلى مصر لأخذها من يد الشراكسة.

مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجديد و تغير الأحكام:

قابل الأمراء السلطان سليما و منهم الأمير فخر الدين المعنى الأول أمير الشوف فخطب أمامه بالنيابة عن أمراء البر خطبة جميلة استمالت بها قلب الفاتح، فأحسن إليه و خلع عليه و سماه سلطان البر و أفضل عليه و على رفاقه من الأمراء مثل الأمير جمال الدين الأرسلانى اليمنى الذى جعله واليا على بلاد الغرب و الأمير عساف التركمانى أمير بلاد كسروان و بلاد جبيل، و أمرهم أن يحسنوا السياسة لقومهم و أن يسعوا بكل ما يؤول إلى عمران بلادهم، و قدمت إليه الناس من كل جانب إلا الأمراء التنوخيين القيسيين فإنهم لم يأتوا لأنهم كانوا من حزب الدولة الشركسية. و قال كامل باشا: إن أمير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) و كان عهد إليه الدفاع عن دمشق من قبل الشراكسة قبل بالصلح الذى اقترحه عليه خيربای و خضع للسلطان سليم، فنزل هذا فى القصر الأبلق فجاءه محافظو قلاع سورية و أمراء العرب و الدروز يعرضون الطاعة له. و يقول ابن إياس: إن الأمير ناصر الدين بن الحنش، أمير عربان حماة لما بلغه أن ابن عثمان أرسل طلائع عسكره و قد وصلت إلى القابون بالقرب من دمشق، لقيهم ابن الحنش و حصل بينه و بين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة و قتل منهم جماعة و أطلق عليهم الماء من أنهر دمشق حتى صار كل من دخل فى تلك المياه بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۴

و لما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس و على الأحكام الشرعية فتعطلت الحدود. قال الغزى: و لما بلغ الإمام على بن محمد المقدسى أن العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات تنخع الدم من كبده و تمنى الموت، للقهر الذى أصابه و للغيرة على دين الإسلام و تغير الأحكام و قال فى دخول السلطان سليم دمشق هذه الأبيات:

ليت شعرى من على الشام دعابدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشةفهى تبكينا و نبكيها معا

قد دعا من مسه الضر من الظلم و الجور اللذين اجتمعا

فعلا الحجب دعا فانبعثتغارة اللّه بما قد وقعا

فأصاب الشام ما حل بهاسنة اللّه التى قد أبدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر، و ربما و كان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب للدولة الشركسية أو رجاء أخفق، و كان يظن أنه يتم على يد ابن عثمان من إقامة الحدود و رفع المظالم شىء كثير فى مدة قصيرة، و ما خلت دولة مهما بلغ من سخفها و سخف القائمين بها من أنصار لها على الحق و الباطل، و كثير من الأمور إذا نظرت إليها من وجهها راقتك، و إذا ملت إلى الوجه القبيح أحصيت عليها بعض العيوب.

السلطان فى دمشق و فى الطريق لفتح مصر:

جهز السلطان سليم جيشه فى دمشق و قضى فصل الشتاء فيها يعمر بعض المبانى. و قال صولاق زاده: إن السلطان سليما كان مدة إقامته

فی دمشق یختلف فی الأوقات الخمسة إلی الشیخ محمد بلخشی فی جوار جامع بنی أمیة و إن السلطان سلیما لما کان یعتقد بالاستمداد من أرواح الأنبیاء العظام الطاهرة، و أرباب المقامات الشریفة لم یغفل هذا المقصد مدة إقامته فی دمشق، و لما رأی قبر العارف باللّه محیی الدین بن عربی قد تداعی و خربت تربته أمر بتعمیره علی ما یجب، و أنشأ بجواره جامعا علی أجمل طرز، و عمر زاویة بقربه، و وقف علی ذلک عدة قری و مزارع. و قال أیضا: إن السلطان سلیما صرف الأمراء

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۵

و الجند فأخذوا دستورا إلی مواطنهم لیقضوا فیها فصل الشتاء بعد أن استراح اثنی عشر یوما فی المصطبة.

و ذکر ابن طولون أن النائب بدمشق ابن یخشی نادی فی ۲ ذی الحجة (۹۲۲) بالأمان و الاطمئنان، و أن لا ظلم و لا عدوان، و لا یحمل أحد سلاحا، و أن لا یتکلم أحد فیما لا یعنیه.

سار السلطان عن طریق البر إلی غزة فعصت علیه ففتحها حربا، و التقی جیش العثمانیین مع جیش المصریین فی خان یونس بین غزة و العریش، فشتت الجیش العثمانی الجیش المصری، ثم عصت غزة و الرملة فقمع ثائر الغزاة فیها، و کانت الوقعة المهمة بین عسکر مصر و عسکر ابن عثمان علی الشریعة بالقرب من بیسان اندحر فیها المصریون و قاد جندهم الغزالی. قال ابن طولون:

و فی ۱۶ ذی الحجة (۹۲۲) التقی سنان باشا الوزیر الأعظم لملک الروم مع جان بردی الغزالی و کسر الغزالی فدقت البشائر بقلعة دمشق و سیب بها نفط کثیر ثم نادی النائب بالزینة و استمرت مدة أسبوع.

ذهب السلطان سلیم فی جیشه إلی مصر و قتل الملک الذی کان بایع له المصریون بعد هلاک السلطان الغوری و اسمه طومان بای، ففتح القطر المصری علی أیسر سبب. قال ابن طولون: و لما وردت البشائر بفتح مصر زینت دمشق سبعة أیام و دارت مبشرو الأروام علی بیوت الأکابر و الحارات بالطبول و النایات ثم أتبعوها بزینة سبعة أیام لما ورد الخبر بأن السلطان سلیما أفنی الشراکسة و عاد السلطان عن طریق البر إلی الشام بعد تغیبه ثمانیة أشهر و دخل دمشق (۱۱ رجب ۹۲۳) و فی یوم ۲۲ منه طلبت العساکر النزول فی البیوت فهجموا علی النساء و تضرر الخلق بذلک ضررا زائدا و تحقق أن السلطان عزم علی الإقامة بدمشق فغلت الأسعار و عند ذلک شرع بعمارة تربة ابن عربی و صرف علیها عشرة آلاف دینار. و من غریب التوفیق أن السلطان سلیما کان أعد فی ذهابه إلی مصر خمسین ألف جمل لحمل المیاه فی الصحراء التی تفصل الشام عن مصر فأمطرت السماء مطرا غزیرا أغنی جیشه عن ماء الروایا، و سهل علیه قطع صحراء التیه.

و بینا کان السلطان سلیم سائرا إلی مصر تأخر من جماعته فی الرملة، أناسا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۶

فشاع الخبر أن أهل المدینة قتلوهم، و بلغ ذلک السلطان فأمر بقتل أهل البلد فقتلوا عن آخرهم و لم یبق فیها دیار و لا نافخ نار. و یقول القرمانی: إن السلطان أمر بقتل عامة أهل الرملة عند عودته من مصر و قد بلغه الثقات أن أهلها قتلوا من کان عندهم من العسکر المجروحین. و قال ابن إیاس: إن الغزالی لما تلاقی مع سنان باشا علی الشریعة أشیع فی غزة أن الغزالی قد انتصر علی عسکر ابن عثمان و قتل سنان باشا و عسکر ابن عثمان، فبادر علی بای دوادار نائب غزة و أجناده فنهبوا و طاق العثمانیین و أحرقوا خیامهم و قتلوا ممن کان فی الوطاق و المدینة من العثمانیة نحو أربعمائة إنسان ما بین شیوخ و صبیان و ممن کان بها مریضا، فلما ظهر أن الکسرة علی عسکر مصر و قتل من قتل من الأمراء رجع سنان باشا إلی غزة فوجد من کان بها قد قتل و نهب الوطاق، فجمع أهل غزة قاطبة و قال لهم: من فعل ذلک بنا؟ قالوا: علی بای دوادار نائب غزة، و أجناده فنهبوا و طاق العثمانیین و أحرقوا خیامهم و قتلوا ممن کان فی الوطاق و المدینة من العثمانیة نحو أربعمائة إنسان ما بین شیوخ و صبیان و ممن کان بها مریضا، فلما ظهر أن الکسرة علی عسکر مصر و قتل من قتل من الأمراء رجع سنان باشا إلی غزة فوجد من کان بها قد قتل و نهب الوطاق، فجمع أهل غزة قاطبة و قال لهم: من فعل ذلک بنا؟ قالوا: علی بای دوادار نائب غزة، و أجناد غزة، و لم نفعل نحن شیئا من ذلک، فأمر سنان باشا بکبس بیوت غزة فوجدوا فیها

قماش العثمانية و خيولهم و خيامهم فقال لهم سنان باشا: نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم قالوا:
لا. فقال لهم: كيف فعلتم بعسكرنا ذلك، فلم يأتوا بجواب و لا عذر و لا حجة فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم كثيرين و راح الصالح بالطالح.
و نصب السلطان واليا على مصر خير باى نائب حلب، و واليا على دمشق جان بردى الغزالى نائب حماة، و أضاف إلى هذا القدس و غزة و صفد و الكرك، و أما حمص و طرابلس و المدن البحرية فجعلها بأيدى عماله من الأتراك، و بقى الحال على ذلك مدة طويلة.
و كانت ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر على ذلك مدة طويلة. و كانت ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر على مال معين قدره مائتا ألف دينار و ثلاثون ألف دينار. قال شمس الدين سامى: إن جانبردى الغزالى كان قائدا عاما للجيش الذى أرسله طومانباى لقتال السلطان سليم فغلب فى الوقعة التى جرت فى غزة و فرّ ثم رأى أن يستأمن السلطان سليما و يخدمه، فأعانه على قهر طومانباى و فتح مصر ثم كان سببا لقتل طومانباى. و مكافأة لخدمته نصبه السلطان واليا على دمشق، أما حلب فقد نصب عليها قره جه أحمد باشا و دام فيها واليا ثلاث عشرة سنة لغنائه و كفايته فى خدمة دولته.
خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۷

فتوق و غارات و تأذى السكان:

و لما مهد السلطان سليم الديار الشامية و المصرية عصى عليه محمد بن الحنش المتغلب على صيدا و البقاعين و شيخ الأعراب (۹۲۴) ثم هرب و اتهم الأمير زين الدين و الأمير قرقماز و الأمير علم الدين سليمان أنهم من حزبه فقبض عليهم الغزالى و بعث برأس ابن الحنش و رأس ابن الحرفوش إلى السلطان سليم فى حلب و أطلق سراح هؤلاء المعتقلين، و كان ابن الحنش كثير العصيان على نواب حلب و على سلاطين مصر. و لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من مقابلته، ثم اضطربت أحوال جبل نابلس و صار العربان ينهبون الضياع التى حول حاضرتها و يقتلون أهلها. و فى مدة إقامة السلطان سليم فى حلب لدن عودته من فتح دمشق و مصر قتل بعض أشرار حارة بانقوسا، و لما بلغه أن الشاه إسماعيل الصفوى يريد أن يهاجم حلب أخذ يطيب خاطر الحلبيين و رفع عنهم ما كان أثقل كواهلهم به من الضرائب و المكوس و أنشأ يعنى بتحصين حلب.
و من أعمال الغزالى استيلاء العربان (۹۲۵) على الحاج الشامى فخرج إليهم و معه نائب غزة و نائب الكرك، فاقتتل مع العربان و قتل منهم جماعة و غنم أموالهم. و فى السنة التالية أتى الفرنج إلى ساحل بيروت و حاصروا من بها فكسروهم و ملكوا بيروت و ظلوا فيها ثلاثة أيام، فلما بلغ نائب الشام ذلك عين دواداره و معه الجمّ الكثير من العساكر فتوجهوا إلى بيروت و اقتتلوا مع الفرنج. و كان بين الفريقين واقعة قتل فيها كثير منهم و أسر ثلاثمائة إنسان منهم و غنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح و قماش، و قيل: أسروا جماعة من أولاد الملوك الفرنج و ملكوا ثلاثة من كبار مراكبهم. و يقول ابن طولون:
إنه قتل من المسلمين مئة و من الفرنج أربعمائة جاءوا فى زى الأروام و جيء برؤوس الإفرنج إلى دمشق (۹۲۶).
خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۸
و فى ذهاب السلطان إلى مصر و عودته إلى الشام قاسى الشاميون من اعتداء جنده كثيرا، فقطع الأجناد الأشجار و رعوا الزروع و أخرجوا أهلها من بيوتهم فى كل بلد و احتلوا و تعدوا على أعراض الناس، فتضرر الناس بذلك و عرفوا أنهم أخطأوا فى نفض أيديهم من أيدى الشراكسة لأول ما بدا لهم من قوة العثمانيين، و خاب رجاؤهم فى أن تغيير الدول قد يكون منه رحمة، خابت الظنون لما جاء دور العمليات و غلط فى الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير و أن الحظ يحظهم متى خفقت أعلامها عليهم، و كانوا يرقبون طلعة العثمانيين منذ سنين رقبة هلال العيد، للاستمتاع بحكمهم الرشيد و عهدهم السعيد، و لطالما ساء فأل من يهتمون للأمر الجديد، و يفتحون له قلوبهم و صدورهم بادئ الرأى مع علمهم أحيانا بتهورهم، و أى فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة

الخالفة على عورات الدولة السالفة، حبا بأن يكون لهم شيء من الراحة و الهناء إذا تغيرت الدولة.

محاسن السلطان سليم و مساويه و مهلكه:

صرف السلطان سليم سنة و شهرا فى فتح الشام و مصر و هلك بعد مغادرته القطرين بنحو ثلاث سنين (۹۲۶) و قد بالغ مؤرخو الترك فى وصف فضائله خصوصا من كتبوا بلسان الرسميات. و كثيرا ما يكون فى الروايات الرسمية نظر كبير إذا وضعت على محك النقد التاريخى. و كان مؤرخو العرب أقرب إلى الثقة فى وصف هذا الفاتح الذى هو بلا مراء نابغة العثمانيين أو من نوابغهم بعد محمد الفاتح. ترجمه النجم الغزى فى الكواكب السائرة بقوله: كان السلطان سليم سلطانا قهارا، و ملكا جبارا، قوى البطش، كثير السفك، شديد التوجه إلى أهل النجدة و البأس، عظيم التجسس عن أخبار الملوك و الناس، و ربما غير لباسه و تجسس ليلا و نهارا، و كان شديد اليقظة و التحفظ، يحب مطالعة التواريخ و أخبار الملوك، و له نظم بالفارسية و الرومية (التركية) و العربية.

و مما قال ابن إياس فيه: إنه لم يجلس بقلعة الجبل (بمصر) على سرير الملك جلوسا عاما، و لا رآه أحد، و لا أنصف مظلوما من ظالم، بل كان مشغوفا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۱۹

بلذته و سكره، و إقامته فى المقياس بين الصبيان المرد، و يجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه، فكان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء الشراكسة، و ما كان له أمان، و كلامه ناقض و منقوض، لا يثبت على قول واحد كقول الملوك و عادتهم فى أفعالهم. و قال أيضا: إن السلطان سليما قتل يونس باشا الصدر الأعظم و كان مقربا جدا عنده و لكن ابن عثمان ليس له صاحب و لا صديق و لا أمان منه لأحد من وزرائه و لا من عسكره و من طبعه الرهج (الشغب و الفتنة) و الخفة، و يحب سفك الدماء و لو كان لولده، و يقال: إنه قتل أباه و إخوته، لأجل مملكة الروم، و آخر الأمر إنه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة.

و فى الواقع أن السلطان سليما قتل وزيره حسن باشا فى رحيله إلى مصر لأن هذا لاحظ أن فى قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه، و لما غادر السلطان مصر و ألف جمل تحمل أمامه منها إلى الاستانة ما غنمه من الذهب و الفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا فى صحراء قطبة و السبب فى ذلك أن السلطان اقترب من الصدر الأعظم و هو سائر معه و قال له: أرأيت كيف مصر الآن وراءنا و غدا نبلغ غزة. فلم يتمالك الصدر أن أجاب السلطان:

نعم و لكن أى ثمرة حصلت من هذا التعب و المشقة، إن لم يكن هلاك نصف الجيش السلطانى فى الحروب و وسط الرمال، و بقيت حكومة مصر بعد هذا فى أيدى الخونة. فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضبا فضرب عنق الوزير فى الحال و دفن فى الخان الذى كان أنشأه بين مصر و الشام يونس بن عبد اللّه التركى الدوادار بالقرب من غزة، فدفن يونس باشا فى خان سميه يونس الدوادار، و عهد السلطان بالصدارة إلى بيرى باشا.

و قال الشرقاوى: إن خير بك لما دفع إلى السلطان سليم مفاتيح مصر ردها عليه و ولاه عليها إلى أن يموت فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى جملة الأجناد فأجازه بذلك، و شاوره فى إبقاء أوقاف الشراكسة و هى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجازه بإبقائها على ما كانت عليه، فتشوش وزيره و قال: فنى مالنا و عساكرنا، و تبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها، فقال السلطان سليم: أين الجلاد و كانت إحدى رجليه فى الركاب فضرب عنق

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۰

الوزير و وضع رجله الثانية فى الركاب. و قال: عاهدناهم على أنهم إن مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها و جعلناهم أمراءها، فهل يجوز لنا أن نخون العهد و نغدر؟ و إذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم أولاد مسلمين و يغارون على ديارهم، و أما أراضيهم فأصلها ملك القائمين و منهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده، فهل يجوز أن ننازع الملاك فى أملاكهم؟ و أنا أزلت الوزير كراهة أن

يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه اه.

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر و ألطفه، و كان شديدا جدا على وزرائه قتل منهم سبعة لأسباب تافهة. و قال القرمانى: إنه خنق إخوته و غيرهم من أهل بيته و عددهم سبعة عشر نفرا و ذلك حين توليه الملك و جرى عند الأتراك فى حكم الأمثال قولهم: من أراد الموت فليكن وزيرا للسلطان سليم، لأن لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل. و قال صولاق زاده: فى عصر سليم كان الوزراء أبدا عرضة للتنحية ثم للقتل بعد شهر من تنصيبهم، و لذلك اعتادوا أن يحملوا معهم صكوك وصاياهم، و كلما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون أنهم عادوا إلى الحياة بعد الموت. و قد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقى بأنه أقسى البشر قلبا لا يحلم بغير الفتوح و الحرب اه.

و لم يكن السلطان سليم يراعى من جميع رجاله إلا المفتى الأعظم زنبيللى على أفندى، و كان هذا قوالا بالحق و كثيرا ما كان يرده عن مظالمه، و يحول بينه و بين إزهاق النفوس بلا حق، و قد أنقذ بعمله من القتل مئات من البشر، و هذا المفتى العظيم تولى مشيخة الإسلام ستا و عشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين و هم با يزيد الثانى و سليم الأول و سليمان الأول:

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار أكثر من ثمانى سنين و ثمانية أشهر، و لم يعمل فى الشام إلا أن أقرّ القديم على قدمه فى أسلوب الأحكام، و غنم ما تيسر من ثروة المماليك و الأغنياء، و زاد فى الضرائب و المكوس، و نصب حكاما ممن استأمنوا إليه أو خانوا الدولة الأولى و تقربوا إليه منذ دخل حلب و وضع قيد الأسر للخليفة أمير المؤمنين المتوكل على اللّه آخر خلفاء بنى العباس بمصر، و أخذه معه لما انصرف إلى الاستانة، ثم ألقى الاختلاف بينه و بين أولاد عمه أبى بكر و أحمد. و قال ابن إياس: إن السلطان سليما تغير خاطره على الخليفة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۱

المتوكل على اللّه و أرسله إلى مكان عسر يقال له الست أبراج و المظنون أنه كان هناك آخر العهد به فقتله و أشاع بين الملإ أنه مات، و لا يستكثر ذلك من ملك قتل أباه لأجل الملك فضلا عن إخوته و آله. و يقول «نامق كمال»: إن الخليفة العباسى قد تخلى لال عثمان عن حقه فى الخلافة فى جامع أياصوفيا علنا.

و فى رواية أن الخليفة بقى إلى زمن السلطان سليمان و أنه أطلق من سجنه و وسع عليه و قال بعضهم: إنه أذن له بالسفر إلى مصر فسافر اليها و مات بها.

و روى المؤرخون أن السلطان سليما كان يريد أن يعمل عملا نافعا للأمة بأسرها. كان ينوى أن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلا من التركية فعاجلته المنية قبل إتمام هذا العمل الجليل. و الغالب أنه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر و الشام و خطب له فى الحرمين الشريفين فسمى فاتح ممالك العرب، فرأى أن العرب فى مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها، و أن الترك هم عنصر الدولة الأصلى لا يشق عليهم أن يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق و الأرناءوط و الكرد و اللاز و الشركس و الكرج. و لو وفق السلطان سليم إلى إنفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمانية فى القرون التالية من مشاكل عظيمة، و دخلت فى جملة العرب عناصر كثيرة مهمة، و لزاد انتشار اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطنا لها كما كانت بغداد و دمشق و القاهرة و قرطبة و غرناطة.

خارجى خان أولا و ثانيا:

أصبحت الشام بالفتح العثمانى آمنة عزوات الشمال و الشرق و الجنوب، و صارت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من هذه الوجهة و لكن أصبح أعداؤها فى داخلها و من أهل دولتها. فتحت الشام و مصر فى وقعتين مهمتين و ما عداهما فمناوشات لا يؤبه لها. فلما رحلت القوة و خلا الجولجان بردى الغزالى نائب دمشق حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة و صعب على طبعه إلا أن يخون سيده الثانى كما خان سيده الأول:

و من يتعود عادة ينجذب لهاعلى الكره منه و العوائد أملك

ففاوض بعض أمراء لبنان و العربان فوعدوه أن يمالئوه على عمله، و دعا لنفسه بالسلطنة فى دمشق و بايعه الناس على ذلك طوعا أو كرها، و وافقه على

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۲

عصيانه الأعراب و المماليك و لقب نفسه بالملك الأشرف صاحب الفتوحات، و زينت له دمشق ثلاثة أيام و أوقدت له الشموع على الدكاكين، و قبل له الأمراء الأرض و قد جمع العسكر الكثير، و خطب باسمه على منابر دمشق و ضربت السكة باسمه على الذهب و الفضة. و أرسل إلى أمير الأمراء بمصر ليقوم معه لنزع حكم العثمانيين عن مصر و الشام فنمّ عليه للسلطان، فقام الغزالى وحده مدفوعا بتنشيط زعانف السكان و المماليك و العربان و الأكراد أتباع كل ناعق، و كثر الملتفون عليه حتى تسحب المماليك إليه من مصر و كثروا سواده. و ذكروا أن من اجتمع عليه من الجند كان خمسة عشر ألفا من المماليك و التركمان و ثمانية آلاف ممن يضربون البنادق.

و لما بلغ قراجه باشا والى حلب موت السلطان سليم كان بعسكره فى حيلان فرجع إلى حلب و حصنها و استخدم خلقا كل إنسان بثلاثمائة درهم، و أنفق عليهم من مال السلطان شهرين، و أعطى الانكشارية كل واحد ألفين و الاصباهية كل واحد ألفا زيادة على الراتب، و خرج إلى قرية سرمين و قرية داريخ و نهبهما، فخرج اليه أمير شيزر من جهة الغزالى فأخذ منه جميع المكسب و غنم منه جماعة و جهز رؤوسهم إلى دمشق، و دخل نائب حلب إليها مكسورا و وصل عسكر الغزالى إلى الأنصارى و خرج إليه عسكر حلب. فأرسلت الدولة على الغزالى فرهاد باشا فى ثمانية آلاف انكشارى عدا من انضم إليه من قوى الأناضول و كان معهم ثمانية عشر مدفعا كبيرا.

سار الغزالى إلى حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة و لم يقدر عليها لصدق أهلها فى قتاله، و داهمه الجيش العثمانى بما أتاه من المدد فانكسر، و جاء إلى حماة فتبعه العسكر العثمانى و اقتتلوا معه فهرب منهم، و قصد التوجه إلى دمشق و خرّب فى طريقه قناطر الرستن على العاصى فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة دارت خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف إنسان و قيل أكثر من ذلك، بينهم عربان و مماليك و جماعة من عوام دمشق و فيهم أطفال و صغار من أهل الضياع و غيرهم ممن حضر القتال. قال ابن إياس: و كانت هذه الوقعة تقرب من وقعة تيمور لنك لما ملك الشام و جرى منه ما جرى من قتل و نهب و سبى و حرق ضياع و ما أبقوا فى ذلك ممكنا. و ليس الخبر كالعيان.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۳

ثم نودى فى دمشق بالأمان سنة (۹۲۷) و قد خرب نحو ثلثها من ضياع و حارات و أسواق و بيوت، و أصاب حلب و حماة و حمص من خراب القرى و هلاك الأنفس و ذهاب الأموال شىء كثير.

كان الغزالى لما جاء دمشق مهزوما من الجيش العثمانى قتل خمسة آلاف انكشارى جعلهم السلطان سليم حامية عند ما فتحها، و ذلك مخافة أن يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة و قتلهم على بكرة أبيهم شر قتلة. ثم دارت الدائرة عليه و تشتت جيشه فقتله خازن أمواله و جاء برأسه إلى القائد التركى، فذهب و دولته الموهومة لم ينل الشام منه إلا الضغط و الشدة بعدها.

قال المقار: إن الغزالى استولى على دمشق و طرابلس و حمص و حماة و حلب و خطب له بالجامع الأموى بأنه سلطان الحرمين الشريفين و لقب بالأشرف، و أن الدولة أرسلت عليه جيشا من ثلاثين ألفا و أربعة آلاف انكشارى و معهم مائة و ثمانون عربة، فالتقى عسكره و عسكرها عند قرية الدوير، و تواصل العسكر الرومى و ركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر و قطع رأسه، ثم تلاحق العسكر الرومى ببقية العسكر الهاربين إلى الصالحية و نواحى دمشق و ارتجف الناس رجفة عظيمة و قتل من شباب الصالحية نحو الخمسين و من كل حارة نحو المائة و كذا من القرى، و قيل: إن عدد القتلى ۷۰۷۰، و هجم العسكر على

الصالحية و الأحياء و القرى، فكسروا الأبواب و حواصلها و بيوتها و دكاكينها و غير ذلك و آذوا النساء فضلا عن الرجال فلم يحترموا صوفيا و لا فقيها و لا كبيرا، و كانت النساء قد اجتمعن بجامع الحنابلة و مدرسة أبى عمر و غيرهما فهجموا عليهن و عروهن و أخذوا بعض نساء و جوار و عبيد و صبيان، و جهز الباشا رأس الغزالى و معه نحو ألف أذن من المقتولين إلى السلطان سليمان. و بعد هذه الوقعة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل إياس باشا فى دمشق، و فرحات بك فى طرابلس، و قره موسى فى غزة. أما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية و منقذها من الغزالى فقد ضج الناس من شدته و بأسه و تمثيله بالبرىء و المجرم على السواء.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۴

طبيعة الدولة العثمانية:

بقى أرباب المقاطعات فى الدولة العثمانية كما كانوا فى دولة المماليك.

يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها، و يعرقون اللحم و العظم بعد ذلك لحسابهم، مثل أمير عرب الشام مدلج بن ظاهر بن آل جبار و كانت منازل قومه فى سلمية و عانة و الحديثة، و الأمير فخر الدين المعنى الأول حاكم الشوف، و جمال الدين الأرسلانى حاكم الغرب، و بنى شهاب فى وادى التيم، و بنى الحرفوش فى بعلبك، و بنى ساعد أمراء البر و حوران و عجلون و غيرهم فى غيرها، و كلهم أشبه بأمراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن، و المقتدر منهم الذى كان على صلات حسنة مع الوالى التركى القريب من عمله، و من يجعل له وكيلا يرجع إليه فى أعماله فى دار السلطنة، و إذا غضب الوالى على الأمير المتغلب يرسل عليه جيشا من الانكشارية كما فعل والى دمشق سنة (۹۳۰) مع أمير الشوف، فيخرّب العسكر قراه و يستصفى أمواله و يأسر أهله و رجاله و يسبى نساءه، فعلوا ذلك مرات فى لبنان و البقاع و بعلبك و وادى التيم و غيرها، و ينشأ هذا الغضب من تأخرهم عن تأدية الخراج، أما المظالم التى تنزل بالناس فحدث ما شئت أن تحدث عنها.

كان من قواعد الدولة العثمانية إذا فتحت مصرا أن تولى أمورها الكبرى لولاتها و قضاتها و الصغرى لأبناء البلد المفتوح، و تلقى حبلها على غاربها لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح أراض جديدة، و إذ كان الولاة يبتاعون مناصبهم على الأغلب بالمزاد فى دار الملك، كان المزايدون فى الأكثر من الساقطين فى أخلاقهم، لا يتأخرون عن ارتكاب كل محرم ليسلبوا الرعية ما أمكن فيملأوا خزائنهم و خزائن من حملوهم على رقاب الأمة. و ساعد على إيغال العمال فى الفساد قلة المواصلات، و بعد دار السلطنة عن أكثر الولايات، فبين دمشق و الاستانة مثلا ۱۱۰۰ كيلومترا و ۳۸۶ ساعة، و إن قدّر لأرباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب لبث شكواهم إلى السلطان، كان بعض أصحاب الشأن يحولون دون ذلك، فكانت الشام كله يستأثر بها وال أو واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون مراقب إلا من ذمتهما، فإذا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۵

كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس و النحس، و ضياع الحقوق و فساد النظام.

قال جودت فى تاريخه: إن الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة إلى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الأسباب اللازمة لهذا الانتقال، و حصروا أوقاتهم فى حظوظ أنفسهم و شهواتهم، يقيمون فى العاصمة القصور الفخمة، و يفرشونها بأنواع الأثاث و الرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم فاضطروا إلى الارتشاء و بيع المناصب بالمال و تلزم الأقاليم و إقطاعها بالأثمان الفاحشة، فضاق ذرع الأهلين، و اضطر كثير من أهل الذمة أن يهجروا الأرض العثمانية إلى الخارج، و ترك غيرهم القرى و جاء الاستانة فرارا من الظلم فلم يبق مكان فى الاستانة، و تلاصقت الدور و تضايقت أنفاس الناس و كثر الحريق و الأوبئة، و صعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الضخمة من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتى بها من القاصية، و التجارة ليست من شأن الحكومة اه.

من أمثال الترك السمكة تفسد من رأسها، و حقيقة أن فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة أيام كان يقبض فيها على زمام الأحكام

غالبا جهلاء ظلام و صموا بسلب الناس بكل حيلة، حتى ينعموا بما يجمعون فى قصورهم و مصايفهم على ضفاف الخليج و المضيق فى فروق. و إذا صادفت العناية أن تولى الصدارة رجال عظام على شىء من حسن الإدارة و قوة الإرادة، فإن رئاسة النظار كثيرا ما تولاها فى السلطنة العثمانية الندماء و السخفاء بل الطباخون و الطهالون و المزينون و البساتنة و غيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكى، أو الزنوج الخصيان الذين كانوا يولون و يعزلون كما يشاؤون و يشاء ضيق عقولهم.

و لا عجب فى حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها إذا كان الوزراء و العمال على هذا النحو، فلطالما ولى المشيخة الإسلامية فى التركك أغبياء أدنياء فى منشئهم و مسلكهم ممن ليس لهم من العلم الدينى إلا قشوره و شارة أهله و على نسبة وسائط بعضهم و كثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء أحدهم إلى المناصب العليا، و هذه الطبقة لا تقرب إلا من كانوا على شاكلتها من الجهل و الفساد. و مثل هؤلاء الرجال إذا كان لهم قوة يستندون

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۶

إليها و هى جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه و معناه. فإن هذا الجيش الذى قدم للدولة لأول أمره خدمات جلى و فتحت به الفتوحات عاد فمحق باختلاله و اعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت له.

و لئن خلف السلطان سليما ابنه السلطان سليمان القانونى و هو العاشر من ملوك آل عثمان سنة (۹۲۶) و كان على جانب من العقل و حب القانون، إلا أن الشام أصبحت فى أيامه الطويلة التى دامت ۴۸ سنة فى معزل لأن السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتى عشرة مرة و خرج فى أكثرها ظافرا، فلا يهمه كأكثر أجداده و أحفاده من كل ما يفتح إلا أن تضرب السكة و تقام الخطبة باسمه و تجبى الجبايات و لا يتأخر الولاة عن إنفاذها إلى دار الملك، فكانت الشام جزءا صغيرا بالنسبة لضخامة ملكه، فلم ينلها منه شىء من العدل و الإشراف ينسيها ما لاقته فى القرن السالف من التقلقل و الانحلال.

و كان السلطان سليمان بطاشا كأبيه و لكن لم يشتهر شهرته، هاج مرة أهل حلب فى أوائل حكمه و قتلوا فى الجامع القاضى و المفتى فصدرت إرادته السنية بقتل جميع أهل حلب لو لا أن كان فى الصدارة إذ ذاك رجل عاقل اسمه إبراهيم باشا، فألغى هذا الأمر البربرى و اكتفى بقتل زعماء الثورة. و إبراهيم باشا كان على جانب من الأخلاق الحسنة و الذكاء تولى الصدارة من سنة (۹۲۹- ۹۴۲) اى ۱۷ سنة و قام بإصلاحات مهمة ثم قتله السلطان و ندم على قتله، و لا عجب إذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الأكبر مصطفى و حفيده و ابنه با يزيد و أولاده الخمسة على أفظع صورة.

كوائن داخلية و أمراء المقاطعات:

و من الأحداث فى الشام بعد فتنة الغزالى ما وقع فى سنة (۹۲۷) من ثورة جماعة من عربان دمشق على النائب اياس باشا، خرج إليهم فانكسر و جرح ورد إلى دمشق و هو مكسور و قتل من عساكر دمشق كثير و من عربان نابلس أيضا، و كانت فتنة بدمشق. و فى سنة (۹۲۸) كان مقتل حسن و حسين أولاد الأمير عساف فى بيروت، و ذلك لما كان من الاختلاف بينهما و بين أخيهما الأمير قائدبيه على الحكم فتوسط بينهما حتى طلبا الصلح و نزلا على أخيهما قائد بيه

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۷

فغدر بهما و قتلهما فحكم قائد بيه جبل كسروان حتى مات سنة (۹۳۰) و خلفه الأمير منصور ابن أخى الأمير حسن و امتد حكمه إلى عكار. و كانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد أغا شعيب من أهل عرقة و يستأجر الأمير منصور جبيل و البترون وجبة بشرة و الكورة و الزاوية و الضنية. و فى سنة (۹۳۰) جهز والى دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز فى الشوف فانتصر عليهم و أحرق قرية الباروك و ثلاثا و أربعين قرية، و أرسل إلى دمشق أربعة أحمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة و رجع و معه مجلدات من كتب الدروز، ثم أرسل أربعة أحمال من رؤوسهم و أحرق نحو ثلاثين قرية و نهب قرية البرج و سبى نحو ۳۶۰ من النساء و الأطفال و غنم

ما لا يحصى من البقر و الجمال و الغنم و غير ذلك.

و فى سنة (۹۳۵) وقع قتال بين أولاد شعيب و أولاد سيفا أمير التركمان و قتل على الشعيبى فى عرقة و تولى أولاد سيفا عكار، ثم قتلوا محمد آغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضى فأعطاهم القاضى فتوى بأنهم أبرياء من دمه و أنه هو ألزمهم بذلك. و فى سنة (۹۴۰) وقعت فتنة أهلية فى العاقورة وجبة المنيطرة فى لبنان نشأت من خصام بين مالك اليمنى و هاشم العجمى من مشايخ العاقورة، و كثرت الدسائس بين بنى الحرفوش أمراء بعلبك و آل سيفا حكام طرابلس، و أخذ أبناء العم يقتلون أولاد عمهم للاستئثار بالإمارة، و خربت بعض تلك الديار و من القرى ما نزح سكانه عنه. قال الشهابى: و كبر قدر بنى حبيش عند ابن سيفا و صاروا متصرفين فى تدبير حكمه و بقيت العاقورة خرابا سبع سنين لم يقطن فيها أحد. ثم إن القيسية سكنوا فى طرابلس و استحصل اليمنية أمرا من نائب دمشق و رجعوا فبنوا العاقورة ثانية و فى سنة (۹۵۱) توفى الأمير فخر الدين بن عثمان بن معن الذى حكم من حدود يافا إلى طرابلس و بنى بنايات و قلاعا عظيمة و استراح الناس فى حكمه و أطاعته العرب و خلفه ولده الأمير قرقماز، و بعد وفاة فخر الدين امتد حكم الأمير منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت إلى حدود حمص و حماة و قوى بماله و رجاله.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۸

مهلك السلطان سليمان و تولى سليم السكّير:

توفى سليمان القانونى سنة (۹۷۴) و لا شأن للشام فى عهده إلا أن تظهر شعورها بأخبار انتصاراته و غاراته، و فتح قلاعه و معاقله التى كان يملأها بجند الانكشارية و لكى يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقتضى له من النفقات الباهظة ما تنوء به قوة الرعايا، و كان أهل الإسلام يودون بعد تكبير رقعة الملك فى آسيا أن تصح إرادة الدولة على فتح فارس و قد بدت أمارات الهرم فيها فتتصل بالهند، و ذلك خير من أن تفتح المجر و تحارب امبراطور ألمانيا و تؤلب عليها دول أوربا. ذكر ضيا باشا أن الأتراك بددوا شملهم فى الحروب و القلاع و الأرجاء البعيدة و جعلوا أنفسهم فى أوربا وراء سور من المرابطين يقلى علمهم و تربيتهم يوما فيوما، و فيه أمم من الخرواتيين و البلغار و الروم لم تختر ملة الإسلام، و فى آسيا العرب و الأكراد و الزيدية و الشيعة نشأوا و كبروا ببذر الفساد الذى بذره الشاه إسماعيل، فكان الأولون خصماء للإسلام و الآخرون خصوم الأتراك، كانت مناداتهم بنصر السلطان من الألسن لا من القلوب اه.

خلف السلطان سليمان ابنه سليم الثانى، و هذا لم يذكر اسمه فى الشام إلا على منابرها فقط لأنه كان شريبا خميرا حتى لقب بسليم السكير و له من أعمال الخلاعة ما يخجل منه، و لم يخرج من الاستانة للغزاة، و هو أول ملك من آل عثمان تخلى عن الحرب بنفسه، و مات على سريره فى قصره، على حين كان أجداده يموتون فى الحرب و فى طريق الغزو و الفتح. و فى أيام سليم الثانى فتحت قبرس و كانت للبنادقة و هلك و أسر من أهلها نحو ثلاثمائة ألف إنسان فى بعض الروايات.

هلك سليم الثانى سنة (۹۸۲) بعد أن حكم ثمانى سنين و ستة أشهر و خنقوا أولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة. و فى أيامه جاء أمثال محمد الباشا الصقللى من الصدور العظام، الذى تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الإصلاحات، و أهمها إثخانه فى العصاة و أرباب الدعارة، و جاء غيره من الرجال الذين يعدهم الأتراك من العظام. و لكن الشام لم تر

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۲۹

طلعة هذا الملك كما أنها لم تشهد من والده من قبل شيئا من خطط الإصلاح و لا من القوانين النافعة، و لا شاهدتهم أو وكلاءهم يشرفون على الشام ليرفعوا الضيم عن أهله، و فى عهده (۹۸۰) وزع القشلق (أى العساكر المشتية) على الشام و نهب عسكر الدولة لبنان و ما إليه و سلبوا سائمته و أسرفوا فى الظلم، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها، و أقفرت فى لبنان قرى كثيرة و فى الدر المنظوم أنه قتل من الموارنة فى تلك المعمعة نحو ثلاثين ألفا (كذا) عدا الذين قتلوا فى ليماسول فى جزيرة قبرس حين حاصرها الأتراك و

فتحت سنة (۹۷۸).

عهد السلطان مراد الثالث و حملات على أرباب الدعارة:

و فى سنة (۹۸۲) تولى الملك مراد الثالث فقتل إخوته الأربعة و كانت همته مصروفة إلى توسيع حدود مملكته أيضا و فى أيامه (۹۹۱) وجه عسكرا إلى لبنان لحرب الموارنة للشكاوى التى قدمت إليه من طائفة الروم فى سواحل طرابلس بأنهم أخربوا تلك الكور. و فى سنة (۹۹۳) ولى السلطان خسرو باشا إيالة الشام و جاء دمشق و تخاصم مع محمد على باشا الوند الوالى السابق مدة شهر، ثم استقرت الحال على تولية على باشا و انفصل خسرو باشا، و كانت مدة ولايته سبعة أشهر فعزل ثم خلفه جامورجى محمد باشا و بقى فى الولاية أربعة أشهر ثم خلفه على باشا مرة ثانية و بقى واليا أربعة أشهر. و فيها سرقت الخزينة السلطانية فى جون عكار فى طريقها من مصر إلى الاستانة فوجهت الدولة إبراهيم باشا و ضربت على أيدى المعتدين، و سار جعفر باشا حاكم طرابلس و أحرق إقليم عكار، و تقدمت الشكايات من حاكم طرابلس على الأمير محمد بن عساف و على أمراء الدروز بأنهم هم الذين سلبوا الخزينة، فسار إليهم إبراهيم باشا و لما وصل إلى عين صوفر حضر إليه عقال الدروز فغدر بهم و قتل منهم نحو ستمائة رجل. و يقول كامل باشا: إن إبراهيم باشا لما جاء من مصر إلى الشام كان فى عشرين ألف جندى و دعا أمراء الدروز إلى المعسكر فأبى ابن معن أن يجيب الدعوة لأن والى دمشق مصطفى باشا كان استدعى أباه و غدر به و قتله فأقسم هو ألا يجيب دعوة أحد من رجال العثمانيين، فأحرق الجيش العثمانى ۲۴ قرية من قرى ابن معن و قتل الدروز القائد أويس باشا مع خمسمائة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۰

من جنده، و طلب إبراهيم باشا ترحيله فأرسل اليه ابن معن مئة ألف دوكا و ۴۸۰ بندقية و خيلا و أشياء ثمينة، و لما تسلمها الوزير العثمانى أمر بإحراق ۱۹ قرية من قرى ابن معن و أعدم ثلاثمائة من رجاله، و فى خلال ذلك كان الأسطول العثمانى أخرج إلى صيدا أربعة آلاف جندى و ضرب الساحل و أخذ ثلاثة آلاف أسير. قال البورينى: إن إبراهيم باشا لما خرج من مصر خرج بأموال عظيمة و تحف كثيرة منها أنه جعل للسلطان مراد تختا من الذهب مرصعا بالجواهر العظيمة و رجع و معه عساكر مصر، و جمع عساكر الشام و حاكمها إذ ذاك أويس باشا و كبس جبل الشوف فقتل و نهب و حرق و أخذ منهم أموالا جمة و حاصرهم محاصرة عظيمة حتى إن أميرهم قرقماز بن معن مات قهرا.

و فى سنة (۹۴۴) أراد جماعة من أقارب الأمير على الحرفوش صاحب بعلبك أن ينزعوا حكومتها من يد أبى على الشهير بالأقرع بن قنبر لأنه من غير أولاد الأمراء، و حكومة بعلبك متوارثة لبنى الحرفوش، فعرف ابن الأقرع ما دبّر له فجاءه ألفا رجل جمعهم بنو حرفوش من كسروان و الشوف و عين دارة و أرادوه على أن يخرج بعياله و بمن يلوذ به حيث شاء فأبى إلا قتالهم، و استنجد بالأمير قرقماز بن الفريخ أمير البقاع و بغيره من التركمان و العرب فولى الدروز هاربين فتبعهم أهل بعلبك يقتلونهم، و قتلوا منهم ألفا و ثمانين قتيلا و لم يقتل من جماعته سوى شخص واحد. قال البورينى: و كان أصلح له و لجماعته طعاما قبل المعركة فقاتل أعداءه و رجع و الطعام لم يبرد و أرسلت الرؤوس لدمشق لتعرض فيها. ثم قتل على بن الحرفوش ابن الأقرع و ندم على قتله، و أخذت الدولة بعد ذلك الأمير ابن الحرفوش إلى دمشق بالأمان و قتلته و قتلت معه عسافا الكذاب الذى ادعى انه ابن طربای أمير اللجون.

بنو عساف و بنو سيفا و ابن فريخ و خراب البلاد:

و فى سنة (۹۹۹) جمع الأمير محمد بن عساف الرجال و سار لطرد يوسف باشا بن سيفا من عكار، فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله و كمن له فى العقبة بين البترون و المسيلحة و قتله هناك، و لم يكن له ولد فانقطع نسله، و كان لبنى

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۱

عساف فی کسروان ۲۳۲ سنهٔ فانقرضت دولتهم تلک السنهٔ. ذکر المؤرخون فی حوادث سنهٔ (۹۹۹) أن منصور بن فریخ أعید إلی لواء صفد و أعطی قرقماز لواء نابلس و صاحبه الدالی علی لواء عجلون، و ذلک بالتزام مال لجههٔ السلطنهٔ قدره ثمان کرات کل کرهٔ مائهٔ ألف دینار غیر ما ینوبها من الکلف. و قد خرب ابن فریخ هذا کورا کثیرهٔ و قتل خلقا، و کان فی أول أمره بدویا من خدام ابن الحنش فترقی به الحال إلی أن التزم مالا عظیما علی لوائی صفد و نابلس و إمارهٔ الحج و عمر عمارات عظیمهٔ بالبقاع بقریهٔ قب الیاس، و شرع فی عمارهٔ دار عظیمهٔ خارج دمشق و استعمل فیها العملهٔ بالسخرهٔ، و قد خنق فی قلعهٔ دمشق لظلمه و تخریبه العمالات التی استولی علیها خصوصا البقاع و صفد و نابلس.

و فی سنهٔ (۱۰۰۰) أمر قاضی دمشق مصطفی بن سنان بقیام النواب من المحاکم و إغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد کلها، و سبب ذلک أن الدفتردار محمودا ارتشی من ابن الأقرع بخمسهٔ عشر ألف دینار و ولاه علی بعلبک بدل ابن الحرفوش فأدی ذلک إلی خراب بعلبک ظاهرها و باطنها، و رحل أکثر أهلها حتی تعطلت الأحکام الشرعیهٔ بها و عتا بها ابن الأقرع و أتباعه و صادر الناس مصادرهٔ لیوفی بها المال الذی التزم به للسلطنهٔ.

و کان المکس فی هذه الحقبهٔ حتی علی الخمور و الخمارات یتقاضاه کل من کان باشا دمشق یلتزمه صاحب الشحنهٔ و هو من کبراء الانکشاریهٔ بمال کبیر یدفعه للباشا و یحرق الأخضرین فی جبایته، و کان من الولاهٔ فی ذلک الدور فی الشام الصالح و الطالح مثل سلیمان بن قباد باشا الذی تولی نیابهٔ القدس و قطع دابر المفسدین ثم تولی محافظهٔ دمشق (۹۹۰) و کان ینوع العذاب للسراق و قطاع الطریق.

و منهم من خلفوا آثارا مثل خسرو باشا و عادلی محمد باشا و بهرام باشا من ولاهٔ حلب فإنهم بنوا مدارس و جوامع فخمهٔ فی الشهباء و منهم لالا مصطفی باشا الذی ولی دمشق سنهٔ (۹۸۱) خمس سنین و قد مدحه ابن بدیر و المقار و وصفه هذا بأنه صاحب الخیرات و الحسنات و أنه عمر تحت القلعهٔ بدمشق الخان و الحمام اللذین لا نظیر لهما و أثنی أیضا علی مراد باشا الذی

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۲

تولی دمشق سنهٔ (۹۷۶) و عمر جامعا فی السویقهٔ المحروقهٔ و هو صاحب خیرات و حسنات أیضا.

و أثنی المؤرخون علی أحمد بن الأمیر قانصوه الغزاوی الساعدی الذی تولی إمارهٔ عجلون و ما والاها من کور الکرک و الشوبک بعد وفاهٔ أبیه، و باشر الإمارهٔ فی هاتیک النواحی فی زمن سلطنهٔ مراد بن السلطان سلیم و قالوا: إنه کان قلیل الأذی للرعایا و هو من قوم لهم قدم فی الإمارهٔ فی هاتیک الدیار، کانوا فی زمن الشراکسهٔ أمراءها و کان من أجداده محمد بن ساعد أمیرا فی جبل عجلون.

و منهم درویش باشا نائب دمشق و صاحب الجامع المنسوب الیه و خان الحریر (۹۸۷) و من ظلمتهم والی حلب حسین باشا المتوفی (۹۴۹) کان کثیر القتل سفاکا للدماء علی صورهٔ قبیحهٔ من تکسیر الأطراف و الإحراق بالنار و المحرق حی و غیر ذلک، متناولا للرشی لا نفع له سوی مضرهٔ اللصوص، و من سفاکیهم العظام سنان باشا فاتح الیمن و صاحب الجامع المنسوب الیه بدمشق و قد ذکر ابن المقار جریدهٔ مخلفاته التی أرسلت إلی الاستانهٔ بعد موته فإذا هی تساوی بضعهٔ ملایین من الدنانیر. و قد قال مؤرخو الترک: إن الخیرات التی قام بها سنان باشا فی ممالک مختلفهٔ من جوامع و مدارس و تکایا و خانات تقدر نفقاتها بملیونی لیرهٔ ذهب بسکهٔ زماننا، و إن ما عمره من المعاهد و المبانی الفخمهٔ فی الأقطار التی نزلها تناهز المئهٔ. لا جرم أنه من العتاهٔ الطغاهٔ الذین یجیزون خراب الولایات لیعمروا جیوبهم و خزائنهم، و أعمالهم الخیریهٔ قد تأتی بالعرض أو لحب الشهرهٔ. و أقبح بصدقهٔ أو عمل خیر یکون أصل ما أنفق علیه من قتل الأنفس و المال الحرام.

حالهٔ البلاد فی الحکم العثمانی:

حکم الشام فی هذه الحقبهٔ من الزمن أی مدهٔ ۷۸ سنهٔ أربعهٔ من ملوک آل عثمان و هم سلیم الأول و سلیمان القانونی و سلیم الثانی و

مراد الثالث، و ظلت روح الدولة فى هذه الديار لم تتغير. و لئن جاء فيهم واضع القوانين المدعو بالقانونى السلطان سليمان و طال عهده على ما لم يقع له مثال فى تاريخ هذه الدولة، فإن الشام كانت حاله بعد الفتح العثمانى تنتقل من سىء إلى أسوأ، و الوالى أو

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۳

الولاة فى هذه الديار يكونون على الأغلب ممن لا ذمم لهم و لا قدرة إلا على جلب المغانم لأنفسهم، و إزهاق الأرواح فى ذاك العصر من الأمور الهينة التى لا تستغرب.

بعد الفتح العثمانى و اندحار المماليك فى مرج دابق و الضرب على أيدى العصاة فى فلسطين، كان الرجاء معقودا أن تخلد الشام إلى الراحة و يرفرف عليها طير السعد، فزادت المكوس و الضرائب على وجه قاس، و كثر فساد جيش الدولة من الانكشارية و السباهية، فكان يأتى على الأخضر و اليابس فى المدن و القرى، خصوصا إذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتى فيها، و هناك يزيد الاعتداء على البيوت و الأعراض و الأموال. و ربما تخطفوا النساء و الأولاد فى الأزقة رابعة النهار، و فى أول حكم السلطان سليمان أى بعد أربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالى فهلك كثير من الأبرياء فى دمشق و حلب، و ارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتنة و الضرب على يد الثائر من الشدة ما عج بالشكوى منه كل إنسان.

و يمكن حصر مصائب هذا الدور فى أمور ثلاثة: ظلم الوالى و يكون فى الغالب عاتيا مرتشيا، و ظلم الجند فى حلهم و ترحالهم، و شقاء الديار بصغار الأمراء من أهلها، فى الجبال و السهول، و كبار أرباب النفوذ فى المدن.

و هذه الطبقة تطورت تطورا جديدا فى عهد العثمانيين فكانت من أكبر الأسباب فى فساد البلاد، و لو صلحت و سلمت من ظلم بعضها بعضا لما استطاع الوالى التركى و القاضى التركى و القائد التركى أن يعملوا مباشرة فى هذا القطر عملا مضرا. و أهمّ من هذا و ذاك أن الدولة العثمانية على عهد عزها لم تفكر إلا فى الفتوح، و فى حرب من يجاورها من صغار الأمراء و الملوك، حتى إذا كانت أيام إدبارها و هى تبدأ من أواخر سلطنة سليمان القانونى، كانت همتها مصروفة إلى قمع الفتن الأهلية، ورد عادية أعدائها عن مملكتها الواسعة.

إن ابن الشام لا يهتم كثيرا إذا بلغت جيوش الدولة العثمانية أواسط أوربا فى فتوحها و فتحت بودابست و أشرفت على فينا، و إذا فتح سليمان زهاء ثلاثمائة حصن و قلعة، و أصبح اسمه فى الغرب مضرب الأمثال فى الرهبة، فكانت بعض الأمهات يخوفن أبناءهن باسمه إذا أردنهم على الرقود و الكف عن البكاء،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۴

و لا يهتم ابن الشام أيضا إذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من أموال المغانم و المغارم، ما دامت طرق الجباية عنده منهكة لقواه، و ما دام الولاة يسفون لأخذ المكوس لأنفسهم من الحانات و من المسكرات، و ما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات و المومسات، و ما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل إليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان و الإيجار، و ما دام الأمن مختل النظام و أهل البادية و لصوص الأعراب على عاداتهم فى السلب و النهب، و من المتعذر أن ينتصف المظلوم من الظالم، و أن تعمل الدولة فى باب العمران جزءا مما تأتى فى تخريبه.

وضع السلطان سليمان قوانينه و ما ندرى إذا كانت وصلت إلى هذه الديار، وهب أنها انتهت إليها فهى فى السجلات محفوظة، لم يطبق منها إلا ما لا ينفع العلم به و لا يضر الجهل بمضامينه. و ما دام القانون السماوى الذى عملت الشام به منذ الفتح الإسلامى غير نافذ على ما يجب، فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم و هو يتعذر تطبيقه و إنفاذه؟ بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات و أخذت تلقى الشغب بين العلماء، و ذلك برتب اخترعتها لهم و جرايات أدرتها عليهم، فزادت لأجل هذه النفقات الضرائب و الخراج على الأمة و كثر التنافس بينهم، و قلّ القوالون بالحق من رجال العلم، و أنشأ معظمهم يدلسون و يوالسون و يمتدحون السلطان مهما ضل و غوى، و سهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب و الرواتب أن يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى

بقتل الأبرياء ممن تغضب عليهم الدولـة، و كان الذين يقتلون كل سـنة على هذه الصورة عددا من الناس لا يسـتهان به و فيهم العاقل و الدراكـة، و كل من فى قتله راحـة للدولة أو مصـلحة يتوهمها السـلطان و بعض الزبانية الطغاة من ولاته، و قد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر أى مدة ۷۸ سـنة خمسة و أربعون واليا و على حلب سبعة عشر، و لم يحس الناس بتبدل نافع فى حكم العثمانيين من عهد المماليك حتى بعد ثمانية عقود من السنين.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۵

العهد العثمانى «من سنة ۱۰۰۰ الى ۱۱۰۰»

عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن:

دخل القرن الجديد و الشام تسير من بؤس إلى بؤس، و تعاقب تبدل الولاة عليها و السعيد منهم من كان يحول عليه الحول، و أكثرهم يقيمون فيها أشـهرا ثم يصـرفون و يستبدل غيرهم بهم، و منهم من كان يقيم أياما و منهم سبعة أيام و منهم ثلاثة، و تعاقب على دمشق خلال هذا القرن واحد و ثمانون واليا و على حلب تسعة و أربعون واليا، فكان الوالى لا يتمكن من الإصلاح إن أراده و قلبه متعلق أبدا بثبات منصبه، و الغالب أنه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعـة ليوفى ما عليه من المقرر لجماعة الاسـتانة من الأموال، و كان الولاة يبتاعون الولايـة ابتياعا و المزايـد الأكبر هو الـذى توسـد إليه قال راسم فى تاريخه: أمر السـلطان مراد أن يكتب إلى أحمد باشـا كوجك والى الشام بأن يدفع إلى السلحدار باشا عشرين ألف ليرة و يبقى فى منصبه فاضطر الوالى أن يؤدى المبلغ.

و من أهم أدوات التخريب فى هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد الاعتدال و كثرة اعتدائهم على الرعية، يستطيلون على أموالها و أعراضـها و يثلمون شرفها و يذلون أعزتها، و هم القوة القاهرة و أذاهم لاحق بالكبير و الصغير. و كثيرا ما حاول الولاة أن يخففوا من غلوائهم ليسـتأثروا بالقوة دونهم أو يرفعوا عن عاتق الأمة التعسة بعض شـرورهم، فيسفر قتالهم عن زيادة إيصال الشرور إلى الناس على ما يأتى تفصيله فى هذا الفصل المغموسة حوادثه بالدماء.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۶

كان المتغلبون على أكثر البر فى أوائل القرن، الأمير شديد بن الأمير أحمد حاكم العرب من آل جبار و كان كلقبه و اسمه ظالما جبارا عنيدا.

قال كاتب جلبى: و ما زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لأمراء العرب و أمراؤهم هم عرب آل جبار و هم قبيلتان آل حمد و آل محمد يمتد حكمهم الى أرجاء حلب و الرقة. و كان قرقماز المعنى فى لبنان، و أحمد بن رضوان فى غزة بعد قانصوه أمير عجلون و ما والاها من الكرك، و الأمراء بنو الحرفوش فى بعلبـك، و الأمراء بنو شـهاب فى وادى التيم، و أحمـد بن طربـاى أمير اللجون فى نـابلس، و منصور بن فريخ البدوى على البقاع تغلب عليه بعد ابن الحنش و حكم نابلس و صـفد و عجلون و انحاز إليه جماعة من جند دمشق، و أخاف الـدروز ثم شن الغارة و قتل منهم مقتلة عظيمة، و قد خرب العمران و قتل الخلق حتى أخذه وزير دمشق و قتله فى سـنة (۱۰۰۲) و ذهب على حصار قلعة الشـقيف النفوس و الأموال، حاصـرها والى دمشق و نازل قلعتى الشـقيف و بانياس، و بلية القلاع كبلية المدن غرض لهجمات المهاجمين فقد أخذ المحارزة قلاع القدموس و العليقة و المينقة مرارا، و كان الإسماعيليون يستردونها بعد مدة، و فى سنـة ألف تقريبا هجم الإسـماعيليون على القـدموس عنـد ما كان العلويون مشـغولين بالعبادة فى يوم الغدير و قتلوا من المشايخ ثمانين شخصا عدا العوام و تملكوا القدموس (قاله فى تاريخ العلويين).

و فى سنة (۱۰۰۳) توفى مراد الثـالث و خلفه ابنه محمـد الثالث فقتل يوم جلوسه تسـعة عشـر أخا له و عشـر جوار حاملات من أبيه ثم ابنين له، و كان مع ذلك على روايـة المحبى صالحا عابـدا ساعيا فى إقامـة الشـعائر الدينية و أوصافه كلها حسـنة و هو مظفر فى وقائعه

عالى الهمة. و لم ينل الشام شيء من تدين محمد الثالث، و طالبت الحكومة الأهلين بأموال سنتين فلقوا شدة و عنتا.

ذكر المقدسى فى حوادث سنة (۱۰۰۴) أنه جاء ساع من الباب العالى يأمر بأن يجتمع العلماء و الصلحاء و المشايخ و الفقراء و أولاد المكاتب فى الجامع الأموى، و يقرأوا القرآن و يدعوا لعساكر الإسلام بالنصر، و ما أعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم المذكورين و طلب الدعاء منهم، فليت شعرى بأى لسان يدعون و قد اشتهر أنهم يطالبون الرعايا بعوارض سنتين جديدة و عتيقة و طالبوا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۷

اليهود بمال عظيم اه و قال أيضا فى حوادث سنة (۱۰۰۵). إنه استقر فى دمشق كيوان منشئ الظلم بالشام قائدا بباب صاحب الشحنة، فشرع يصادر و يسلب، و كثرت القتلى فى أزقة دمشق، و كان الإنسان يمشى فلا يسمع إلا من يقول غرمونى أربعين قرشا و من يقول سبعين قرشا و ثلاثين و عشرين و أكثر و أقل. و اصطلم الناس من كثرة الظلم و بقى من يخشى الفضيحة يحمل الجزية إلى كيوان المذكور قبل أن يرسل إليه. هذا ما كان يجرى فى عاصمة الشام على مرأى و مسمع من القريب و الغريب، فما بالك بما كان يجرى فى الأقاليم التى تقل فيها المراقبة و تضعف المقاومة، فقد تهيأ لأخبارها هنا من دونها أو بعضها حتى وصلت إلينا، و هناك ضاعت أخبارها لقلة المدونين.

و ظهر فى أيام أحمد مطاف باشا كافل حلب (۱۰۰۵- ۱۰۰۸) فساد كثير من العربان فى أنحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتتلوا فانهزم عسكر حلب و كانوا ألف فارس و أخذ عرار أمير العرب يتبعهم و يقتل منهم و يغير عليهم.

و فى سنة (۱۰۰۷) كانت الواقعة فى نهر الكلب بين ابن معن و ابن سيفا فانكسر ابن سيفا و تشتت جيوشه، و تولى فخر الدين المعنى كسروان و بيروت.

و استولى يوسف باشا سيفا على جهات طرابلس لما أهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركمانى، و استقل بها و أخرج بواسطة عسكر السكبان جند الانشكارية من عمالته و نكل بهم و صار له بذلك نفوذ و سلطان.

و قال نعيما فى حوادث سنة (۱۰۰۸): إن عسكر الانكشارية فى دمشق جاءوا حلب بحجة جباية أموال الدولة، و تسلطوا على فقرائها و عملتها و تجاوزوا الحدود فى الاعتداء، و أساءوا استعمال سلطانهم فى الرعية، فقطع والى حلب رأس سبعة عشر رجلا منهم، و دام الشقاق بين الأهالى و الانكشارية مدة طويلة أدى إلى سفك دماء كثيرة بغير حق اه. و من ذلك اعتداء خداويردى قائد حلب على الناس و فتكه و نهبه و تعديه حتى ضجر منه أهاليها و حكامها، حين قامت الحرب بينه و بين نصوح باشا، و بينه و بين ابن جانبولاذ، و كان هو و أحفاده قد عاثوا فى الأرض فسادا و منه نشأ طغيان العسكر الشامى.

و من فتن هذه الأيام خروج عبد الحليم اليازجى رأس جماعة درويش

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۸

الرومى حاكم صفد، و إرسال خسرو باشا نائب الشام عسكرا إلى درويش ليسلم الولاية إلى آخر، فقاتل اليازجى عن مخدومه بالسيف فأخذ درويش إلى دمشق و صلب بأمر السلطان. أما اليازجى و جماعة درويش فساروا على ساحل البحر إلى طرابلس ثم إلى جانب حلب و دخلوا مدينة كلز فتنبه لهم نائب حلب و أرسل جيشا لمحاربتهم، فقتلوا من أصحاب اليازجى مقتلة عظيمة، و خرج بمن بقى معه من أصحابه المفلولين، و ما زال يحارب جيوش السلطنة فى الأناضول حتى هلك سنة (۱۰۱۰).

و فى سنة (۱۰۱۱) باغت الأمير يونس بن الحرفوش جبة بشرى، فلما بلغ ذلك يوسف باشا سيفا جمع السكبان الذين عنده و هاجم مدينة بعلبك فاجتمع ببيت الحرفوش فى القلعة، و نهب بنو سيفا بعلبك و حاصروا قلعة حدث بعلبك خمسين يوما و ملكوها ثم نادوا بالأمان. و فى سنة (۱۰۱۴) كانت وقعة جونيه بين يوسف باشا سيفا و الأمير فخر الدين المعنى فانكسر عسكر سيفا.

عهد أحمد الأول و فتنة ابن جانبولاذ و غيرها:

فی سنة (۱۰۱۲) توفی محمد الثالث و خلفه أحمد الأول و لم یتغیر شیء فی الشام و غایة الأمر أن الخوارج فی أیام السلطان الجدید اشتدت شوکتهم فنال الأمة منهم کل حیف، و دخل القطر فی هرج و مرج. و فی أیامه ظهرت الخوارج فی جهات حلب و ما زالت الأمور فی تخبط حتی خرج جانبولاذ و ادعی السلطنة و اضطربت الأحوال علی ما سیجیء. قال القرمانی: و فی أیام هذا السلطان قام الطغاة و البغاة، و انمحت من الوجود أمهات الأمصار و شملها البوار، أما القری و القصبات و الرساتیق و المزدرعات فأکثر من أن تحصر.

و قال العرضی: کانوا یرسلون من قدیم الزمان فی دولة بنی عثمان شرذمة من عساکر دمشق و علیهم شوربجی بحوالات أموال السلطنة فیحصل لهم الانتفاع و یخدمون عند الدفتردار و فی دار الوکالة و فی باب القنصل الفرنجی و فی کل مدة یرسلون غیرهم و علیهم شوربجی، حتی قطن بحلب أعداد کثیرة منهم و اتسعت أموالهم و کبر جاههم، و استولوا علی أغلب قری السلطنة یعطون مال السلطان عن القریة و یأخذون من أهلها أضعافا مضاعفة،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۳۹

و تبقی أهل القریة جمیعا خدمة لهم و جمیع ما یجمعونه لغیرهم لا لأنفسهم.

و من الکوائن أن خارجیا من السکبانیة اسمه رستم جاء إلی کلز و معه من البغاة أجناد کثیرة، و کان ضابط کلز عزیز کتخدا من جماعة حسین باشا بن جانبولاذ أمیر الأمراء بحلب، فبعث و استنجد بعسکر حلب و منهم العسکر الجدید فخرجوا لنصرته، فتقابلت الأجناد و قامت بینهم سوق الحرب و الضرب فانتصر رستم علی عسکر کلز و حلب و قتل عزیز کتخدا و قتل من العسکرین کثیر و ولوا منهزمین فنهب الخارجی کلز و صادر أعیان القری.

و لما ولی نصوح باشا نیابة حلب- و کان متغلبا فی حکمه عسوفا قوی النفس شدید البأس کما قال المحبی- کان لجند دمشق أی الانکشاریة الغلبة و العتو یذهب منهم کل سنة طائفة إلی حلب و ینصب علیهم قائد من کبارهم و کان بعض عظماء الجند قد تقووا فی حلب و فتکوا و جاروا خصوصا طواغیتهم خداویردی و کنعان الکبیر و حمزة الکردی و أمثالهم، حتی رهبهم أهلها و صاهرتهم کبراؤها، و استولوا علی أکثر قراها، فلما رأی نصوح باشا ما فعلوه حتی قلّت أموال السلطنة، و صارت أهالی القری کالأرقاء أجلاهم عن الأقالیم و وقعت بینه و بینهم فتنة بل فتن، و عجز عن إخراجهم فاستعان بحسین بن جانبولاذ فبعث هذا ابن أخیه الأمیر علی بعسکر عظیم، فاستولی نصوح باشا علی قلعة حلب و وضع متاریس تحتها و استعد للقتال، فأخذ العسکر الدمشقی باب بانقوسا و جمعوا جموعهم، و هم لا یعلمون أن حسین باشا جانبولاذ بعث عسکره، و دخل الأمیر علی فی الیوم التالی بالعساکر المتکاثفة فتبعهم نصوح باشا و الأمیر علی إلی قریة کفر طاب فوقع بینهم حرب فانهزم الدمشقیون بعدما قتل منهم جم غفیر. ثم خرج نصوح باشا فی عسکره إلی کلز فقابل حسین باشا بعسکره و التقت الفئتان فانکسر نصوح باشا و قتل أکثر عسکره و دخل حلب منهزما و أخذ فی جمع الأجناد و بذل الأموال لتکثیر العدد و الأعتاد. و بینا هو علی ذلک جاء الأمر بأن حسین باشا عین کافلا للممالک الحلبیة و عزل نصوح باشا، فلبس نصوح باشا جلد النمر، و امتنع من تسلیم حلب لحسین باشا، و أقبلت بعد أسبوع عساکر الوالی الجدید حسین باشا إلی قریة حیلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب فانکسر أیضا،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۰

و نزل حسین باشا بعساکره فی أحیاء حلب خارج السور و أغلق نصوح باشا أبواب المدینة و سدها بالأحجار، و فتح باب قنسرین و حرسه، و قطع حسین باشا الماء عن حلب و منع المیرة و الطعام عن المدینة، و نصب نصوح باشا المتاریس علی الأسوار وصف عسکره علیها مع المکاحل، و قامت بین الوالیین حرب شعواء، و أخذ حسین باشا فی حفر الخنادق و الاحتیال علی أخذ البلدة، و أنشأ نصوح باشا یحفر السرادیب، و عم الحلبیین البلاء من المبیت علی الأسوار و حفر السرادیب، و مصادرة الفقراء و الأغنیاء کل یوم و لیلة لطعام عسکر السکبان و علوفاتهم، و أغلقت الدکاکین و تعطلت الصناعات، و حرقت الأخشاب للطعام و القهوة، و اشتد غلاء

الحاجيات و عدم قوت الحيوان و الإنسان و استمر الحصار نحو أربعة أشهر و أياما، ثم تصالح نصوح باشا و حسين باشا فخرج الأول و استولى حسين باشا على الديار الحلبية، و شحنها بالسكبان و صادر الأغنياء و الفقراء لأجل علوفة السكبان.

و لما قتل حسين باشا خرج ابن أخيه على عن طاعة السلطنة، و جمع جمعا عظيما من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف، و منع المال المرتب عليه، و قتل و نهب فى تلك الأطراف، إلى أن تعهد ابن سيفا صاحب عكار للسلطنة بإزالة الأمير على عن حلب فجمع له الجند من دمشق و طرابلس و التقى بابن جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيفا، فاستولى ابن جانبولاذ على مخيمه و مخيم عسكر دمشق و استولى ابن جانبولاذ على طرابلس، و استخرج الأموال من أهلها و أخذ دفائن كثيرة لهم، و لم يستطع فتح قلعتها، ثم سار مع حليفه ابن معن و كان هو و ابن شهاب و ابن الحرفوش خرب بعلبك و أحرق قراها، و خرب ابن جانبولاذ البقاع و وصل إلى دمشق، و اقتتل ابن جانبولاذ مع العسكر الدمشقى فانفل العسكر الدمشقى و أرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق، و استمر النهب فى أطرافها ثلاثة أيام، ثم سار إلى حلب و جاءته الرسل من السلطنة تقبح عليه فعله فى دمشق، فكان تارة ينكر فعلته، و طورا يحيل الأمر على عسكر دمشق، و يشرع بسد الطرق و يقتل من يعرف أنه سائر إلى أطراف السلطنة لإبلاغ ما صدر منه، حتى أخاف الخلق و نفذ حكمه من أدنة إلى نواحى غزة، و صاهر ابن سيفا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۱

فامتثل هذا أمره، و انقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنتين، و كان ابن سيفا بعد أن غلبه ابن جانبولاذ على دمشق و نهب ولايته التجأ إلى أحمد بن طربای الحارثى أمير لواء اللجون. قال القرمانى: إن ابن جانبولاذ لما ولى حلب جمع كل شقى من القبائل و العشائر، ليأخذ ثأره من جماعة الإنكشارية فالتقوه فى مدينة حماة و معهم محمد باشا الطواشى نائب دمشق و عامة الجيوش من الكماة، فانهزم عسكر الدولة و استمر ابن جانبولاذ فى أثرهم إلى حدود دمشق فاستقبله الأمير فخر الدين بن معن بمن معه من الدروز و طائفة السكمانية، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم.

و لما حدث ما حدث من الفتن و الغوائل عهد السلطان إلى مراد باشا أن يعيد الشام إلى حكم الدولة لأنه ثبت أنه خرج عن حكمه، فجاء فى عشرين ألف فارس و عشرين ألف راجل و قيل فى أكثر من ذلك، فبرز إليه ابن جانبولاذ فى أربعين ألفا فغلب ابن جانبولاذ و هرب إلى الاستانة و أقنع السلطان بحسن حاله، و جاء مراد باشا بعد أن كسر ابن جانبولاذ فى سهل الروج قرب المعرة و قتل من جماعته أحد و عشرين ألفا و تسلم قلعتها بالأمان، و بالغ فى قطع شأفة الأشقياء و السكبانية. و كان على باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب و رفع إليها عياله و أسبابه و ولى عليها أطلى طوماش باشا و أمره بحفظها لمدة ثلاثة أشهر ريثما يرجع إليه بالنجدة من سلطان العجم، ثم تجهز للسفر و حال خروجه من أراضى حلب وصل مراد باشا الوزير و معه أحمد باشا حافظ الشام و يوسف باشا سيفا و شددوا الحصار على حلب و افتتحوها، و وعد أطلى طوماش بالنيابة على حلب فاطمأن و سلم القلعة ثم قبض عليه و قتله و ضبط القلعة، و باع عيال على باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشا، ثم وقعت المناداة على المحافظين فقتلوهم فى أماكن مختلفة و أتوا برؤوسهم إلى الوزير و لم ينج منهم إلا القليل، و كان الرجل يقتل العشرة منهم، و مهد الوزير أمور حلب و خدمته أمراء العرب.

و قالوا: إن الأمير فخر الدين فرّ إلى البادية فى جماعة الدروز و العربان بعد تلك الوقائع لأنه أعان الخوارج على السلطنة. و للقيم محفوظ الدمشقى مرتجلا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۲

و مؤرخا واقعة دخول السكبانية مع ابن جانبولاذ إلى دمشق فى أوائل سنة ست عشرة بعد الألف نقلها فى التذكرة الكمالية.

دخل الشام جيوش كجمال قد رغوا

كل كردى غبى بهم الناس لغوا

و دروز و لئام‌لمقال ما صغوا

نهبوا الشام و آذواو على الناس بغوا

نهبوها فى جمادى‌أفحشوا أرخ طغوا

(۱۰۱۶)

و لم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق و حلب بل تناولت بعلبك و البقاع و طرابلس و غيرها. قال النجم الغزى: إن كافلى الشام و طرابلس دخلا على أهل حماة و حمص و أمرا أهلهما بإخلاء المدينتين و كان ابن جانبولاذ فى أثرهما، فدخل هو و عساكره حماة و حمص و نهبوهما و نهبوا قراهما، و اتفق كيوان رئيس سرية دمشق مع ابن معن على العصيان و على مساعدة ابن جانبولاذ، فذهبا إليه و اجتمعا به فى الجون بالقرب من نهر البارد، فاستولوا على حماة و حمص و عكار و جبلة و اللاذقية و الحصن و طرابلس و غزير و بيروت، ثم اجتمع ابن جانبولاذ و ابن معن و كيوان و حاصروا دمشق على ما تقدم قال: و كان الأمر مهولا و اجتمع أكثر الناس بدمشق. و قال ابن المقار فى حوادث (۱۰۱۶): إنه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم السيمانية أظهروا فى الأرض أنواع الفساد، و حدث بين أمراء الشام حروب و فتن عظيمة عم فيها النهب و خربت أكثر البلاد.

و من الأحداث فى تلك الأيام ما رواه مؤرخو لبنان فى حوادث سنة (۱۰۱۶) من أن الجند المشتى «قيشلق» السلطانى تفرق على البلدان من حلب إلى الشوف، و كان عدده نحو أربع كرات و الكرة مئة ألف. كذا قالوا و كانت الناس فى ضيق عظيم من الغلاء و من الضرائب التى كانت على الضياع و الأديار.

و وقع فى زمن تولية كوجك سنان باشا دمشق و كان يتولاها سنة (۱۰۱۷) أن فرقة من عرب آل جبار المعروفين بأولاد أبى ريشة نفروا من العراق فوصلوا إلى تدمر، و انضم إليهم قوم من طائفة السكبانية المنهزمين من وقعة على بن

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۳

جانبولاذ. فعاثوا فى تلك الديار و قطعوا الطريق، و لما ورد من حلب العسكر المصرى الذى كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن قلندر و الأسود سعيد، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان و هرب منهم جمع، و من جملة الهاربين الجماعة المذكورون و كانوا نحو أربعمائة سكبانى، فلما انضموا إلى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق و العرب يضربون بالرماح و السيوف، و أخذوا قلعة القسطل و قلعة القطيفة و نهبوا المعصرة و قتلوا من بها من الرجال و النساء. فلما بالغوا بالقتل و النهب و الغارة و العدوان قصدهم سنان باشا و معه العسكر الدمشقى، و انضم إليهم عرب المفارجة و كبيرهم عمرو بن جبير فأدركوا العرب و السّكبان فى نواحى قلعة القطرانة، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمائة رجل و قبضوا على آخرين و دخلوا بهم إلى دمشق على متون الجمال و على كتف كل واحد منهم خشبة طويلة و هى وتد (خازوق) و فى اليوم الثانى أتلفوهم و فرقوا أجسادهم على أحياء دمشق.

الأمير فخر الدين المعنى و آل شهاب و فتن:

تخوفت الدولة من الأمير فخر الدين المعنى الثانى لتحصينه القلاع و امتداد سلطته فى أصقاع الشام، فأرسلت عليه فى سنة (۱۰۲۰) الحافظ أحمد باشا كافل دمشق و كافل حلب و كافل ديار بكر و كافل طرابلس و أمراء الأكراد فى جيوشهم و نحو النصف من الفرسان فى جيش مؤلف من ثلاثين ألفا، و حاصر ابن معن تسعة أشهر فلم يقدر أن يأخذ قلعة من القلاع، فلما أعيته الحيلة أرسل رجلا من جماعته لمن فى القلاع يقول: أنا مالى عندكم غرض بل إن للوزير الأعظم شأنا مع الأمير فقولوا له أن ينزل إلى خيامنا و عليه أمان اللّه و نأخذ منه دراهم للسلطان و للوزير و نقرّه فى أماكنه فقالوا: الأمير ذهب فى المركب إلى ديار الفرنج فلما تحقق ذلك رضى بنزول أم فخر الدين فقالت:

نحن ما ضبطنا بلدا بغير اسم السلطان، و لا انكسر عندنا مال، فعند ذلك أعطت السلطان مائة ألف قرش و أعطت الوزير خمسين ألفا و

الحافظ أحمد باشا مثلها و انفصل الأمر على ذلك.

هرب الأمير فخر الدين إلى إيطاليا تاركا الحكم فى لبنان و ما إليه لابنه

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۴

الأمير على و أقام فيها خمس سنين و شهرين تعرف خلالها إلى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة فى فلورنسة، و أطلع على طرف من المدنية الأوروبية ثم عاد إلى وطنه بعد مهلك خصمه والى دمشق فاستلم زمام الأحكام و لا سيما المسائل الحربية، بقوة أعظم و تدبير أحكم، مستصحبا معه كثيرا من المهندسين لبناء القلاع و عمل الذخائر الحربية، و كان ابنه الحاكم فى الظاهر و هو الحاكم فى الحقيقة، و أخذ يحصن كوره و يكثر الصلات الحسنة مع الفرنج و لا سيما مع الطليان، و عقد معاهدة دفاعية هجومية مع أصحاب طسقانه كأنه ملك مستقل، فخافت الدولة منه و كانت تعده من قبل عاصيا قوى الشكيمة، و أخذت تحاذره و تنظر إليه نظرها لعاص عارف بمقاتلها، و أنه لا بد له يوما أن يستقل عنها ببلاد الشام، إذ بلغ أتباعه نحو مائة ألف من الدروز و السكبان و لم يستول فقط على الشوف و جبل عاملة بل تعداهما إلى عجلون و الجولان و حوران و تدمر و الحصن و المرقب و سلمية، و سرى حكمه من صفد إلى أنطاكية و ملك نحو ثلاثين حصنا مثل صفد و نيحا و شقيف تيرون و عجلون وقب الياس و بعلبك و المرقب و البترون.

و فى سنة (۱۰۲۱) خرج أحمد باشا بالعساكر من دمشق إلى وادى التيم و نزل فى خان حاصبيا و هرب بيت شهاب أصحاب وادى التيم منها فهدم دورهم و أتلف أملاكهم و نهب حاصبيا (۱۰۲۲) و فى سنة (۱۰۲۳) خرج الحافظ أحمد باشا من دمشق إلى قب الياس و اجتمع إليه حكام صفد و صيدا و بيروت و غزة و حماة و عشائرهم و أمراء الغرب و بعلبك و وادى التيم، فوقع بين أهل الجرد و الغرب و المتن و أهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه أهل الغرب و الجرد و المتن و عسكر الدولة كسرة عظيمة، فأحرق أحمد باشا قصر بيت معن فى دير القمر و كان رئيسهم إذ ذاك الأمير يونس كما أحرق قرية عبيه.

ثم جرت وقعة بين جماعته و جماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة أحمد باشا و قتل منهم نحو خمسمائة قتيل و أكثرهم من السكبان و كان عسكر الدولة نيفا و عشرين ألفا ثم امتنع (۱۰۲۴) يوسف أغا من أن يتسلم حصن الشقيف و حصن ارنون إلى أن يخرج منهما بنو معن أولاد العرب و يتصرف بهما الأتراك تمام التصرف، فشق ذلك على الأمير يونس و أخذ فى

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۵

هدمهما، و لما انتهى الخبر إلى الوزير فرح جدا و أمر بخرابهما، و لبث المسلمون فى تخريبهما أربعين يوما. و جرت (۱۰۲۵) وقائع بين أولاد ابن معن و أصحاب المقاطعات فى لبنان و حرق الشوف و الجرد و الغرب و المتن و هلك كثيرون و كانت النصرة للقيسية خربت بيت معن، و كان بنو تنوخ أمراء الغرب منذ سنة (۵۴۲) يميلون إلى بنى معن، فلما حاربتهم الدولة انتهز على بن علم الدين اليمنى والى الشوف الفرصة و قبض على أعيان المعنيين و قتلهم و استصفى أموالهم، ثم سار إلى قرية عبيه فدعاه الأمراء التنوخيون إلى مأدبة فى سرايتهم فاغتالهم و قتلهم كلهم صغارا و كبارا فانقرض التنوخيون بموتهم.

عهد مصطفى الأول و عثمان الثانى:

فى سنة (۱۰۲۶) توفى أحمد الأول و خلفه مصطفى الأول المعروف بالأبله فخلع بعد ثلاثة أشهر و خلفه عثمان الثانى و لم يجر فى أيامه ما يستحق أن يدون فى الشام اللهم إلا ما كان من حرب بين ابن معن و ابن سيفا (۱۰۲۸) فخرب ابن معن قرية عكار و سرايا بيت سيفا فى طرابلس و خرب هذه كما خرب قلعة جبيل. ثم عاد مصطفى الأول سنة (۱۰۳۱) فتولى الملك أربعة عشر شهرا و خلع بعدها. إذ لم يعد فى الإمكان ستر نقصه الذى كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه فى صورة ولى من الأولياء و ما هو إلا أبله من البلهاء. فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضيا عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين و أرباب النفوذ فى المدن و القرى و السهول و الجبال، و أصبح القطر بلا راع خصوصا بعد الضعف الذى ظهر من الدولة فى العقد الثانى من هذا القرن فى فتنة ابن جانبولاذ و حصار

حصون ابن معن، و تجلى لأذكياء المتغلبة موقف الدولة معهم، فأصبحوا يزدادون فى إرهاق الرعية. و الولاة ليسوا دونهم فى العنت و التخريب و القتل و النهب.

و كان نائب حلب محمد باشا (۱۰۳۱) ظلوما غشوما أخذ أموالا كثيرة من كل قرية من غير سبب، و قضى أن لاتباع البضائع كلها إلا لمن عينه من جماعته ثم تباع من أحد السوقة بعد ذلك، فكان ظلمه مزدوجا على المدنى و القروى، و فى هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۶

و فى السنة التالية (۱۰۳۲) خرب الأمير فخر الدين بن معن كرك نوح و سرعين نكاية ببنى الحرفوش.

عداء على الفرنج و فتن داخلية:

و بينا كان ابن معن يهيء السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم مع أهل الساحل و يكثر سوادهم فى مدنها و لا سيما فى موانيها، و يرخص لهم بتأسيس قنصليات و يدخل المبشرين إلى لبنان، ارتكب ابن سيفا حاكم طرابلس سنة (۱۰۳۲) أمرا عظيما نفر الفرنج من غشيان الموانى لاستبضاع القطن و الحبوب، و ذلك أنه ضبط مركبين فرنساويين كان معهما ثمانون ألف قرش لابتياع بضائع، فأرسل ابن سيفا و أمسك ولدين صغيرين من المركبين و علمهما أن يقولا: إن المركبين للقرصان، و إنهما أخذا فى طريقهما مركب تجارة للمسلمين، و زعم أنه وجد فى المركبين أسبابا لمداخلة المسلمين، و لم يكن ذلك صحيحا و لكنه جعل ذلك طريقا لضبط جميع ما فى المركبين من البضائع و الأموال، و أمسك جميع من فيهما من التجار و النوتية و قتلهم جميعا. و بعد ذلك باع المركبين بثلاثة آلاف قرش. قال الشهابى: و من حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء طرابلس من تجار الفرنج أحد، و توجه أناس من الفرنج إلى الباب العالى للشكوى على ابن سيفا، و لكن لكثرة عزل الوزراء لم يلتفت أحد إليهم و راحت على من راح.

و من الفتن الأهلية ما حدث سنة (۱۰۳۲) من دخول أحمد الشهابى و حسن الطويل بلاد عجلون و مقابلة أهل القرى لهما و تجمع أهالى نابلس و عربها، و حرقت من القرى فارا و الخزبة و حلاوى و كانت من أكبر قرى عجلون، و حرق الأمير على الشهابى قرية سرعين فى البقاع و جميع قرى بعلبك و تحصن أهل بعلبك فى القلعة. و جرت فتنة بين عساكر دمشق و الأمير يونس الحرفوش- و كان هذا ظالما متجاهرا بالظلم- و كرد حمزة سنة (۱۰۳۳) فاغتنم الانكشارية الفرصة و أغاروا على المستضعفين من الأهلين و تعاقب تغيير الولاة و انحاز بعض الخوارج إليهم و نقل الناس أمتعتهم و أثقالهم من خارج مدينة دمشق إلى داخلها مرارا، و حارب العسكر الدمشقى أولاد الحرفوش لإخراجهم من بعلبك.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۷

و كان كيوان أحد كبراء الأجناد فى دمشق خلال هذه المدة ينزع إلى التعدى و لا شكيمة ترد جماحه، و لا وازع يكف من غربه، فأخذ الناس بالتهمة و تطاول إلى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة و المزة من ضواحى دمشق و ضم بعضها إلى بعض، و كان إذا أخذ حصته من مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعا أو كرها، و كان نواب محكمة الباب و أعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث و النسل.

و ذكر الغزى أن كيوان الطاغية أعيا أهل دمشق ظلما و فتنة، و كانت بداية كيوان نهاية أويس ثم تجاوز عنه بمراتب، فطمع هو و قائد الصالحية أولا فى أملاك الفلاحين، و استخلاص ما ملكوه بالشراء أو بالمغارسة، فكان يعمل الحيلة لأحدهم حتى يوقعه فى مخالب صاحب الشحنة و لو بالتهمة و الاستتباع.

و قد اقترف يوسف السقا من الأجناد الدمشقيين ضروب المظالم، و صادر الناس فى أموالهم و عقارهم، و قبض على غالب أعيان دمشق و شيوخها و هرب بعضهم، و اغتصب من تجارها المشاهير و بعض أهلها الضعفاء مالا جزيلا أناف على مائتى ألف دينار و من

التحف و الأقمشة ما لا يحصى. و مثل هذه الشؤون كانت تجرى على مشهد من الولاة و يتغاضون عنها لأنها قد تكون بإيعازهم و هم لا محالة شركاء أولئك الزعماء.

حملات على الأمير فخر الدين المعنى و غيره:

أدركت الدولة أن خطر فخر الدين المعنى على حياتها فى هذه الديار زاد عن سنة (۱۰۲۰) و أنه تأصلت أحكامه بعد عودته من إيطاليا، و ما كانت فى حملتها الأولى و الثانية لتغضى عن تخريب الأقاليم إلا اضطرارا، فساق هذه المرة مصطفى باشا والى دمشق (۱۰۳۳) جيشا على فخر الدين فاستظهر هذا بالأمير محمد الشهابى حاكم وادى التيم كما استظهر حاكم الشام بابن سيفا حاكم طرابلس و ابن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر دمشق قدر بمائتى قتيل و لم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة ابن معن، و كانت الوقعة فى عين الجر (عنجر). و قبض جماعة ابن معن على والى دمشق فجاء الأمير فخر الدين و قبل ذيله، و قيل شفع بالوالى علماء دمشق

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۸

و كبراؤها لدى ابن معن، و رجع عسكر دمشق مفلولين و فى رواية أنهم خامروا على الوالى و أطلق الأمير فخر الدين والى دمشق مكرما، فعاد إلى الفيحاء ينتقم ممن كان السبب فى غزو ابن معن. و هذه الوقعة زادت فى مكانة أمير لبنان فى نظر الدولة و الأمة، و دلت على أنه كان مع قوته عاقلا- بعيد النظر، و أنها عاجزة عن أخذه إلا- بتجهيز جيش عظيم لأنها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخيبة خصوصا و قد عملت محالفته لكوسموس الثانى كبير دوجات طسقانه، و أن فخر الدين لما استظهر بأسطول فرديناند الطسقانى استولى على ساحل الشام و غلب جيش الدولة غير مرة.

و فى سنة (۱۰۳۳) أيضا جلس جماعة الوالى بدمشق على الطرق و معهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه و ينادون عليه «مستاهل لم يقدر أن يرفعها من شدة الخوف» قال المقار: فلما كملوا أرسلوهم إلى اليمن فقتلوا كلهم هناك. و معنى ذلك أن الدولة كانت تريد تجنيد أناس لترسلهم من الشام إلى اليمن فلم تر أظرف و لا أعدل من هذه الطريقة فى التجنيد. و فى سنة (۱۰۳۸) عين والى دمشق شرذمة من العسكر لمنازلة بنى شهاب فى وادى تيم اللّه بن ثعلبة فنهبوا قراهم و أحرقوها.

و قد وزعت الدولة عسكرها على كور الشام ليشتى فيها سنة (۱۰۴۱) و كان جيشا كبيرا فخص دمشق منهم أثنا عشر ألف جندى ما عدا أتباعهم، و كان مأكلهم و مشربهم من أهل دمشق و أقاموا بها أربعة أشهر، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من أهل دمشق خمسين قرشا من كل دار فاضطرب أهل دمشق اضطرابا عظيما. و قال أبو بكر العمرى من قصيدة وصف بها سنة «القشلق»:

قوم من الأتراك عاثوا بهاعلى خيول ضمّر سبق

من جهة الشرق لقد أقبلواو الشر قد يأتى من المشرق

فى رقعة الشام غدت خيلهمو ذلت الأرخاخ للبيدق

أجلوا أهالى الدور عن دورهمبالسيف و الدبوس و البندق

و اتخذوها مسكنا دونهمبالفرش من خز و استبرق

و حملوهم كلفا أعجزتغنيهم جهدا فكيف الفقير

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۴۹

قال المحبى: أن القشلق من عسكر السلطان مراد بن أحمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاءدون الوصول إلى خطة العجم فأمروا أن يشتّوا فى دمشق و أطرافها من القرى و ضيقوا على الناس أمر المعيشة و بالغوا فى التعدى و نهب أموال الناس.

و فى سنة (۱۰۴۳) جاء السردار الأعظم محمد باشا إلى حلب يحمل مرسوما سلطانيا بقتل نوغاى باشا لأنه تهامل فى قتل من يجب

قتلهم من الأشقياء و اكتفى منهم بمصادرة أموالهم، فقتل و أرسل رأسه بلحيته البيضاء إلى جانب السلطنة.

قال نعيما: و هذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلى للدين و الدولة و هو من أقدر الوزراء. و فى هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية و ثاروا بوالى حلب فقتل منهم خمسون و جرح كثيرون، ثم جاء رؤساؤهم معتذرين للوالى بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين فى بوق الفتنة و قتل الجرحى و الهاربين منهم فسكنت الثائرة. و فى هذه السنة خرجت عساكر من دمشق و باغتوا أمير وادى التيم فنهبوها و أحرقوا قراها و باغت صاحبها العسكر الدمشقى فظفر بهم و رجعوا عن أقليمه.

القضاء على الأمير فخر الدين المعنى:

فى سنة (۱۰۴۳) قويت كلمة فخر الدين بن معن الثانى و كانت الدولة منذ ثلاث و عشرين سنة تنظر إليه نظر الخارج عن طاعتها، و حاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لأنه كان بجيشه أقوى من الجيوش التى تساق عليه، و أرضه حصينة بطبيعتها و حصونه كثيرة ممتنعة، و لو لا أن الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لضمت قوى كثيرة من قوتها و أخذته أخذ عزيز مقتدر، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشا من الأناضول بقيادة أحمد باشا الأرناؤدى كافل دمشق فانتصر عليه الأمير فخر الدين فى وقعتين قرب صفد، ثم انتصر عليه القائد العثمانى فى وادى التيم و قتل ابنه عليا و توفى أخوه متأثرا من جراحاته، و كانت أرسلت الدولة عليه أسطولا من البحر فغلب على أكثر سواحله و عاون بنو سيفا و أصحاب الأحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية و مشوا مقابل المراكب على طريق البرفتشت المعنيون،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۰

و كانت الدولة تحاذر من معاونة أسطول البنادقة أو الطسقانيين له، و لجأ الأمير إلى شقيف تيرون فضاقت نفسه و فى رواية أنه هام على وجهه فى الجبال سنة و دل جماعته عليه، ثم عمد إلى مغارة فى جزين فاضطر أن يسلم نفسه إلى الوزير العثمانى فدخل به إلى دمشق بموكب حافل و هو مقيد على الفرس خلفه، ثم حمل إلى الاستانة فقابله السلطان مقابلة لا بأس بها و لامه على أفعاله فقدم أعذاره، و احتج بأنه جمع الرجال لأمور مختصة بالوزراء و النواب و ما قتل غير العصاة على السلطنة، و أن القلاع التى استولى عليها و فتحها كانت بيد العصاة و سلمها للسلطنة فاقتنع السلطان من كلامه و عفا عنه و لكنه أبقاه مخفورا.

و لما قام حفيده الأمير ملحم و كسر جيش والى دمشق و نهب صور و بيروت و عكا صدر أمر السلطان بقطع رأس الأمير فخر الدين و خنق ابنه الأكبر.

و ذكر الشهابى أن الأمير على بن علم الدين اليمنى الذى و سد إليه حكم لبنان بعد أسر الأمير فخر الدين قد ضبط جميع أرزاق بيت معن و قبض على تابعيهم و قتل بعضهم، ثم باغت الأمراء بيت تنوخ و كانوا فى الحمام فى السراى التى تحت القرية فقتلهم و ردم البرج على أولادهم الصغار، و لم يترك من بنى تنوخ ذكرا يخلفهم، و لما بلغ ذلك الأمير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية و ركب على اليمنية فقتل منهم كثيرا و قدر من قتل من الفريقين بنحو أربعمائة نفس، و انهزم الأمير على بن علم الدين إلى دمشق و خرج منها بعسكر نحو خمسمائة رجل و عند ما وصل تحت قب الياس نزل سعيد أحمد أبو عذرا إلى مقاتلتهم برجال العرقوب فى نحو أربعمائة رجل، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم أطبقوا عليه فما سلم منهم إلا القليل، فرجع الأمير ملحم و اختبأ فى الشوف و تجددت عند ذلك الشكايات على الأمير فخر الدين و عندها أمر السلطان بقتله. قال المرادى: إن أملاك الأمير فخر الدين وهبها السلطان مراد إلى أحمد باشا الكوجك، و كان عمر التكية خارج باب اللّه بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته فى بعلبك و صيدا و ريشيا و حاصبيا و كانت أملاكا لفخر الدين.

و بهلاك الأمير فخر الدين وضعف سلطة الأمراء المعنيين استراح الأمراء المجاورون أمثال بنى سيفا فى طرابلس و الأمير أحمد بن طربای الحارثى أمير

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۱

اللجون فی نابلس، و قد وقعت بین هذا و بین الأمیر فخر الدین حروب کثیرة، و کان ابن معن توجه لقتاله ثلاث مرات و رحل ابن طربای إلی الرملة و کان فی کل مرة یکسر عسکر ابن معن و یدحره، و أشهر وقعاته معه وقعة یافا و کان هو و حسن باشا حاکم غزة محمد بن فروخ أمیر نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظیمة و غنم غنیمة وافرة. و حارب مرة بدو الساحل علی نهر العوجا و بدد جموعهم و لکن أهل کورة حارثة فی جینین حاصروه فی قلعة هذه المدینة و أخرجوه منها.

هلک فخر الدین بن معن الثانی بعد أن کاد یستولی علی أکثر الأقالیم بأخذه أملاک بنی سیفا و بنی الحرفوش فی طرابلس و بعلبک، و قد کان واسع الصدر بعید الغور و النظر متسامحا یسیر مع المدنیة سیر تعقل، و أخذ فی آخر أمره یعمر فی بیروت حدیقة للوحوش تقلیدا لملوک إیطالیا، و عمر قلعة صرخد و قلعة شمیمیس و قلعة فوق أنطاکیة و جهزها بالعساکر. فشکته حکومة حلب للباب العالی.

قال المحبی: إن ابن معن بلغ مبلغا لم یبق وراءه إلا دعوی السلطنة.

و علل البورینی سبب أخذ الدولة له أنه أخذ یحصن قلعة الشقیف عدة أعوام و أخذ لواء صفد، فعظم شأنه و ارتفع مکانه و بعد صیته، و کثرت أمواله لأنه تصرف فی أرض ما خطر فی بال أحد من الأمراء التصرف فیها، و کان ملک کفر کنّه و عکا و الساحل و صفد و بلاد ابن بشارة و الشقیف و بیروت و صیدا و و جبل کسروان وجبة المنیطرة و جبیل و أنطلیاس و البترون و الجرد و الغرب و المتن و الشوف و المقیطع و الشحار و البقاع و بعلبک و صور المعشوقة، و حصن قلعة الشقیف وجددها و شحنها بالأرزاق الکثیرة و جعل بها من آلات الحصار شیئا کثیرا و استمر فی ذلک التحصین نحو عشرة أعوام فتفطن له الأمراء و الوزراء.

و قال نعیما: إن قلاع الشقیف و بانیاس و دیر القمر کانت محصنة فی عهد ابن معن فصعب استیلاء الجند العثمانی علیها لما عصی علی الدولة، و إن من قتلوا فی برهة قلیلة من عصاة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف و أحرقت بیوتهم و قراهم، و إن عهده و ما بعده فی الجبل مضی مع الدولة تارة فی حرب و طورا فی سلم و صلح اه. و من الحصون التی رممها و أنشأها قلعة قب الیاس و بانیاس و برج الکشاف فی بیروت و برج البحصاص فی طرابلس و رأس بعلبک و اللبوة و حدث

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۲

بعلبک و الصلت و حیفا و نوله و سمر جبیل و طرابلس و صافیتا و المرقب و حصن الأکراد.

و کانت له فی باب قوة الإرادة آیات منها أنه لما حدث اختلاف بینه و بین بیت سیفا أصحاب طرابلس، أتی بنو سیفا و أحرقوا و نهبوا الشوف فأقسم کما قیل هکذا: «و حق زمزم و النبی المختار لعمرک (لأعمرک) یا دیر بحجر عکار». و هکذا کان فإنه لما فاز علی بنی سیفا و حاصر قلعة الحصن و أخذها و هدمها، جعل الجمال بالألوف تجلب الحجارة من عکار إلی دیر القمر و بنی الدور القدیمة فی الدیر و وزع فی جدرانها من حجارة عکار الصفراء.

کان ابن معن یجمع إلی الحسنات سیئات فمن حسناته أنه کان یمیل إلی عمران إماراته و یتسامح مع الأجانب حتی تکثر صلات الشامیین بهم للتجارة، و کان عنده علی الدوام عشرة آلاف جندی تحت السلاح و یستطیع أن یجند مثلها و قیل: إنه کان یستطیع أن یجند أربعین ألفا. و قد سئل لما کان فی إیطالیا کم یقدر أن یجهز من العسکر فقال: کنت أجمع نیفا و عشرین ألفا ما عدا الذین یتأخرون فی البلاد للمحافظة، و کان یفضل علی الأدباء و العلماء و کذلک کان یفعل خصومه بنو سیفا. أما سیئاته فکان مفرطا بأخذ الأموال من الناس و لا سیما بعد أن زار إیطالیا و تعلم منها البذخ حتی اشمأزت منه رعیته، و قد بلغت جبایته تسعمائة ألف لیرة یعطی الدولة نحو ثلثها و یتمتع بالباقی. و کان نزوعا إلی العلی محافظا علی صلواته مع الجماعة و علی عاداته الإسلامیة حتی فی إیطالیا، و بنی جامعا و مأذنة فی البلدة التی نزلها، و لما کان فی الغرب عرض علیه ملک اسبانیا أن یدین بالنصرانیة و یتولی مملکة أعظم من مملکته فاعتذر بلطف. ذکر هذا مؤرخه الخالدی إلا أن «المعلمة الإسلامیة» تقول: إن الأمیر فخر الدین لما فر إلی لیفورنا (۱۰۲۲) و استقبله کوسموس الثانی الدوق العظیم باحتفال حافل لم یتحقق الأمل الذی کان عقده من العودة فی الحال بجیش معاون من

المسيحيين للقضاء على السلطة التركية فى الشام. و عبثا حاول أن يظهر أن الدروز من نسل مسيحى اسمه الكونت دى درو و أنه هو أيضا من أبناء كودفرى دى بوليون من أمراء الصليبيين. و لم يوفق أن يحمل المسيحيين على إعلان حرب صليبية جديدة. و ربما كانت قواه إذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۳

متكافئة لأن الدولة كانت تعضد ابن سيفا سرا حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن، و لكن شتان بين الرجلين فى الغناء و بعد النظر.

فتن فى الساحل:

و فى سنة (۱۰۴۴) حارب الأمير عساف بن يوسف سيفا الأمير على بن عساف و أحرق بلاد جبيل و المنيطرة و قتل من جماعة عساف كثيرون، و كثرت الحكام و الأحزاب فى لبنان و ظلموا الرعايا و أخذوا المال الأميرى مرتين، و قبضوا على رؤساء القرى و شددوا عليهم ليخبروا عن أرزاق بيت معن و بيت الخازن، و فى السنة التالية باغت الأمير على بن سيفا قرية أميون و أحرقها، فجمع خاله الأمير عساف الرجال و دارت الحرب بينهما فى أرض عرقة فانكسرت جماعة الأمير على، ثم أعاد هذا الكرة على خاله فى عناز من بلاد الحصن فظفر به الأمير عساف و قتل من جماعته مقتلة كبيرة و اشتد الضيق بالناس.

و فى سنة (۱۰۴۶) قصد أحمد الشمالى اغا الانكشارية مقاتلة الأمير على بن علم الدين لتأخره فى أداء المال السلطانى و معه متولى صفد و بيروت و طرابلس فانهزم قدامهم، و رحل معه يمنية الغرب و الجرد و المتن و الشحار و الشويفات بعيالهم و مواشيهم و كانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا كسروان، و انهزم من قدامهم القيسية و كسروهم فى مرحاتا، ثم طردوهم من كسروان فساروا إلى عكار و سار عسكر الدولة على طريق الساحل و دخلوا طرابلس و خرجوا إلى نهر البارد فانهزموا من أمامهم و لحقوهم بأرض الجون فكسروهم و سبوا حريمهم و أخذوا مواشيهم، ثم إن طروبه البدوى تداخل بالصلح بين الأمير عساف و ابن أخته على فرجع ابن علم الدين إلى بيروت. و لما حدث ذلك الاختلال فى الساحل ظهر الأمير ملحم بن معن و حكم الشوف، و جمع بيت الحرفوش سكمانهم و عربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج إليهم نائب دمشق بعسكره و وقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش و قتل منهم مقتلة عظيمة. أى إن الحال لم تستتب فى لبنان بهلاك الأمير فخر الدين المعنى، و قد جرت شؤون كثيرة من خراب و قتل و ئشنق فى السنين التى أعقبت قتله حتى آخر عهد مراد الرابع.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۴

و كان الوالى بدمشق سنة (۱۰۴۶) درويش محمد باشا الشركسى ففتك بأهلها و تجاوز فى ظلمهم الحد و فى آخر أيام (۱۰۴۷) اجتمع العامة على القاضى و اشتكوا من الظلم و بالغوا فى التوسل، فلما بلغه ركب و كان مخيما فى الوادى الأخضر بدمشق و أتى مغضبا و سفك دم بعضهم ثم عزل و صار أمير الأمراء بطرابلس. و هذه القاعدة مما كانت تسير عليه الدولة فى نقل الولاة فمن ترتضيه و يوافق مصلحتها تنقله إلى مكان آخر إذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت و ثبتت لديها، كأن الولاية الأخرى ليست من ملكها و لا يهمها أمر أهلها، و أن الوالى بمجرد نقله يغير أخلاقه.

إبراهيم الأول و سفاهته:

توفى مراد الرابع سنة (۱۰۴۹) بعد أن حكم سبع عشرة سنة و كان من الشدة على جانب عظيم منهمكا فى شهواته و لذاته، قيل إنه قتل مائة ألف إنسان منهم خمسة و عشرون ألفا بنفسه و أمام عينيه و لكنه أمن على حدود الولايات الشرقية باستيلائه على بغداد، و هو الذى قضى على فخر الدين المعنى الثانى، و لو لا ذلك لاستقل هذا بالشام و ربما امتد حكمه إلى أبعد من ذلك من الأقطار و الممالك، و لم ترتح هذه الديار بعد مراد الرابع، كما أنها لم ترتح على عهده فخلفه السلطان إبراهيم و كان خالعا ماجنا فسدت

المملکة فی أیامه بأخلاقها و مشخصاتها، و کان أبدا فی شاغل عن الأمة إلا بما کان من تحقیق شهواته، و کان غریبا فیها. و قد عقد مراد بک فی تاریخه «أبو الفاروق» فصلا فی سلطنة النساء استغرق جزءا برمته نلخصه هنا لیتبین للقارئ کیف یکون حال مملکة سلطانها سخیف ضعیف.

و مما ذکر فیه استرسال السلطان أحمد فی الشهوات حتی قضی فی الثامنة و العشرین شهید الغوانی و الکؤوس، أما السلطان إبراهیم هذا فهو أعظم زیر ابتلی بحب النساء حتی کان کل أسبوع یبنی ببکر و یجری له عرس و تقام الأفراح فی قصره، و کان کلما سمع هو أو والدته «کوسم والدة» أو أحد حاشیته و حملة غاشیته و وزراؤه و عماله بغانیة حسناء یقدمونها لسلطانهم، حتی عجز سلطان عن ملامسة النساء لکثرة إفراطه فجاء «جنجی خواجه» و کتب نسخ

خطط الشام، ج ۲، ص: ۲۵۵

الأدویة و العقاقیر النافعة فی القوة حتی أصبحت المملکة تفاخر بأن سلطانها یستطیع أن یقترب من أربع و عشرین بکرا فی الأربع و العشرین ساعة! و أصبح القول الفصل فی القصر السلطانی للجواری و السراری، و کان علی نسبة اشتداد أعصاب السلطان یضعف عقله و هو لا- عمل له إلا- الأفراح و النساء و الغناء و الخلاعة و دخول الحمام و اقتناء الجواری و الحلی و الزهور و الأموال و الطرائف، و إصدار و الأوامر بقتل الأنفس بمعنی و بلا معنی، و أخذ یستریح إلی رؤیة المناظر الفظیعة من القتل شأن قیاصرة رومیة فی أواخر أیامهم. خطط الشام ؛ ج ۲ ؛ ص۲۵۵

کان تقرر جعل النساء الرسمیات أربعا ثم أبلغت والدة السلطان عددهن إلی ثمان نساء، لأن نسل بنی عثمان کاد ینقرض، و أحبت کوسم والده تکثیر نسلهم علی هذه الصورة، و لکل واحدة من تلک الجواری من الخدم و الخادمات و الوصیفات و الندماء و الندیمات و الخازنات و الملبسات عشرات و ربما مئات، تجبی واردات الولایات العظیمة لتعطی إلی المقربین و المقربات، و الوظائف تباع بیع السلع بالمزاد و لا سیما علی عهد الأغوات بکتاش اغا و مراد اغا و مصلح الدین اغا و أمثالهم، و لم یبق أحد لا یرتشی من الصدر الأعظم فنازلا، لأن السلطان یطلب من کل عامل عنده جعلا یلیق بشأنه سلطانه، حتی تعدت الحال فی طلب الأموال إلی کبار التجار فی الاستانة، و أخذ رجال القصر و نساؤه یسلبون من الأمة ما یقدرون علیه، و اضطر کثیر من التجار إلی الاختفاء و إغلاق حوانیتهم تخلصا من مطالب جماعة السلطان، و لا- تسل عن رواج سوق الحلیّ و الجواهر و العربات المرصعة و الطسوت المحلاة و النعال المزینة بالأحجار الکریمة و الإسراف فی استعمال الذهب و اللؤلؤ و الزبرجد و سائر المعادن النفیسة فی الآنیة و الزینة و النقش فإنه مما لا تتصوره العقول.

و کانت واردات لواء (سنجاق) تعطی من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أیالة الشام علی طولها و عرضها یخصص ریعها و جبایتها للمرأة السابعة بحسب الأصول الحدیثة علی العهد الإبراهیمی. و لم یرض النساء أن تجبی لهن الأموال الولاة و بکوات الألویة، بل کنّ یعین جباة من قبلهن یجبون باسمهن ریع الولایة أو اللواء. و قد کان الذی عهدت إلیه جبایة واردات الشام محمد اغا الذی اشتهر فیما بعد فی التاریخ العثمانی باسم محمد باشا الکوبرلی الکبیر،

خطط الشام، ج ۲، ص: ۲۵۶

و هو ممن حالوا بتدبیرهم دون سقوط الدولة العثمانیة. قال أبو الفاروق:

و لا غرو فقد توجد الدرة النفیسة بین الکناسات و القمامات.

و لم یکتف السلطان بما کان یقدم له من النساء بل کان یطوف العاصمة و ضواحیها، فإذا رأی من أعجبته و تردد ولیها فی إرسالها یلقی جزاءه فی الحال، و بلغ السلطان مرة أن امرأة ایبشر مصطفی باشا فی جهات سیواس علی غایة من الجمال، فأرسل إلی واردار علی باشا ثلاثین ألف لیرة لیبعث إلیه بزوجة مصطفی باشا فنفر علی باشا من اقتراح سلطانه و أجاب بالرفض، فقرر السلطان إهلاکه، و لکن علی باشا رفع رایة العصیان و جعل عالی الأناضول سافلها، و قرر السلطان أن یأتی بزوجة ایبشر مصطفی باشا و یعریها و یجعلها

فی أحد الشوارع المهمة بین عمودین یربط إلیهما رجلاها و یداها و یطلق للعامة و العسکر أن یلمسوها حتی تموت، فلم یقنع السلطان أصحابه بالرجوع عن هذا العمل البشع إلا بعد اللتیا و التی.

و قرر هذا السلطان الأخرق یوما أن یقتل النصاری بأسرهم فی مملکته فاحتال علیه شیخ الإسلام قائلا: إن فی قتلهم نقص واردات السلطنة، و إن مئتی ألف إنسان إذا قتلوا فی العاصمة تخف الجبایة لا محالة، و بهذا استرجعوا من هذا المعتوه الفاجر إرادته المختلة و هکذا حتی خلع و قتل سنة (۱۰۵۸) بعد سلطنة ثمان سنین و تسعة أشهر. و قد قتل عدة من رجاله و قتل الصدر الأعظم مرة لأنه بعث فی طلبه لتدارک حطب للقصر فقال له الوزیر: إن هذا الطلب لیس من الأمور المهمة التی یفکر فیها من یفکر فی أمور السلطنة فمثّل به فی الحال و لم یجرأ بعدها علی تولی الصدارة إلا من کان علی جانب من الریاء و النفاق لیرضی السلطان.

و ذکر مؤرخو الترک أن سلطان زاده محمد باشا الذی تولی الصدارة علی عهد السلطان إبراهیم ثلاث سنین خرب خلالها فی جسم الدولة ما لا یقع مثله فی ثلاثة قرون، و بلغ من ریائه مع سلطانه ما لم یوفق إلیه أحد، و جاءه أمر من السلطان ذات یوم یقول فیه: إن الخزینة نضبت أموالها و لا بد أن یسترجع ما أهداه أجداده السلاطین إلی حرمی مکة و المدینة من المجوهرات لیسد العجز فقال الصدر الأعظم علی دهائه و ریائه و هو یقرأ هذه الإرادة السلطانیة:

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۷

لقد سقطت الدولة إلی هذه الحالة بفیلق من الجواری الناقصات من بنات الروس و بولونیا و المجر و فرنسا.

و مما ذکروه فی باب إسراف ذاک الدور أنه کان عند دفتردار محمد باشا ۴۷ طاهیا و ۷ رؤساء طهاة و لکل طاه خدامه و خیامه و أشیاؤه و بغاله و جماله حاضرة علی الدوام و فی بیت مؤنته من الأوانی المرصعة و المذهبة و المفضضة و غیرها ما یبلغ مجموع ثمنه ثروة کبری. و هکذا أسرف السلطان و رجاله فی کل شیء و فسدت الأخلاق و لا من یجسر أن یأمر بمعروف أو ینهی عن منکر حتی قال أبو الفاروق: إن معظم کبراء الأمة و من کان لهم علاقة بقصر السلطان إبراهیم کانوا یتقربون إلیه بتقدیم الأبکار الحسان فرأوا القیادة و الدیاثة أحسن شافع لهم عنده للترقی و الاغتناء.

فإذا کان علی هذا النحو حال دار الملک و حال قدوة رجال الأمة فیها، فما الحال بالولایات و لا سیما البعیدة کهذا القطر، و کان ولاته کولاة غیره من جماعة القصر ینصب أکثرهم بشفاعة النساء و القوادین و القوادات.

علی هذا المثال کان أغوات القصر الأغبیاء ینصبون الولاة و لا یترکون لهم مجالا لیقفوا علی حال البلد الذی یقضی علیهم إدارته، بل یبدلونهم بغیرهم بعد مدة وجیزة و یبعثون بآخر من هذا الطراز. کل ذلک من مقتضیات الجهل و الطمع و الشفاعة، فاقتضی أن یکون الوالی من صنائع بعض العظیمات أو العظماء، و کثیرا ما یکون ما جمعه من المال فی ولایته داعیا إلی توجیه النظر الیه فیقتل لتصادر أمواله، و لطالما کان قتل العمال مما یروق السلطان لأنه یقبض علی أکثر موجودهم، و کم من مرة کانت امرأة أحدهم أو قصره البدیع فی المضیق فی فروق سببا فی الغضب علیه و الحسد له، حتی یورده الوزیر الأکبر أو غیره حتفه لیتمتع بعده بزوجته أو لیسکن قصره أو ینال غیر ذلک.

و ذکر أبو الفاروق عند کلامه علی مصطفی سلطان و کیف تجرد فی قصره عن العالم و حصر وکده فی شهواته أن آل عثمان من القدیم تفردوا بغلبة شهواتهم علیهم، و قد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ أهل القصر السلطانی یتعلمون أدویة الباه من الشرق و الغرب و هو یسیء استعمالها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۸

فتنة وال أخرق فی حلب:

و من الأحداث فی أیام السلطان إبراهیم فتنة ثار وقدها بین الانکشاریة و رؤسائهم فی حلب، کان السبب فیها أن الانکشاریة طلبوا من

رؤسائهم أن يعطوهم غروشا بدلا من الأقجات، و طلبوا عزل وكيل رئيسهم و كاتبه، فقتل منهم جملة، ثم وقعت بينهم و بين رجال الصدر الأعظم فتنة قتل فيها نحو خمسين رجلا من الطرفين و انتهت القضية بقتل آغتهم و وكيله و كاتبه.

و منها ما رواه نعيما في حوادث سنة (۱۰۵۴) قال: إنه كان في بر حلب رجل اسمه الأمير عساف يتولى إمارة البادية، و قد أخذ يسلب أرباب القرى أموالهم و سلط أشقياء العربان عليهم، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم و صعب استئصال شأفتهم، فدبر والي حلب إبراهيم باشا تدبيرا أخرق و ذلك بأن دعاه إلى مأدبة ليغتاله في خلالها، و علم الوالي أن الرجل لا يوافي حلب فارتأى أن يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة، فخرج الوالي في جنده و خرج عامة أهل البلد لابسين أحسن بزة، راكبين الخيول المطهمة، حتى وافوا محل الضيافة التي أقامها الوالي لأمير البر، و كان الوالي أوعز إلى جنده أن يطلقوا النار على الأمير عند ما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتمروا بأمره، و لكن الأمير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم و ركب فرسه من ساعته، و كان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرماح، فحملوا على جند الوالي حملة منكرة و قتلوا منهم جماعة، و أحاطوا بالأهالي فسلبوهم ثيابهم و خيولهم، و لم يكونوا أقل من خمسة آلاف و قد جرح أكثرهم، و رجع الوالي إلى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة، و أخذ الأمير عساف يعادي الدولة العثمانية علنا و طمعت البادية فأخذوا يطيلون أيدي اعتدائهم أكثر من قبل فاضطرت الدولة إلى تنحية واليها الفاسد الرأي السيء التدبير، و بذل الوالي اللاحق و جماعته أنواع اللطف مع الأمير عساف حتى أعادوه إلى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة، و طفق يهادي عمال السلطنة بالخيول و يرسل إلى الحكومة جزءا من الجباية. و ما كان يألفه بعض العمال من إعطاء الأمان للخوارج أو غيرهم ثم اغتيالهم في مائدة أو إدخال السم عليهم أو صلبهم علنا قد أدى إلى رفع ثقة الناس من عهودهم و مواثيقهم. و غلطة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۵۹

واحدة ارتكبها والي حلب الأحمق أدت إلى ما أدت إليه من الفساد و البلبلة.

قال الشهابي في حوادث (۱۰۵۴) أنه عزل محمد باشا الأرناؤوط عن إيالة طرابلس و تولاها حسن باشا و كانت الناس لكثرة المظالم تبيع كل ثلاثة شنابل قمح بقرش، ثم أعيد إلى طرابلس محمد باشا الأرناؤوط و أجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة و رحل أهلها.

محمد الرابع و صدارة كوبرلي:

بويع محمد الرابع بالسلطنة سنة (۱۰۵۸) بعد السلطان إبراهيم فطال عهده إلى سنة (۱۰۹۹) أي إحدى و أربعين سنة، و إذ كان طفلا عهدت والدته، بعد تغيير كثير من الصدور، بالصدارة العظمى إلى رجل عاقل من رجال الدولة و هو محمد باشا كوبرلي و كان أميا إلا أنه أتى بأعمال وطدت دعائم الملك بعد تزعزعه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء، و اشترط في تولي الصدارة أن يكون حرا في عمله لا ينازعه منازع، و لا تقبل فيه وشاية و لا يعين للمناصب إلا من يريد، و قتل ستة و ثلاثين ألف إنسان حتى ألقى الرهبة في النفوس، و أمن قيام الخوارج و النزاع إلى الثورة من الزعماء و أرباب الدعارة و الجند و العصاة، و خلفه ابنه أحمد باشا كوبرلي الذي كان حاكم دمشق و قاتل الدروز و انتصر عليهم. و كان على غاية من العلم و العمل. ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها لأنه كان جماعا للمال له و عنده ألوف من الخيل و كلاب الصيد و البزاة و ۱۵۰۰ حصان و ۱۵۰۰ سرية و ۷۰۰ خصي.

و خلفه مصطفى زاده من أسرة كوبرلي أيضا و كان من المضاء و الشجاعة و حسن الإدارة و الاستقامة على جانب عظيم، و اشتد على المزورين و المرتشين و قضاة السوء و ملأ خزانة الدولة بأموال اللصوص. و كان يقتل من يتناول التبغ من قبل، فجعل تجارته حرة على أن توضع عليه رسوم فاحشة، و قضى أن لا يؤخذ من الرعايا مسلمين كانوا أم مسيحيين غير المقرر من الجزى و الخراج، و قسم

المكلفين إلى ثلاثة أقسام يدفع الأول منهم دوكا واحدة، و الثانى دوكا اثنين، و الثالث أربع دوكات، و هذا هو النظام الجديد الذى بقى بعد هذا الوزير

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۰

زمنا، و خلفه صدر آخر كان ابن أخت الكوبرلى الأول اسمه حسين عموجه زاده و كان على قدم أجداده بعد نظر و حسن إدارة، فصح فى هذه الأسرة ما قاله أحد مؤرخى الفرنجة من أن الوزير الأول منهم لقب بالكبير أو القاسى و الثانى بالسياسى و الثالث بالصالح و الرابع بالحكيم. و لكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن إلا فى الشام لبعد المسافة عن العاصمة، و لأن طريق الالتزام فى جباية الأموال كانت سقيمة تدعو إلى إضعاف المملكة، و لأن الوالى كانت له لا مركزية واسعة يعمل بقريحته على الأغلب.

و فى تاريخ فلسطين أن حكومة سورية فى القرن الثامن عشر كانت حكومة لا مركزية أى إقطاعات أو حكومة أمراء و مشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته.

فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثة يحكمون بنى مالك و بنى حسن و بنى زيد و بنى مرة و بنى سالم، فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ و يقبلان حكمه لا- محالة، و من خالف العادات أو أخلّ بتقاليدهم يسجن فى سجنهم، و كان الشيخ أو الأمير يحبى الضرائب و يقدم المقطوع عليه للوالى و يأخذ الزيادة، و إذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم و من ورائهم رجالهم و فرسانهم. و كثيرا ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء و الولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى و اختلال الأمن و سبب للحكومة خسرانا كبيرا فى الأموال و الرجال.

و لقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر و ترعرع أن يقتل شقيقيه سليمان و أحمد فمنعته والدته من قتلهما و حال بينه و بين القتل المفتى الأعظم، موردا له كلام اللّه مخوفا له من عذابه، و بذلك انقضى دور قتل أبناء ملوك آل عثمان و تسلطن شقيقا محمد الرابع بعده. و وقعت فى سلطنة أحمد الرابع فى الشام كوائن كثيرة منها الوقعة التى حدثت سنة (۱۶۰۰) م فى وادى القرن من عمل لبنان الشرقى، و ذلك أن ابن علم الدين أغرى ابشير باشا والى إيالة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام و المعنية عند وادى القرن و كانت الدائرة على عسكر الشام. و يقول مؤرخو الترك: بل كانت على عسكر ابن معن و كان اسم ابن معن الأمير ملحم ولى كما قال

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۱

المحبى بلاد عمه أى الشوف و الغرب و الجرد و المتن و كسروان و كان حازم الرأى عاقلا حسن التصرف فلهذا أبقى مدة تزيد على عشرين سنة لم ينغص له فيها عيش إلا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا و كان ذلك بإغراء بعض المفسدين و انتصر فى تلك الوقعة. و فى خلال ذلك كان درويش الشركسى المعروف بالمجنون واليا على تدمر فكان يغير على العربان و ينهبهم و يأسر منهم و يدخل إلى دمشق بالمواكب الحافلة، ثم ولى لواء عجلون فثار بينه و بين أهلها حروب كثيرة و كسروه.

و روى نعيما (۱۰۶۵) عند كلامه على والى حلب ابازه حسن باشا أنه كان من أبناء الجد بلغ المناصب بصور غريبة و هو شقى يميل إلى الفساد و المظالم، و إذا أريد تسطير ما أتاه من الجور على الرعايا لاستلاب أموالهم اقتضى ذكر مجمله كتابا ضخما. و أن الحكام كانوا يجبون الجباية ضعفين فيأخذون ممن يقضى عليه أداء عشرة آلاف عشرين ألفا، و من يغرم الخمسين مئة أو مئات، و لم يكن لتعديهم غاية و لا لظلمهم حد يقف عنده، فتهلك القرى و الدساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة و القضاة ممن كانوا يبتاعون بالرشاوى مناصبهم فيغضى عنهم الكبراء لأنهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم إلى الاستانة لا يجدون أذنا صاغية و ربما انعكس الأمر عليهم و صدّق رجالها الوالى الظالم و سفه أحلام المتظلمين فيزيد الظالمون فى ظلمهم. قال: و كان الفقراء يرتحلون عن أراضيهم فأصبحت القرى المعمورة و القصبات المشهورة مروجا ينعق فيها غراب الخراب، و إذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم

أغنياء يسوق الوالى عليهم الأربعمائة و الخمسمائة من جنده ينهبهم و يسبيهم اه. و من الغريب أن يكون حسن أبازه باشا واليا على حلب على عهد صدارة الكوبرلى الذى يقدسه العثمانيون بإدارته و لعلهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الإدارة و الإصلاح بمجرد بطشه بالعصاة و إجهازه على من لا تروقه أعمالهم أو ينازعونه فى سلطانه، أما تقاضى الجباية مرتين من الرعايا و إلقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية فى قائمة أعمالهم! و حسن أبازه باشا، خرج عن طاعة الدولة فى حلب و مات فى تلك النواحى و انضم إليه السكبان و خمسمائة جندى كانوا مع نائب دمشق أحمد باشا الطيار فعينت الدولة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۲

لقتاله الوزير مرتضى باشا فتقابل الجيشان و انكسر مرتضى ثم أخذ بالحيلة و قتل هو و أعيان جماعته و تفرق عسكره و كان ذلك سنة (۱۰۶۹).

و فى سنة (۱۰۷۱) قدم واليا على دمشق أحمد باشا كوبرلى ابن الصدر الأعظم محمد باشا و كان فى الخامسة و العشرين من عمره. قال المحبى: و كانت الشام مختلة فأصلحها و ركب على أولاد معن و بنى شهاب فأزالهم عن بلادهم و قمع أهل الفتن. و ذكر المؤرخون أن هذا الوالى لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب و عرضوا عليه جانبا من المال فما قبل و سار إلى وادى التيم فهدم سرايات بيت شهاب فى حاصبيا و راشيا و بيوت مدبريهم و قطعوا نحو خمسين ألف شجرة من توتهم فى مرج عيون و البقاع، و أعطى ولاية وادى التيم لأولاد علم الدين مع المقدم زين الدين و ابن أخيه عبد اللّه. فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادى التيم. و ما أسخف هذه الطريقة فى التأديب التى هى عبارة عن تخريب العمران. هذا و ابن الكوبرلى من خير من ولى الشام و من رجال الإصلاح و العلم.

و أقام ابن الكوبرلى على صيدا باشا و جعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم أولاد العرب و أعطاها على باشا الدفتردار. و لما بلغه ما صار من والى طرابلس و اليمنية من حرق دور بيت أبى اللمع و بيت الخازن و بيت حمادة و قطع أرزاقهم و ما وقع من الخراب فى وادى علمات و إتلاف حراج مشمش و لحفد و أرض جبيل و البترون وجبة المنيطرة و العاقورة، و لما بلغه ذلك و أن الرعايا ضاقت به و خربت ديارها أمر بصرف العساكر و رجع إلى الشام، و على باشا هو الذى طلب مالا من ناظر كنيسة مار جرجس فى بيروت و إذ لم يقبل النصارى أمر أن تصير الكنيسة جامعا و بنى لها مأذنة و سميت مقام الخضر.

و فى سنة (۱۰۷۱) قدم على باشا إلى صيدا و هو أول من تولاها من الباشاوات و كانت فتنة عظيمة بينه و بين مشايخ المتاولة فأوقع بالقيسية و نهب إقليمهم فارتحلوا عنه و بعد سنتين نصر الوالى القيسية.

و فى سنة (۱۰۷۳) قتلت الدولة منصور بن شهاب أمير وادى التيم و الأمير على ابن عمه لموافقتهما رؤساء جند دمشق فى وقعة مرتضى باشا لما ولى نيابة دمشق و قارب أن يدخلها، فأرسلا جندا من وادى التيم تجمع فى دمشق و انضم إلى من قام فيها من رؤساء الأجناد و الأوباش و التقوا مرتضى باشا فى القطيفة فهرب

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۳

منهم. و لما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين و فى مقدمتهم الأمير منصور و أخوه و الشهابيون على ما قاله المحبى فى وصف إدارتهم و سيرتهم على عهده: «و جورهم بالنسبة إلى أمراء بلاد الشام كالدروز بنى معن و الرافضة بنى الحرفوش و بنى سرحان مقصور على أنفسهم من حيث المعتقد فحسب، و مالهم فى القديم و الحديث كثرة أذية للمسلمين».

و من مساوى حكومة الإقطاعات أن صغار أمرائها من الشاميين كانوا يضطرون كل الاضطرار إلى المصانعة فتراهم أبدا مع القوى الذى تدوم سعادته إذا ولت عنه و لووا وجوههم، و فى هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضا و تخرب بيوتهم و بيوت شملهم و حاشيتهم. و الولاة يشدون مع هذا و يرخون لذاك شأنهم مع كل صاحب سلطة و قوة. و هكذا كانوا فى معاملتهم لليمنية و القيسية يقوى تارة هؤلاء و طورا أولئك، فقد وقعت سنة (۱۰۷۵) فى الغلغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية و اليمنية قتل فيها عبد اللّه بن قائد بيه ابن الصواف و انكسرت اليمنية و انهزموا إلى دمشق. و اشتدت الحالة على الشام فى هذه السنة

بسبب الطاعون المنتشر فی أرجائها الذی أقفلت به بیوت کثیرة لموت جمیع سکانها حتی إن قاضی حلب ضبط الأموات فی حلب فبلغوا ۱۴۰ ألفا و کان القحط عم القطر قبل أربع سنین فجیء بالقمح من مصر و بیعت غرارة الحنطة بثمانین قرشا. و لم تفتر الحکومة مع ذلک عن حرق الدور و القری فقد استنجد (۱۰۸۲) بنو حیمور أمراء البقاع بحکومة دمشق فأنجدتهم بعسکر فداسوا وادی التیم و حرقوا دور بنی شهاب و قراهم. و اشتد ظلم بنی حمادة فی عمل طرابلس و ظلموا الرعایا، فخربت القری و کان فی خلال ذلک (۱۰۸۱) والیا فی حلب حسین باشا المعروف بصاری حسن یتلطف بالرعایا و ینتقم من ذوی الکبر و المناصب. کما أن ظلم والی دمشق و متسلمه اشتد سنة (۱۰۸۳) فأغلقت المدینة مرتین احتجاجا علی عمله.

و فی سنة (۱۰۸۶- ۱۰۸۷) حرقت قری البترون و فی السنة التالیة حرقت قری جبیل و البترون أیضا و خلت جبیل من سکانها. و فی سنة (۱۰۸۷) أمر والی طرابلس بحریق وادی علمات و هی فرحة و علمات و عشاق و طورزیا و الحصون

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۴

و اهمج و جاج و قری جبة المنیطرة و هی کفر جال و المغیرة و لاسا و المنیطرة و أفقا و لما رجع للعسکر جاء مشایخ بیت حمادة و أحرقوا قصوبا و تولا عبد اللّه و بسبینا و صغار و شبیطن. و فی سنة (۱۰۹۰) تولی خلیل بن کیوان علی صیدا فظلم الرعیة کثیرا. و فیها کانت التجریدة علی الأمراء آل شهاب من والی صیدا و والی دمشق و کان النصر للباشاوات. و فی السنة التالیة باغت الأمیر عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الأمیر فارس شهاب فی نیحا قرب الفرزل فقتله و قتل خمسین رجلا من شیوخ وادی التیم، فجمعت أسرة شهاب العساکر و ساروا إلی بعلبک فتداخل الأمیر أحمد بن معن بالصلح و جعل جزیة علی آل الحرفوش کل سنة خمسة آلاف قرش و رأسین من أطایب الخیل. و فی سنة (۱۰۹۶) تولی ابن معن صاحب الشوف جمیع مقاطعات بیت حمادة فأحرق ایلیج و لاسا و أفقا و المغیرة و قطع أملاکهم. و فی سنة (۱۰۹۸) لما فر الأمیر شدید إلی جبیل نزل إلی العاقورة فأحرق من ضیاع بیت المشایخ بیت حمادة نحو أربعین ضیعة و قطع أشجارها.

و کانت مصیبة القطر فی هذا الدور واحدة فی الظلم، فکان الوالی فی حماة مثلا إذا غضب علی رجل یضعه علی «الخازوق»، و إذا غضب علی امرأة وضعها فی خیش مع شیء من الکلس و ألقاها فی العاصی، و أصبح الناس لکثرة المصادرات یکتمون أموالهم و یدفنونها فی الأرض لتنجو من المصادرات و السرقات و یتظاهرون بالفقر، و ربما مات أحدهم فجأة و لا یعلم أولاده بدفینته فی جدار البیت أو الحائط فیقع المال بعد مدة فی ید من تنتقل إلیهم الدار.

قال المحبی: و لکثرة جور الحکام فی حماة علی الأهلین فی القرن الحادی عشر هاجر أغلب سکانها إلی دمشق.

أما فی جهات لبنان الغربی و الشرقی فإن الوالی أو المتسلم أو المستبد إذا غضب علی رجل أحرق قریته کلها أو عاقبه بقطع شجره، و لذلک کان من الدعاء علی الرجل فی لبنان «اللّه یقطع رزقه» أی أشجاره أو «یخرب زوقه» أی بیته، و الزوق البیت، و فی سنة (۱۰۹۸) ورد الأمر لعلی باشا النکدلی متولی إیالة طرابلس أن یقتصّ من الأمیر شدید الحرفوش لتخریبه قریة رأس بعلبک و هدمه حصنها، فکتب إلی الأمیر أحمد بن معن أن یوافیه بالرجال فلجأ

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۵

الأمیر شدید إلی المشایخ الحمادیة فأحرق علی باشا قریة العاقورة و أربعین قریة من قری بنی حمادة، ثم نزل عسکر للباشا علی عین الباطیة فباغته لیلا آل حمادة و الحرافشة و قتلوا منهم خمسة و أربعین رجلا و انهزم العسکر.

عهد سلیمان الثانی و الحکم علی الخوارج:

توفی محمد الرابع سنة (۱۰۹۹) و تولی السلطان سلیمان الثانی و الأمور فی عهده الطویل لم تتبدل و المرض واحد، و هو سوء الإدارة و خراب العمران و هلاک المال و هتک الأعراض و قتل الرجال. و تم القرن و الشام غرض الرماة تصیبها مطامع الولاة و الأمراء و

أرباب الإقطاعات و الألوية و أهم ما كان فيه مظالم بنى سيفا و بنى معن و ثورة ابن جانبولاذ، و الولاة نسق واحد لأنهم نسخة من عصرهم، و إذا كانت أحوال القصر السلطانى و من فيه مختلة كانت الولايات حقيقة بأن تباع فيها الأرواح بيع السماح، تساوى فى ذلك البوادى و الحواضر، و الناس فى أمر مريج لا- يستقرون فى بلد و يتنقلون فى الأرجاء و إذا اشتد الظلم فى مكان هجروه إلى موطن يتوهمونه أقل مظالم و مغارم، و أنى لهم مكان يسكنون إليه و يأمن فيه سربهم. و إذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكوبرلى الذين تولوا الصدارة فإن ما أصاب الشام من عنايتهم جزء صغير جدا لا يكاد يشعر به، و عهد أولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر و مصطفى الأبله ينسى عهد محمد الرابع و مراد الرابع.

و لم يؤثر عن هذا القرن أنه أنشئ فيه غير قليل من الجوامع و المعاهد مثل جامع ابشير باشا و خان الوزير بحلب و كان بعض الولاة فى القرن الذى قبله يرهقون الرعية و يقيمون شيئا باسم العمران أما هذا القرن فغاية ما يقال فيه أنه تخريب الموجود. و ممن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا البالجى أمير صفد ثم طرابلس (۱۰۰۲) فقد كان من أنصف الحكام على ما قال المؤرخون، و إذا كتب لأحدهم أن كان على شىء من الأخلاق ينازعه المنازعون على ولايته فى الاستانة فلا يتقلد زمامها إلا بمقدار ما يتعرف إلى أهلها و يدرس طبائعهم و يستقرى ديارهم ثم يشخص إلى العاصمة و يستبدل غيره به و هكذا دواليك.

هذا و أهمّ ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركمانى

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۶

التى زال بها حكم الدولة عن القطر سنتين و ذلك من أذنة إلى غزة و لم يطل أمد هذا الاستيلاء كثيرا إذ كانت دعامته القوة الموقتة، و هو ابن ساعته لم تعدّ له الأسباب بجملتها. أما الأمير فخر الدين بن معن الثانى فإنه كاد يستولى بالفعل على الديار لتنظيم جيشه و تعزيز قلاعه و بسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة أنفسهم، و عنى بإدخال روح التجدد فى إمارته و دعى سلطان البركجده الأمير فخر الدين الأول و لو كان لحلفائه دوجات طسقانه إذ ذاك شىء من القوة و أنجدوه بقليل من رجالهم و ذخائرهم، و لو لم يشتغل بال البابا و ملك اسبانيا و كبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا أعانوه على نيل أمانيه فى الاستقلال خصوصا و هم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على أنطاكية، فلو قدّر لهم أن ينجدوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه إلى فراته بعد أن تمت له كل معداته، و العقل رائده و الحزم قائدة، خصوصا و كان معوّله فى قوته على الدروز و هم فى هذه الديار على التحقيق منذ القديم من أشجع العناصر التى عرفت بمتانتها و مضائها فى الحروب.

و كان كثير من مدبريه و رجاله من المسيحيين و لمحبة قومه له ادعته أهل المذاهب الثلاثة فى إمارته، فالموارنة يقولون له كان مارونيا و الدروز درزيا و الحقيقة أنه مسلم سنى- خلافا للمحبى و المرادى- يحسن السياسة و الإدارة و ينظر إلى رعيته نظر المساواة و يأخذ لخدمته الكفاة من كل طائفة. فهو بلا مراء مثال الأبطال فى عصره، و كان على أتم الاستعداد للحرب و على معرفة بالإدارة و طبائع الأمة، و لو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها فى قتاله لعمل فى الشام فى القرن الحادى عشر ما عمله محمد على الكبير فى مصر فى القرن الثالث عشر و لم يكن دونه ذكاء و مضاء و دهاء.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۷

العهد العثمانى «من سنة ۱۱۰۰ الى ۱۲۰۰»

حال الشام أول القرن الثانى عشر:

تبلج فجر القرن الثانى عشر للهجرة و الدولة لا تفكر فى غير مصائبها الخارجية، و المملكة التى كانت تمتد من أسوار فينا إلى جنوب جزيرة العرب، و من فارس إلى الغرب الاقصى لا وحدة فيها، و لا جامعة تجمعها، و ليست متجانسة و لا متماثلة، تكافحها الثورات

الداخلية، و تساورها الحروب الخارجية فلا تهتم للأولى اهتمامها للثانية، و تفنى فى سلطانها و يستعبدها أرباب الإقطاعات و يستبد بها الجند و الولاة، و سكان هذا القطر كسائر الأقطار العثمانية كأرقاء لا عمل لهم إلا إرضاء شهوات حكامهم من وطنيين و غرباء، و لم يكن اختلاف العناصر أقل ضررا عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية و اللوند و السكبان و القبوقول، و النزاع بين هؤلاء الجند و بين رجال الإدارة قائم على ساق و قدم فى أغلب السنين، بل بين كل صنف من من أصنافهم و رؤسائه، و الأرواح فى هذه السبيل تباع بالمجان، فلم يحدث شىء مما يقال له الإصلاح لأن رجال الدولة لم يفكروا فيه حتى يتوسلوا بأسبابه، و إذا توسلوا فلا يحسنون طرقه، و قد اعتادوا الأخذ و لم يعتادوا العطاء بتحسين الحالة، ليزيد الأخذ و العطاء معا.

و ندر أن يجىء من الاستانة رجل صالح فى أخلاقه، معروف باستقامته و كبر عقله وسعة معرفته، يحسن إدارة الناس و يكف الظالم عن ظلمه، و هل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۸

يفارق فروق إلا- من أكره، و هناك النعيم و الهناء و ضروب الشهوات البشرية، و إذا جاء هذه الديار وال كبير من العمال فلإملاء همیانه على الأكثر بأموال الأمة ليعود إلى العاصمة سريعا، يعيش عيشا طيبا و ينعم فى قصورها بأمواله و طرائفه، و يجنى فى سنة ثروة كبرى تكفيه و أولاده و أحفاده على غابر الدهر.

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة فى الجباية، بل لأن الجباية كانت على غير قاعدة مطردة، قد تجبى جباية سنتين أو ثلاث فى غير أوقاتها فى آن واحد، و لا- تراعى فى الجبايات أعوام القحوط و الجدوب و المصائب، و إذا ضاقت الحال بأحد العقلاء أو ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجيا و قاتلوه و حرّفوا دعوته على ولاة الأمر فى الاستانة، و لبّسوا على العامة فى أمره، حتى يسكتوا نأمته و يزيفوا دعوته، و إلا فلا يعقل أن يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة فى الإدارة، فالخير فى الناس ما انقطع و لن ينقطع، و مهما بلغ من انحطاط شعب لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق، و لو كان فى المجاهرة حتفهم أحيانا.

و قد مهر رجال هذا الدور فى تزيين الباطل و إلباسه ثوب الحق، و تقليل عدد الهالكين و الشاكين و الثائرين و الناقمين، و إذا نشبت ثورة أو حدثت فتنة أو تألف جماعة لمقصد شريف، و كثيرا ما يصورون العذاب الأليم فى صورة نعيم مقيم، و لا يعرضون على السلطان إلا المسائل الكبرى، كأن تتقد ثورة فى الشام لا يمكن تلافيها إلا بإرسال جيش كبير من آسيا الصغرى، و تحتاج إلى مال لا بد من استصدار إرادة سنية بأدائه من خراج الولاية الفلانية.

و غدا قتل الإنسان و سبى النساء و الصبيان و خراب العمران، من الأمور المألوفة فى تلك الأزمان. و فى هذا القرن بدأ الحكام و أرباب المقاطعات ينوعون أسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية و البزرية، لسد عوزهم و القيام بواجب الضمانات الدولية، و كثير من الفتن كان الداعى اليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة فى أوقاتها، فتعدهم عصاة عليها و تسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالا على صاحب الإقطاع أو المتسلم، و خرابا على البلاد و أهلها من كل وجه.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۶۹

و الدولة قلما سعت إلى استئصال شأفة الشر، و ما بحثت فى أسبابه قط فتلافتها قبل وقوعها، و قلما اهتمت للفتن إلا إذا التهب شرارها و خشى منهما على سلطانها، و ندر أن أعدت المستعدين، و رفعت ظلامة المظلومين، و لماذا تهتم و كل قطر نشز عليها تضر به بعسكر من أهل القطر الأقرب إليه، إن لم تستطع ضربه بأبناء بلده أنفسهم، و إذا خافت من وال أو صاحب إقطاع قوة تسلط عليه خصمه أو جاره، فالناس أبدا متعادون متشاكسون، و الألفة ارتفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر، و ما ذلك إلا لتنفيذ رغائب السلطان الذى لا يرى لمملكته بقاء إلا إذا تباغض الناس و تربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر.

بدأ القرن و عبدون باشا والى صيدا يوغل فى مظالمه، و جعفر باشا والى دمشق ليس دونه فى إنشاء المظالم، أما الأمراء المتغلبة من أبناء الأقاليم فكان أكثرهم من أحفاد الذين سبقوهم فى غزة و نابلس و عكار و لبنان و وادى التيم و بعلبك و حوران و الكرك و

سلمية. قال راشد: إن بعض أعيان دمشق أغراهم المال و الإقبال فأرادوا الخروج عن الطاعة و مفارقة الجماعة، فكادوا لواليهم حمزة باشا و طردوا عسكره إلى خارج دمشق و قاموا بأفعال شنيعة رافعين علم الثورة، فنقل حمزة باشا إلى إيالة طرابلس و أخذ الأهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا أهدوه إليه من الكراع و البسط و غيرها و نهبوا أتباعه. ثم عين أحمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التنكيل بهم و خلفه مصطفى باشا مكانه فاضطر أيضا لإلقاء حبلهم على غاربهم. و لما عين كورجى محمد باشا أجريت عليه التنبيهات اللازمة ليطهر الأرض من هؤلاء الأعيان فدعا الوالى تسعة منهم كما دعا العاصين محمد آغا صدقة و محمد آغا قوشجى و بطش بهم و أرهب غيرهم من الخوارج. هذا ما قاله راشد فى هذه الفتنة، و لم يقل إن والى دمشق ارتشى من الناس و ظلمهم حتى ثاروا عليه، بل قال: إنهم أهدوا إليه أيام ولايته و طالبوه بهداياهم لما رحل عنهم فأبانوا عن صغر نفوسهم، و هذا مما يظهر ذهنية الدولة فى تلك الأيام، و أن الوالى يجب أن تهدى اليه الخيول و الطنافس و الأعلاق و ربما الدنانير و الدراهم من غير نكير. و ما ندرى كيف تكون الرشوة إن لم تكن هذه الهدايا هى الرشوة بعينها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۰

و فى تقرير لأحد قناصل البندقية أن منصب الوالى كان فى الاستانة يكلف من ۸۰ إلى ۱۰۰ ألف دوكا و منصب الدفتردار يباع من ۴۰ إلى ۵۰ ألف دوكا و منصب القاضى يساوى أقل من هذه القيمة، و كلهم إذا جاءوا البلد الذى عينوا له يسلبون النعمة و يعرقون اللحم و يكسرون العظم.

دور أحمد الثانى و فتن:

توفى سليمان الثانى سنة (۱۱۰۲) فتولى السلطنة أخوه أحمد الثانى و هو الحادى و العشرون من ملوك آل عثمان و السادس عشر منهم فى القسطنطينية.

و فى أيامه (۱۱۰۳) عاقبت الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم فى معاملة حمزة باشا على ما تقدم، و أرسلت حملة على أبناء سرحان حمادة (۱۱۰۳) النازلين فى جبال طرابلس و كان لهم قبائل و عشائر، فاتفقوا مع أبناء معن حكام صيدا و بيروت، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة و لكن لا يؤدون إليها مطاليبها فى آخر السنة، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت إلى محافظ الإيالة المذكورة الوزير على باشا فجمع ما تيسر له من الأجناد و ذهب إلى جبالهم التى امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين و أخذ زعماءهم و جعلهم طعاما لسيوف رجاله، و طلب أبناء معن الأمان فأجيبوا إليه و تخلصت المقاطعات من تعديهم و ظلمهم. و نزع الحكم من آل حمادة و كانوا فى بعلبك و الهرمل و عكار و جبيل و البترون و الضنية و الزاوية و الجبة و انهزموا على طريق العاقورة فلحقتهم العساكر و مات منهم و من عيالهم نحو مائة و خمسين نفسا من الثلج، و لما وصلوا إلى قرية الفرزل أتتهم العساكر و أبادتهم و لو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد منهم، و حرّقت القرى و فتشوا عنهم و قرضوهم على بكرة أبيهم. و توجه (۱۱۰۳) الأمير يونس شهاب من وادى التيم و دخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل و نهب ثم أرسل والى طرابلس إلى ابن معن يعرض عليه القطائع التى كانت لآل حمادة فلم يقبل و أجاب أنه لا يمكنه إجابة الطلب بسبب خراب الأقاليم، و أخذ والى طرابلس يتأثر من بقى من بنى حماده فى السهل و الجبل حتى أفناهم و استعان بولاة دمشق و صيدا و حلب و غزة على

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۱

قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة عشر ألفا فهرب و وسد الأمر إلى الأمير موسى اليمنى بن علم الدين.

فى سنة (۱۱۰۵) على رواية راشد رأت الحكومة أن أبناء سرحان حمادة عادوا فنجم ناجم شرورهم، و أخذوا يتقوون بمعاضدة ابن معن لهم، فأقامت الدولة الوزير طوسون باشا قائدا عاما عليهم، فجمع من أطراف سورية ألف مقاتل من العرب و الأكراد ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو و حكام سورية فالتقى عشرون ألف مقاتل فى بعلبك و البقاع، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة و تأثرهم

العسكر فقبضت عليهم و أوردتهم حتفهم و طهرت تلك الأرجاء منهم اه.

و فى سنة (۱۱۰۶) عينت الدولة متسلما على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدى و الظلم فقام الحمويون و أخرجوه من البلد قهرا، فذهب إلى المعرة و أرسل شكاية إلى الدولة ينسب فيها التعدى للحمويين، و أن حسنا الدفترى المشهور بابن قنبق هو مثير الفتنة، فجاء الأمر بقتله فقتل فى داره سنة (۱۱۰۶).

و كأن لسان حال الدولة يقول: أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا لعمالى مهما كانت سيرتهم و إلا قاتلتكم، و من فتح فاه بالشكوى أنتقم منه بما يستحقه، فهذه خطتى، و بالرضى عنها تنالون حظوتى.

دور مصطفى الثانى و انقراض دولة بنى معن:

توفى أحمد الثانى سنة (۱۱۰۶) و كانت مدة حكمه أربع سنين و ثمانية أشهر، فتقلد السلطنة بعده مصطفى الثانى فكتب مصطفى باشا والى صيدا إلى السلطان الجديد يقول: إنه لا يمكن أن يحكم قطر الدروز سوى بيت معن و أظهر استعداد الأمير أحمد بن معن لذلك و دفع مائتى كيس للمطبخ، فورد العفو لابن معن مع أوامر الولاية على بلده، و زاد أرسلان باشا والى طرابلس (۱۱۰۸) فى طلب المال فتشتت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء و الظلم و ركب والى دمشق على حاصبيا و قطع توتها.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۲

توفى أحمد بن معن (۱۱۰۹) فانقرضت بموته الدولة المعنية لأنه لم يكن له ولد ذكر، فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات و هى الشوف و المناصف و العرقوب و الجرد و المتن و الشحار و الغرب و اختاروا الأمير بشير بن شهاب من أمراء وادى التيم على لبنان، فتولاها و أحبته الناس و أطاعوه لعدله و كرمه، و كانت البلاد يومئذ حزبين قيس و يمن و القيسية أكثر و أقوى و كانوا راضين بولاية الأمير بشير، و أما اليمنية فلم يرتضوا به و لكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم و قلتهم.

و فى سنة (۱۱۱۰) تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا و إيالة صيدا أخوه قبلان باشا، و كان الشيخ مشرف بن على الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناسا من رجال للدولة و قصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الشهابى، فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل و كبسوا مشرفا فى مكان يقال له المزريعة، فقبض عليه الأمير بشير و على أخيه محمد و على حسين المرجى و سلمهم إلى الباشا فأمر بشنق حسين المرجى و أعطى الأمير بشيرا إيالة صيدا من صفد إلى جسر المعاملتين، و آجر قبلان باشا مقاطعة آل على الصغير للأمير بشير فأقام عليها متسلما الشيخ محمودا أبا هرموش. و فى هذه السنة أطالت عنزة و بنو صخر أيديها على الحجاج، و كان يعهد إلى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج و لهما رواتب مقررة عليه، و قتل منهما خمسون رجلا فى القيود فانتقموا من الحجاج و أخذوا أموالهم و عروضهم، و دخل محمد باشا أبو قاوق إلى دمشق بصعوبة.

و حوادث البادية تتكرر فى العقد الواحد مرة أو مرارا فيهلك فيها من العربان و أبناء المدن خلائق و عيش البادية منذ القديم من الغزو، و الدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها و يكفوا أذاهم عن الحاج و التجارة. و تولى سنة (۱۱۱۴) إيالة الشام محمد باشا بيرام قال الناس و ظلمه ماديكان و كان حبسه انحلال الحديد الأوطان من غير خيمة و كانت شمس النهار تؤذيهم و برد الليل أعظم و كان يسمى حبسه المسطاح و لما عزل شكا أهل دمشق إلى الدولة و أنهم نهبوه و قتلوا من جماعته و أخذوا من خزنته أربعة جمال. و لقد أثنى الأجانب على وال من ولاة حلب اسمه يوسف باشا جاء فى أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد و قالوا إنه كان يحكم بدون أن يظلم و يسلب، و إن استقامته جلبت الخير و البركة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۳

و قد جاء حلب فى تلك الحقبة واليان اسم أحدهما قائم مقام يوسف باشا تولاها سنة (۱۱۱۲) ثلاث سنين و الآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاها سنة (۱۱۲۵) و لا نعلم أيهما أثنى عليه الفرنج.

*** عهد أحمد الثالث و سياسة الدولة مع من ينكر الظلم و وقعة عين دارة:

و فى سنة (۱۱۱۵) خلع مصطفى الثانى بعد أن حكم ثمان سنين و تسعة أشهر و عشرة أيام، و تولى السلطان أحمد الثالث و هو الثالث و العشرون من آل عثمان.

و فى تاريخ راشد أن محمدا نقيب أشراف القدس تغلب سنة (۱۱۱۸) على الحاكم و الوالى و أخذ يبث الفساد فى تلك الأرجاء فأرسلت الحكومة ألفى انكشارى و ثلاثمائة جبهجى و مئة مدفعى لتقوية مركزها فى القدس فوقع بينه و بين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن إلى الفرار و اختفى فى قلعة طرطوس، فبلغ و اليها أمره فأرسل فقبض عليه و أرسله إلى الاستانة فقتل. و ما ندرى معنى لقول المؤرخ إن نقيب القدس أخذ يبث الفساد فى تلك الأرجاء، بل نعتقد أن ثورته لرفع فساد العمال و سوء الإدارة، يعرف ذلك من عرف أن القوم اعتادوا فى كتاباتهم الرسمية أن يلقبوا بالمفسدين كل من كانوا من المصلحين، بيد أنهم مفسدون لأمرهم، عاملون على نقض أساس مجدهم. كما وقع فى هذه السنة أيضا و قد أراد سليمان باشا البلطجى كافل دمشق أخذ قرض من تجارها و إحداث بعض مظالم، فمنعه أعيان دمشق و منهم أسعد البكرى و عبد الرحمن القارى المحاسنى فنفاهم إلى صيدا و عرض للدولة أمورا عنهم لم يأتوها ثم أعيدوا إلى بلدهم و اعتذر الوالى عما عزا إليهم.

و فى سنة (۱۱۱۹) توفى الأمير بشير الشهابى و خلفه الأمير حيدر الشهابى فركب فى السنة التالية لغزو المتاولة لأن المشايخ بنى على الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الأمير بشير بلاد بشارة من بشير باشا و بقى فى يد الأمير حيدر حكم بلاد الشوف و كسروان، فغزاهم الأمير حيدر و تجمعت المتاولة فى قرية النبطية فأوقع بهم هناك و ظفر بهم و قتل منهم مقتلة عظيمة، و رجع إلى موطنه فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوى الأمراء اليمنية فى الغرب و الجرد

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۴

من بنى علم الدين و غيرهم. و فى سنة (۱۱۲۱) تعاظم أمر اليمنية فى الشوف و تظاهر الأمراء بنو علم الدين بذلك و ساعدهم الأمير يونس أرسلان حاكم الشويفات و مال إليهم من القيسية الشيخ محمود أبو هرموش، ثم وسد الحكم إلى الأمير يوسف علم الدين و أخيه منصور، و كان زمام ولايتهما بيد الشيخ محمود أبو هرموش فجاروا على القيسية و ظلموهم و لم يبقوا لهم منزلة و لا حرمة. و فى هذه السنة أحرق الأمير يوسف مع عسكر الدولة بلدة غزير و نهبها، و سار والى دمشق إلى جبل عجلون و باغت نابلس و قتل من أهلها مقتلة عظيمة و سبى عسكره نحو سبعمائة امرأة.

و فى سنة (۱۱۲۲ ه ۱۷۱۱ م) أنفذ الأمير حيدر الشهابى أمرا إلى قيسية الشوف فتجمعوا فى رأس المتن، فلما بلغ اليمنية ذلك أرسلوا إلى بشير باشا والى صيدا فحضر إلى حرج بيروت، و أرسلوا إلى نصوح باشا والى دمشق فحضر إلى البقاع و اجتمع القيسية من الغرب و الجرد و الشوف إلى عين زحلتا فى العرقوب، ثم انتقلوا إلى عين داره، و جرى الاتفاق أن تطلع عساكر الدولة المجتمعة فى حرج بيروت إلى بيت مرى فى أول المتن، و أن يطلع نصوح باشا إلى المغيثة فى طرف المتن، و اليمنية إلى حمانا فى وسط المتن، و تمشى الثلاث فرق فى يوم واحد على القيسية، فأجمع رأى القيسية مع الأمير حيدر الشهابى أن يباغتوا اليمنية فى الليل فى عين دارة، فباغتوهم و أعملوا فيهم السيف، و قاتلت اليمنية أشد قتال و ما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين دارة، و ما سلم من اليمنية غير قليل. و فى تلك الليلة قتل خمسة أمراء من بنى علم الدين و أمسك الشيخ محمود أبو هرموش و قطع الأمير لسانه و أباهم يديه، فقويت شوكة القيسيين و عظم أمرهم، و نزح من كان يمنيا و خربت ديارهم، و زال ذكر اليمنيين من الشوف و حكم الأمير حيدر و أعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به، و كثرت المشايخ فى أيامه. و تعرف هذه الوقعة بوقعة عين دارة التى قتل فيها جميع الأمراء من آل علم الدين بيد الأمير حيدر الشهابى فانقرضت سلالتهم كما ضعفت شوكة اليمنيين.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۵

فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم:

و فی سنة (۱۱۲۲) رکب نصوح باشا علی الکرک و عمل لغما و وضع فیه البارود و أعطاه النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها بالأمان و خرجوا عن القلعة فقتلهم و أسر الأولاد و سبی النساء. و فی سنة (۱۱۲۳) باغت ناصیف باشا والی دمشق المتن و أسر منها أناسا و سبی النساء و الأولاد. و فی سنة (۱۱۲۴) عهد والی صیدا بولایة بلاد بشارة إلی الأمیر قاسم الشهابی حاکم حاصبیا فأنشأ بها مظالم کثیرة.

و فی سنة (۱۱۲۹) تولی دمشق عبد اللّه باشا الکمرکجی و کان عادلا- حکیما لکنه لم تطل مدته أکثر من سنة. و فی سنة (۱۱۳۱) کانت وقعة القریة بین الأمیر حیدر الشهابی و المشایخ المتاولة و کانت النصرة للأمیر حیدر. و فی سنة (۱۱۳۳) کانت الفتنة بین مشایخ المتاولة و الشیخ ظاهر العمر حاکم صفد و جری بینهم قتال شدید فانهزم عسکر الصفدیین و قتل منهم خلق کثیر، ثم خرج عثمان باشا والی دمشق بالعسکر علی صفد و قتل منهم أکثر من ثلاثمائة رجل و قتل البشناق أولاد مشایخ صفد. و فی سنة (۱۱۳۶) کان الظلم شدیدا و کثرت العوانیة حتی صارت أرض الشام مشغولة بالظلم فی شرورها و کثر الظلم و استلاب الأموال.

و ثارت (۱۱۳۷) فتنة بین القبوقول و الانکشاریة و ظلت دمشق ثلاثة أیام مقفلة و قتلت فیها جماعات من القول و الرعیة و کذلک الحال فی حلب. و فی تاریخ العلویین أن الحرب دارت بین الکلبیة و بنی علی من عشائر النصیریة مدة سبع سنین بدأت سنة (۱۱۴۰) ثم اتحدت العشائر الکلبیة «النراصرة و القراحلة و الیاشوطیة و الجهینیة و بیت محمد» و هجمت علی عشیرة بنی علی بالاتفاق و حرقوا قراها و حاصروا قلعة عین الشقاق لما تجمع بنو علی فیها بعد أن هدموا جمیع قراها و لم یبق ملجأ لبنی علی سوی الحصار، و داموا علی الدفاع فی القلعة. ثم دکتها الدولة العثمانیة. قال صاحب تاریخ العلویین الذی أورد هذا: لم یکن العلویون یحاربون الأتراک فقط، بل کانوا یحارب بعضهم بعضا أیضا لأن المنطقة ضیقة و النفوس کثیرة، و فی عهد الأتراک أصبح الأخ یقتل أخاه لیأکل ما عنده.

و عرف هذا الدور بظهور آل العظم حکاما فی الشام، و اختلف الباحثون فی أصلهم فمن قائل إنهم أتراک من قونیة، و من زاعم أنهم عرب من المعرة

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۶

معرة النعمان. تولی دمشق (۱۱۳۷) إسماعیل باشا العظم و کان من قبل والیا علی طرابلس و هو أول من تولی إیالة دمشق من بنی العظم، و قال بعض المؤرخین: إن ناصیف باشا کان والیا علی دمشق و قتل فی الرملة سنة (۱۱۳۰) و علی هذا فیکون هو أول من تولی دمشق من هذه الأسرة. ذکر ابن میرو أن والد إسماعیل بن إبراهیم العظم کان جندیا سکن معرة النعمان و کان لأهلهما مع الترکمان التی ترد إلی جبلها شتاء وقائع جرح فی بعضها والد المترجم فتوفی و أعقب المترجم إسماعیل و سلیمان و موسی و محمدا و کلهم أعقب خلا- محمدا و کانت ولادة إسماعیل قبل السبعین و ألف بالمعرة و بها نشأ، و تقلبت به الأحوال إلی أن صار حاکما ببلده ثم بحماه، و أنعمت علیه الدولة بطوخین رتبة روملی و مالکانة حماة و حمص و المعرة و علی أخیه سلیمان، و منصب طرابلس علیه و سر عسکر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة (۱۱۳۸) تولی الشام و إمرة الحاج بالوزارة و حج ست سنین و حارب فی السنة السادسة عرب حرب بین الحرمین و امتحن سنة (۱۱۴۳) و حبس بقلعة دمشق و استأصلوا أمواله مع أموال ذویه ثم أفرج عنه و أعقب السید إبراهیم و أسعد و سعد الدین و مصطفی و معظمهم تولوا الوزارة.

و فی سنة (۱۱۴۳) توفی الأمیر حیدر الشهابی حاکم لبنان بعد أن حکم ستا و عشرین سنة علی روایة المؤرخ الشهابی بالعدل و الحلم و الکرم و حسن التدبیر و خلفه ابنه الأمیر ملحم، و الأمیر حیدر هو الذی أحیا ذکر القیسیة و ألقی ابنه الفتنة بین المشایخ فاختلفوا، و کانت الدولة لا تقدر علیه علی بغض أسعد باشا العظم والی صیدا له و سعیه به.

عهد محمود الأول:

تنازل أحمد الثالث عن ملكه باختياره (۱۱۴۳) بعد أن حكم ثماني و عشرين سنة و تسلطن محمود الأول و هو الرابع و العشرون من آل عثمان و التاسع عشر منهم في القسطنطينية، و كان السلطان أحمد الثالث غريبا في أطواره يحب الطيور و الأزهار، و يقضي أوقاته في تسلية سراريه بالأفراح

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۷

و الزين، و مع هذا يسجل له الفضل و رجاحة العقل في حسن اختياره صدورا عظاما شرفوا بأعمالهم عهده فلم يكن كبعض أجداده لا يعمل و لا يترك أحدا يعمل.

و في هذه السنة وقع بين القبوقول و الانكشارية الحرب و القتال و أغلقت دمشق أربعة أيام و قتل من الفريقين شرذمة. وقعت بين رجال والي طرابلس عثمان باشا و الانكشارية فتنة و ضد الانكشارية قتل بها من الفريقين ناس، ثم تصالح الجندان على أن يلزم الانكشارية حماية الوالي و يعزل قائم مقامه و بعض الضباط و يخرج عسكره من المدينة. و في سنة (۱۱۴۴) استأجر الأمير ملحم الشهابي بلاد بشارة و قبض على الشيخ نصار بن على الصغير و باغت إخوته فهربوا و نهبت الدروز ذاك الإقليم و عاد أولاد الشيخ نصار و استأجروا المقاطعات من الأمير ملحم.

قال الشهابي في حوادث سنة (۱۱۴۷) انتقل أسعد باشا العظم من صيدا إلى إيالة دمشق و كان واليا عليهما منذ سنة (۱۱۴۳) و تولى إيالة صيدا أخوه سعد الدين باشا والي طرابلس و تولى طرابلس سليمان باشا العظم و قويت شوكة بني العظم في بلاد العرب و عظمت دولتهم اه. عظمت دولتهم لأنهم أخلصوا في الغالب للدولة كل الإخلاص حتى أمنتهم و وسدت إليهم الأحكام في الشام و تركتهم يعملون ما يشاءون، و جاء دور و هم حكامها من أقصاها إلى أقصاها، و قل جدا في هذا القرن من تولى ولاية حلب أو دمشق أو طرابلس أو صيدا أو اللاذقية أو غزة بضع سنين. و من بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين، فإن إسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (۱۱۳۷-- ۱۱۴۳)، و سليمان باشا العظم تولاها خمس سنين للمرة الأولى (۱۱۴۶- ۱۱۵۱) و ثلاث سنين للمرة الثانية (۱۱۵۴- ۱۱۵۶) و أسعد باشا العظم تولاها أربع عشرة سنة (۱۱۵۶- ۱۱۷۰) و كان تولى صيدا أربع سنين و محمد باشا تولى دمشق مرتين اثنتي عشرة سنة، و كان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن و بني شهاب و بني الحرفوش و بني سيفا و بني طرابيه و منهم الصالح و الطالح و هل هم إلا نموذج من عصرهم، و لا شك أنهم جمعوا أموالا كثيرة لأن حكوماتهم طالت أيامها و الولاية

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۸

بالالتزام، فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضى الاستانة بمبلغ و يبقى له بعد كل إسراف مبلغ كبير، و هو المتحكم في الأفراد و الجماعات. و قد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة (۱۱۵۶) و عذب المفوض بذلك أسرته على أبشع وجه، و كذلك ضبطت أموال ابن أخيه أسعد باشا و أخرجت الدفائن من قصره و كان بعضها مخبوءا في الأرض و الجدران و الأحواض و بيوت الخلاء و فعلت مثل ذلك بأتباعه و رجاله. قال الشهابي: إن أسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة في دمشق و جمع مالا لا يحصى و سار بالحج مرات فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى و أمرت أن لا يشهر عليه سلاح و لا يقتل، ثم أرسلت إليه فقتلته في الحمام طمعا بكثرة أمواله و ضبطت ماله و أملاكه و قال: إنه كان جليلا عاقلا حسن التدبير مولعا بالخيل الجياد حتى قيل: إنه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لأجل ركوبه.

و ذكر الدويهي أن السلطان محمودا أنعم على عبد الرحمن أفندي (۱۱۶۵) محصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلمه حسن اغا إلى طرابلس فأمن الخواطر و نادى بالأمان و صار الفلاح ينزل إلى طرابلس آمنا على نفسه و أرخص الأسعار و مهد الأمور التي كانت متبلبلة من ظلم بيت العظم، و كذلك فعلوا بإسماعيل باشا في دمشق و بأخيه سليمان باشا والي صيدا و بياسين بك بن إبراهيم باشا والي اللاذقية من قبل أبيه و أسعد بك بن إسماعيل باشا والي حماة و حسن بك أخي إسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعا

سجنوهم و أخذوا أموالهم للسلطنة و ولوا على صيدا أحمد باشا بن عثمان باشا أبو طوق اه.

و قال فولنيه الرحالة الفرنسى: إن بنى العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة.

و ترجم ابن ميرو أسعد باشا العظم فقال: إنه لما وسدت إليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة و عمر بها خانات و حمامات و بساتين و دورا ليس لذلك كله فى البلاد الشامية نظير، ثم ولى صيدا فاستعفى منها و طلب حماة منصبا بعد أن كانت مالكانة له و لعمه، فرفعت منه المالكانة و وجهت له منصبا و دخلها سنة أربع و خمسين و مائة و ألف، و بذل الأموال إلى أن جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا. و فى سنة ست و خمسين تولى دمشق و إمرة الحاج

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۷۹

لموت عمه سليمان بات الوزير و حج بالحجيج أربع عشرة حجة و عزل عن دمشق و إمرة الحاج بالوزير حسين باشا مكى و ولوه حلب ثم عزل عنها و نفى إلى جزيرة كريت و نسبوا له ما وقع بالحجيج و قتل بمدينة أنقره. و قال فى ترجمة أسعد باشا أيضا: إنه كان محمودا فى ولايته و أهل الشام فى زمانه فى راحة و أمن و طمأنينة، و كان صبورا صبر على الأشقياء حتى أخذهم اللّه على يده، و آذاه عرب حرب فصبر على أذاهم حتى انتقم اللّه له منهم عن يد الوزير عبد اللّه باشا جته جى. و قال جودت فى وقائع سنة (۱۱۹۷): و فيها توفى والى الشام و أمير الحاج محمد باشا العظم بعد أن أقام فى وظيفته اثنتى عشرة سنة و لما كان وزيرا مشهورا من أهل الثروة و الغنى عين مباشرون مخصوصون من الاستانة لضبط أمتعته و أمواله. و قد أثنى المرادى على محمد باشا العظم هذا فقال: إن له من المآثر فى كل ولاية وليها و لا سيما فى دمشق ما يحسن ذكره و أنه رفع المظالم و أنشأ المعالم قال: و بالجملة فهو من أحسن من أدركناه من ولاة دمشق و أكملهم رأيا و تدبيرا.

و الغالب أن الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بنى العظم فى الشام يقاتلون الخوارج عليها و لا تحدثهم أنفسهم بنزع أيديهم من يدها و يدفعون إليها الخراج فى أوقاته و لذلك كانت ترعاهم على الجملة فى حياتهم و تتركهم يستمتعون بنعمها، فإذا هلكوا جاءت و وضعت يدها على عروضهم و أموالهم كما هى عادتها، و لعلها استبطأت أسعد باشا فى الولاية فخشيت شره فخنقته. و بالجملة فإن أحوال ذاك العصر يصعب الآن الحكم عليها لقلة من نظر فى المؤرخين فى الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح.

فتن و مشاغب:

رجع إلى سلسلة الحوادث. فقد توفى سنة (۱۰۴۸) الأمير محمد فروخ النابلسى و كان من شجعان الدنيا، تولى حكومة القدس و نابلس فأرهب العربان و كبر صيته و بقى فى إمارة الحج ثمانى عشرة سنة، و ألقيت رهبته فى قلوب العربان و كانوا إذا أرادوا أن يخوفوا أحدا منهم يقولون ها ابن فروخ أقبل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۰

فتتلوى قوائمه. و فى سنة (۱۱۵۲) كبس وزير صيدا مقاطعة الشقيف و قتل الشيخ أحمد فارس و أولاده و رفعت القبوقول و الأورط من الشام (۱۱۵۲) لخبث سيرتهم و هاجم (۱۱۵۶) الأمير ملحم الشهابى إقليم المتاولة و وصل إلى قرية نصار فالتقى بعساكرهم و انتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة و قتل منهم ألفا و ستمائة قتيل و قبض منهم أربعة مشايخ و نهب أرضهم و أحرقها، و باغت والى صيدا و والى طرابلس و والى دمشق إمارة الأمير ملحم الشهابى فى لبنان لتأخره عن أداء المال السلطانى و أحرقوا إقليم التفاح و مرج بشرة ثم وقع الصلح و أدى ما عليه. و جهز (۱۱۵۶) سليمان باشا العظم والى دمشق عسكرا على الظاهر عمر الزيدانى بعد أن قبض على أخيه مصطفى و شنقه بدمشق، فلما وصل الوزير إلى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض أتباعه فأدخل على سليمان باشا السم فى طعامه فمات وجىء به إلى دمشق فى أكثر الروايات، و سليمان باشا هو ابن إبراهيم ولى طرابلس و صار جرداويا لأخيه شقيقه الوزير إسماعيل ثم ولى صيدا، و بها صارت له الوزارة ثم ولى صيدا ثانية ثم ولى دمشق (۱۱۴۶) بإمارة الحج و حج خمسا بالحج

الشامی ثم ولی مصر و عاد إلی دمشق فولیها سنتین.

و فی سنة (۱۱۵۷) کانت الموقعة فی مرج عیون بین المشایخ المتاولة و أهالی وادی التیم و معهم دروز جبل الشوف و کانت الکسرة علی الدروز و عسکر وادی التیم و قتل منهم نحو ثلثمائة قتیل و حرقت المتاولة جمیع قری مرج عیون.

و فی سنة (۱۱۵۸) ملک الدالاتیة قلعة دمشق فقاتلهم الانکشاریة، و أمر أسعد باشا العظم حاکم دمشق أن یقصدوا سوق ساروجا و أطلقت المدافع فخربت الدور و نهبت دار رئیس الفتنة و خربت، و جرّت القافیة بقیة الدور و لم یبق من سوق ساروجا إلا القلیل و أعمل اسعد باشا السیف بکل عاص و قتل عسکره أناسا، و سلبوا الدور و أحرقوا بعضها، ثم صلب کثیرین و بقیت المشنقة أیاما لا تخلو من مصلوب اتهم أنه کان یمالیء أرباب الدعارة علی رغائبهم، و ترکت جثثهم أیاما أمام السرای تأکلها الکلاب و سلخت رؤوسهم و جعلت أکواما، و صارت المدافع تطلق بکرة و عشیة مدة شهرین، و کثر العزف بالأبواق و إطلاق السهام الناریة فی الفضاء.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۱

و فی سنة (۱۱۶۰) غزا أسعد باشا العظم البقاع فرکب الأمیر ملحم الشهابی بعسکره إلی المغیثة و نزل إلیه عند بر الیاس فانکسر الباشا و وصل الأمیر ملحم إلی سهل الجدیدة ثم رجع و أحرق جمیع قری البقاع و رجع إلی إمارته منصورا وهابته الدولة. و السبب فی هذه الفتنة تأخر الأمیر ملحم فی دفع الأموال الأمیریة علة العلل و أصل معظم الفتن، و غضب سلیمان باشا العظم (۱۱۶۱) علی الانکشاریة فی دمشق فأخرجهم عنها، فحضر رئیسهم أحمد آغا القلطقجی و معه عدة أغوات إلی جبل الشوف، و اجتمعوا عند المشایخ بنی یزبک و کانوا ینزلون و ینهبون من نواحی دمشق و یقطعون الطریق، و أحرق الأمیر ملحم دیار بنی تلحوق فی الغرب و دیار بنی عبد الملک فی الجرد.

و حاصر سلیمان باشا العظم الشیخ ظاهر العمر فی قلعة طبریة (۱۱۶۰) ثلاثة أشهر فأدرکه رکب الحج فارتفع عنها، و لما خرج الباشا إلی الحج أرسل الأمیر ملحم عسکرا إلی بعلبک فطرد الأمیر حیدرا الحرفوش و ولی مکانه الأمیر حسینا، و خربت الدروز أرجاء بعلبک و قطعت أشجارها. و فیها حضر خط شریف بقتل أغوات الانکشاریة بدمشق فقبض الوالی علی بعضهم و قتل ابن الفلاقنسی. و ذکر ابن بدیر أنه بلغ متسلم دمشق سنة (۱۱۶۲) أن بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاءوا دمشق ینهبون و یحرقون فأرسل إلی الموالی و المفتی و القاضی یأمرهم بأن یأخذوا معهم الأعلام و ینادوا: هؤلاء خوارج فمن کان یحب اللّه و السلطان لیخرج إلی قتالهم. فخرج الناس فقتلت الحامیة زمرة و کان الدروز یحتجون بأن قدومهم کان لإخراج إخوان لهم کانوا مسجونین فلما موطلوا نادوا فی حارة المیدان و القبیبات کل من لا یخرج للقتال معنا ننهب ماله و داره، فانضم جماعة من الحارات و نزلوا إلی السویقة و وقع القتال بینهم و بین القبوقول و الدالاتیة، و أغلقت البلد حوانیتها و حصرت الحارات و نبه المتسلم علی أهلها أن لا یخرجوا إلی الأزقة لیحرسوا دورهم، ثم جرت مقتلة بین الفریقین قتل فیها نحو خمسین قتیلا من جماعة المتسلم و القبوقول. و فتح عسکر الباشا الدکاکین فی باب الجابیة و نهبوا ما فیها من طعام و هدموا مصاطبها و صیروها متاریس و من الغد باکروا القتال

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۲

و زحفوا إلی السویقة و معهم العملة و البناؤون فحرقوا الدور و القصور و أطلقوا المدافع علی الأشقیاء فولوا الأدبار، فأمر المتسلم عسکره أن یقعوا فی نهب الدور و الدکاکین. و روی أنه أخرج فتوی و حجة و أمرا قاضیا بأن ینهب الجند من حد السویقة و یقتلوا و یهدموا و لا یعفوا عن إنسان فسلبوا الأموال و سبوا الحریم. و لما هرب الدروز نودی فی البلد بالأمان و أن تفتح الأسواق و یکف عن النهب قال ابن بدیر: و قد سرت مع من سار فرأیت فضائح المیدان، و القتلی مجدلة، و الأبواب محطمة، و الدکاکین مقفرة، ثم اضطرب أهل القبیبات و المیدان و السویقة و باب المصلی و أخذوا ینقلون أثاثهم إلی داخل المدینة مثل باب السریجة و القنوات و غیرهما من الحارات. و خاف الأکابر و الحکام و العامة فجعلوا یعزلون الدکاکین و یخبأون ما حوته فی البیوت و بلغ عدد الدور المنهوبة فی هذه الوقعة کما قیل ألفا و تسعمائة دار و أما الحوانیت فکثیرة جدا.

هذا و قد أخذ القبوقول يمسكون الناس و يأتون بهم إلى الحكام و يقولون:

هذا كان يقاتل مع الأشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة و لا إثبات، و لا قصد للقبوقول إلا أخذ ثارات لهم مضت مع الإنشكارية، إلى آخر ما أصاب دمشق فى ذاك العام من حرق و نهب و غلاء و فضائح و فظائع. و كان من العادة أن تغلق أرتجة الفيحاء و حوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول و الإنكشارية و بينهم و بين الدالاتية و الأشراف و الأكراد و الدروز، حتى ينادى مناد من قبل الحاكم يأمر بفتح الدكاكين و يطمن الناس.

و جاء دمشق (۱۱۶۱) أحد موالى أسعد باشا العظم و كان نقل بعد ولايته دمشق إلى حلب، فذكر الإنكشارية و العامة ظلمه أيام كان سيده حاكما فى دمشق فقاموا قومة رجل واحد فالتجأ إلى القلعة و حماه القبوقول، و لما أريد على الخروج من دمشق أبى فأغلقت البلدة دكاكينها و محالها و تجمع الإنكشارية و تبعهم الناس و تعصب العناتبة و الأكراد و الدالاتية مع القبوقول و أهل حارة العمارة و حدثت غارة فى سوق الدرويشية و أطلقت النيران على الإنكشارية ثم قاموا على أهل حى العمارة فانهزم أهلها منها و أحرقوها حتى صارت بلقعا و راح أهلها إلى الجامع الأموى، و دامت الفتنة أياما حتى قر رأى الأكابر و الأمراء على إخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج و لم تطفأ جذوة الفتنة، لأن

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۳

الثائرين ما زالوا يتلمظون بطعم الغنائم و يزدردون حلوى الغارة، و جاء الخبر بأن الجالين عن دمشق نهبوا الضياع فى طريقهم و قتلوا الأنفس و هتكوا الأعراض و صادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم و قتلوا منهم فريقا. و أخذ القبوقول يطلقون النار على الرعية و ظلت الفتنة قائمة فى البلد بين القبوقول و الإنكشارية و الأشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين و بضعة أولاد و شبت الحرب فى شوارع المدينة أياما ثم عتا الإنكشارية على حاكم دمشق فصاح فى جنده و ركب إلى الميدان فهربوا أمامه فأعمل هو و جنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا و من لم يمت بالسيف قادوه بالسلاسل و الأغلال، و عم نهب العسكر الكبير و الصغير و الناس بين قتيل و أسير، و نهبت الدور و الدكاكين و انتكبت نكبة عظيمة فعريت النساء و خطفت الجوارى و العذارى، و تمنى العقلاء الموت، ثم نهض جماعة الحاكم إلى النهب فمنعهم و أمر بجمع ما نهبوه فما وصل إلا القليل أودعه بعض الجوامع و أمر مناديا ينادى لتأخذ الأسباب أصحابها، فأخذ بعضها و ذهب الأكثر، و أما أتباع الوالى فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه و يقطعون رأسه أو يحبسونه، و تناول أذاهم من فى الدور و تعست الحال.

و وصف ابن النجار هذه الفتنة فقال: إن السلطان أرسل واليا آخر غير الذى كان و جرت هذه الوقعة فى عهده، فقتل الأشقياء من المسلمين و الدروز و النصارى و خربوا و حرقوا الدور و نهبوا الأماكن قال: و تعطلت الأسواق و المعاملات بسببهم فى دمشق قريبا من سنة لا تقام جمعة و لا يسمع آذان و لا يفتح جامع و لا يتمكن أحد من الخروج من منزله لحاجة و لا لغيرها، لفسادهم و إفسادهم و تعديهم على الخاص و العام. و إنما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود وال بدمشق فإن واليها كان خرج منها إلى الحج أميرا فجاء الوالى الثانى و قتل منهم من قدر عليه و فر منهم من فر و سلب دورهم و متاعهم و أثاثهم، و لحق دمشق و أهلها من ذلك الوالى و حاشيته و جنده كل بؤس، و ذلك بسبب قيامهم على أولئك الأشقياء، و انتهبت غالب المنازل فى دمشق و قتل خلق كثير من الأبرياء، نزل هذا الجند الكثير من دور الناس، و أخرجوا أهلها منها بالعنف و ظهر من أتباع هذا الوالى ما أنسى أهل دمشق ما كانوا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۴

فيه من الضنك و الشدة قبل قدوم هذا الجند إليهم و قال: إن هذه الفتن وقعت سنة (۱۱۷۰) و أرسل عبد اللّه باشا الشجى واليا ليرفع الحيف عن الدمشقيين و يعيد الأمن إلى طريق الحج، و اشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول و الإنكشارية ثم فرّ الإنكشارية طالبين البرارى و القفار فتبعهم نفر من الجند و قتلوا منهم عددا، ثم إن الجند أخذ فى قتل من يراه كائنا من كان و شرعوا فى النهب و السلب فانتهبوا معظم المنازل و الحوانيت من الحقلة إلى باب الجابية، و الجند يأتون بالرؤوس إلى الوزير، فقتل من الرعايا على هذه الحال

عدد كثير و انتهب المال و المتاع، و ظلم رئيسهم و حواشيه و اختطفت النساء و الغلمان جهارا من غير مدافع، و الجند يقولون إن جميع الدمشقيين كفرة و إنهم قوم يزيد. قال الشهابى فى دخول والى دمشق الجديد إلى المدينة: إنه كان مع الشتجى ثلاثة عشر ألف رجل فاجتمعت أهالى دمشق إلى الميدان ليمنعوه من الدخول فدهمهم ليلا و قتل منهم مقتلة عظيمة.

و فى سنة (۱۱۶۳) حصل بين سعد الدين باشا العظم و بين أهل حلب وحشة فرحل عنها جرداويا «و كان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لأنه لم يتول هذه الإيالة فى الدولة العثمانية أحد استقلالا لقلة دخلها و وفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويا لأخيه أسعد باشا الوزير فأقام جرداويا فيها و فى صيدا و حلب اثنتى عشرة سنة» روى الشهابى فى حوادث سنة (۱۱۷۱) أنه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق و القبوقول و كانت دروز الجبل تعين الإنكشارية فى القتال فانتصروا و حاصرت القبوقول فى القلعة و جرى بينهم أربع وقائع، و الإنكشارية تنتصر بإمداد الدروز، ثم وقعت الفتنة بين عسكر الباشا و عسكر الإنكشارية فانكسر عسكر الوزير و خرج الإنكشارية من دمشق نحو ألف فارس و وقع القتال بين أهل البلد و عسكر الوزير فقتل من أهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالأمان.

و عدد ابن بدير كثيرا من مظالم الدفتردار فتحى أفندى و مما قال: إن الأهلين لما ضاقوا به ذرعا استعدوا الباب العالى فأعداهم فأحضر إلى العاصمة ليمثل بين يدى السلطان، فأخذ يمنح المنائح لأرباب المظاهر حتى أدخلوا على السلطان شخصا آخر بدلا منه و أوهموه أنه هو المشتكى منه فأمر

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۵

بقتله فقتل. أما فتحى فسفره أعوانه من النظار تحت جنح الدجى فآب إلى دمشق يفعل الأفاعيل المنكرة، حتى إذا ضاق الخناق ورد الأمر بقطع رأسه فقطع و جرّ فى شوارع المدينة و ترك للكلاب تنهشه و مثل ببعض أعوانه و صودرت أمواله.

عهد عثمان الثالث و مصطفى الثالث و بعض الأحداث فى أيامهما:

و بينا كانت دمشق تموج بالفتن و تستل فيها الأرواح بسوء إدارة الولاة و تلاعب رؤساء الجند كان لبنان و هو ربيب القوة و المقاومة لا يخلو على ذاك العهد من فتن تدك العمران، و تفنى الإنسان و الحيوان، فقد ذكر المؤرخون أن المشايخ المناكرة تطاولوا (۱۱۶۳) على إقليم جزين فعظم ذلك على الأمير ملحم الشهابى و ركب لحرب جباع الحلاوة فهربت المتاولة من وجهه و أحرق أكثر ضياعهم، و كان قد أصاب منهم جماعة فى جبل الشوك فوق جباع و قتل من المتاولة نحو ثلاثمائة نفس و حرق حارة جباع و قطع الأشجار، و أحرق قليمى الشقيف و بشارة، ثم حدث بين جماعة الأمير ملحم الشهابى و والى دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع فى البقاع على المسافرين فى طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقين، ثم وقع الصلح بين أمير لبنان و والى دمشق على أن يؤدى الأول للثانى نفقة الحملة. و فى سنة (۱۱۶۵) وقعت فتنة بين المشايخ بنى أبى نكد فغضب الأمير ملحم الشهابى عليهم و أرسل فنفاهم من البلاد فنزحوا إلى وادى التيم و هدم منازلهم فى دير القمر ثم رضى عنهم. و كانت للسيد أحمد باشا الذى كان واليا فى حلب سنة (۱۱۶۵) الحظوة عند رجال الاستانة قال أبو الفاروق:

فعينوه واليا على قونية فسبقه إليها زوربا كورد محمد، و أثار أفكار أهلها عليه لما عرف به من مظالم، فحاربوه و هلك أناس فى هذا السبيل، ثم عينته الدولة واليا على حلب فسبقه إليها كورد محمد أيضا و مثل الرواية التى مثلها فى قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر. و دامت الحرب فيها مدة و أحرقت البيوت و خربت البساتين و قطعت المياه عن البلدة.

و فى سنة (۱۱۶۸) توفى محمود الأول بعد سلطنة خمس و عشرين سنة و تولى السلطنة السلطان عثمان الثالث و هو الخامس و العشرون من آل عثمان و لم يعمل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۶

عملا يذكر اللهم إلا ما كان من تبديل وزرائه و الإفراط فى هذا التبديل، و كان يميل إلى الطرب و الصفا و يعمر الأبنية فى العاصمة و أسس بعض دور الكتب و فى خلال ذلك تولى دمشق و إمارة الحاج حسين باشا مكى و لم يكن شرها فى جمع المال و يميل إلى العدل و حسن الرياسة غير أنه كما قال المرادى: كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء، فبسبب ذلك حصل من الجند الوطنى و القبوقول (الحرس) و غيرهما من طوائف الأكراد و العسكر فتن و حروب و حصل للأعيان و الرؤساء الضيق العظيم و قامت عليهم الناس.

و فى سنة (۱۱۷۲) هلك السلطان عثمان بعد أن ملك ثلاث سنين و ثمانية أشهر و خلفه مصطفى الثالث فافتتح العهد بالإعلان بتبديل السياسة و لكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام و سيادة الاشمئزاز على الناس، و وضع ثقته فى وزيره رجب باشا فأحسن و كان رجب ذكيا و مخلصا. و فى سنة (۱۱۷۴) كان واليا على دمشق عثمان باشا الكرجى و كان يلقب بالصادق، و سبب هذا اللقب أنه كان من بعض مماليك أسعد باشا العظم و هذا يحبه لنباهته، و لما قتل أسعد باشا و ضبطت الدولة داره و أمواله طلبوا عثمان هذا فأخبرهم بخزائن مولاه، ثم وجدت قائمة بين تلك الأموال فكانت مطابقة لكلامه فأنعمت عليه الدولة و لقبته بالصادق، و تولى ولاية دمشق إحدى عشرة سنة (۱۱۷۴- ۱۱۸۵) و مما وقع فى أيامه ركوبه لحرب محمد الجرّار إلى قلعة صانور، أرسل إلى الأمير يوسف فبعث بعسكره و التقى به عثمان باشا فعظم أمره عنده و أكرمه، و أصلح الأمير إسماعيل الشهابى حاكم حاصبيا قلعة بانياس و بنى ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن و أقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة و نهب عثمان باشا كل ما كان فيها و أمر بهدمها.

سيرة ظاهر العمر الزيدانى و سياسته:

استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود وال مخلص لها فى دمشق عثمان باشا الكرجى الصادق، فتركته و شأنه يعمل باسمها و يقاتل أعداءها، فطالت ولايته على حين تقلبت حلب فى مدة حكمه على دمشق إحدى عشرة سنة فى أيدى

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۷

عشرة ولاة. و كانت الشام تتمخض فى خلال ذلك بظهور رجلين فى العقدين الأخيرين من هذا القرن كما تمخضت أواخر النصف الأول منه بظهور آل العظم، و نعنى بهذين الرجلين الشيخ ظاهر العمر الزيدانى و أحمد باشا الجزار.

و قد اهتمت لعظم شوكتهما الأمة و الدولة، جاء الثانى على أثر الأول فبزه ظلما و عدوانا. و لم يكن قيام أمر الرجل فى ذاك العهد يتوقف على نباهة فيه و علم و سياسة، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطبائع من يقوم فيهم، و تلطف باستمالة قلوب أفراد يعوّل عليهم، و رأس مال قليل يؤديه ثمن إقطاع أو نفقة الظهور، و مهارة فى البطشة الكبرى الأولى و دهاء و حيلة، و عندها يزيد كل يوم قوة، و لا تلبث الدولة أن ترعاه، و الأهلون أن يتفيأوا ظله و حماه.

فى أواسط القرن الحادى عشر جاء إلى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز رجل يدعى زيدان و له ولد اسمه عمر و لعمر ولدان اسمهما ظاهر و سعد.

ظعنوا عن ديارهم لخصومة وقعت بينهم و بين عدو أقوى منهم مراسا، فجاءوا و ضربوا خيمتهم فى الأطراف الشمالية من سهل البطوف فى أرض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس. و لما كانت قرية عرابة أقرب القرى إليهم جاء و جهاء القرية و زاروهم و حيوهم و سألوهم أن يأتوا إلى قريتهم يضربون خيامهم فى أرضها لأنهم كانوا على أربعة أميال منها. و كان فى قرية سلّامة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على منحدر الوادى المسمى بهذا الاسم شيخ درزى قوى الجانب برجاله الأشداء باسط أجنحة نفوذه على ما جاوره. مر بعرابة ذات يوم و وقع نظره على فتاة أعجبه حسنها و طمع فيها لنفسه. و نزل بيت أحد و جهاء القرية و دعا إليه الزعماء و طلب منهم الفتاة، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصا و هو درزى و هم سنة. و ارتبك أهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع

فقال لهم: الخطب سهل على أن تعاهدونى أن تعملوا ما أسألكم إياه و لا تبوحوا به فقال: أجيبوا الدرزى إلى ما طلب و عينوا له وقتا يوافيكم فيه لأخذ العروس، و إذا جاء مع جماعته رحبوا به فإذا استقر بهم المقام خذوا أسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون و يرقصون إلى حين الرقاد، و كل واحد منكم يأخذ واحدا إلى داره ليؤويه و لما رقد الجميع هبّ زيدان و أفنى جماعة الدروز، ثم أغار هو و جماعته على سلامة مع سكان

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۸

عرابة فبطشوا بمن بقى فيها و خربوها فعظم قدر زيدان و انضم إليه أناس ممن يحبون الغزو و الشقاوة، و ألف منهم جيشا يغزو بهم، فينزل بأرباب العمل الويل و الخراب. ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة و كان منهم حاكما طبرية و الناصرة، فأضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل أهل عرابة نمرين و غيرها. و رزق ظاهر ستة أولاد ذكور و كفله سكان عرابة لدى والى صيدا فالتزم الجباية، و كان بعض السنين يتلكأ عن أداء ما تعهد به و أحيانا يؤدى للدولة حقها، حتى نمت ثروته و أقام فى عكا فجعل أخاه سعدا فى دير حنا، و أولاده على فى صفد، و عثمان فى شفا عمرو، و سعيد فى الناصرة و جهات مرج ابن عامر، و صليبى فى طبرية، و أحمد فى تبنة و جبل عجلون.

كانت جبال بيروت و أعمالها بيد حكامها الأمراء الشهابيين يدفعون الأموال لوالى صيدا المعين من قبل الدولة، و كانت صور و عملها بيد المتاولة يضمنون أموالها من والى صيدا، و أما جبال عكا و ما إليها فكانت بيد مشايخها و من جملتهم بيت أبى زيدان كانوا يضمنونها من والى صيدا أيضا، فما زال الأمر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتاولة و تزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه و أقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس، و عمروا قلعة طبرية و قلعة صفد و غيرهما و بدأوا يسطون على عكا و صور، و أظهروا الشقاوة و قطع الطرق فضجر منهم والى صيدا و اضطر أن يضمن مدينة عكا إلى الشيخ ظاهر العمر و يضمن صور للمشايخ المتاولة، و ابتدأ الشيخ ظاهر العمر يبنى فى عكا سرايا عظيمة و سورا و أبراجا و يجمع إليه العسكر و انتشرت أعلامه فى تلك البقعة و أطاعته مشايخ المتاولة و دخلت عرب البادية تحت حكمه «و كان عادلا فى الرعية و سار معهم سيرة مرضية» و ساعدته المتاولة فى أطراف لبنان فخافه السلطان و أوهمه أنه يجعله نائبه فى القدس و يوليه عكا و الناصرة و طبرية و صفد و سائر البلدان التى فى تلك الأطراف و أنه أمير العرب فصدق و كف عن المحاربة. و ذكر شوفيه و ايزامبر: أن ظاهر العمر نشط الزراعة و قضى على غزو القبائل المجاورة له من العرب فوفق إلى توطيد الأمن فى الأقاليم فكان المسيحيون و المسلمون يهرعون إلى نزول أرضه من جميع أطراف الشام لينعموا فيها بالراحة و التساهل الدينى.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۸۹

و قال واصفوه: إنه ما زال فى ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية و الدولة الروسية فضعفت الدولة فى الأقطار الشامية، فزاد ظاهر العمر قوة و عدا على والى صيدا و طرده منها و تملكها و أرسل لها حاكما من عنده، و استمر يحارب الوزراء سبع سنين و لم يدفع مالا للدولة، و له معهم وقائع انتصر فيها على عساكر الترك و عسكر الدروز و العربان. و فى هذه الأثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص إبراهيم الصباغ من أهل عكا، و كان هذا صاحب عقل و تمييز إلا أنه يحب المال كثيرا، كما حالف الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى القرن الماضى أمراء طسقانه.

و استمر الشيخ ظاهر حاكما على عكا نحو أربعين سنة إلى سنة (۱۱۸۹).

و السبب فى وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر و ولاة الأطراف أن عثمان باشا الصادق والى دمشق لما وليها سنة (۱۱۷۴) و كان شديد المكر كثير الدهاء، ولى أولاده الاثنين صيدا و طرابلس، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر و يطلب المال للسلطان، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا و خلت خزائنه فأخذ يلح على الأهالى فى طلب المال، فضج الناس من ظلمه، و عصاه أهل الرملة و غزة و يافا و لم يطيعوه إلا بعد حروب كثيرة، فوقعت البغضاء فى قلوب إقليم القدس و تمنوا حكم على بك صاحب مصر عليهم، و كان هذا

قد قوى فأطاعته البلاد المصرية.

و حاول عثمان باشا سنة (۱۱۸۳) أن يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع أمراء جبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالى مصر على بك، و كان هذا عزم على رفع لواء العصيان على الدولة، و فى قلبه حقد على عثمان باشا، فهش لاقتراح الشيخ ظاهر لأنه كان يريد امتلاك الأمصار من عريش مصر إلى بغداد، و كان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالبا منها أن تمده بالمراكب و الرجال و هو يملكهم المدن البحرية فى الشام. و لما وصلت إليه رسالة الشيخ ظاهر جهز له ستة سناجق كبار و رأس عليهم إسماعيل بك و أصحبهم بعشرة آلاف من الغز و العربان و المغاربة و أمرهم أن يكونوا فى طاعة الشيخ ظاهر العمر و ساروا إلى أراضى المزيريب فى حوران، و كانوا نحو عشرين ألفا، لقتال عثمان باشا فعدل إسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد أولاد الظاهر و عشيرته، فشكا

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۰

الشيخ ظاهر إلى الأمير على بك ما لقى من إسماعيل بك فابتدأ الأمير على يجهز العساكر و الجنود على نية الخروج لتملك الشام.

و فى هذه السنة قبض الأمير يوسف الشهابى على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا إلى وزير طرابلس و أتوا بعسكر إلى قرية بزيزا و وقع القتال بينهم فى قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس و حاصر بعضهم فى برج فى أسفل القرية ثم سلموا و ساروا إلى طرابلس، و فيها بلغ الباب العالى ما فعله على بك، فأمر والى دمشق أن يسير بخمسة و عشرين ألفا لمنع جنود عكا من معاضدة على بك فسار الوالى بالعساكر، فوافاه الشيخ ظاهر العمر فى ستة آلاف بين جبل النيران و بحيرة طبرية ورده على أعقابه.

حملة أبى الذهب على الشام:

استكثر أمير مصر على بك (۱۱۸۴) من جمع طوائف العسكر و أمر بسفر تجريدة إلى الشام و أميرها إسماعيل بك و كان أرسل أحد رجاله فقتل سليطا شيخ عربان غزة هو و إخوته و أولاده، فذهبت تجريدة من البر و أخرى من البحر و وقعت بين جنده و حكام الشام و أولاد العظم حروب و مناوشات و فى سنة (۱۱۸۵) أخرج على بك من مصر تجريدة عظيمة و أميرها محمد بك أبو الذهب فى جند كثير من المغاربة و الترك و الهنود و اليمانية و المتاولة، و سافرت من طريق دمياط فى البحر، فلما وصلوا إلى الديار الشامية حاصروا يافا و ضيقوا عليها حتى ملكوها، ثم توجهوا إلى باقى المدن و القرى و حاربهم النواب و الولاة فهزموا و قتلوا و فروا من وجه الجيش المصرى، فاستولى على الممالك الشامية إلى حدود حلب. قال هذا الجبرتى، و قال غيره: إن محمد بك أبا الذهب لما وصل إلى الشام حضر إليه أولاد ظاهر العمر و مشايخ المتاولة و انضموا إلى عسكره فصار جيشا عظيما ينيف على الستين ألفا، فسار محمد بك أبو الذهب طالبا دمشق، و كان عثمان باشا قد رجع من الحج فجمع العساكر لقتاله، فما لبث عثمان باشا أن انكسر فخيم أبو الذهب حول المدينة قاصدا حصارها، و أرسل إلى أهلها كتابا يشير فيه إلى ما أتاه عثمان باشا من الظلم و إهانة الحجاج و الزوار و ظلم المسافرين و التجار، و أنه يريد أن يطهر هذه

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۱

الأرض منه نصرة للدين و غيرة على المسلمين، و يذكر ما فعله بعلماء غزة فى العام السابق من دفنهم فى الأرض أحياء، و أنه أخذ فتوى المذاهب الأربعة فى قتاله، و صرف الأموال و العساكر ليردوا الظالم و يستردوا المظالم، فخرج العلماء و العوام من أهل دمشق كافة إلى محمد بك أبى الذهب و طلبوا منه الأمان فأمنهم و أكرمهم، و دخل المدينة و جلس فى دار الوزارة و نادى بالأمان، و كانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر بإطلاق المدافع عليها و طلب المحاصرون الأمان فتسلم القلعة. و تراجع عثمان باشا إلى حمص و جهز العساكر الكثيرة.

و ابتدأ إسماعيل بك يغير قلب محمد بك أبى الذهب على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور و خوفه عاقبة التمرد على السلطان فنهض بعساكره ليلا من دمشق و سار طالبا الديار المصرية، و شاع رحيله من الغد فتعجب الأهلون من ذلك و لم يعلموا السبب فيه، و

رجع أولاد ظاهر العمر و المشايخ و المتاولة كل منهم إلى مكانه و قد تأسفوا على سعيهم.

و فى رواية أن السبب فى ترك العسكر المصرى بزعامة محمد بك أبى الذهب حصار دمشق أن عثمان باشا و اليها لما أشرف على الهلاك بعث إلى قائد المماليك بصرة ثقيلة بالدنانير للرجوع عن محاربته فارتشى منه، و أمر عسكره بترك المحاصرة و تركوا حصار قلعة دمشق، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم، و أنهم قد فارقوه و تركوه وحده عجز عن فتح القلعة فرجع إلى دياره، فتخلص عثمان باشا و عاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج لمحاربة ظاهر العمر و دخل أراضيه و حاصره فى عكا و جدّ فى الحصار حتى صعب الحال على الشيخ، و كاد عثمان باشا يفتح عكا، فما نجا الشيخ فى هذه المرة إلا بمساعدة ولديه، فقد جمعا العرب و هجما على الترك ليلا فكسروهم و شردوهم فهرب منهم عثمان باشا، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره و حارب الدروز فغلبهم و تملك قراهم التابعة لعامل صيدا. و لما بلغ السلطان خبر فتوحه و هو مشتغل بحرب روسيا صعب الحال عليه، فأرسل السلطان إلى الشيخ يعرض عليه الصلح، و قد عزل عثمان باشا و ولديه عن ولاية دمشق و صيدا و طرابلس، و أما الشيخ ظاهر فقد أضمر فى نفسه أن يدخل فى طاعته الشام كله و هو يستند فى ذلك على مساعدة على بك أمير مصر.

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۲

و ذكر المرادى أنه كان مع محمد بك أبى الذهب تسعة ألوية و خمسة من أولاد الظاهر أمير بلدة عكا و مشايخ المتاولة و الصفدية و نحو ثمانين مدفعا و أربعون ألف مقاتل، و عينت الدولة لقتاله والى حلب و والى كليس و والى طرابلس فخرجوا مع وزير دمشق بالعساكر الشامية و الأجناد، و صارت المعركة فى سهل داريا و فى أقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقى و فرهاربا كل من والى كليس، والى حلب و عساكرهما، و قتل منهم شرذمة قليلة و ثبت كافل دمشق عثمان باشا و ولده محمد باشا و العساكر الدمشقية و دام القتال ثلاثة أيام، و فر أعيان البلد إلى حماة و استولى الفزع على الناس، و غص الجامع الأموى بأهالى القرى فنزلوا بأهلهم و أمتعتهم و مواشيهم إليه. و لما عاد أبو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا و ولده محمد باشا و رئيس «اليرلية» يوسف أغا جبرى من جبل الدروز و معه خمسة آلاف درزى و بعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبرى، لأنه كان السبب فى تقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعا فى قتل عثمان باشا و صيرورته مكانه كافلا بدمشق.

عاد أبو الذهب إلى مصر و رجع إلى دمشق عثمان باشا و حضر إليه الأمير يوسف الشهابى لأنه كان قد أرسل إليه نائبه يوسف أغا جبرى يستنجده، و كان الأمير يوسف قد جمع عسكرا و تجهز للمسير فاتفق قيام أبى الذهب عند ذلك. و لما فرغ بال عثمان باشا و قتل نائبه يوسف أغا جبرى رئيس الأنكشارية و نهب أمواله أقام مكانه رجلا- من أهل دمشق يقال له عثمان آغا شبيب، ثم خرج بعسكر عظيم إلى أرض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر و المتاولة الذين كانوا السبب فى تلك الفتنة فجمع ظاهر العمر رجاله و اجتمعت المتاولة و كبسوا عثمان باشا فى الليل فذعرت عساكره و قتل منهم خلق كثير.

و هزمهم الشيخ ظاهر و ما زال فى إثرهم حتى وصلوا إلى بحيرة الحولة فألقى كثير منهم أنفسهم فى البحيرة و ماتوا غرقا. و هرب عثمان باشا بنفر قليل فاستولى ظاهر العمر و المتاولة على أسبابه. و كتب الشيخ ظاهر إلى الأقاليم الشامية و دخل الناس كافة فى طاعته. فخرج على بك من مصر فالتقاه ظاهر العمر بالإكرام و دخل به إلى عكا فأرسل كتبا منه (۱۱۸۵) و من الشيخ ظاهر العمر إلى ملكة المسكوب يسألانها معاضدتهما على الدولة العثمانية، و أن ترسل

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۳

إليهما المراكب الحربية ليسلماها الديار المصرية. و أقام على بك ينتظر الجواب و قويت مشايخ المتاولة على الدولة، و تطاولت على أطراف جبل الشوف و مرج عيون و الحولة، فاتفق الأمير يوسف و خاله الأمير إسماعيل حاكم وادى التيم الأدنى و جمع الأمير يوسف نحو عشرين ألف جندى و سار قاصدا قرية جباع الحلاوى و أحرق إقليم التفاح و حرق جباعا و قطع أشجارها و هدم بنيانها.

و كان عسكر المتاولة المجتمع فى النبطية نحو ثلاثة آلاف، و لما وصل الأمير يوسف الشهابى إلى كفر دمان أحرقها و توجه إلى

النبطية فالتقى بشر ذمة من عسكر المتاولة نحو خمسمائة خيال و وقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة، و مات كثير من عسكره تعبا و عطشا و منهم من اختلت عقولهم، و فقد من عسكره فى هذه الوقعة أكثر من ألف و خمسمائة قتيل، و ركب الشيخ كليب نكد من حاصبيا إلى دير القمر و غزا المتاولة فى قرية علمان فهزمهم و منعهم من الحضور إلى إقليم الخرنوب و تلك الأطراف، و سارت عساكر الدولة مع عسكر الأمير يوسف لحصار مدينة صيدا و أنقاذها من يد ظاهر العمر و كانوا فى أكثر من عشرين ألفا معهم المدافع و الزنبركات فأقاموا على حصارها سبعة أيام. و جاءت المراكب الروسية إلى عكا التى استنجد بها ظاهر العمر فأرسلها إلى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة و جيش لبنان، و ساق ظاهر العمر عسكره و قدروه بعشرة آلاف جندى و التقى بعسكر لبنان و جيش الدولة فى سهل الغازية، و انتشب القتال فانكسر عسكر الدولة و قتل منه نحو خمسمائة نفس و انقلب راجعا إلى دمشق، و أما المراكب الروسية فسارت إلى بيروت و ملكت جانبا منها و أحرقت بعض الأبراج، فهربت الشهابية من المدينة و خرج أهلها إلى البر، و دخلت الفرنج بيروت و نهبت كل ما وجدته فيها، ثم رحلت إلى عكا بعد أن أعطاها حاكم لبنان (۷۵۰۰) قرش تعويضا، ثم عادوا و أطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ، حتى ظن الناس أن القيامة قامت و سمع صوت المدافع على ما قيل إلى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف، و أحاطوا بالمدينة بحرا مدة أربعة أشهر ليل نهار، فتضايق المتحاصرون فيها و نفد ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۴

الخيل و الحمير و الكلاب، و هناك اضطر الجزار إلى التسليم و طلب الأمان عن يد ظاهر العمر و تسلم الأمير يوسف بيروت و غرم المسلمين ثلاثمائة ألف قرش و سلمها للسفن المسكوبية. قال أحد المؤرخين: ضرب الروس بيروت و نهبوها فى القرن الثامن عشر و كانت فيها بيوت أمراء الجبل و مشايخه، و كانوا بنوا فيها خانات و قيساريات و كان الفرنسيون يدعونها «باريز الموارنة الصغرى» و كثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا.

و وقعت فى هذه السنة بين الشهابيين و الحماديين فى العاقورة و القلمون واقعة. و فى سنة ۱۱۸۶ أخذ سيد أحمد من والى دمشق حكم البقاع فتوجه إلى قب الياس و بنى ما كان هدم فيها من الزلازل و حصنها بالمدافع و الرجال.

و فى هذه السنة أحرق يوسف الشهابى بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بنى رعد حكام الضنية مع المشايخ بنى حمادة. و فى سنة ۱۱۸۷ حمل عثمان باشا والى دمشق فى خمسة عشر ألف جندى على الأمير يوسف الشهابى حاكم لبنان فى جهات البقاع. و جرت عدة وقائع بين العسكرين و انهزم والى دمشق فى الليل تاركا المدافع و الذخائر ثم انفصل الفريقان على غير نتيجة.

عهد عبد الحميد الأول و تتمة أخبار أبى الذهب:

هلك أحمد الثالث (۱۱۸۷) و خلفه ابنه عبد الحميد الأول و فى أيامه استولى العجم على العراق و لم يبلغه الخبر إلا بعد خمس سنين، و هو السابع و العشرون من آل عثمان، مضت مدة على رحيل أبى الذهب من الشام و بقى ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا و كسرته والى دمشق غير مرة و اتهام أبى الذهب بالخيانة أمام والى مصر ممتعا بولايته حتى سنة (۱۱۸۹)، و فيها سافر أبو الذهب إلى الديار الشامية- رواية الجبرتى- لمحاربة ظاهر العمر و استخلاص ما بيده من الأقاليم، و كانت الدولة أذنت له بالمسير إلى ظاهر العمر و خراب أرضه، فوصل إلى أرجاء غزة و ارتجت الديار لوروده، و لم يقف أحد فى وجهه و تحصن أهل يافا بها و كذلك ظاهر العمر تحصن فى عكا، فلما وصل إلى يافا (۱۱۸۸) حاصرها و ضيق على أهلها و امتنعوا هم أيضا عليه و حاربوه من داخل و حاربهم من خارج، و ألقى عليهم المدافع و المكاحل و القنابر عدة أيام و ليال،

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۵

فكانوا يصعدون إلى أعلى السور و يسبون المصريين و أميرهم سبا قبيحا، فلم يزالوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها و هجموا عليها

من كل ناحية و ملكوها عنوة و نهبوها و قبضوا على أهلها و ربطوهم بالحبال و السلاسل و سبوا النساء و الصبيان و قتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم جمعوا الأسرى خارج البلد و أعملوا فيهم السيف و قتلوهم عن آخرهم و لم يميزوا بين المسلم و المسيحى و الإسرائيلى و العالم و الجاهل و العامى و السوقى و لا- بين الظالم و المظلوم. و بنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع و وجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة و الرياح و الزوابع، ثم ارتحل عنها طالبا عكا. و لما بلغ ظاهر العمر ما وقع بيافا اشتد خوفه و خرج من عكا هاربا فوصل إليها أبو الذهب و دخلها من غير مانع، و أذعنت له باقى المدن و دخلت تحت طاعته و هدم قلعة دير مار يوحنا و دير مار الياس فى صفد و قتل رهبانهما.

و يقول جودت: إن أبا الذهب قام من مصر فى ستين ألف جندى إلى يافا، و بعد حصارها خمسين يوما استولى عليها و أعمل السيف فى أهلها كبيرهم و صغيرهم، و أن ظاهر العمر طلب مددا من الأمير يوسف الشهابى حاكم لبنان فأبى أن يمده فلم يسعه إلا الهرب من عكا و التجأ إلى عرب غزة، و لما حصل أبو الذهب فى عكا استولت الدهشة على الناس حتى إن بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خوفا و هلعا، أما الأمير يوسف حاكم لبنان فقدّم هدايا إلى أبى الذهب طيب بها قلبه، و جاء متسلم صيدا أحمد آغا الدكزلى ملتمسا رضاه مظهرا طاعته، فأمنه على نفسه و مركزه، كما جاء مشايخ بنى متوال فأكرمهم أبو الذهب ثم استدعى أن يولى أمور مصر و الشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك و لكن كان قد قضى نحبه و تفرقت جموعه و عادوا إلى مصر، فلم تنل الدولة مأربها من ظاهر العمر و لم تستفد الشام سوى أن قتل من أهلها جمهور كبير و لا سيما فى حصار يافا. و جرى على أثر هذه الواقعة بين المتاولة و الغز الذين فى صيدا قتال عظيم فانكسرت المتاولة كسرة هائلة و قتل منهم جماعة.

خاتمة ظاهر العمر و ولاة حلب:

قال جودت: لما سمع ظاهر العمر بوفاة أبى الذهب عاد إلى عكا و أخذ

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۶

يطيل أيدى الأذى أكثر من قبل، فأرسلت عليه الدولة سنة (۱۱۸۹) قائد البحر حسن باشا الجزائرى، و كتب إلى والى دمشق إذ ذاك محمد باشا العظم و إلى والى صيدا و إلى الجزار أحمد باشا الذى نصب محافظ السواحل الشامية و إلى متصرف القدس، فبعث قائد البحر أولا يطلب من الظاهر ما فى ذمته للدولة من الأموال الأميرية (و هى خراج سبع سنين) فلم يوافق على ذلك مستشار ظاهر العمر إبراهيم الصباغ، و كان بيده جميع أموال ظاهر العمر، و قال له: إن الدولة لا يرضيها شىء و أراد سيده على المقاومة و لكن استمال متسلم صيدا عسكر ظاهر العمر و قال لهم: لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا أن يقاتلوه. فلما علم ظاهر العمر بالأمر فرّ على وجهه لا يلوى على شىء هو و أولاده، فضبط قائد البحر أمواله و ذخائره و جىء بإبراهيم الصباغ فأخذت منه أموال ظاهر العمر ثم قتل. و يقول بعض المؤرخين: إن ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان و ثمانون ألف كيس من النقد قال جودت: سبحان اللّه! بمثل هذا المال و النوال و متسلم صيدا أحمد آغا الدكزلى يطلب عشر معشاره لإرضاء الدولة فتشح نفس إبراهيم الصباغ فيجلب البلاء على نفسه و يكون سببا لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان.

و ذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر أنه فى أواخر سنة (۱۱۸۹) حضر قائد البحر حسن باشا الجزائرى بالأسطول لأن السلطان عبد الحميد الأول لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة (۱۱۸۷) التفت لتنظيم الولايات فوجه قائد البحر إلى حيفا، و ذلك بعد موت أبى الذهب و رجوع العساكر المصرية بمدة قليلة، و أن مطالب القائد كانت أموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر أن ليس عنده مال و أنه مستعد لحرب قائد البحر لأن عنده بارودا و قذائف و ثلاثة مدافع، فأطلق قائد البحر أربعة أيام النار على عكا، و كان عدد قنابله ۷۷۵۰ قنبلة و لم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلا من المحلات، و قيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق، فخرج الشيخ ظاهر بعياله فقتله أحد المغاربة فى الطريق فى محل يسمى الرقايق، و كان قاتله عبدا من عبيده منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد

التركى به لخيانته سيده، و حزوا رأسه و حمل إلى الاستانة و نهب العسكر المدينة ساعتين. و كان قائد السفينة الفرنسية التى جاءت

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۷

لحماية تجار عكا الفرنسيين و حملتهم إلى وطنهم نبه على التجار الفرنسيين بأن كل من عنده وديعة لإبراهيم الصباغ و لكل من يلوذ به ملزم بحسب أوامر السلطان أن يقدمها إلى قائد البحر العثمانى فأعطوها و كانت ۳۶ ألف كيس ذهب عدا الجواهر و التحف، و ضبطت حواصله و كانت مشحونة بأصناف البضائع و ضبط مبلغ كبير ممن يلوذ بإبراهيم الصباغ الذى أخذ و قتل فى الاستانة، و كذلك أحمد آغا الدكزلى الذى خان مولاه فقد صلبه قائد البحر فى صارى المركب، و سلم قائد البحر ولاية عكا إلى أحمد باشا الجزار، سلمه عكا و صيدا و ما يليهما، فاحتال الجزار على أولاد ظاهر العمر و أقام الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ و يقول مشاقة: إن حسن باشا طلب من ظاهر العمر خمسين ألف قرش تبلغ بأسعار ذاك الوقت خمسة و عشرين ألف ريال فرنسا فأشار أكثر معتمدى الشيخ بالدفع إلا الطبيب التاجر إبراهيم الصباغ فإنه خالف رأى الجماعة، و قيل: إنه وصل من أموال ظاهر العمر و أولاده و إبراهيم عبود الصباغ إلى خزينة السلطان ثلاثمائة و ثمانون ألف كيس تساوى خمسة ملايين ليرة و خمسة و عشرين مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه.

و فى أوائل (۱۱۹۰) رجع حسن باشا الجزائرى بالأسطول إلى عكا و حضر محمد باشا العظم والى دمشق بعسكره و إبراهيم باشا والى القدس بعسكره و نصبوا معسكراتهم خارج مدينة عكا و طلع معهم أحمد باشا الجزار بعساكره و ساروا جميعا مع أمير البحر قاصدين البطش بأولاد ظاهر العمر فأمنوهم و حملهم قائد البحر إلى الاستانة و قتل فى الطريق أحدهم و اسمه أحمد لأنه طعن فيه جهارا و بقى أحد أولاد الظاهر و اسمه الشيخ على يتنقل فى البرارى، فبلغ الدولة خبره فأرسلت إلى محمد باشا العظم أن يرسل إليها رأس على الظاهر أو يقتل هو به، فأرسل والى دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته و أنكر جماعة أحمد باشا الجزار الرأس المحمول، و قالوا: إنه ليس رأس الشيخ على الظاهر فأحضرت الحكومة ولديه الحسن و الحسين و كانا فى الاستانة و قالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقيل لهما:

ما يبكيكما؟ فأجابا هذا رأس والدنا على الظاهر و قد عرف من كبر عارضيه لأنه كان يدعى أبو سبعة شنبات، و بذلك انقضت دولة الظاهر و اندثر ذراريها

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۸

و قامت دولة الجزار أحمد باشا الذى ضيق على أولاد الظاهر و ذراريه و بعث أحد جواسيسه إلى ابنه على و قتله فى مرج علما الخيط.

و الغالب أن الشيخ ظاهر العمر الذى حكم صيدا و عكا و يافا و حيفا و الرملة و نابلس و إربد و صفد و جميع المتاولة كانت تحت أمره، كان إلى السذاجة و الفطرة، استسلم لوكيله إبراهيم الصباغ، و كان هذا مثلا سائرا فى الإمساك وحب المال، فحاول أن يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه أضعاف أضعافها من الذهب، دع سائر العروض و الجواهر، و اغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان فى ذلك ذهاب دولته و هلاكه و هلاك وكيله، و لم يثمر جمع الأموال الثمرة المرجوّة، و لو قدّر له أن يعمل بما رسمه له السلطان سنة (۱۱۸۸) من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه و ذنوب غيره على شرط أن يؤدى الخراج لبقى فى عزه إن كانت الدولة تريد دوام العز لأحد.

كانت الشكوى قليلة من إدارة ظاهر العمر فإن ما جمعه فى أربعين سنة قد جمع غيره من حكام الأقاليم مثله فى مدة قليلة. ذكر فولنه أن على باشا المعروف بجتالجه لى الذى تولى حلب مرتين آخرها سنة (۱۱۹۳)، و كان معاصرا للجزار جمع فى خمسة عشر شهرا زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هى الفرنك الطليانى) و أنه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه إلى منظفى الغلايين. و قال غيره إن مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين ألف جنيه و يعطى الوالى ۸۳۳۰ جنيها فى السنة لنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الأموال الطائلة من الأكراد و التركمان و سائر السكان، و قد جمع منهم عبدى باشا الذى كان واليا قبل عهد

فولنه ۱۶۰ ألف جنيه فى سنة واحدة و ضرب ضريبة على كل واحد و كل صناعة.

قال بعض من عاصره: و قد فر من حلب غالب تجارها و وجوه الناس و من له شهرة و سجن الأعيان، و أن الكوسج خادمه لما خرج إلى قتال التركمان صار يخرب القرى و يسلب أموالها حتى قام أهالى حلب و حاصروه و أخرجوه من البلدة. و نقل فى أعلام النبلاء فى حوادث سنة (۱۱۹۴) أن عبدى باشا والى حلب جاء فى جيش عظيم إلى كلز لتأديب الأشقياء و أصدر أمره إلى أهل البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض و الرعايا إلى طرف الباشا و يبقى الأشقياء، فأجابوه

خطط الشام، ج۲، ص: ۲۹۹

بلسان واحد: ليس فى بلدتنا أهل عرض أصلا بل كلنا أشقياء، فزحف الوالى على البلد فحاصرها و فتحها و وقع القتل و النهب فى كلز، و هتكت الأعراض و ذبحت الأطفال. و أن الوالى أخذ يسلب أموال الناس فى حلب و فى سجونه من الأكابر و المشايخ و الاشراف خلا الرعايا و أهل الذمة مقدار عظيم، و عسكره كثير يرتكب فى حلب أنواع الرذائل، و بلغ من سوء فعل أتباعه أن كسروا غراريف بساتين حلب و دواليبها و أخشاب بيوتها و طياراتها من حدود قرية بابلا (باب اللّه) إلى قرب بستان الدباغة، و حرقوها و حرقوا أخشاب قرى البلد بأجمعها، و سلبوا متاعها و نهبوا مواشيها و تركوها قاعا صفصفا إلا ما حماه اللّه من القرى البعيدة، و جاء الوالى الجديد فنبه أن لا يحمل أحد سلاحا و كل من وجد من أهالى المحلات خارجا عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه أن يخبروا عنه ليقتله، و من شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لأحد عليه، و صار يقتل كل من أخبر بسوء حاله، و أمر الناس أن يفتحوا دكاكينهم و أرباب القرى أن يتعاطوا زراعتهم و أن ما مضى لا يعاد، و من لم يفتح دكانه ينهبها و يشنق صاحبها.

و روى فى أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذى تولى حلب بعد عبدى باشا أنه صار يأخذ بالمجان مماليك و جوارى من أصحابها قهرا، و يحضر التجار و غيرهم و يكرمهم و يقول لهم: «أنا وزير إقشعوا خاطرى، لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها غيرى» و أرسل فطلب من كل بلدا حصانا. و جاء بعده عبدى باشا و سار على أقدام سميه الأول فى الظلم و الجور على صورة لم يسبق لها مثيل، و أنشأ يأخذ بدل القرش أربعة، و صادر القوم و عذبهم و صارت حبوسه ملأى بالناس.

وصف فولنه ظاهر العمر بأنه لم تشهد له الشام مثيلا فى الأزمان الغابرة، و كان داهية باقعة فى السياسة حكيما محنكا و لكنه كان طماحا طماعا، و من محاسن صفاته أنه لم يكن يحب الاحتيال و يجاهر بما يضمر و لو قاسى من ذلك العنت، و أنه أحب المسيحيين و رفع شأنهم و عدل فى الناس.

و قال من عاصره: حكم الظواهرة البلاد نحو ثمانين سنة و امتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالا إلى أطراف جبال القدس جنوبا و من البحر

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۰

المتوسط غربا إلى جبل عجلون شرقا، و كانوا يرجعون فى أحكامهم إلى أصول العشائر حسبما توحيه إليهم ضمائرهم، و قد شادوا فى الأقاليم أبنية ضخمة فرم ظاهر العمر بعض ما تمكن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية و رفع سور عكا الداخلى، و شاد فيها جامع محلة الجرنية و بنى على فى صفد القلعة الباقى شىء من آثارها إلى اليوم، و بنى صليبى فى طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة إلى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبى و اكتسحهم، و عمر الجامع الواقع جنوب السراى، ورم عثمان قلعة قرية شفا عمرو و عمرها، و بنى أحمد قلعة تبنة، و شيد سعد قلعة دير حنا. و هذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة، و عمر فى دير حنا الجامع الموجود إلى اليوم و كان بناؤه سنة (۱۱۴۴) ه.

أولية الجزار:

أخذ الجزار بعد استلام ولاية صيدا سنة (۱۱۹۱) يقوى و تشتد شكيمته خصوصا و قد ولى دمشق مع بقاء عكا عليه، ثم استقل بولاية

عكا و أخذ يغزو متغلبة تلك الأرجاء فوقعت بينه و بين الأمير يوسف الشهابى وقعة سنة (۱۱۹۱) فى نقار السعديات بين صيدا و بيروت فلم يسلم من جماعة الشهابى إلا القليل، و أحرق عسكر الجزار المكاس و الجديدة و الدكوانة فى لبنان و قتل أناسا من أهلها، ثم وقعت بين عسكر الدولة و عسكر لبنان فى المغيثة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على أهل الجبل و قتل منهم قتلى كثيرة و أكثرهم من المتن و داهم عسكر الدولة بنى الحرفوش فى بعلبك و أحرقت الدولة زحلة. و قوى الجزار بمجيء ستمائة فارس من اللوند و كانت الدولة أمرت بقتل جماعتهم و كانوا ستة عشر ألفا، فلم يسلم منهم إلا الذين جاءوا الجزار، و لما عزم على الإقامة فى عكا ابتدأ بإصلاح أسوارها و إتقان بنيانها و جعل على كل قرية أن يحضر أهلها جميعا ثلاثة أيام فى الأسبوع بالسخرة لأجل العمارة.

و جرت حروب كثيرة بين الشيخ على بن الشيخ ظاهر العمر و عساكر الجزار حتى قتل على ما سلف، و كذلك بين الجزار و الأمير يوسف الشهابى و التقى مرة فى طريق صيدا عسكر الجزار بالنكدية و كانوا يكمنون له فقتل

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۱

الجزار أكثرهم و قبض على بعض أعيانهم، فجعل الأمير يوسف يعتذر للجزار و يستشفع فى إطلاقهم مقابل مئة ألف قرش، و لما طلب الأمير المال من الجبل أبى الأمراء الدفع فطلب الأمير من قائد عسكر الجزار أن يتلف أشجار بيروت ففعل و قتل جماعة من رجالهم، ثم سار إلى بعلبك و عظم أمره، و حينئذ خرجت بيروت من يد الأمير يوسف و دخلت فى حكومة الجزار، و اقتتل الأمير يوسف مع الجزار فانهزم فى عدة مواقع ثم تصالح الشهابى و الجزار.

و أرسل أحمد باشا الجزار (۱۱۹۱) أحد رجاله من الأكراد فى جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فحصنوها، وردوهم عنها بإطلاق المدافع فذهب الأكراد إلى بعلبك و صادروا كبار المتاولة، و لا سيما الأمير محمد الحرفوش و سجنوه، ثم شنوا الغارة على سعد نايل و قتلوا بعض سكانها و نهبوها، ثم حاربوا الدروز فى البقاع و قتلوا بعضهم و أحرقوا قرى كثيرة فى البقاع و هاجموا سغبين ثم عادوا عنها، و قد قتل منهم نحو مائتين ثم أمرهم الجزار فعادوا إليه، و كان سبب إرسالهم أن الأمراء اللمعيين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التى فرضها الجزار على اللبنانيين فى السنة السابقة. و فى سنة (۱۱۹۲) أو ۹۳ نقل الجزار مركزه إلى عكا لحصانتها. و زاد الجزار (۱۱۹۴) المكوس و المغارم على لبنان.

و فى سنة (۱۱۹۵) وقعت فتن و مناوشات بين عسكر الجزار و عسكر الأمير سيد أحمد و عسكر دمشق فى أرض قب الياس فى البقاع قتل فيها كثيرون و انتصر الجزار و وقعت وقعة فى الظهر الأحمر فى وادى التيم، و فى سنة (۱۱۹۷) استولى الجزار على بلاد بشارة بعد وقعة مع مشايخها من بنى متوال، و تسلم هونين و تبنين و شقيف أرنون، أخذ هذه القلعة الأخيرة بالأمان و قتل من بها و تسلم جباعا و باد اسم بنى على الصغير و بنى منكر. و فى هذه السنة توفى محمد باشا العظم و كان وزيرا عادلا مهابا على قول ميخائيل الدمشقى و قال المرادى:

إنه كان من رؤساء الوزراء عقلا و كمالا و عدلا و دينا و سخاء و مروءة و شجاعة و فراسة و تدبيرا و كان واسع الرأى مهابا و ضرب على أيدى البغاة و قطاع الطريق، و راقت دمشق و ما والاها فى أيامه، و صفا لأهلها العيش و نامت الفتن، و عين محمد بن عثمان باشا و كان ظالما قاسيا ثم تولى أخوه درويش

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۲

باشا ثم تولى محمد بطال باشا و كان حدثا جاهلا ليست له خبرة بالمقاطعات.

و قتل (۱۱۹۷) الوزير حسين مكى باشا والى غزة و صادرت الدولة أمواله و كان حارب بنى صخر و عرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم.

و فى سنة (۱۱۹۸) تولى أحمد باشا الجزار ولاية دمشق و فى سنة (۱۱۹۹) وقعت فتن أيضا بين عسكر الدولة و اللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين. و من جملة الفتن ما ذكروه من عصيان يوسف الجرار و تحصنه فى قلعة صانور، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل

فطمع أهل نابلس و أخذوا ينهبون الناس، فذهب الباشا و نهب بعض قراها و قتل أناسا كثيرين ثم حاصر صانور ثانية، و أصبحت مقاطعة نابلس فى فوضى و الجزار كل مرة يغزوها و يخرب فى قراها و يقتل من أهلها و لم ينل أحمد الجزار من يوسف الجرار ما كان يتطال إليه حتى مات الجرار. قال بعضهم: إن نابلس لم تبرح بعصيانها تقلق الإدارة التركية و كان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور. هذا و قد تولى حلب فى هذا القرن سبعون واليا قضى معظمهم أشهرا فى الولاية و أكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين و كان ولاة دمشق فى هذا القرن ستة و أربعين واليا كان منها نحو خمس و أربعين سنة فى حكم آل العظم.

الحكم على القرن الثانى عشر:

قرن كله ذل و مسكنة، و تقاتل و تشاحن، عرف بتغلب القيسية على اليمنية بعد وقعة عين دارة، و رجوع ابن معن إلى الإمارة فى لبنان، و انقراض دولة المعنيين بموت الأخير منهم، و ظهور بنى شهاب حكام وادى التيم بمظهر جديد خلفوا المعنيين فى لبنان، و بظهور أبناء على الصغير فى بلاد بشارة و انقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالى لبنان، و ظهور بنى العظم حكاما فى الولايات الشامية و تراجع أمرهم، ثم ظهور ظاهر العمر فى عكا و ما إليها و دوام حكومته أربعين سنة، ثم إرسال والى مصر تجريدة بقيادة إسماعيل بك و أخرى بقيادة محمد أبى الذهب و رجوع هذا عن الديار الشامية بعد أن فتحها إلا قليلا، و اعتصام الظاهر عمر بملكة روسيا و حصار أسطول الروس بعض الساحل و لا سيما بيروت، ثم ظهور الجزار الذى قرض بيت ظاهر العمر.

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۳

و الدولة قلما جهزت جيشا خاصا للقضاء على سلطة أحد المتغلبين اللهم إلا جيوشا أشبه بنجدات يوم مجىء أبى الذهب لفتح الشام، و استغاثت بأبى الذهب لتنقذ الشام من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر، اى إن الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و بابن العم على ابن عمه و تضعفهم جميعا، و معظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلكأ فى تأدية الجباية لها، و قلما سمع بأنها نحت عاملا كبيرا لسوء إدارته، و كثرة نهمته فى جمع ثروته، و العاقل المستقيم من ولاتها لا تطول ولايته كثيرا حتى يتمكن من إصلاح بعض الشؤون، و كان الولاة فى الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها إلى مراجعة الاستانة فى كل أمر، و لكن أين العامل النشيط فيهم الذى يعرف يدبر أمور الناس، و إذا تهيأ الرجل فلا تحدثه نفسه بذلك حتى يتهم حالا بإرادة الاستقلال و يشى فيه جيرانه و الطامعون فى ولايته.

أما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطا و الوسط لا يعمل عملا نافعا، و لم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء و حب العمل أمثال أبناء كوبرلى و صوقوللى فى القرن الماضى، بيد أن أعمالهم لم يصل إلى الشام منها إلا الصدى، و لم يخرج من الشام نابغة بعقله و إدارته من أرباب الإقطاعات و غيرهم كما كان فى القرن المنصرم، و جل همهم مصروف إلى دفع عادية خصمائهم من أقربائهم أو غيرهم، و كانوا دون من يأتى من الاستانة من الولاة عقلا و عدلا، و مما ظهر فى هذا القرن من النقص المحسوس قلة السكان فقلق العقلاء، و كان فى حلب قبل استيلاء العثمانيين (۳۲۰۰) قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددهما إلى أربعمائة قرية حتى إن ابن معن لم يقبل أن يتولى مقاطعة بنى حمادة لأنها خربت، و هام الفلاحون على وجوههم فى المدن و الجبال و هكذا الحال فى ولاية دمشق و فلسطين. و قال فولنه: إن سكان كسروان وحده ضعفا سكان فلسطين. و هكذا كان السكان يكثرون فى المقاطعات التى تتخلص مباشرة من إدارة الباب العالى مثل لبنان و وادى التيم و نابلس و عجلون، و إن لم تكن حالتها مما يستحب.

أما أعمال العمران فلم يقم فيها إلا قصور لأرباب الدولة أمثال قصر لأسعد باشا العظم فى دمشق و قصره فى حماه إلى غير ذلك، و قامت من المدارس مدرسة

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۴

إسماعيل باشا العظم و مدرسة سليمان باشا العظم فى دمشق، و بعض مدارس فى حلب، و لكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة

بمقیاس واسع، و تداعت المساجد و الجوامع، و لم یقم من المشاریع النافعة ما یستحق الذکر کأن القطر لا صاحب له یغار علیه، فالمتغلبة من أبنائه و القادمون من الولاة علیه، لا یهتمون لمثل هذا الشأن، و سلاطینها ضعاف إن أفلح أحدهم فعمر له جامعا و مقبرة خاصة فی دار الملک عدوه محبا للعمران، متقربا بعمله الصالح من البارى الدیان.

انتهى الجزء الثانی من خطط الشام ویلیه الجزء الثالث و أوله العهد العثمانی من سنة ۱۲۰۰

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۵

فهرست الجزء الثانی من خطط الشام

الدولة النوریة من سنة ۵۲۲ إلى سنة ۵۶۹ ۳- ۴۳

فتنة الإسماعیلیة و وقعة دمشق ۳

دخول آل زنکی الشام ۵

استنجاد بعض الصلیبیین بالمسلمین و استقرار حال دمشق ۶

خیانة صاحب دمشق و قتل أمه له ۸

توحید الحکم على ید زنکی و قضاؤه على إمارة صلیبیة ۹

الحال بعد نصف قرن من نزول الصلیبیین ۱۳

صفات عماد الدین زنکی و تولی ابنه نور الدین ۱۵

الحملة الصلیبیة الثانیة و غزوتها دمشق ۱۷

تقدم نور الدین فی فتوحه ۲۱

انحلال دولة مجیر الدین و توفیق نور الدین ۲۳

مقاصد نور الدین و فتحه دمشق ۲۵

الداعی لنور الدین على فتح دمشق ۲۸

مرض نور الدین و إبلاله و تتمة فتوحه و هزیمته فی البقیعة ۳۱

حملة نور الدین على مصر ۳۳

بعض غزوات نور الدین ۳۶

قیام بنی شهاب من حوران و حربهم الصلیبیین ۳۷

الفتور بین نور الدین و صلاح الدین ۳۹

وفاة نور الدین و صفاته الطیبة ۴۰

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۶

الدولة الصلاحیة من سنة ۵۶۹ إلى سنة ۵۸۹ ۴۴- ۶۸

أولیة صلاح الدین و الملک الصالح ۴۴

اختلاف الآراء و استیلاء صلاح الدین على الشام ۴۶

تملک صلاح الدین و محاولة اغتیاله و سر نجاحه ۴۸

فتوح صلاح الدین و وفاة الملک الصالح ۵۱

وقعة حطین و فتح فلسطین ۵۵

فتح القدس و الرملة ۵۶

بقیة الفتوح الصلاحیة ۶۰

الحملة الصلیبیة الثالثة ۶۲

مزایا صلاح الدین و وفاته ۶۴

الدولة الأیوبیة من سنة ۵۸۹ إلی سنة ۶۳۷ ۶۹- ۹۴

أبناء صلاح الدین و اختلافهم و دهاء عمهم العادل ۶۹

استئثار العادل بالملک الصلاحی ۷۲

الأحداث فی عهد العادل و اهتمامه بحرب الصلیبیین ۷۴

الحملة الصلیبیة الخامسة ۷۹

وفاة العادل ۸۰

فتح الصلیبیین دمیاط و ذلتهم بعد العزة ۸۲

اختلاف بین أبناء العادل و تقدم الکامل علیهم ۸۳

الحملة الصلیبیة السادسة ۸۷

اختلافات جدیدة بین آل العادل ۸۹

وفاة الملک الکامل و حال الشام بعده ۹۲

انقرض الأیوبین و ظهور دولة المماليک البحریة و ظهور التتر من سنة ۶۳۷ إلی سنة ۶۹۰ ۹۵- ۱۲۹

ظهور الخوارزمیة ۹۵

اختلاف بنی أیوب و اعتضاد بعضهم بالفرنج و عودة الخوارزمیة ۹۷

وفاة الملک الصالح و مبدأ دولة المماليک ۱۰۱

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۷

هولاکو التتری ۱۰۴

مقتل الملک المظفر قطز و سلطنة الظاهر بیبرس و أحداث ۱۰۹

حروب الظاهر و فتوحه ۱۱۱

وفاة الملک الظاهر و سلطنة ابنه الملک السعید ثم سلطنة المنصور قلاوون ۱۱۴

وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خلیل و إثخانه فی فرنج الساحل ۱۲۱

الحملة الصلیبیة السابعة و انتهاء الحروب الصلیبیة ۱۲۳

دولة المماليک من سنة ۶۹۰ الی ۷۹۰ ۱۳۰- ۱۵۴

فتوح أرمنیة و عصیان الموارنة بعوامل صلیبیة ۱۳۰

وقائع التتر ۱۳۴

غزوة الأرمن و الکسروانیین و تزعزع السلطنة ۱۳۹

الغزوات فی الشمال و ظهور دعوة جدیدة ۱۴۲

سیاسة المماليک مع أکبر عمالهم و وفاة الناصر و تولی المنصور ۱۴۴

خلع الملک المنصور و مقتل غیر واحد من إخوته الذین خلفوه ۱۴۶

أحداث و کوائن و عصیان و مخامرات ۱۴۸

مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده ۱۵۱

سلطنة برقوق و حالة المماليک البحرية و الشراکسة ۱۵۳

وقائع تيمور لنک من سنة ۷۹۰ إلى ۸۰۳ ۱۵۵- ۱۷۵

بداءة تيمور لنک و مناوشة جيشه ۱۵۵

القتال على الملک ۱۵۷

عوامل الخراب قيس و يمن ۱۵۷

الخوارج على ملوک مصر ۱۶۰

وفاة برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج على الملک ۱۶۳

الحرب الأولى مع تيمور لنک ۱۶۴

تيمور لنک على أبواب حلب ۱۶۶

تيمور لنک على حماة و سلمية و حمص ۱۶۸

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۸

تيمور لنک على دمشق ۱۶۸

وصف أفعال تيمور لنک فی دمشق ۱۷۰

الخراب الأعظم و أخلاق تيمور و نجاة فلسطين منه ۱۷۳

عهد المماليک الأخير من سنة ۸۰۳ إلى ۹۲۲ ۱۷۶- ۲۰۴

البلاد بعد الفتنة التيمورية و مخامرة العمال ۱۷۶

وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان ۱۷۸

الملک السكير و قتله ۱۸۳

الخليفة السلطان و سلطنة شيخ ۱۸۵

هلاک المؤيد شيخ و سلطنة ابنه فی القماط ۱۸۶

وفاة ططر و سلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباى ۱۸۸

الملک العزيز يوسف و الملک الظاهر جقمق ۱۸۹

المنصور و الأشرف و المؤيد و الظاهر خشقدم و الظاهر بلباى و الأشرف قايتباى ۱۹۰

مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية ۱۹۱

وقعة مشؤومة و أحداث ۱۹۴

أول مناوشة مع الأتراک العثمانيين ۱۹۵

وفاة الأشرف قايتباى و تولى ابنه ناصر الدين محمد ۱۹۷

الملوک المتأخرون و آخرهم الغورى ۱۹۹

سلطنة طومان باى ۲۰۰

القضاء على مملكة ذى القدرية و طبيعة دولتى المماليک البحرية و البرجية ۲۰۲

الدولة العثمانية من سنة ۹۲۲ إلى ۱۰۰۰ ۲۰۵- ۲۳۴

حالة الشام قبل الفتح العثمانی ۲۰۵

مقاتل الغوری و مقدمات الفتح ۲۰۶

صلات العثمانیین مع المماليك و وقعة مرج دابق ۲۰۸

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۰۹

قوة الغالب و المغلوب ۲۱۰

دخول السلطان سلیم حلب و دمشق ۲۱۱

مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجدید و تغیر الأحکام ۲۱۳

السلطان فی دمشق و فی الطریق لفتح مصر ۲۱۴

فتوق و غارات و تأذی السکان ۲۱۷

محاسن السلطان سلیم و مساویه و مهلکه ۲۱۸

خارجی خان أولا و ثانیا ۲۲۱

طبیعة الدولة العثمانیة ۲۲۴

کوائن داخلیة و أمراء المقاطعات ۲۲۶

مهلك السلطان سلیمان و تولی سلیم السکیر ۲۲۸

عهد السلطان مراد الثالث و حملات علی أرباب الدعارة ۲۲۹

بنو عساف و بنو سیفا و ابن فریخ و خراب البلاد ۲۳۰

حالة البلاد فی الحکم العثمانی ۲۳۲

العهد العثمانی من سنة ۱۰۰۰ إلی ۱۱۰۰ ۲۳۵- ۲۶۶

عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن ۲۳۵

عهد أحمد الأول و فتنة ابن جانبولاذ و غیرها ۲۳۸

الأمیر فخر الدین المعنی و آل شهاب و فتن ۲۴۳

عهد مصطفی الأول و عثمان الثانی ۲۴۵

عداء علی الفرنج و فتن داخلیة ۲۴۶

حملات علی الأمیر فخر الدین المعنی و غیره ۲۴۷

القضاء علی الأمیر فخر الدین المعنی ۲۴۹

فتن فی الساحل ۲۵۳

إبراهیم الأول و سفاهته ۲۵۴

فتنة وال أخرق فی حلب ۲۵۸

محمد الرابع و صدارة کوبرلی ۲۵۹

عهد سلیمان الثانی و الحکم علی الخوارج ۲۶۵

خطط الشام، ج۲، ص: ۳۱۰

العهد العثمانی من سنة ۱۱۰۰ إلی ۱۲۰۰ ۲۶۷- ۳۰۳

حال الشام أول القرن الثانی عشر ۲۶۷

دور أحمد الثانی و فتن ۲۷۰
دور مصطفی الثانی و انقراض دولة بنی معن ۲۷۱
عهد أحمد الثالث و سیاسة الدولة مع من ینکر الظلم و وقعة عین دارة ۲۷۳
فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم ۲۷۵
عهد محمود الأول ۲۷۶
فتن و مشاغب ۲۷۹
عهد عثمان الثالث و مصطفی الثالث و بعض الأحداث فی أیامهما ۲۸۵
سیرة ظاهر العمر الزیدانی و سیاسته ۲۸۶
حملة أبی الذهب علی الشام ۲۹۰
عهد عبد الحمید الأول و تتمة أخبار أبی الذهب ۲۹۴
خاتمة ظاهر العمر و ولاة حلب ۲۹۵
أولیة الجزار ۲۹۹
الحکم علی القرن الثانی عشر ۳۰۲
فهرس الجزء الثانی من خطط الشام ۳۰۵- ۳۱۰

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ–

فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جِهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹